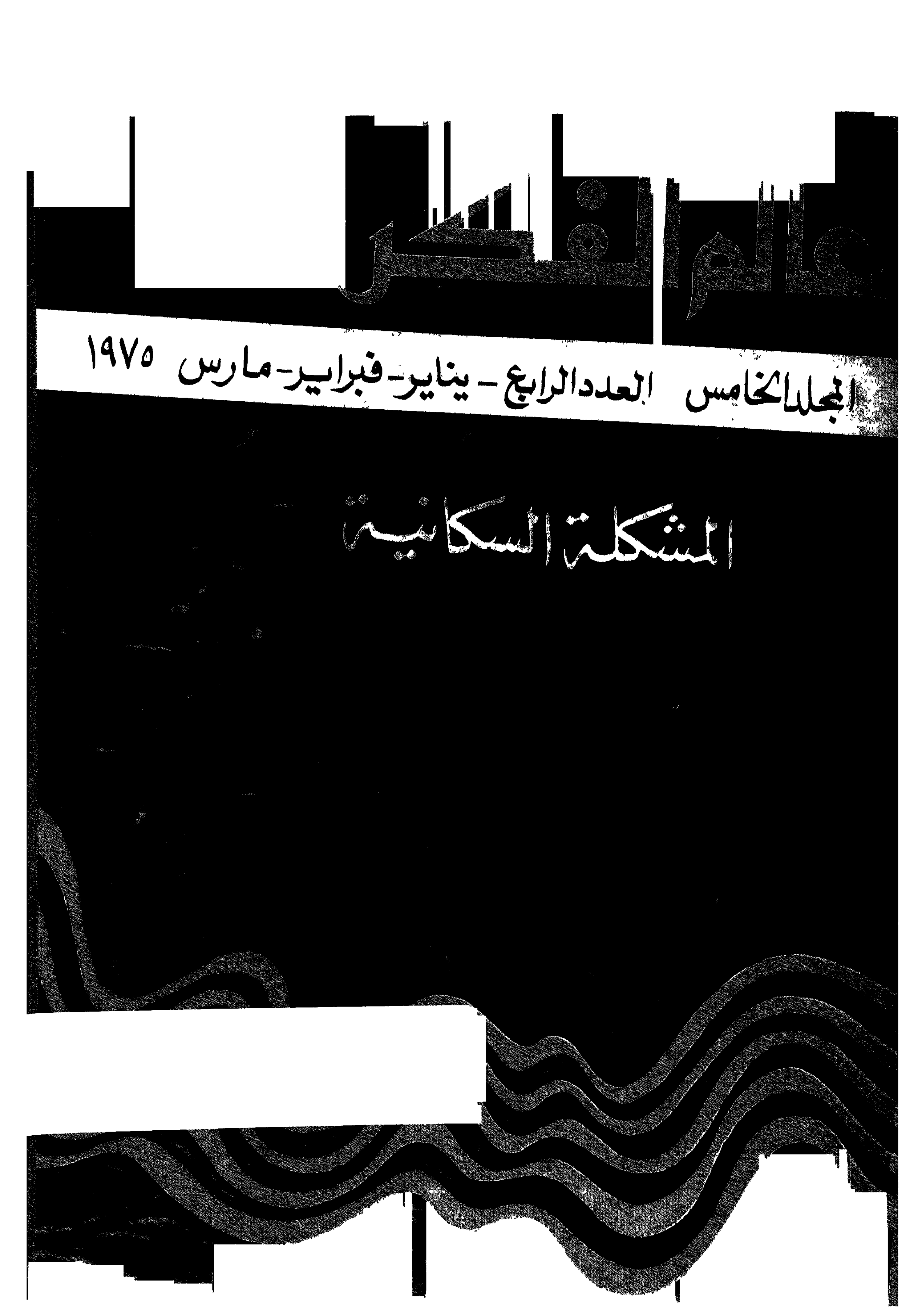
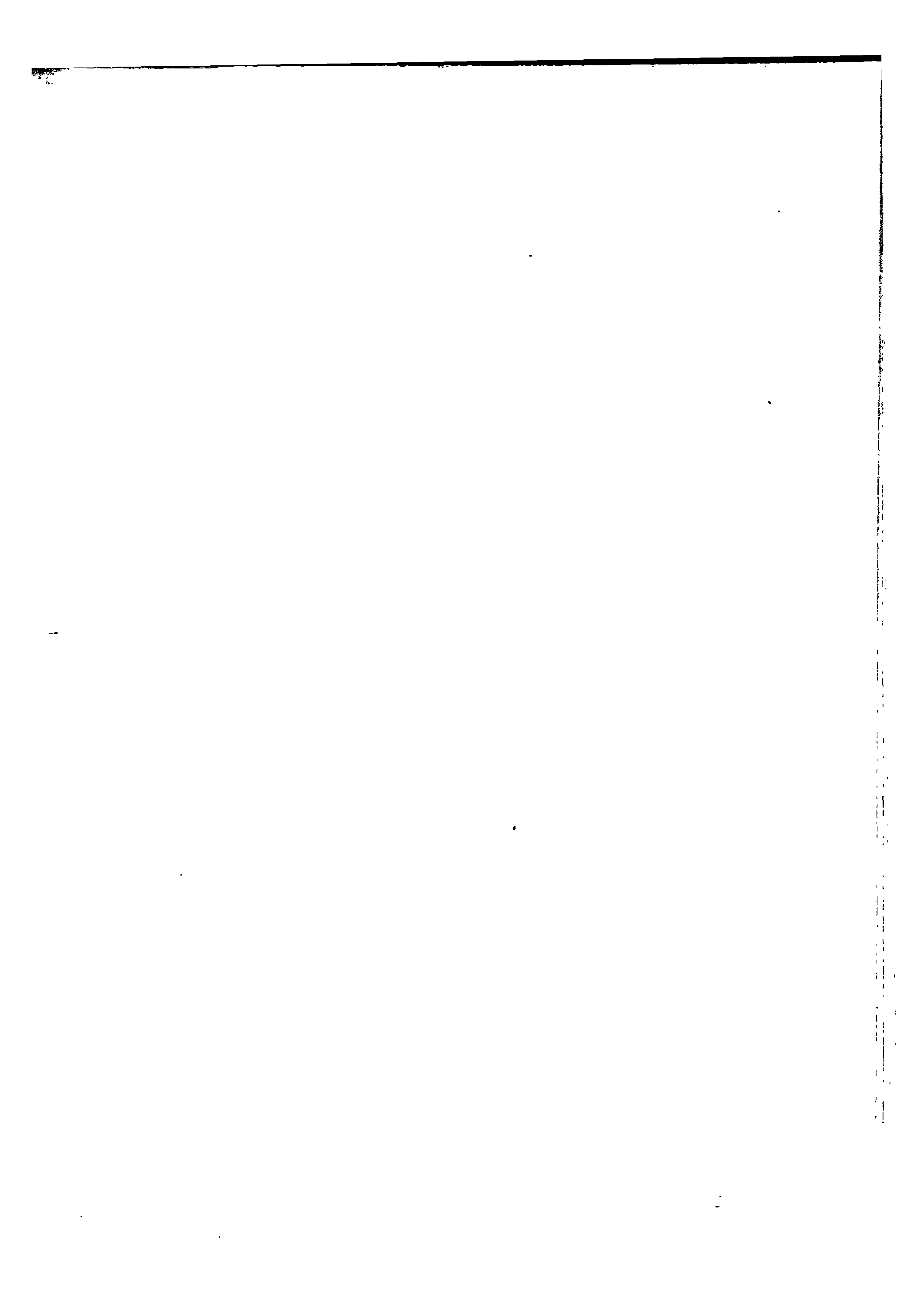


عالم الفكر
المجلد الخامس العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٥
المشكلة السكانية



عالم الفكر

رئيس التحرير : أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت ✽ يناير ـ فبراير ـ مارس ١٩٧٥
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ✽ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

المشكلة السكانية

تمهيد

ربما لم يحظ موضوع من الموضوعات المتعلقة بالانسان من الاهتمام قدر ما يحظى به الان موضوع السكان وتكاثرهم ومصيرهم ، وما يتعلق بذلك من مشكلات توفير الطعام والخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية وفرص العمل لهم ، وثمة ما يدل على ان ذلك الاهتمام أمر قديم يرجع الى أولى العصور التي لدينا عنها معلومات وثيقة مؤكدة ، فبعض النقوش والكتابات المصرية القديمة مثلا تشير الى الزيادة او النقصان في عدد السكان في مصر وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحالة فيضان النيل ، كما ان اليونان والرومان اهتموا بمشكلة تزايد أو نقصان السكان ولكن لاعتبارات مختلفة هي في الاغلب اعتبارات عسكرية وحربية ، خاصة وان المجتمع الروماني بالذات كان يعطى للناحية العسكرية قدرا كبيرا من العناية والاهتمام ، ثم انتقل ذلك الاهتمام الى كثير من فلاسفة وكتاب العصور الوسطى الذين اهتموا بالحياة الاجتماعية، وقد يكفي ان نشير هنا الى ابن خلدون الذى تعرض في مقدمته المشهورة لمشكلة زيادة

السكان والعلاقة بينها وبين العمران فى فصل يحمل عنوان (فصل فى أن تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرزق لأهلها ونفاق الاسواق انما هو تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة) وهو عنوان له دلالته ومغزاه ، الا انه يمكن القول على العموم أن المشكلة لم تدخل المجال العلمي الدقيق الا منذ القرن الثامن عشر ، وعلى الخصوص حين كتب **مالثوس** Malthus مقالته القصيرة الشهيرة عن مشكلة السكان التي لم تلبث أن تضخمت وتعمقت بعد عدة مراجعات ، بحيث وصلت فى آخر الامر الى كتاب من ثلاثة اجزاء وأن كان يحمل نفس العنوان الاصلي وهو « **مقال عن مبدأ السكان** An essay on the Principle of Population وفي **هذا** الكتاب يوجه مالثوس الانظار ــ ربما لاول مرة ــ بشكل منهجي الى اختلال التوازن بين زيادة السكان وزيادة الطعام اختلالا شديدا ينذر بكثير من الاخطار والشرور ، وفى الوقت ذاته تقريبا نجد عالم الاجتماع البلجيكي الشهير **كتيليه** Quetelet يهتم بدوره بدراسة السكان مستخدما المنهج الاحصائي للتعرف على الظواهر السكانية المختلفة ، وتعتبر كتابات مالثوس وكتيليه البداية الحقيقية للدراسات السكانية ، وان كان ثمة ميل الى اغفال دور كتيليه الذى لم يقدر لدراسته ان تجد من الذيوع والانتشار ما اتيح لكتاب مالثوس ، ومن هنا كان مالثوس يعتبر اهم من لفت الانظار الى خطورة المشكلة السكانية التي ارتبطت باسمه منذ ذلك الحين حتى الان .

ومع ذلك فانه يمكن القول ان الفضل يرجع فى آخر الامر الى العلماء الامريكيين في تطوير علم السكان ، والوصول به الى المستوى الذى بلغه فى الوقت الحالي من الدقة والعمق ، وبخاصة بعد أن بدأ عدد من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين اهتموا بدراسة الظواهر السكانية يتعرضون لجوانب جديدة لم يهتم بها علماء السكان الاوائل ، مثل التغيرات التي تطرأ على التركيب السكاني نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي ، الذى يعتبر من أهم سمات الحضارة الحديثة ، واستخدام الآلات وما ترتب عليه من ظهور علوم جديدة كان لها تطبيقاتها فى مجال الصناعة والعلم ، مثل علوم الكومبيوتر والسبرناطيقا او التوجيه الذاتي للالات ، ثم الاتجاه نحو (الاتوميشن) أو التحكم الذاتي فى الآلات ، وتأثير ذلك كله على القوى العاملة والادارة والكفاءات المختلفة فى المجتمع الصناعي الحديث ، بل وأثر التصنيع على البيئة الطبيعية وما نجم عن ذلك من تلوث الهواء والماء والتربة ، وتأثير ذلك التلوث فى البشر وفي موارد الثروة الزراعية والحيوانية . فهذه كلها مجالات جديدة تماما لم يتطرق اليها علماء الاجتماع والسكان والانثربولوجيا الا منذ الستينات من هذا القرن .

وكل هذا معناه أنه على الرغم من كل مايقال عن قدم وعراقة الاهتمام بالمشكلة السكانية ، فان الادراك الحقيقي للمشكلة فى كل ابعادها تمت معالجتها كمشكلة عالمية تواجه المجتمع الانساني باسره ، وليست كمشكلة محلية يعاني منها مجتمع معين بالذات هو امر حديث الى حد كبير جدا ، ولقد تمثل هذا الوعي أو الادراك بوجه خاص في اهتمام هيئة الامم المتحدة بها ، بحيث عقدت فى السنوات الاخيرة عددا من المؤتمرات العامة ، لعل من اهمها مؤتمر بلغراد الذى عقد فى اغسطس ١٩٦٥ ، ثم اعتبار العام الحالي (١٩٧٤) هو السنة الدولية للسكان ، وفيها عقد اكثر من مؤتمر عالمي ، وعدد من الندوات والحلقات الدراسية تناولت كلها مشكلة تزايد السكان وعلاقة ذلك على الخصوص بتوفر الطعام والنتائج التي قد تنجم عن ذلك .

ومع التسليم بأن السكان فى العالم يتزايدون بسرعة رهيبة .فان هذا لا يعني ان تلك الزيادة متساوية ومتماثلة فى كل المجتمعات أو الدول ،بل ان ثمة اختلافات وفوارق محلية واسعة يجب ان تؤخذ في الاعتبار . يضاف الى ذلك ان المشكلةالاساسية لا تتمثل فى الحقيقة فى مجرد الزيادة العددية في حد ذاتها ، بل انها تكمن بالاحرى فىاختلال معدلات الزيادة فى السكان ونمو الامكانيات الاقتصادية، ومما يزيد من وقع المشكلة أنالزيادةالسكانية تحدث بشكل أكبر فى الدول المتخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وقد وصل بعضها الى حدالانفجار السكاني فى السنوات الاخيرة ، ثم ان هذه الزيادة ليس مرجعها فى كل الاحوال الزيادةالطبيعية عن طريق الولادة وحدها ، وانما هناك عوامل مساعدة تتمثل في تقدم الطب والعنايةبالصحة والخدمات الاجتماعية ، مما ادى الى السيطرة على انتشار الامراض والاوبئة وماترتبعليها كلها من انخفاض معدلات وفيات الاطفال على الخصوص وارتفاع متوسط العمر ، ومع أنهمن أصعب الامور التكلم بدقة عن معدلات المواليد والوفيات فى المجتمعات البدائية ، وفى كثير منالمجتمعات النامية ، ومع انه من الصعب أيضا القول بما اذا كانت درجة خصوبة الجنسالبشرىارتفعت عما كانت عليه من قبل ، فان التحسن الملحوظ فى مستوى الخدمات مسئول بغير شكعن كثير من هذه الزيادة (انظر على العموم كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي عن : علم السكان ،صفحات ١ — ٧) .

وكل هذا من شأنه أن يدفع الى التساؤل :ما هو موقف العلماء من هذه الزيادة المطردة السريعة فى السكان ؟ وهل هناك موقف موحدازاء هذه الزيادة المذهلة ؟

● ● ●

الواقع أن العلماء ينقسمون ازاء هذهالمشكلة الى قسمين أو فئتين تتعارض أفكارهما ، كل التعارض ، أحدأهما مع الاخرى حول مصيرالانسان ومستقبل المجتمع الانساني اذا ظل السكان فى العالم يتزايدون بغير ضابط أو قيود ،والطريف في الأمر ان كلا من هاتين الفئتين من العلماء يعتمدون فى آرائهم وافكارهم على بعضالحسابات والتقديرات العلمية ، وعلى اعتبارات انسانية ودينية واجتماعية معا ، ولكن بينما تنظرالفئة الأولى من العلماء الى مستقبل الانسان نظرة متشائمة الى أبعد حدود التشاؤم ، تعالج الفئةالاخرى المشكلة بنظرة ملؤها التفاؤل والأمل .

وقد تكون النظرة المتشائمة هي أقدمالنظرتين ، أو على الاقل هي التي نبهت الاذهان الى مشكلة الزيادة السكانية وازدحام العالمبسكانه بشكل ينذر بالخطر . والمعروف أن زعيم هذا الاتجاه التشاؤمي هو **مالثوس** الذى نشررأيه فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، ثم لم تلبث دعوته الى الحد من تكاثر السكان أن انتشرتبين أوساط كثيرة مختلفة من العلماء والكتاب ضمت عددا من المفكرين الاقتصاديين ، ورجالالدين المسيحي من البروتستانت ، وبعض العلماء الاجتماعيين الديموقراطيين ، بالاضافة الى عددمن المحافظين الماديين . ويستند أصحاب هذه النظرة فى تبرير موقفهم من ضرورة الحد منسرعة التكاثر الى الخوف والاشفاق مما سوف يتعرض له الجنس البشرى من بؤس وشقاء وجوعوأمراض واوبئة وفقر نتيجة لاختلال التوازن بين الموارد الطبيعية وسكان العالم . ومع ذلك فالظاهرعلى ما يقول الاستاذ **سوفي** Sauvey أن ثمة بعض العوامل الأنانية الاخرى تكمن وراء هذه الدعوة ،وهي عوامل تتمثل الى حد كبير في خوف الاغنياء

من أن يضطروا الى اقتسام الموارد مع من هم أكثر منهم فقرا واشد احتياجا ، ثم ان الزيادة السكانية قد تؤدى الى ثورة الجماهير الفقيرة على الملاك واصحاب الاراضي واصحاب رؤوس الاموال ، والى تفتيت الملكيات وما يرتبط بهذا كله من حرمان الاغنياء من بعض ممتلكاتهم ، فكأن هذه الدعوة لا تصدر دائما عن الرغبة المخلصة فى تحقيق خير الانسان والمحافظة على انسانيته وكرامته من أن تهدر بسبب المتاعب التي تنجم عن تلك الزيادة السكانية غير المنظمة .

أما أصحاب النظرة الاخرى المتفائلة (وفيهم أيضا عدد من رجال الاقتصاد والاجتماع والدين من الكاثوليك الذين يحرمون وضع أية قيود على النسل أو تحديده) فانهم يرون ان هناك قدرا كبيرا من المبالغة والمغالاة فى التخوف من مصير الجنس البشرى ، وما سوف يتعرض له من مجاعات وأمراض . فلا يزال العالم فى نظرهم مليئا وزاخرا بموارد طبيعية كثيرة لم تستغل بعد ، كما أن هناك مناطق ومساحات هائلة من الارض لا تزال تغطيها الغابات والاحراش ، كما هو الحال فى افريقيا مثلا ، وتطهير هذه الاراضي الفسيحة من الغابات وزراعتها يمكن أن يوفر الطعام لآلاف الملايين من البشر ، يضاف الى ذلك الموارد الغذائية الموجودة في أعماق البحار والمحيطات والتي لم تستغل حتى الآن ، بل ان تقدم العلم سيؤدى بالضرورة الى ايجاد أنواع جديدة من الطعام الصناعي أو غير الطبيعي تتوفر فيه كل الامكانيات الغذائية التي يتطلبها الانسان ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو ان يغير البشر من عاداتهم الغذائية ، وهي مسألة يمكن تحقيقها بالتدريج وعن طريق التربية والتوجيه والتدريب .

وليس من شك فى أن المناخ الفكرى العام الذى كان يسود أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان من العوامل الاساسية التي ساعدت على ظهور تفكير مالثوس وذيوع نظريته ، فقد ولد مالثوس فى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر (١٧٦٦) واستمرت حياته حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر (توفي عام ١٨٣٤) ولقد كان القرن الثامن عشر هو عصر الفلسفات المثالية التي تمثلت في كتابات عدد كبير من الفلاسفة الاجتماعيين ، سواء فى فرنسا من امثال **كوندرسيه** Condorcet أو فى بريطانيا من امثال **وليام جودوين** William Godwin وكان هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون يؤمنون ايمانا عميقا بمستقبل الانسانية ، وان مصير الانسان زاهر نظرا لأن الفكر الانساني الخلاق يسير بطبيعته نحو الترقي والتقدم ، كما ان الحياة الاقتصادية سوف تزدهر هي أيضا بمرور الزمن تبعا لارتقاء الفكر الانساني وتقدم الكفاءات والمهارات التي يكتسبها الانسان طيلة الوقت . وهذا كله معناه أن العالم ـ فى نظر هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين ـ يسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الخير للانسان ، ونحو مستقبل يختفي فيه الفقر والجريمة والحرب والامراض ، وهى كلها شرور تنشأ فى الاصل عن انخفاض مستوى المعيشة ، وسوف يؤدى هذا كله بالضرورة أيضا الى أن يستتب الأمن في ذلك العالم ، مما يستتبع ضرورة الاستغناء عن الحكومة وما تمارسه من سلطة على الناس . فكأن المجتمع الانساني فى تقدمه الطبيعي انما يتجه لكي يصبح مجتمعا حرا طليقا لا يخضع لأى شكل من اشكال الحكومات وما يرتبط بالحكومات من شر وقهر .

ولقد كانت هذه الحركة الفكرية التي تستهدف خلق العالم المثالي أو اليوتوبيا متأثرة بالاهداف والدعاوى النبيلة التي كانت الثورة الفرنسية والثورة الامريكية تهدفان الى تحقيقها ،

وليس كتاب مالثوس فى اساسه الا نوعا من الاعتراض على هؤلاء المثاليين الاجتماعيين الذين كان يطلق عليهم عموما اسم Social perfectionists وبخاصة على آراء وليام جودوين الذى كان يعتنق نظرة مفرقة فى التفاؤل عبر عنها بوضوح في كتابه « العدالة السياسية Political Justice » الذى كان يرى فيه أن الانسان سوف يرتقي باطراد الى ان يصل الى اعلى الدرجات للنمو العقلي وطول الحياة والاكتمال الصحي ، فضلا عن خلو العالم من كل الامراض الاجتماعية من أوبئة وحروب وجرائم وفقر وبؤس وغير ذلك ، وان كل فرد فى المجتمع سوف يعمل لما فيه صالح الآخرين ، وأن الخير والرخاء سوف يعمان رغم تكاثر البشر . وفى الوقت ذاته كان جودوين يعتقد أن الغريزة الجنسية سوف تتلطف وتتهذب كثيرا نتيجة لذلك الرقي العقلي والفكرى الذى يحققه الانسان . وهذه كلها آراء اقرب الى آراء كوندروسيه الذى كان يعتقد انه سوف يمكن اشباع الغريزة الجنسية دون أن يؤدى ذلك الى ارتفاع نسبة المواليد . (راجع فى ذلك (Downs ; Books That Changed the World, Mentor Books, 1960, p.54)

وموضوع كتاب مالثوس ليس جديدا تماما ، فالمشكلة كانت قد ظهرت قبل ذلك بمدة في كثير من كتب القرن الثامن عشر نفسه كما هو الحال مثلا في بعض كتابات بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin التي ناقش فيها مشكلة نمو السكان . ومع ذلك فانه يمكن القول بحق أن احدا من هؤلاء الكتاب لم يفلح فى ابراز المشكلة بنفس القوة والاصالة والحماس التي تجدها فى الكتاب الخاص بمالثوس . اضف الى ذلك أن مالثوس كان معاصرا لآدم سميث Adam Smith وتوماس بين Thomas Paine وان كان أصغر منهما كثيرا . ولكن بينما كان آدم سميث يتكلم في كتابه الشهير « ثروة الامم The Wealth of Nations » عن اسباب الغنى والثروة وطبيعتها ، كان كتاب مالثوس يتكلم عن اسباب الفقر وطبيعته ، ومن هنا يمكن القول أن كتاب مالثوس يكمل بشكل أو بآخر كتاب سميث الذى كان قد ظهر قبل ذلك باثنين وعشرين عاما ، أو هو على الاصح يعالج المسألة من زاوية مغايرة .

●●●

ويرتكز كتاب مالثوس على مسلمتين اساسيتين هما : ان الطعام لازم لوجود الانسان ، وان الغريزة او الرغبة الجنسية هي ايضا لازمة لوجوده وسوف تظل محتفظة دائما بقوتها . والواقع ان كل المثاليين يسلمون بالمسلمة الأولى ، ولكن بعضهم مثل جودويين كانوا يظنون أن الرغبة الجنسية سوف تخف وتتضاءل الى حد كبير جدا بمرور الزمن وارتقاء الفكر الانسان . ولقد لاحظ مالثوس ردا على ذلك انه على الرغم من كل ماحققه الانسان من تقدم ورقي منذ كان فى حالة الوحشية أو الهمجية الأولى ، فانه لم يطرأ اى تغيير على رغبته الجنسية ، اذ يبدو انها لا تزال الآن على نفس الدرجة من القوة التي كانت عليها منذ اربعة آلاف سنة مثلا (راجع Downes, op.cit., p. 55) .

من هاتين المسلمتين وضع مالثوس مبداه الاساسي الذى تقوم عليه نظريته ، وهو ان خصوبة الانسان وقدرته على التناسل أقوى واشد من خصوبة الارض وقدرتها على انتاج الطعام للانسان ،

وعلى ذلك فانه اذا لم توضع قيود وضوابط على عملية الانسال فسوف يتزايد البشر بمعدلات تفوق كثيرا زيادة الطعام ، وقد عبر عن ذلك في عبارته الشهيرة التي صاغها في شكل حكم عام من **أن السكان يتزايدون في متواليات هندسية بينما يزداد الطعام بمتواليات حسابية** . وقد ابستند مالثوس في ذلك على دراسته بعض الاوضاع السكانية في امريكا وبريطانيا ، فقد لاحظ مثلا أن سكان امريكا في ذلك الحين قد تضاعفوا خلال جيل واحد (اى خلال خمسة وعشرين سنة) رغم عدم ادخال المهاجرين اليها في الحسبان . الآن بعض العلماء يرون أن مالثوس قفز قفزة واسعة جدا في الوصول إلى ذلك التعميم الكلي الذى لا يستند الى مبررات كافية ، لأن امريكا نفسها كانت تمر بمرحلة استثنائية في تاريخها .

وحين أراد مالثوس تطبيق هذا المبدأ على بريطانيا اخذ في الاعتبار مسألة توافر الطعام وامكانية زيادة انتاجه ، فوجد أنه اذا استغلت كل الارض القابلة للزراعة أحسن استغلال وبأحدث الطرق فان انتاج الطعام سوف يتضاعف ايضا في السنوات الخمس والعشرين الاولى ، ثم تبدأ المتاعب في الظهور بعد ذلك ، فبينما يتضاعف السكان مرة ثانية فيصبحون اربعة أضعاف ما كانوا عليه في أول الامر قبل خمسين عاما فان الطعام يزيد الى ثلاثة أضعاف فقط . وبعد خمس وعشرين سنة أخرى يتضاعف السكان مرة اخرى فيصبحون ثمانية أضعاف ما كانوا عليه في الاصل بينما يزداد الطعام الى اربعة أضعاف الاصل فحسب . وبعد قرن كامل من سنة البدء يكون السكان قد بلغوا ستة عشر ضعفا عما كانوا عليه بينما يكون الطعام خمسة أضعاف فقط وهكذا ، على ما يظهر من الجدول البسيط التالي :

السنة	١	٢٥	٥٠	٧٥	١٠٠	١٢٥
الزيادة السكانية	١	٢	٤	٨	١٦	٣٢
الزيادة في الطعام	١	٢	٣	٤	٥	٦ (الخ)

وواضح من ذلك مدى اتساع الفجوة واختلال التوازن بين الموارد الغذائية وعدد السكان بمرور الزمن ، وبصرف النظر عن مدى دقة هذه الحسابات وعما اذا كان السكان يتزايدون بالفعل بنسب هندسية دقيقة ويتضاعفون كل خمسة وعشرين عاما بينما يزيد الطعام بنسب ومتواليات حسابية ، فالذى يهم هنا هو أن المبدأ العام نفسه يتسم بدرجة عالية جدا من الصدق ، ونعني بذلك أن الهوة بين السكان والطعام تزداد اتساعا طيلة الوقت . وهذا هو المبدأ الذى يجب ان نضعه نصب اعيننا حين نعالج هذه المشكلة . **وهذا هو ما تنبه اليه الدراسات المختلفة التي يضمها هذا العدد من المجلة** فالفارق الهائل بين الزيادة السكانية وزيادة الموارد الغذائية هو السبب في معظم الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية . والواقع أن هذا الامر يعتبر من اهم المسائل التي يوليها علماء التخطيط والتنمية وبالذات في المجتمعات المتخلفة والنامية ـ معظم اهتمامهم حتى وان لم يقبلوا نظرية مالثوس بحذافيرها .

ومن الصعب على المجتمع ـ أيا كان ـ ان يقبل استمرار ذلك التفاوت او تلك الهوة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام، ومن هنا كان لا بد من وجود بعض العوامل التي تعيد ذلك التفاوت الى الوضع الطبيعي أو العملي المقبول . ولقد كانت هناك دائما عوامل كثيرة جدا خارجية أو (ايجابية) على ما يسميها مالثوس وبعض معاصريه لا تخضع فى الاغلب لارادة الانسان ، وتلعب دورا هاما فى تضييق تلك الهوة والفجوة مثل الأوبئة والامراض والكوارث الطبيعية التي تبيد اعدادا كبيرة من البشر . ولكن الى جانب ذلك كثيرا ما كانت المجتمعات الانسانية تلجأ الى الحروب لحل مشكلة زيادة السكان بالنسبة للطعام، انما الاهم من ذلك والاكثر هي تلك العوامل التي تخضع لارادة الانسان وترتبط بهاويتحكم فيها العقل البشرى ، وهي فى أغلب الاحيان عوامل « وقائية » أو « سلبية » تتمثل بأفضل صورها فى الامتناع الاختيارى عن الانجاب، ولقد كان مالثوس يعتقد أن الانسان يمكنه ان يتحكم في نسله عن طريق تأجيل الزواج الى سن متأخرة حتى يستطيع الفرد أن يهيىء لنفسه وضعا اقتصاديا يسمح له بأن يكفل أسرته بعد الانجاب . ولقد طبق مالثوس ذلك المبدأ على نفسه فلم يتزوج الا فى سن الثامنة والثلاثين وهي سن متأخرة ـ على الاقل بالنسبة للسائد فى العصر الذى عاش فيه . « فكأن العزوبية » كانت في رأيه هي أفضل وسيلة فعالة لحل تلك المشكلة رغم ما فيها من خروج على الطبيعة الانسانية وتنكر لها .

ولقد ذهب مالثوس فى هذا الطريق الى أبعد مما ينادى به الكثيرون من المهتمين بالمشكلة السكانية وضبط النسل وسياسة الملاءمة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية، واقترح ـ الى جانب رأيه في ضرورة تأخير الزواج وبخاصة بين الطبقات الفقيرة حتى سن متأخرة ـ كثيرا من الاقتراحات التي لا تخلو من التطرف بل ومن القسوة والتنكر لكثير من المبادىء الانسانية النبيلة . فقد كان يعارض كل ما من شأنه أن ييسر الحياة للطبقات الفقيرة ويرى فى « قوانين الفقر » افسادا لحياة هؤلاء الفقراء ، كما ان الاحسان فى كل صوره ، سواء أكان احسانا فرديا خاصا يقدمه الافراد بدافع العطف والشفقة، أو احسانا منظما رسميا تشرف عليه الحكومة ، هي كلها أمور غير مرغوب فيها ويجب ان تحارب ، لانها تقدم للفقراء المال دون أن تزيد من كمية الطعام الذى يمكنهم الحصول عليه بذلك المال ، وهذا من شأنه أن يؤدى الى ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف المعيشة وتفاقم مشكلة النقص فى الطعام والمؤن . وعلى العموم فقد كان مالثوس يرى انه يجب عدم تشجيع الطبقة العاملة وما اليها على الانجاب مادام العمال والفقراء عموما غير قادرين على تربية الاطفال واعالتهم . ولقد كان مالثوس منطقيا مع نفسه ومع مبادئه حين عارض فكرة بناء المساكن الاقتصادية للفقراء ، لان توفر المسكن يشجع على الزواج المبكر ويؤدى بالتالي الى زيادة جديدة في السكان .

وكان من الطبيعي أن تجد هذه الآراء ترحيبا من جانب فئات كبيرة من الاغنياء فى بريطانيا ، وأن تقابل بكثير من الحماس من بعض الطبقات الحاكمة ومن كبار الملاك والاقطاعيين وأصحاب

رؤوس الاموال ، لأن مالثوس زود هذه الجماعات بحجة ترد الفقر العام الشامل ، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي الى الزواج المبكر وكثرة الانجاب بدلا من ردهما الى سوء توزيع الثروة على ماكان يذهب اليه كثير من المفكرين الاشتراكيين . الا أن هذه الآراء تعرضت الى جانب ذلك للنقد والمعارضة من كثير من البيئات والفئات : من رجال الدين المحافظين ، والفلاسفة الاجتماعيين ، ورجال الحرب وبعض الراسماليين المحافظين ، الى جانب الاشتراكيين الراديكاليين .

كان الاشتراكيون الراديكاليون من أمثال **وليام طومبسون** William Thompson يرون أن مالثوس تجاهل الاسباب الحقيقية لبؤس الفقراء وسوء حالهم ، وهم الذين يعيشون على البطاطس فحسب ويؤلفون غالبية السكان فى بريطانيا ، بل وغالبية الجنس البشرى في أى زمان وأى مكان . ولقد وصف هؤلاء الاشتراكيون الراديكاليون افكار مالثوس بأنها أفكار سخيفة وتافهة وقذرة ، وتنم عن قدر كبير من السذاجة والغفلة والغباء . اما رجال الدين فانهم كانوا يرون فى كتابات مالثوس وآرائه خروجا على الدين وتعاليمه ، وانكارا لقدرة الله الخالق وتمردا على ارادته فى عمران الارض . وهذا الموقف من رجال الدين فيه اتهام خطير بالنسبة لرجل تخصص أصلا فى اللاهوت وشغل أحد المناصب الدينية .

وكان هجوم العسكريين على آراء مالثوس نتيجة منطقية لاشتغالهم بالحرب التي تحتاج لأكثر ما تحتاج الى البشر الذين يعتبرون هم (وقود) المدافع أو (علف) المدافع حسب تعبير **دوانز** . فأى تحكم فى السكان عن طريق التحكم فى المواليد معناه حرمان رجال الحرب من أهم اداة في كسب الحرب التي تحتاج الى موارد متجددة من الشباب القادرة على حمل السلاح . ومن الظريف أن نذكر هنا ما قاله **فردريك الاكبر** حين نصحه أحد رجال الدين بعدم المغالاة والمبالغة فى الانفاق على الجيش البروسي ، وأن الله مع الجيش ومع الشعب ، اذ رد عليه فردريك بقوله انه واثق كل الثقة من عون الله ، ولكنه يعرف أيضا أن الله يحب أن يقف بجانب الجيش الضخم الجرار .

الا ان اعنف هجوم على آراء مالثوس جاء من العلماء الفلاسفة الاجتماعيين الذين كانوا يعنون ــ أو بعضهم على الاقل ــ بدراسة واقع الانسان ومصيره وقدرته ، وكانوا يؤمنون ايمانا كبيرا بكرامته وقدرته الخلاقة التي تستطيع تطويع الصعوبات وتذليلها . كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرون أن موارد الطعام ليست محدودة الى ذلك القدر الذى يذهب اليه مالثوس ، وان ثمة على ما سبق أن ذكرنا ــ مجالات واسعة عريضة لانتاج الطعام المتنوع الوفير ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو زراعة الاراضي التي لم تزرع بعد ، والعمل على زيادة انتاج الاراضي المزروعة فعلا عن طريق الاستعانة بالمخصبات المختلفة ، والاستفادة بما أحرزه العلم من تقدم فى هذا المجال . فتصور مستقبل الانسان على أنه مستقبل مظلم اعتمادا على بعض الافكار المتعلقة بتناقص الطعام بالنسبة للافواه الجائعة ، والخوف من حدوث المجاعات فيه حكم على الانسان بالفشل وعلى

قدراته بالنضوب والقصور والعجز ، اى ان فيه كفرانا بقدرة الانسان الخلاقة المبدعة المبتكرة ، والشواهد على العموم انه كلما نضب مورد للطعام أمكن للانسان ان يكتشف موارد اخرى جديدة . وهذا الموقف متأثر بفلسفة وآراء القرن الثامن عشر التي تجد اقوى صدى لها في كتابات كوندورسيه عن امكان تحقيق التقدم بغير حدود * . ولقد كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرمون نظرية مالثوس بضيق الأفق على اعتبار انها تنظر الى الامور من زاوية ضيقة للغاية ، وتجعل حجم السكان يتوقف بطريقة مباشرة ، وتكاد تكون مطلقة على موارد الطعام وليس على الموارد الطبيعية في عمومها . ومع التسليم باهمية الطعام فى تحديد حجم السكان فان ذلك الحجم يتزايد ايضا نتيجة لزيادة ووفرة الموارد الاخرى، وتوفر فرص العمل وكثرة الاختراعات ، وهذا هو ما حدث فعلا فى القرن التاسع عشر — قرن الثورة الصناعية بحق . وربما كانت غلطة مالثوس كما يقول هؤلاء العلماء الفلاسفة ، هي انه لم ينظر الى العالم كوحدة يمكن ان يعوض النقص فى مجتمع ما فى جانب ما بما يوجد في مجتمع آخر وفى جانب آخر ، وهذا معناه أن نظرة مالثوس قد تصدق على مجتمع معين بالذات ، ولكن من الصعب قبولها بالنسبة للعالم أجمع كوحدة .

بيد ان كل هذه الانتقادات والاعتراضات لم تمنع آراء مالثوس وافكاره من أن تنتشر وتذيع ، ومن ان تؤثر فى عدد كبير من الكتاب والمشتغلين في المشكلات الاجتماعية وليس فقط بمشكلات السكان . وقد ساعد على قبول تلك الاراء مالاحظه هو نفسه من ناحية وكثيرون غيره من ناحية اخرى من ان معدلات الولادة تنخفض كلما تقدم المجتمع وزاد نصيب اعضائه من التعليم ، وكلما استطاع ان يحقق مستويات اعلى من التقدم الاقتصادى . وربما كان اول مظهر عملي لمدى تأثير آراء مالثوس هو قيام بريطانيا باجراء اول تعداد عام للسكان فيها عام ١٨٠١ ، اى بعد ظهور كتاب مالثوس بثلاث سنوات ، وذلك بعد آن كانت فكرة اجراء التعداد تقابل بكثير من المعارضة والاستنكار بل والرفض . وكان لهذا التعداد فى ذلك الوقت بالذات دلالة عظمى لان بريطانيا كانت مقبلة على بوادر الثورة الصناعية ، وانه كان لابد ازاء ذلك من التعرف على نوعية القوى العاملة فى ذلك الحين . ومن هنا يمكن القول إن كتاب مالثوس كان له دخل — ربما بشكل غير مباشر — فى التخطيط لمستقبل بريطانيا الصناعي رغم ما قد يبدو فى هذا القول من مبالغة .

---

* رد مالثوس على ذلك بالالتجاء الى المبدأ المعروف بمبدأ العائد المتناقص او الغلة المتناقصة Principle of Diminishing Returns فى الزراعة (بل وفى مختلف مجالات النشاط البشرى) . ففي بداية مراحل التطور والتنمية نجد ان استخدام الوسائل التكنولوجية يعطي عائدا متزايدا (وخير مثال لذلك فى رايه هو ان استعمار اى منطقة جديدة تؤدى الى زراعة مساحات جديدة واستغلال ما بها من موارد) ولكن بعد الوصول الى نقطة معينة تبدأ الحقول تفقد خصوبتها وقدرتها وجودتها شيئا فشيئا وبذلك يقل العائد او الغلة بالتدريج ، وكثيرا ما يضطر السكان ازاء ذلك الى ان يهجروا الارض تماما . وتكرار هذه العملية قد يؤدى آخر الامر الى اختفاء الارض الصالحة من الوجود تماما .

بل الواقع ان تأثير كتاب مالثوس تعدى مجال البحوث السكانية الى مجال العلوم الطبيعية ذاتها . وربما كان افضل مثل لذلك هو ما اعترف به **داروين** Darwin نفسه صراحة من تأثره بذلك الكتاب . والمعروف ان التعبير الشائع « الصراع من اجل البقاء Struggle for Existence » الذى يعزى عادة الى داروين ، كان قد استخدمه مالثوس في الاصل ، وقد اوحى ذلك التعبير الى داروين برأيه فى ان الخصائص الجيدة تبقى وتستمر ، بينما تتضاءل الصفات والخصائص الضعيفة وتتراجع الى ان تختفي تماما ، مما يساعد فى آخر الامر على ظهور انواع جديدة لها صفات قوية . وهذا هو أساس نظرية داروين في التطور . وهذا القول نفسه يصدق على **الفرد رسل والاس** Alfred Russell Wallace الذى يعترف هو ايضا بتأثر نظريته التطورية بكتاب مالثوس .

• • •

والمهم من هذا كله هو ان كتاب مالثوس عن « مبدأ السكان » يعتبر نقطة تحول جذرى فى الفلسفة الاجتماعية وفى توجيه الاذهان الى المبدأ الاساسي العام الذى لا يزال هو ركيزة اية محاولة للتنمية فى المجتمع الانساني حتى الان ، ونعني بذلك مبدأ التوازن بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية على ما تكشف عنه الدراسات المنشورة فى هذا العدد .

ولكي نعطي فكرة عن مدى الزيادة الهائلة السريعة في سكان العالم وبخاصة فى المجتمعات النامية يكفى ان نذكر ان تعداد السكان فى العالم فى عام ١٩٦٠ كان ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) مليون نسمة ، وتدل بعض التقديرات المبدئية ان هذا العدد سوف يرتفع قبل نهاية هذا القرن الى ٥٨٠٠ مليون نسمة ، بينما تذهب بعض التقديرات الاخرى الصادرة من هيئة الامم المتحدة الى ان العدد سوف يكون حوالي ٦٣٠٠ مليون نسمة ، وذلك في الوقت الذى تذهب فيه بعض معاهد الابحاث السكانية فى امريكا الى التنبؤ بان تلك الآلاف الثلاثة من الملايين التي كانت تعيش عام ١٩٦٠ سوف تتضاعف خلال الاربعين سنة من عام ١٩٦٠ الى عام ٢٠٠٠ مرتين ونصف مرة تقريبا ، وبذلك فان سكان العالم فى تلك السنة سوف يكونون ٧٤١٠ مليون نسمة ، ولكن هذه الزيادة لا تسير بنفس السرعة فى كل المجتمعات الانسانية بل تختلف معدلات الزيادة من مجتمع لاخر كما سبق ان ذكرنا ، وانها ستكون اكثر ارتفاعا فى المجتمعات النامية والمتخلفة عنها فى المتقدمة ، او بالاحرى المجتمعات الصناعية الحديثة . فالزيادة السكانية في العالم ككل هي ١٫٧٪ سنويا ولكنها لا تصل فى المجتمعات الصناعية الحديثة الى اكثر من ٠٫٧٪ بينما هي ترتفع فى المجتمعات النامية والمتخلفة الى اكثر من هذا بكثير بحيث تتراوح بين ٢٪ ، ٣٫٥٪ . وفي مصر بالذات ـ على سبيل المثال ـ نجد ان معدلات الزيادة تدور حول الرقم ٢٫٦٪ سنويا وهي اعلى من النسبة الموجودة فى كثير من بعض البلاد المتخلفة الاخرى كالهند مثلا . والدراسات

والبحوث المنشورة هنا مليئة بالارقام ذات الدلالة، وقد لا تتفق تلك الارقام والتقديرات بعضها مع بعض، ولكنها تشير الى مدى خطورة الوضع فى العالم بالنسبة لتزايد السكان والى ضرورة العمل على التحكم فى تلك الزيادة بشكل او بآخر ما دامت الزيادة فى الطعام وفى الموارد الطبيعية لا تتناسب مع الزيادة السكانية، ويدخل في « الموارد » هنا الموارد المستغلة بالفعل والتي لا تزال فى باطن الارض، واستخدام الطاقة غير البشرية على السواء .

والغريب فى الامر في هذا الصدد انه بينما يدرك الجميع خطورة هذا الاختلال فى التوازن بين السكان والطعام، وضرورة العمل على اعادة التوازن المفقود اما عن طريق الحد من الزيادة السكانية واما عن طريق العمل على زيادة انتاج الطعام وحسن استغلال الموارد الطبيعية، وبينما تتعرض شعوب كثيرة فى العالم لخطر المجاعات التي بدات تهدد الانسان من جديد نجد ان الحكومة الامريكية مثلا فى بعض الاحيان تدفع مبالغ كبيرة من المال للفلاحين مقابل عدم قيامهم بزراعة مواد غذائية جديدة نظرا لان المخازن فى تلك المناطق الزراعية تضيق بكميات الطعام الهائلة المكدسة فيها والتي تبلغ قيمتها بلايين الدولارات . وهذا لا يعني ان الولايات المتحدة تخلو من وجود مشكلات سكانية خاصة بها وان كانت هذه مشكلات من نوع مختلف، فليس من المحتمل أن تتعرض الولايات المتحدة للمجاعة مثلا نتيجة لاكتظاظها بالسكان مثلما يحدث فى بعض جهات العالم الاخرى، ولكن المؤكد هو ان اسلوب الحياة هناك ومستوى المعيشة معرضان للخطر لان النمو السكاني خليق بان يلتهم كثيرا من المزايا الاجتماعية التي حققتها امريكا حتى الان، نظرا لما يحتاجه الوضع من نفقات باهظة تنفق على الخدمات المختلفة التي يتطلبها عدد السكان المتزايد .

والظاهر ان الميل العام في كثير من المجتمعات التي تعاني من المشكلة هو نحو الاتجاه الى العمل على التحكم فى النسل وضبطه عن طريق ابتكار وسائل يتحكم بها في معدلات الخصوبة والمواليد مثلما امكن التحكم فى معدلات الوفيات من قبل . ومع ان هناك من يرى فى الهجرة حلا لمشكلة الزيادة السكانية فان ذلك فى الحقيقة حل جزئي فقط، قد يؤدى الى اختفاء المشكلة من المناطق المكتظة بالسكان فى الريف مثلا، وذلك فى حالة الهجرة الداخلية من الريف الى المناطق الحضرية، او اختفاء المشكلة فى دولة من الدول التي تعاني من الزيادة السكانية وذلك في حالة الهجرة الخارجية الى دولة اخرى او مجتمع آخر غريب يحتاج الى الايدى العاملة، ولكن الهجرة ليست حلا جذريا للمشكلة ككل، اذا نحن اعتبرناها مشكلة عالمية وليست محلية . بل أن الهجرة ذاتها، وبخاصة الى المناطق الحضرية، كثيرا ما تخلق مشاكل من نوع جديد مثل ازدحام المدن وزيادة البطالة وانتشار الجرائم وظهور المناطق السكنية المتخلفة، بل وكبر حجم المدن ذاتها الى حد يفوق كل ما هو معروف عن المدينة بالمعنى التقليدى القديم للكلمة وظهور ما يعرف باسم « **المدينة العملاقة** Megalopolis بكل ما فيها من تعقيدات، خاصة وان المدينة العملاقة ليست فى

حقيقة الامر سوى اقليم متسع يشمل عددا من المدن الصغيرة المتجاورة والتي تعتبر كل منها مركزا حضريا تدور في فلكه بعض التجمعات القروية او نصف الحضرية التي تمد ذلك المركز الحضرى بحاجاته من الطعام وبعض السلع الاخرى في الوقت الذى يقوم ذلك المركز الحضرى نفسه بتوفير ما تحتاجه تلك المناطق والتجمعات الريفية من خدمات متنوعة . وهذا على اى حال يؤدى الى ظهور انماط واشكال جديدة من المشكلات السكانية التي تعالجها احدى الدراسات فى هذا العدد .

والدراسات التي ننشرها هنا لاتحيط بالمشكلة السكانية من كل جوانبها . فهناك مظاهر ومشكلات فرعية عديدة لا تقل اهمية عن تلك التي تتناولها البحوث المقدمة فى هذا العدد من المجلة . والامر يحتاج بغير شك الى عودة اخرى لهذا الموضوع الحيوى فى اعداد تالية وفى دراسات متفرقة تتناول تلك المشكلة كما تتمثل فى المجتمعات النامية بوجه عام ومجتمعنا العربي بوجه خاص .

* * *

عبد الكريم اليافي

الهجرات وتحركات السكان

ينشط الناس في مجتمعاتهم ضمن اطاري الزمان والمكان ، لا يستطيعون ان يخرجوا عن قيودهما طوال حياتهم ، ونشاطهم في مجال هذين الاطارين متفاوت ، فالزمان يتحرك ويجري دون رجعة ، فينشأ عن ذلك الميلاد والعيش والتعمير حينا من الزمان ثم الوفاة . ولكنهم في ابان ذلك يشغلون حيزا من المكان بأجسامهم ، وهم يذهبون ويجيئون ، وقد يسافرون فيجوبون المسافات ، ويقطعون الابعاد ، وقد يغيرون أماكن اقامتهم . وهم في اضطرابهم خلال المكان يجري بهم تيار الزمان ، فيتخطون الاعمار عمرا بعد عمر او توافيهم المنون . فالزمان والمكان مشتبكان اشد الاشتباك في كثير من الموضوعات ولا سيما موضوع السكان ، مشتبكان اشتباك الحياة والموت .

المجتمع الانساني كيان حي ، وهو ينمو أو يضمر بعوامل عدة متفاوتة ، والعوامل التي لها هذا التاثير ويمكن قياسها بسهولة هي المواليد والوفيات والهجرة .

---

* الدكتور عبد الكريم اليافي استاذ بجامعة دمشق ، معار في الوقت الحاضر لقسم الديمغرافيا في معهد العلوم الاجتماعية في بيروت . له العديد من المؤلفات والكتب كما اشترك في عدة لجان علمية وفي مؤتمرات عالمية كثيرة .

هذه العناصر تؤلف ما يدعى « حركة السكان العامة » أو « نمو السكان العام » . وهو في الغالب موجب ، اي اكبر من الصفر ، فهو زيادة . ولكنه قد يكون سالبا في نادر الاحيان ، فهو اذ ذاك نقص .

ويمكن ان نكتب :

حركة السكان العامة = مواليد ــ وفيات + هجرة الى البلاد ــ هجرة منها .

أما المواليد والوفيات فحصيلتهما تدعى « حركة السكان الطبيعية » أو « نموهم الطبيعي » . وأما الهجرة الى البلاد ومنها فتدعي « حركة الهجرة » . فاذا اربى القدوم على النزوح دعي الفرق « فيض الهجرة » . وان نقص عنه دعي « غيض الهجرة » . وقد يراد ادراك مدى النشاط في حركة الهجرة فيصرف النظر عن جهتها اي عن الدخول الى البلد والخروج منه ويجمع القادمون والنازحون معا فيدعى المجموع حجم الهجرة .

وسنعود الى بعض هذه المصطلحات عند الكلام على قياس حركة الهجرة ، ولكن يمكن الآن أن نتعجل بعض الشيء فنضرب مثالا على تأثير هذه العوامل مجتمعة .

في بلد ما يولد انسان كل سبع ثوان ونصف الثانية ، ويتوفى آخر كل تسع عشرة ثانية ، ويدخل وافد كل دقيقة ونصف الدقيقة ويخرج نازح كل ثلاث وعشرين دقيقة . ففي هذا المثال عنصران موجبان يزيدان في الناس ، وهما المواليد والوافدون ، وعنصران سالبان منهم وهما المتوفون والنازحون . ولو تأملنا المجموع قليلا للاح لنا ان البلد يزيد نسمة واحدة في كل عشر ثوان ونصف الثانية .

بيد أن أولئك المسافرين الوافدين أو النازحين ليسوا كلهم مهاجرين . وليس السياح ولا القائمون برحلات استكشافية ، ولا الطلاب الموفدون للدراسة ولا المكلفون بمهمات قصيرة الامد ولا أمثالهم بمهاجرين . انما يتصف المهاجر بأوصاف لا يتصف بها غيره من النازحين . وهو انه قد اجمع أمره على مغادرة وطنه اما ابدا واما الى أمد غير محدود . ولا بد من اتخاذ بعض المعايير في تصنيف القادمين والنازحين . وقد أوصت هيئة الأمم المتحدة بتصنيف الذين ينتقلون من مكان الى آخر عند وصولهم في الاصناف الاربعة الآتية :

١ ــ المهاجرون الدائمون اى غير المقيمين (من رعايا البلد او الغرباء عنه) الذين ينوون المكث لفترة تزيد على السنة .

٢ ــ المهاجرون الوقتيون اى غير المقيمين الذين يريدون أن يمارسوا عملاً في بلد الوصول لسنة او اقل ، ويصنف من يرافقهم من اهليهم في الصنف الثالث .

٣ ــ الزوار الذين يرغبون في البقاء سنة اواقل دون ان يمارسوا عملا ما ، ويذكر معهم اهلوهم .

٤ ــ المقيمون (من رعايا البلد او الغرباء عنه) الذين يؤوبون بعد غيبة تتجاوز السنة .

وفى أمكنة المغادرة يصنف المغادرون علـى النسق الآتي ايضا :

١ ـ النازحون الدائمون اى المقيمون (من رعايا البلد او الغرباء) الذين ينوون الاقامة فى خارج البلد مدة تجاوز السنة .

٢ ـ المسـافرون مـن أولئك المهاجـرين الوقتيين فى التصنيف السابق (يذكر أهلوهم فى الصنف الثالث) .

٣ ـ الزوار الذين اتموا زيارتهم .

٤ ـ المقيمون (من رعايا البلد او الغرباء الذين ينوون الاقامة فى خارج البلد لسنة واحدة أو اقل من سنة .

ولا شك أن الجماعات التي تتسم بصفات خاصة فى زمن ما كاللاجئين والمنقولين والمطرودين ممن يوزعون علـى الاصناف السـابقة يلزم أن يسجلوا بصفاتهم تلك على حدة عند قدومهم أو ذهابهم .

ويستبين مما سلف ان امورا ثلاثة تقتضي الاستعلام لتحصيل التصنيف وهي محل الاقامة المعتاد ، مدة المكث او الغياب ، والعزم أو النية المتعلقة بالعمل او الشغل .

ولكن هـذه التوصـيات لا تجـري عليها الحكومات ، وان كانت بوجه عام تعتبر المهاجر من عزم على ترك بلاده لمدة تطول .

وثمة تعبير آخر عن الهجرة وهو التحرك أو « الحراك » طفق يروج فى الوقت الحاضر فى علم السكان وفى علم الاجتماع .

فى علم السكان فهو يدل على الانتقال المكاني او الجغرافي ، واما فى علم الاجتماع فيدل على تبدل الحال الاجتماعية ، كتغير الحرفة او الطبقة الاجتماعية أو غيرهما ، وقد يجتمعان فيبدل المرء محل اقامته ويبدل حرفته أو الحرفة التي اعتاد اهلوه ان يزاولوها .

والحراك اعم من الهجرة ، ولا بد لكي يكون هجرة من أن يواكبه تبدل فى محل الاقامة ، وعزم على العمل فى مكان الوصـول . وقـد نطلق لفظ الحراك على انتقال العمال من محال اقامتهم الى مجال أعمـالهم ، وعلى اختـلاف الطـلاب الى مدارسهم ومعاهدهم ، وان لم يكونا هجرة .

بحث الهجرة واسع ، وهو فى الأصل جزء من علم السكان ، ولكنه يتعلق بالتاريخ ، اذ وجدت الهجرة منذ وجد الانسـان . وحـركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ ، بل نحن العرب نؤرخ بالنسبة لهجرة مُشْرِقة فى تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد ، لأن بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة . ويتعلق بالسياسة ، فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية . ويتعلق بعلمي النفس والاجتماع لأن لها اسـبابا ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم أخرى يطـول استقصـاؤها . وهنالك هجـرة للجماد كرؤوس الاموال ، وللنبات ، وللحيوان ولا سيما الطير . ولكـن هجرة الانسـان هي أهم أنواع التحركات .

هذا الفصـل الذى نكتبه ديمغرافي بمعنى أننا نقصر النظر فيه على جوانب علم السـكان ،

فنقدم فيه نبذاً مــن هــذه الجوانب دون ادعاءالاحاطة،وسنقسمه الى اربعة اقسام. فنبحث فى القسم الأول أسباب الهجرة الخارجية والداخلية،وفى القسم الثاني آثارهما المتفاوتة ، ونعرض فى كلا القسمين العوامل الاقتصــادية والديمغرافيةوالثقافية الاجتماعية بوجه العموم . وسنرى أن بين الأسباب والآثار ارتباطا جدليا ، وان بين تلكالعوامل اشتباكا وثيقا ، وأن فعل كل منها وأثره يكونان تارة ايجابا وتارة سلبا بحسب الظروفالملابسة .

ثم نشرح فى القســم الثالث طــرق قياسالهجــرة وتخمين عناصرها ، ونتأمل فى القســم الرابع بعض اللمحات عن الهجرة فى البلاد العربية،ونختم البحث بالاشارة الى الهيئات العالمية التي تهتم بالمهاجــرين واللاجئين ، ونلحــق به معجماموجزا بالمصطلحات التي جرينا عليها ، ثم بالمراجع المفيدة فى هذا الشأن .

هذا ويجدر التنويه هنا بأن أكثر القضــاياوالاحكام التي اثبتناها نتائج بحوث حديثة كثيرة تتعلق بالهجرة ابان القرن التاسع عشر وأوائلالقــرن العشرين ، حين انطلق تدفق الهجرة من العالم القديم الى العــالم الجديد ، وحين طفقالاستعمار يكتسح بعض جوانب العالم القديم . وقد اعتمدنا فى القسمين الأولين كتابا صدر عنقسم الســكان فى هيئــة الأمم المتحدة بعنــوان « أسباب التطور الديمغرافي وعواقبه » . اما فيالوقت الحاضر فقد تغير الأمــر حين اصــبحت الهجــرة تخضــع الى حــد بعيد لتنظيم الدولواتفاقياتها .

•••

ــ القسم الأول ــ

أسباب الهجرة الخارجية

دواعي الهجرة متعددة ومتفاوتة فى المكانة ،وليس من السهل دائما تعرّفها ، وقد اجــريت بحوث كثيرة على الدوافــع الشخصــية ، ولكنالاجوبة لم تكن بالضرورة صادقة أو صحيحة ، وانما ظهرت نتائجها متصلة بالاعتباراتالاقتصاديةوالاجتماعية التي تبدو مهمة فى أعين المهاجرين . ثم ان تلك البحوث عمدت الى حركــات هجراتمعينة ، فلا يجوز تعميمها .

وتعدد الدواعي وتفاوت مكانتها لا يجعلانآثارها فى البلاد واحدة ، ولذلك لزم تتبع عواملها بشيء من التأمل والتفصــيل ، ونحن نعرض فىهذا الموجز أهم تلك العوامل التي أمكن تعيينها فى مختلف الهجرات ونصنفها كما ذكرنا فى ثــلاثزمــر :

١ ــ العوامل الاقتصــادية ٢ ــ العواملالديمغرافية ٣ ــ العوامل الثقافية والاجتماعية والسياســية . ونفرق فى الغــالب بين العواملالنابــذة التي تدفع النــاس الى تــرك مواطنهم الاصلية ، والعوامل الجاذبة التي تغريهم بالقدومالى مواطن اخرى . قد يهاجر المهاجرون لأحوالهم الرديئة فى بلادهم ، وقد تجذبهم فى الوقت نفسهمغريات فى البــلاد الأخــرى . فالنبذ والجذب يتحكمانفى تيار الهجرة ، وهما يتناوبان تلك الزمرالثلاث الآنفة .

ا ــ العوامل الاقتصادية

لا شك ان العوامل الاقتصادية أهم دواعي الهجرة ، ولكن بعض الهجرات فى التاريخ كان سببه المباشر على الاقل من طبيعة غير اقتصادية ، تعزى احدى موجات العرب قديما لخراب سد مارب ، كذلك هجرة اقوام التوتون والسامبري الى بلاد الغال والى ايطاليا نجمت عن غمر البحر جتلند حيث كانوا يقيمون . والحرب منذ العصور القديمة كانت دافعة الى الهجرة ، واضطهاد الأقليات لمختلف الأسباب حافز كبير لها على الهجرة ، ولكن حيث لا تكون اضطرابات اجتماعية ولا حروب ولا كوارث طبيعيه يكون سبب الهجرة الرئيسي الرغبة فى تحقيق مستوى حياة افضل ، وقد غلب فى العصور الحديثة بروز العامل الاقتصادي على غيره ولو ان للعوامل الأخرى بعض الأهمية .

يسعى المهاجرون على الغالب لتحسين احوال حياتهم المادية ، وتجتذبهم المناطق التي تتوافر فيها الفرص الاقتصادية الحسنة والمكاسب المالية الثرة . ولكن ليس كل من تتاح له تلك الفرص والمكاسب يرغب فى مغادرة وطنه ، ولا كل من يرغب فى مغادرة وطنه يستطيع النزوح ، ولهذا كان تأثير العوامل الاقتصاديه يجرى ضمن اطار العوامل الحضارية والثقافية والسياسية والجغرافية .

مستوى الحياة ــ كثيرا ما لوحظ ان تيار الهجرة الدولية يجرى من البلاد ذات المستوى الحيوى المنخفض نحو البلاد ذات المستوى الحيوي المرتفع ، ولكن هذا الحكم يقتضي نصيبا من الاحتراز .

ينبغي اول الأمر الانتباه لتفاوت مستوى الحياة بين فئات السكان فى البلاد ، فقد يهاجر فريق من الناس من بلاد غنية الى بلاد فقيرة اذا حسبوا ان ثرواتهم سوف تنمو بالهجرة ، وقد يوازن المزارع بين دخل مزرعته وربحه فى بلد الاغتراب ، لأن الفرق حين يكون فى صالحه أهم عنده من تفاوت مستوى الحياة فى كلا البلدين وكذلك العامل ينظر فى تفاوت الأجور بين البلاد الأصلية والبلاد المقصودة .

ثم ان المهاجر لا يبني عزمه على المقايسة بين شروط البلدين الراهنة فقط ، بل قد يستشف مستقبل تلك الشروط ، ويتأمل تبدل تلك الأحوال ، ويرجح النجاح فى اقتحام المخاطر ، ويؤثر الفوائد المؤجلة على المعجلة وان كان الواقع الراهن عنده اهم اجتذابا واغراء .

وربما نظر فى رخص الحياة ويسرها ان كان له دخل ثابت او احيل على المعاش ، أو اراد ان يؤوب الى بلاده فهو يتأمل القوة الشرائية للمال الذى ادخره بالنسبة لمستوى المعيشة .

وقد يحول مستوى الحياة المنخفض دون الهجرة اذا حجز وصول المعلومات الى الناس عن البلاد الاخرى او حملهم بانخفاضه على الصبر والاذعان ، أو عجزوا بسببه عن نفقات السفر ، وقد وجد أن تيار الهجرة من اوروبا نحو العالم الجديد قد مس أول الأمر المناطق التي تأثرت بالحياة المدنية والتجارية ، وكان مستوى الحياة فيها مرتفعا بعض الشيء على خلاف المناطق الفقيرة جدا والمنعزلة بقلة المواصلات اليها . وربما كان سكون الكتل البشرية فى آسيا نسبيا وقلة تحركها بالهجرة ناشئا عن شدة العوز والضيق .

توافر الأراضي وخصبها . – تتعلق الفرص الاقتصادية فى الزراعة الى حد بعيد بِسُبُل الحصول على أراض طيبة بسعر معقول ، وقد دفع شح الأراضي وندرتها فى بعض المناطق سكانها الى انتجاع مناطق أخرى تتوافر فيها الأراضي الطيبة ، فكان ذلك الشح داعيا للهجرة .

قلة الأراضي قد نشأ عن كثافة الفلاحين ، وقد اعتبرت بعض الدراسات كثافتهم باوروبا سبباً للهجرة كما حصل فى ايرلندة والمانيا والبلاد الاسكندينافية ابان القرن التاسع عشر وفى جنوبي اوروبا وشرقيها فى غضون القرن العشرين ، فقد سار العرف والعادة فى بعض تلك البلاد بتوزيع الممتلكات الزراعية على ورثة المالك . فكان نمو السكان جيلا بعد جيل يُفْضي الى تجزؤ تلك الممتلكات وتفتتها ، حتى غدا بعض الفلاحين بدون ارض فحملهم ذلك على الهجرة . وقد حصل خلاف ذلك فى بريطانيا ابان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فقد تجمع أكثر الأراضي بأيدى ملاكين كبار طفقوا يزرعونها بالحبوب ويحولون بعضها الى مراعي . فوجد الفلاحون والمزارعون الصغار أنفسهم مضطرين للنزوح نحو المدن أو خارج البلاد ، كذلك معظم الأراضي فى ايرلندة كانت لمالكين غير قاطنين فيها ، وكان الفلاحون فقراء أو مستأجرين لا تربطهم بالأرض الا علاقة واهية . حدث مثل هذا أيضا فى شرقي المانيا والقسم الغربي من الامبراطورية الروسية حيث كانت تسود الملكيات الكبيرة ويستحكم الفقر المدقع بين الفلاحين .

وقد ادت البحوث المبكرة لتلك الأحوال السيئة وعلاقتها بالهجرة الى الفرض التالي وهو ان النزوح تتناسب شدته طردا مع الملكيات الكبيرة وعكسا مع الملكيات الصغيرة .

كانت صعوبة الحصول على الأرض فى اوروبا ذات صبغة نابذة ، وقد دعم ذلك النبذ الى حد بعيد جَذْبُ الأراضي الأُنُف (العذراء) المتوافرة باسعار زهيدة أو مجانا فى العالم الجديد . كانت تلك الأراضي فى الولايات المتحدة قوية الاغراء فى القرن التاسع عشر ، حتى اذا استنزفت توزعها الايدى المهاجرة طفق المهاجرون ييممون وجوههم شطر كندا .

وكما فى اوروبا كذلك كان اكتظاظ السكان الزراعيين الفقراء فى آسيا داعيا لهم الى الهجرة . لقد دفع بهم البؤس الى النزوح من الصين والهند وكوريا واليابان (قبل تصنيعها) منذ منتصف القرن التاسع عشر واغراهم بالعمل فى البلاد الاجنبية حتى بأجور منخفضة وسيئة الشروط فنزحوا الى المزارع النائية والمناجم المظلمة والمصانع المرهقة . امّا آسيا نفسها فليس فيها ما يغري المزارعين بالهجرة اليها حتى لو توافرت الأراضي ، ما عدا الشطر الأسيوى من سيبريا فى الاتحاد السوفياتي . ولقد بقيت أراضي منشوريا خلافا لبقية انحاء آسيا تستدعي هجرة جاليات صينية مدة طويلة .

يدل هذا على أن توافر الأراضي وحده لايدفع الى الهجرة على مستوى عريض . فلقد كان فى الولايات المتحدة عناصر أخرى رفدت ذلك التوافر ولفتت وجوه الناس نحوها . من هذه العناصر تحرك الروّاد الأوائل نحو الغرب ، وقد مهد طريق اللحاق بهم صيادو الوحوش ، والمتاجرون مع الهنود الحمر ، والمنقبون عن المعادن والفلزات وغيرها كالذهب والنفط ، والزراع الذين تركوا مزارعهم الأولى بحثاً عن مزارع اشد اتساعا فى السهول الغربية . فاللاحقون من

المهاجرين كانوا ينزلون الأراضي الممهدة والمعروفةويسكنون في مزارع مستصلحة . ثم ساعد مدّ السكك الحديدية ، ونمو طرق المواصلات الأخرى ، ونشوء المدن على توسعة المجال الاقتصادي أمام المحاصيل الزراعية فيمنافسة العالم القديم ، وفي رواجها بالاسواق الداخلية الجديدة .

اما امريكة اللاتينية فلم تجتذب الا عدداضئيلا من المهاجرين لهدف العمل الزراعي . ولم يضرب هؤلاء في أعماق البلاد ما عدا الارجنتينعلى الرغم من توافر الأراضي الواسعة ، ومن تشجيع السلطات . الا ان نظم امتلاك الأراضيووجود الضرائب جعلت من العسير الحصول على مزارع جيدة بأسعار مغرية . ثم ان التضاريسوعسر المواصلات وصعوبة المناخ وردائته وعدم التنسيق في التثمير الزراعي وفي خطط النموالاقتصادي والاجتماعي حال كذلك دون استقرار المزارعين في تلك الأراضي الفيح الشاغرة كما عوّقالنفوذ الى اعماق تلك القارة .

واستراليا مثل آخر على ان توافر الأراضيوحده ليس كافيا لاجتذاب المهاجرين . فان ثلث اراضيها ظل خاليا ، لأن النفقات في استغلالالأراضي وانمائها اكبر من قيمتها الانتاجية ، كما أن المشاق التي لقيها الروّاد الأوائل كانتأشد منها في البلاد الأخرى .

نمو النشاط غير الزراعي . – كان نموالصناعة والتجارة وامثالها سببا طفي في تبدل احوال الهجرة على العامل الزراعي الذى برزتأهميته في القرن التاسع عشر . بل ان ازدهار الصناعة والتجارة وغيرهما من النشاط غيرالزراعي غدا الحافز الاكبر على الهجرة قبل تصرّم ذلك القرن . وحصل الأمر نفسه في اوروبا وكنداوامريكا الجنوبية وزيلندة الجديدة . وهنا لا بد من تبين عامل الصناعة حين تقوم اركانها في البلادوايضاح تأثيره الايجابي والسلبي في تدفقالنزوح .

ففي الفترة الأولى لقيام الصناعة ورواجالتجارة قد يطرأ تغيّر في النظام الاجتماعي ، وهبوط في مستوى الحياة يحملان الناس علىالهجرة . تلك هي العلّة فيما دعي « حتمي الهجرة » التي أصابت أوروبا في أعقاب الثورةالصناعية . فقد تضاءلت اهمية الحرف اليدوية امام الصناعة القائمة ، وعجز محترفوها عنالوصول الى بلغ معيشتهم فدفعهم العوز الى النزوح . كان بين النازحين من المانيا بعد منتصفالقرنالتاسععشر افواجمناصحابالحرفاليدوية والصناعات البيتية وجدوا انفسهم قاصرين عنمنافسة المصانع التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي ايضا ان تقع البطالة في المراحلالأولى من قيام الصناعة عند دخول الآلات الموفرة للعمل اليدوي فيلتمس الباهل (العاطل عنالعمل) سبيلا آخر بعيد الشقة وهو النزوح .

وعلى العكس قد تنمو الصناعة والتجارةوامثالهما في البلد الذى كان اقتصاده زراعيا لا يوفر لسكانه حاجاتهم ومؤنهم ، فاذا بهم يتحسنمستوى حياتهم وتجزل مكاسبهم ويَصدِفون عن الهجرة كما حصل لدى دول اوروبا الشماليةوالغربية في أواخر القرن التاسع عشر وتباشير القرن العشرين . فقد ضؤلت الهجرة منها علىحين تدفقت من شرقي أوروبة وجنوبيها ومن الشرق الأوسط الى العالم الجديد ، وكان هذاالتدفق معينا على تصريفسلع تلكالبلاد الشمالية والغربية وعلى زيادة ازدهارها . وغدت مدنهاالكبيرة تمتص أهل الأرياف من مناطقها الزراعية . لقد كانت المانيا تصدر المهاجرينالىالعالم الجديد،فلما تقدمت الصناعة فيها ابان الربع الأخير من القرن التاسع عشر غدت موردا سائغاً لهم مناًنحاء اوروبا .

اما فى بريطانيا فلم ينقلب تيار الهجرة فيها ،ولكنه تضاءل فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفى الوقت نفسه كثر المهاجرون اليها من ايرلندة . وكذلك كان ازدهار الصناعة فى روسيا، وقد تأخر بعض الوقت ، سببا فى اجتذاب المهاجرين اليها من البلاد المجاورة . ومثله حدث فى اليابان : كان النازحون يتدفقون منها عن طريق التعاقد مع الشركات الاجنبية . فلما تقدمت الصناعة بعد الحرب العالمية الأولى فيها جنح الكوريون للعمل فى مصانعها الفتية الناشئة التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومع ذلك بقيت اليابان فى الفترة بين الحربين العالميتين مصدرا للهجرة من ميدان الزراعة وغيره . وربما كان ذلك بدوافع غير اقتصادية كما سوف نشير الى ذلك فى موضعه .

اما الاقطار التي تستقبل المهاجرين فقد كان اتساع المدن ونشاط الصناعة فيها السبب فى اجتذاب الناس ، ولا سيما فى العقدين أو العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . لقد سُجِل اعلى معدل للهجرة الى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية مباشرة حين ازدهرت الصناعة والتجارة جداً فيها . بل قبل ذلك الوقت بمدة لا بأس بها كان المهاجرون الى الولايات المتحدة تمتصهم مراكزها الصناعيه اكثر من الأراضي الزراعية . والأمر على هذا النحو فى كندا وأمريكا الجنوبية وافريقية الجنوبية واستراليا وزيلندة الجديدة حيث يستقر المهاجرون فى المدن ، تغريهم فرص العمل وارتفاع الأجور اكثر من الأراضي الشاغرة . ويبدو مدى تحكم النشاط الصناعي والتجارى فى تيار الهجرة حين تدرس العلاقة بين التحولات السنوية لحجم الهجرة ومراحل دورة التجارة فى البلاد المقصودة .

وقد لوحظ اخيرا أن هذه البلاد دخلت فى طور جديد قل فيه اجتذابها للمهاجرين . فقد اصبحوا يجدون عقبات يعسر تذليلها فى الاقامة وفى مباشرة العمل على حسابهم ؛ اذ غدت رؤوس الأموال اللازمة جسيمة لا قِبَلَ لأكثرهم بها ، ولاسيما أن طائفة كبيرة من المشروعات التي نشأت لا يستطيع المرء أن يموّل امثالها وحده . فالذى ينوي الهجرة يجد نفسه امام احد حلين : أن يغدو فرداً من أفراد الطبقة الكادحة اما فيما وراء البحار أو فى بلد قريب من مسقط راسه . فهو يؤثر الحل الثاني وان كان مستوى حياته يبقى أدنى منه فى الأول . وقد برز من هذا التحليل سبب تمهل الهجرة العالمية فى أوائل القرن العشرين ، ذلك ان المناطق الجديدة غدا عدد سكانها كثيفا فقلت فرص العمل فيها .

تقدم وسائل النقل . ـ كان نداء الهجرة قويا حتى تغلب على مشقات السفر ووعثائه ونفقاته ولما تحسنت وسائل النقل والمواصلات حين تقدمت الصناعة والتجارة ذللت تلك العقبات المختلفة .

كان عبور المحيط شاقا وخطرا ، وكان السفر البري البعيد عسيرا وباهظ التكاليف حتى منتصف القرن التاسع عشر . كان يستغرق السفر فى القرن السابع عشر من فرنسة الى كندا نحوا من شهرين ، وكان معدل الوفيات فى الطريق يصل الى ٤٠ أو خمسين فى المائة ، ثم صار الطريق حوالي سنة ١٨٥٠ يستنزف شهرا ونصف الشهر . ثم نقصت المدة الى أسبوع سنة ١٩٣٩ وهبط معدل الوفيات الى الصفر تقريبا . كان الرحيل بالمراكب الشراعية شائعا قبل سنة ١٨٥٠ ، ولم يكد يحل عام ١٨٧٣ حتى غدا ٩٦ فى المائة من المسافرين يمتطون البواخر . كما أن التنافس بين شركات الملاحة وتطبيقها التنظيمات العامة خفضت النفقات وقلت الأخطار .

كذلك ساعد ذيوع السكك الحديدية على تيسير الأسفار ، فشقت السكك البلاد من دانيها الى قاصيها واعانت على استغلال البقاع النائية ، كما حصل ذلك فى الولايات المتحدة . ثم شُقّت الترع فكان لها قسط فى تدفق تيارات جديدة من الهجرة ، كترعه السويس وترعة باناما اذ فتحتا سبلا حديثة للتجارة . حتى الملاحة النهرية لم تعدم أثرا فى تلك التيارات .

العوامل الاقتصاديه التي تؤثر فى معدلات الهجرة السنوية : ــ تناولت بعض البحوث تفاوت معدل الهجرة العالمية تبعا لتفاوت المواسم الزراعية ولمراحل دورات التجارة . فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان عدد المهاجرين اللدين يغادرون اوروبا تابعا للموسم الزراعي . وهنا تتقدم ايرلندة أبلغ الأمثلة واشهرها على تأثير القحط . لقد ازداد سكانها فى غضون القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم وقف الازدياد بحلول سنين عجاف بعد عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ولا سيما بين ١٨٤٥ و١٨٤٧ حين اجتاح القحط موسم البطاطا ، وهي غلة يعتمد عليها الناس فى اقواتهم فابتعث تياراكثيفا من النازحين . لقد اعتبر الباحثون المجاعة التي ألمت عام ١٨٤٧ السبب الرئيسي لدفقات المهاجرين التي شرعت تحمل كل سنة مائتي الف مهاجر ايرلندى فى غضون السنين الثماني التي تلت ذلك العام . انها عجلت هجرة لا بدّ لها من ان تقع آجلا لأسباب أخرى هي اتساع الصناعة فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة وازدهار الاقتصاد فيها على حين كان مستوى المعيشة فى ايرلندة منخفضا جدا والفلاح قليل الارتباط بالأرض لسوء الملكية . وقد تغيرت الظروف فى السنوات الأولى من بداية النصف الثاني فى القرن التاسع عشر ، فتحسنت الأحوال الاقتصادية فى ايرلندا ، ومع ذلك استمرت الهجرة لا هربا من بؤس اسود ، بل ابتغاءً لمعيشة كريمة فضلى .

تلك المجاعة لم تؤثر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فى ايرلندة وحدها بل تجاوزتها الى بريطانيا ، كذلك كانت الهجرة من المانيا الى ماوراء البحار مرتبطة باضطراب الموسم . ولكن الارتباط خف ووهى بعد عام ١٨٥٠ حين تقدمت الصناعة فيها .

درس الباحثون ايضا الهجرة من السويد بين سنة ١٨٥٠ و ١٩١٠ فبدت لهم منوطة بالموسم الزراعي السنوي فى أول هذه الفترة ثم ضعفت علاقتها به بعد عام ١٨٧٠ على حين ان التقلبات الدورية للاقتصاد الامريكي بدت ذات أثر عميق فيها . وأيا كان الأمر فان العوامل الزراعية اذا ضؤل أثرها فى معدل الهجرة السنوى فهي لا تعدم أثراً ابان حقبة طويله من الزمان .

جيروم من اشهر الباحثين الذين درسوا تأثير التجارة فى الهجرات الدولية . وقد تناولت دراسته الهجرة الى الولايات المتحدة خاصة فى نصف القرن الذى سبق اعلان قانون ضبط الهجرة (اى الفترة بين ١٨٧٠ و ١٩٢٣ تقريبا) ، مع أن المؤلف يرجع حينا الى أقدم من ذلك ، أو يقتصر حينا آخر على المعلومات التي تتعلق بالفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . وقد استند فى دورات التجارة الى قرينه تتعلق باحصاءات وظائف العمل ، وبالمعطيات غير المباشرة عن العمل ولا سيما ارقام الانتاج والاسعار والاستيراد ، فوجد ان مراحل الازدهار الاقتصادى كان يوازيها او يعقبها دَفقٌ اكبر من تيار الهجرة ، وان الازمات الاقتصادية قللت عدد المهاجرين دون ان توقف تماما ذلك السيل بحيث ان الوافدين لم ينقصوا قط عن النازحين خلال الفترة التي استوعبتها الدراسه .

ولم يقتصر جيروم على تأمل آثار دورات التجارة فى الهجرة الى الولايات المتحدة بل انتبه للاوضاع الاقتصادية فى البلاد الأصلية التي يغادرها المهاجرون كبريطانيا والمانيا وايطاليا فرأى أن الحال الاقتصادية فى الولايات المتحدة هي صاحبة التأثير الأوفر على وجه العموم . ان دورات التجارة بالبلاد الأصلية كانت مشابهة فى التقدم او التأخر لأمثالها بالولايات المتحدة فى اغلب الاوقات . فاذا ازدهرت الاحوال الاقتصادية فى تلك البلاد جميعا زادت الهجرة الى الولايات المتحدة، واذا شحت فيها جميعا نقصت وضؤلت. واذا اتفق أن تفاوت الازدهار والشح بين تلك البلاد تبع تيار الهجرة حال الولايات المتحدة فى الاتساع او الضيق وفى الرخاء أو الشدة . أما الهجرة من بريطانيا والمانيا وايطاليا الى غير الولايات المتحدة فلا يوازى الخط البياني لها خط الهجرة الى الولايات المتحدة . ومن أجل ذلك يفضي جيروم الى هذه الخلاصة : وهي أن حركات الهجرة لا تتبع بالضرورة دائما الوضع الاقتصادى فى المكان الأصلي ولا فى المكان المقصود . وانما تتعلق اهمية تيار الهجرة السنوي فى ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة « النداء » الآتي من البلد المقصود اكثر منها بعامل الضيق فى البلد الأصلي .

هذا ، ومع صحة تلك الدراسة على التقلبات السنوية ، اى فى المدى القريب ، لا يمكن انكار آثار العوامل الاقتصادية فى المدى البعيد .

ولقد قام باحثون آخرون بدراسات على الهجرة فكانت نتائجهم قريبة بعض الشيء من نتائج جيروم . درس **ونسمبوس** الهجرة الايطالية الى الولايات المتحدة والى فرنسة والأرجنتين فى فترة السنين ١٨٨٨ و ١٩١٣ ، فوجد أن تقلبات دورات التجارة فى البلاد المقصودة كان لها اثر حاسم فى سعة حركات الهجرة ولا سيما فى النصف الثاني من الفترة المدروسة ، وذلك سواء وازت تلك التقلبات اشباهها فى البلاد الأصلية أو لم توازها . وكذلك جرت بحوث على الهجرة من السويد فظهر أن تيار الهجرة هذه كان تابعا للأوضاع الاقتصادية فى الولايات المتحدة لا للاوضاع الاقتصادية فى السويد . والنتيجة نفسها وجدت بالنسبة للهجرة من فرنسة الى الولايات المتحدة وان بدا لها الارتباط بعض الشيء بالوضع الاقتصادى فى فرنسة بين ١٨٨٥ و ١٩١٤ ، فان المهاجرين لم يخرجوا من بلادهم ضيقا بها ، وانما خرجوا التماسا لتحسين أحوال معيشتهم وانماء دخلهم . وهكذا كان الازدهار الاقتصادى فى البلد المقصود حافزا لهم على ركوب متن الهجرة .

بيد ان دراسات أخرى أبانت أن المهاجر لا يهاجر الى امريكا الا حين يستطيع أن يدخر نفقات سفره اليها . وهذا يستلزم شيئا من تحسن الاحوال فى البلد الاصلي لكي يتهيأ تجميع تلك النفقات . فالهجرة مثلا من ايطاليا الى امريكا اشتدت حين تحسنت الاحوال الاقتصادية فى ايطاليا ، وضعفت حين ساءت فيها وهذا كله يدل على أن ثمة وراء العامل الاقتصادى عوامل أخرى تستدعي الكشف والتحليل .

ب ـ العوامل الديمغرافية

لنمو السكان الطبيعي أثر مباشر فى العوامل الاقتصادية التي تتحكم الى مدى معين فى تيارات الهجرة العالمية ، وقد سبقت الاشارة اليه عرضا. فزيادة السكان الزراعيين تساعد على استغلال الاراضي واتساعها ، أو على العكس قد تفضي الى قلة الاراضي وضيقها وعدم توافرها . كذلك

تقدم القطاع التجارى والصناعى لا يعدم أثرا فى الهجرة من البلاد أو اليها ، وهو متعلق بعض الشيء بالارتباط الواقع بين مدى الازدهار الاقتصادى ومعدل نمو السكان .

ان الناس حين يجمعون امرهم على الهجرة او يؤثرون البقاء فى بلادهم لا يفكرون فى العوامل الديمغرافية . ولكنهم ربما كانوا خاضعين فى حلهم وترحالهم لها بعض الخضوع . بيد أن من الخطل مجرد القول ان ارتفاع النمو الطبيعي للسكان يستدعي بالضرورة هجرة من البلاد ، وأن انخفاضه (معهرمهم وزيادة الوفيات بينهم) يستدعى الهجرة اليها . نعنى بذلك أن العلاقة بين الهجرة ومعدل النمو أو غيره من القرائن الديمغرافية ليست ضرورية حتمية ، بل هي احتمالية ، على خلاف بعض البحوث التي نوهت بعلاقة دقيقة بينها فى ازمنة وامكنة مختلفة . فقد زعم بعضهم أن شدة الهجرة فى كثير من البلاد الاوروبية فى الفترة بين ١٨٥٠ و ١٩٣٠ تبعت ارتفاع نمو سكانها الطبيعي الذى سبق الهجرة بنحو عشرين سنة ، وأن الهجرة من اوروبا الشمالية والغربية والوسطى لما قلت حوالي نهاية القرن التاسع عشر وناب عنها تدفق الهجرة من اوروبا الجنوبية والشرقية كان السبب فى ذلك انخفاض نمو السكان فى البلاد الاولى لا تقدم الصناعة والتجارة ، بل فى بعض الاحيان زادت الهجرة اليها على الهجرة منها لتناقص النسل . وقد غدت فرنسة على وجه الخصوص مقصدا يقصده المهاجرون لانخفاض معدل المواليد فيها ابان عشرات السنين .

على انه قد تؤثر العوامل الديمغرافية تأثيرا عميقا فى سياسة الهجرة . ذلك أن البلاد التي تخشى نقصا فى سكانها تشجع الهجرة اليها حين يكون النقص خسارة لها فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، بل فى ميدان الامن القومي ايضا . وفى مقابل ذلك قد يكون معدل النمو الطبيعي عاليا فى بلد ما والكثافة كبيرة فيه فتشجع حكومته الهجرة منه . بيد أننا قد نجد أحوالا أخرى تشجع الحكومات فيها الهجرة الى البلاد مع ارتفاع معدل النمو متى كان الاقتصاد قليل الازدهار والاراضي وفيرة والثروات كثيرة . ذلك أن الهجرة ليست وحدها الوسيلة لزيادة الناس . فقد يشجع الزواج وتكافؤ الاسر لاتساع ذريتها وهلم جرا ، ولكن الهجرة لها مزية وهي انها أسرع فى زيادة السكان ، ثم يمكن بها اصطفاء المهاجرين بالنظر الى السن والذكورة والانوثة ، فيزاد فى العناصر الفتية والعاملة والذكور بالنسبة للشيوخ والعجزة وغير المنتجين والاناث .

ولقد كانت سياسة الهجرة التي تقصد الى أهداف الديمغرافية موضع نقاش فى كثير من البلدان . فقد درست لجنة السكان الملكية فى بريطانيا قضية الهجرة اليها لترفد بها معدل النمو الطبيعي القليل الارتفاع . وعمدت فرنسا الى فتح أبواب الهجرة لتتلافى تناقص سكانها الكامن وتقلل نسب الشيوخ وغير المنتجين . وقررت استراليا منذ حين أن تتلقى من المهاجرين نحوا من سبعين الفا كل سنة لتزيد سكانها بمعدل واحد بالمائة ينضم الى معدل النمو الطبيعي الذى هو ايضا واحد بالمائة .

وربما جاز فى البلاد التي يكون نمو سكانها الطبيعي مرتفعا أن تفتح باب الهجرة اليها : هجرة اصطفائية تختار فيها الشبان العاملين لتخفيف اعباء العيلة او الاعالة التي تمثلها كثرة الاولاد فى البلاد فتزيد بأولئك الشبان قوة العمالة فيها . كذلك يمكن تشجيع الهجرة لايجاد التوازن بين

النساء والرجال ، فان استراليا بعد الحرب العالمية أعادت التوازن بين الجنسين بادخال أفواج من المهاجرين عدد الذكور فيهم ضعفا عدد الاناث . وقد تنقلب هذه الاعتبارات فتشجع الحكومات الهجرة من البلاد . وكل ذلك لا يمكن ان ينفصل تماما عن العوامل الاجتماعية والثقافية

ج ـ العوامل الاجتماعية

كل امرىء لا بد من أن ينتسب الى شعب وأن يكون له أهلون وأصدقاء فى وطنه يتكلم معهم بلغته . انه قد اعتاد ثقافة بلاده وتمرس بالنظم السياسية والادارية والعلاقات الاجتماعية فيها . وهذه كلها عقبات تعترض فى سبيل هجرته . ربما كانت تلك العقبات قوية فى الماضي . فقلما كان المرء ينهض للتفكير فى الهجرة من دولة الى أخرى تحسينا لمعيشته ، ولكنها ضعفت فى العصر الحاضر ، ومع ذلك فما زالت قائمة شاخصة . بالاستناد الى مدى مقاومتها حاول بعض الباحثين أن يفسروا هجرة البريطانيين الى ربوع الكومنولث المتعددة . فاللغة والعادات تيسر نجعتهم كما تيسر نجعة الاسبان والبرتغاليين نحو امريكا اللاتينية ، والايرلنديين نحو الولايات المتحدة .

ومن العوامل الميسرة للسفر ايضا سهولة المواصلات والالمام باحوال البلاد المقصودة ، كما أن الجهل بتلك الأحوال وصعوبة المواصلات من عوائق الهجرة . ومتى نشأ تيار من الهجرة بين بلدين ازدادت المعلومات عن البلد المقصود واشتد ذلك التيار بالتدريج ولا سيما اذا نجح المهاجرون الأوائل فى أعمالهم ، فان نجاحهم هذا يحفز اقرباءهم وأصدقاءهم على اللحاق بهم . وربما بعث اولئك الى أهليهم بعون مادى يساعدهم على الهجرة . فقد جرت العادة فى ايرلندة اذا هاجر فتى أو فتيان منها الى العالم الجديد وفرا نصيبا من المال لنفقات هجرة الباقي من الأسرة ولاعداد اقامتهم الجديدة . ويقدر عدد الذين هاجروا بهذا العون المادى من ايرلندة الى الولايات المتحدة بنسبة ٧٠ فى المائة . فى مقابل ذلك نجد من عوائق الهجرة فى العصر الحاضر قيام الضمان الاجتماعي وتأمين مختلف الخدمات الاجتماعية فى البلاد المتقدمة . فهذه الأمور من شأنها أن تدرأ عن السكان أشباح الضيق وتخفف عنهم أعباء العيال لتمسكهم بأوطانهم . كذلك تأمين العامل من طوارىء العمل ومن المرض ومن البطالة يجعله شديد التعلق ببلده ، وخصوصا اذا لم يتوافر له مثل ذلك فى البلد المقصود البتة او لا يتوافر الابعد انفراط سنين معدودة . فالتشريع الطيب لصالح السكان وصالح العمال قد يعترض فى سبيل الهجرة او يحوّل وجهتها . عمدت بعض البلدان الى عقد اتفاقيات بينها وبين بلدان أخرى يكون بحسبها للعمال المهاجرين حقوق متساوية فى الضمان الاجتماعي لدى كلتيهما كما جرى بين المملكة المتحدة من جهة واستراليا وزيلندة الجديدة من جهة ثانية : واقامت البلاد الاسكندينافية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية « سوقا مشتركة للعمل » .

ربما يكون لبعض الشركات او الهيئات الأهلية او للبلاد نفسها مصالح فى تشجيع الهجرة من البلاد او اليها ، كاتحاد أرباب العمل وشركات النقل واتحاد العمال وجمعيات الخير والاحسان وامثالها . وقد تبوأ هذا التشجيع مكانة كبيرة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابان الهجرة الى العالم الجديد .

لقد حفزت شركات السكك الحديدية فى الولايات المتحدة الناس على عمارة الأراضي التي على جانب السكك حين انتقلت ملكيتها اليها ، وذلك بالدعاية الواسعة وتخفيض أجور السفر

وانشاء مكاتب لاستقبال المهاجرين ومساعدتهم وتيسير دفع أثمان تلك الأراضي . وكذلك كان لشركات الملاحة فى أواخر القرن التاسع عشر اثر كبير فى تنظيم الهجرة الى العالم الجديد وفى تيسيرها ، حين كانت تنشر المعلومات الوافية عن سُبُل العمل وتبحث عن الأيدى العاملة وتعين على تمويلها فى السفر . ثم منعت حكومات البلادالتي تصدر العمال مثل ذلك النشاط على تلك الشركات التي لم تكن تضع نصب أعينها مصالح العمال أنفسهم .

اما ارباب العمل فكانوا بطبيعة الحال يشجعون على الهجرة الى بلادهم الايدى العاملة المتوافرة الرخيصة والاختصاصية . ينبغي ان ننوه هنا بتلك الأيدى النشيطة التي هاجرت من الصين واليابان والهند الى بعض القارات ولا سيما العالم الجديد ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . فكانت نفقات السفر والاقامة يدفعها ارباب العمل على أن يعمل أولئك المهاجرون عندهم عددا من السنين يتفقون معهم عليه .

ثم رأت الحكومات عدم مشروعية تلك العقود فمنعتها ، بل حرم بعضها على أرباب العمل ان يأتوا بعمال من خارج البلاد .

ذكرنا آنفا ان اتحاد العمال او نقاباتهم قد تشجع على الهجرة . هذا ما حدث فى بريطانيا حين عمدت نقابات العمال فى الصناعات الاساسية الى انشاء صندوق خاص لمعونة العمال المنتسبين اليها عند هجرتهم وذلك فى سنوات البطالة أوالاضراب ، وان عجزت فى بعض الاحيان عن رفدهم بالمال . ولما توطدت مراكز تلك النقابات فى المضمار الاقتصادى والسياسي صَدَفَتْ عن تشجيع الهجرة .

لا يخفى ان سياسات الحكومات نحو الهجرة من البلاد او اليها ذات آثار كبيرة فى تلك الحركات . وذلك بما تضعه من تشريع يشجع عليها او يحصرها او يمنعها .

وربما كان من المناسب أن نذكر فى هذا السياق بعض الامثلة . لقد خصصت حكومات بريطانيا فى منتصف القرن التاسع عشر مبالغ مناسبة للحث على هجرة الفقراء منها تخفيفاً للضغط الديمغرافي فيها ، وتقويةً لعلاقات الامبراطورية بمستعمراتها . فقد سهلت السلطات المسؤولة اذ ذاك فى الفترة بين ١٨٤٧ ــ ١٨٦٩ نزوح ٣٣٩ الف مهاجر الى استراليا والى مناطق اخرى من الامبراطورية . وكذلك يسرت بعد الحرب العالمية الأولى بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣١ مغادرة أربعمائة الف شخص الى الدومنيون .

وشجعت ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية الهجرة منها ، فمنحت الشركات الايطالية بعض العون حين يكون لها مشروعات فى خارج ايطاليا تستطيع أن تستعمل فيها عمالا ايطاليين .

وكذلك فعلت حكومة اليابان فى الفترة بين الحربين العالميتين فدفعت بالمهاجرين من ابنائها الى امريكا الجنوبية والى منشوريا . وكان من اهدافها تخفيف اكتظاظ الزراعيين على أراضيها من جهة ، والتوطئة لسيطرتها الاقتصادية والعسكرية فى الشرق الاقصى . ويسجل التاريخ فى أطوائه قديما وحديثا محاولات متعددة من هذا النوع الاستعمارى .

واحيانا يحدث العكس . وهو ان البلادتضيق على الهجرة منها . وهذا ما حصل في اوروبا خلال القرن الثامن عشر ، وفي الصين منسنة ١٧١٨ الى سنة ١٨٦٠ ، وفي اليابان لم يسمح بالهجرة الا منذ عام ١٨٦٥ . وقد عقدتاليابان مع الولايات المتحدة اتفاقية بموجبها لزم خفض عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وماجاورها من المناطق . وفرضت الهند قيودا على العمال من ابنائها صوناً لهم كيلا يتعاقدوا معشركات أجنبية ، ثم منعت هجرتهم عن طريق التعاقد منذ سنة ١٩٠٢ . وأحاطت المانيا النازيةوايطاليا الفاشية نفسيهما بسياج من التدابير قلل الهجرة منهما . ومن المعلوم ان الاتحادالسوفياتي والبلاد الاشتراكية تمنع الهجرة منها حماية لرعاياها وتفهما انسانيا للعدالةالاجتماعية .

وسنرى مثل ما سبق تقريبا حين نتأملأسباب الهجرة الداخلية .

• • •

اسباب الهجرة الداخلية

تكاد تكون الاسباب التي تحفز على الهجرةمن بقعة الىأخرى في داخل البلاد مماثلة للاسباب التي تحفز على الهجرة الخارجية . فحيثماتوافرت أسباب العمل وتيسرت سبل الوظائف وارتفعت الاجور والرواتب وازدهرت المرافقالاقتصادية وجادت غلات الاراضي زراعية او معدنية او نفطية اشتدت النجعة اليها . وكذلكاذا تفاوت معدل النمو الطبيعي ، الذي هو الفرق بين معدلي المواليد والوفيات من منطقة الى أخرىفي البلاد ، فقد يستدعيهذا التفاوت تيارا داخليا للهجرة من المنطقة التي فيها معدل النمو الطبيعيمرتفع الى المنطقة الاخرى . ولما كانت البلاد واحدة يسودها نظام تشريعي وسياسي واحدوتغمرها ثقافة واحدة تقريبا ضؤل عامل الثقافة والسياسة والتشريع في هذا المجال عنه فيمجال الهجرة الخارجية .

بيد أن ثمة ضرباً من الهجرة الداخلية ذامكانة بارزة في المجتمعات . وهو الهجرة الريفية الى المدن . انها تتبع درجة تقدم الصناعة وتغيرالثقافة وتبدل نمط المعيشة ، وهذه كلها من خصائص التطور الاجتماعي الحديث في مختلفبقاع الدنيا . ولهذا نعالج هنا على وجهالخصوص هذه الهجرة الريفية ولا سيما أنها تؤلف غالبيةالهجرة الداخلية . ونجرى على النسق الذى سلف في الشطر الآنف فنلم بالعوامل الاقتصاديةاولا ، والديمغرافية ثانيا ، والثقافية والاجتماعية ثالثا ثم نشير الى أثر العوامل الجغرافية ولاسيما المسافات التي تفصل بين المناطق التي ينتابها تيار الهجرة من جهة الى أخرى .

١ ــ العوامل الاقتصادية :

لا شك أن تيار الهجرة الداخلية يخضعللآثار الاقتصادية كما في الهجرة من دولة الى اخرى . بل يبرز هذا الخضوع أشد واعمق لان الحواجز التي تحول دون الانتقال من منطقة الى أخرى في الدولة الواحدة هنا ضئيلة وضعيفة منالیسير التغلب عليها ان وجدت. ولتيسير البحث نصنف العوامل الاقتصادية ثلاثة أصناف ١ ــنابذة ٢ ــ جاذبة ٣ ــ عامة .

١ ــ **العوامل النابذة** ــ تتعلق على الغالب بالزراعة ، وتصدر عن نظام التملك للأراضي . فاذا كان فى المنطقة ملاكون كبار وعمال زراعيون يكدحون ولا ينالون الا الزهيد من الأجر أغرتهم الهجرة الى المدن للعمل فيها حيث يكون كسبهم اعلى . على انه قد تحدث هجرة ريفية فى مناطق يتملك جزءا كبيرا من الأرض مزارعون صغار . بل قد تحدث أيضا حين تكون الأراضي بايدى ملاكين صغار مستقلين ، سجلت ذلك بحوث المسح المعدة فى هذا الشأن . ويرى بعض الباحثين ان من عوامل الهجرة هذه قوانين الميراث التي تمنع تجزئة الأراضي ، فتحمل الشبان على مغادرة قراهم الى المدينة التماسا للعمل والرزق . على أنه قد تكون تجزئة الأراضي فى المقابل اجزاء صغيرة جدا يعجز ريع استثمارها لصغرها عن سد حاجات الأسرة دافعة الى انتجاع المدن .

لقد تحسنت وسائل الزراعة واشتداعتمادها على الآلات فى البلاد المتقدمة ، فقلل ذلك من الحاجة الى الايدى العاملة فى استغلال الأراضي . فمن الطبيعي أن يهاجر الفائض من تلك الايدى العاملة الى المدن . كانت الزراعة فى الماضي وسيلة لدى الزراع للحصول على بلوغ معايشهم وحاجات أسرهم . ولكنها تطورت مع الزمن فأصبحت سبيلا للتجارة والربح . وغدا الزارع المتصل بالأرض يحسب حسابه وينظر فى الربح المادى الذى يكسبه من العمل فى الأرض واستغلالها . فهو يرتبط بالارض عن طريق ذلك الربح . فان نقص بعد كل حساب عما يمكن أن يكسبه من المال فى المدينة حفزه حب المال على ترك أرضه واهمالها .

ويرى بعض الباحثين ان النظام الراسمالي مسؤول عن تلك الهجرة ، لأن من شانه ان يضعف الطلب على الأيدى العاملة الزراعية ويزيد من طلب الأيدي العاملة الصناعية . وهكذا يتكون فيض من الايدى العاملة الزراعية فى الارياف تعيش فى الضيق والقلة ، فهي تنزح نحو المدن .

توجد هذه الهجرة فى البلاد الاشتراكية . ولكن ظروفها تختلف عما سبق . ذلك ان مردود العمل الزراعي فى المزارع الجماعية حكومية اواهلية يكون عاليا . فالعدد الفائض من الايدى العاملة يوجه اما نحو أراض جديدة تستغل وتستثمر ، او نحو مراكز صناعية . ويتم هذا التوجيه المنسق باشراف الدولة حرصا منها على مصالح رعاياها وتلافيا للالام او العنت الذى قد يعترض المهاجرين العفويين .

وليس من الضرورى ان تكون المناطق الفقيرة جدا هي التي يركب ابناؤها متون الهجرة الى المدن . فقد يهاجر من المزارعين من غلاتهم مرتفعة نسبيا ولكنهم يأملون فى هجرتهم أن يجدوا أحوالا افضل وانسب لهم مما هم فيه . وقد تكون تلك الآمال اكثر مساورة لنفوس المزارعين أولى الغلال الحسنة منها لنفوس أولئك الذين سد الفقر عليهم نوافذها ومساربها .

وقد تجري الهجرة بين مناطق ريفية متفاوتة فى الخصب والغلال بالبلد نفسه . فتكون الشروط الحسنة المتوافرة للزراعة ذات شأن كبير فى اجتذاب الريفيين من مناطقهم التي تضيق بهم ويضيقون بها . ولقد كان هذا الأمر فى الازمنة الحديثة ذا مكانة عالية فى تطور بعض البلدان كما سبقت الاشارة اليه .

٢ ــ **العوامل الجاذبة** .. تتوافر وظائف العمل فى المناطق الصناعية ، وتتكاثر أسرع من

أمثالها فى المناطق الزراعية . وكلما ارتفع دخل المرء اشتد طلبه للسلع المصنوعة وللخدمات المتهيئة فى المدينة . وقد أدى تنظيم الفلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادى التابع لها من القرى الى المدن ، كالتهيئة النهائية لمشتقات الالبان وتحضير اللحوم وحفظها . وهكذا تكثر سبل الموارد الاقتصادية فى المدن . ثم ان نمو السكان الطبيعي فى المدن أضعف عادة منه فى الارياف . وهكذا يتم بطبيعة الامور انجذاب طائفة من الريفيين الى المراكز المدنية ، والى الوظائف غير الزراعية فيها بصرف النظر عن تفاوت الاجور واختلاف مستوى المعيشة .

فكيف اذا انضم الى تلك الامور أن مستوى المعيشة والاجور فى المدن أعلى منها فى الارياف . بل ان وظائف العمل فيها اكثر انتظاما وربما كانت أشد ثباتا ؟ !

ويذكر بعض الباحثين مثالا على عرض وظائف العمل واهميتها فى اجتذاب الناس حكاية قديمة بعض الشيء وهي مدينة زلين Zlin فى تشيكوسلوفاكيا الشيء فيها مصنع للاحذية فلما بدأ المصنع يتسع طفقت المدينة الصغيرة التي لم يكن عدد سكانها يزيد سنة ١٩٢٤ على ٤٥٠٠ نسمة تجتذب اليها سكان المزارع المجاورة حتى بلغ عدد سكانها سنة ١٩٣١ ثلاثين الفا .

٣ ـ **العوامل الاقتصادية العامة** ـ ظاهرة الهجرة الى المدن او منها مرتبطة بالظروف الاقتصادية ارتباطا وثيقا . فاذا ازدهرت تلك الظروف احتاجت الاماكن الصناعية الى مزيد من الايدى العاملة التي تأتي فى الغالب من الريف . فالريف بهذا الاعتبار ذخر الايدى العاملة . واذا ساءت الظروف توقفت الهجرة الريفية او ضعفت وحلت البطالة . بل قد ينقلب تيار الهجرة فيحمل بعض الذين لا عمل لهم فى المدينة الى الريف .

الواقع اكثر اشتباكا مما سلف ذكره . ذلك أن تيار الهجرة ذو اتجاهين فى وقت واحد . تشتد الهجرة من الريف عند ازدهار الظروف الاقتصادية فى المدن ، كما تقدم . ولكن فى الوقت نفسه يهاجر من المدن الى الريف بعض قدماء المهاجرين ، يؤوبون الى مساقط رؤوسهم لدى بزوغ النشاط الاقتصادى فى تلك القرى ، اولانهم لم يجدوا عملا فآبوا الى اهليهم ، أو هم قد اجمعوا أمرهم على الهجرة نحو مدينة أخرى . يضعف هذا التيار فى اتجاهيه حين تحل الازمات، فلا تتوافر وظائف العمل كما لا يتوافر المال لتأمين السفر . ثم ان بعض الدول تمنح عونا ماليا للذين لا عمل لهم ، فهم يمكثون حيث يقبضون ذلك العون .

ان تكاليف السفر ونوع المواصلات عاملان مهمان فى تيسير الهجرة او تعويقها . ولكن الازمنة الحديثة من خصائصها البارزة ان وسائل المواصلات على تفاوتها قد تقدمت تقدما كبيرا من سيارات وقطر تذرع جوانب الارض او بواخر تجوب البحار والانهار أو طائرات كالنسور تجوز الآفاق . وكل ذلك من شأنه ان ييسر الهجرة بانواعها .

ب ـ العوامل الديمغرافية

بصرف النظر عن التفاوت فى ازدهار الاقتصاد نجد أن العوامل الديمغرافية نفسها لا تعدم أثرا فى توجيه تيار الهجرة وذلك بسبب الاختلاف فى معدل نموّ السكان بين مناطق البلاد .

من المعلوم ان معدل المواليد فى الارياف أعلىمنه في المدن ، وينجم عن ذلك أن معدل النمو في الأولى اكبر منه فى الثانية على الرغم من ان معدلالوفيات في القرى اكبر منه فى المدن . هذا ما هو حاصل فى الوقت الحاضر . ذلك ان معدلالوفيات قديما ربما كان فى القرى أضعف منه في المدن لأمد قريب . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنينالثلاثة الأخيرة فاصبح في المدن أقل منه فى الارياف لأعمار مُعَيَّنة .

لقد تغيرت أحوال المدن فى العصر الحاضرعنها فى الغابر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنتمرافق الحياة وجُرِيَت المياه النقيّة الى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف، كما انتشرتالنظافة، واشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من أغذية وملابس ومساكن ، الا انه ما يزال فيالمدن مجال للتحسين فى أحوال المصانع ولثهائها الداكن المؤذى ، وفي محروقات مطايا المواصلاتكالسيارات والشاحنات وأمثالها ، وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة فيالمدن . ومع ذلك تتوافر السيطرة فيها على العلل الحادة والأمراض المُعْدية فمعالجتها الحسنةاسهل منها في الريف .

ثم ان الصحة لا تتعلق بالآجر ولا بالملاطولا بالخدمة الصحية بل تتعلق ايضا بعادات الناس وهي التي تتحكم فيها التربة والذكاء ،وتتعلق بالغذاء وبمستوى المعيشة ، وترتبط بمقدار الدخل ولو ان هذا الارتباط اخذت تخففمنه قوانين تأميم الطب والضمان الاجتماعي .

ازاء معدل الوفيات نسبيا فى الريف يعدّلبعض الشيء من معدل المواليد المرتفع ايضا فيه ، ولكنه يُبقي على ارتفاع معدل النمو السنوىللسكان فى القرية بحيث تكون الزيادة اكبر على وجه العموم في الريف . تلك الزيادة لا بدَّ لها منأن ان تغذى المدن القليلة المواليد نسبيا . هذا ما حصل فى مدن اوروبا الصناعية الكبيرة من أمثالباريس ولندن وبروكسل وفينّا وبرلين وغيرها .

ثم هنالك عوامل ديمغرافية اخرى تؤثر فيالهجرة الداخلية كالزواج ، بأن يكون الزوجان المتحابان مقيمينفى بلدين مختلفين. يذكر الباحثونان العادات في بعض قرى الهند تفرض على أهل القرية ان يتزوج ابناؤها وبناتها من أهالي قريةاخرى . وبسبب هذه العادات ينجم جزء لا بأس به من الهجرة الداخلية عن عقود الزواج .

هذا وفى المدن الشرقية الكبيرة اكثرالمهاجرين اليها من الذكور الشباب على حين تحمل الهجرة من الارياف فى شمالي اوروبا كالسويدمثلا الفتيات اللاتي يضقن ذرعا بريفهن الى استكهلم وابسالا وغوتبرغ وامثالها للعمل فيها الىحد أن هذه الهجرة الانثوية الداخلية تؤدى الى ازماتفي زواج الذكور الريفيين الذين بقوا متصلينبأراضيهم الزراعية حيث يفوق عددهم عدد الاناث .

ج ــ العوامل الثقافية والاجتماعية

ليست الهجرة الريفية الى المدن مترتبة علىتوافر وظائف العمل وحده . بل هي منوطة الى جانب ذلك باطلاع المهاجرين على ذلك التوافرووجوهه . فقد تكون قلة اطلاع الناس في منطقة على أحوال منطقة أخرى فى بلد متسعحائلة بعض الشيء دون الهجرة . وكذلك تكون

حائلة دونها شدة الروابط في الأسرة او بين ابناءالقرية كلها . بيد انه قد انتشر التعليم وذاعت الثقافة وسهلت المواصلات واشتد اختلاط الناس بين مختلف المناطق فى المجتمع الواحد وزاد اطلاع بعضهم على شؤون بعض . وهذا كله ممّا يرْفدتيار الهجرة ويزيده .

ومع ذلك ما تزال توجد فى الدولة الواحدةالشاسعة الاطراف عوائق أمام الهجرة الداخلية . منها اختلاف العرق وتفاوت اللغة وهما اللذان يفسران بعض التفسير ضعف تيار الهجرة في الهند لتعدد اللغات فيها ونظام الطبقات وتفاوت العادات والثقافات .

وهنا تأتي سياسة الدولة فى دعم تيار الهجرة من منطقة الى اخرى او فى تعويقه وحجزه .

يكون دعم تيار الهجرة بفتح مكاتب تعطي معلومات عن مجالات العمل فى مختلف المناطق ، وباعداد برامج لأنواع التدريب المهني اللازمة للعمل كي يتلاءم العامل المهاجر مع العمل الذى سوف يمارسه .

وقد يكون التشجيع على الهجرة بمنح رقع من الأرض المهملة للمهاجرين كي يستغلوها ، كما حصل سابقا في الولايات المتحدة وكندا وبلادامريكا اللاتينية وزيلندة الجديدة وغيرها ، او بمنح عون مالي كما حصل في الاتحاد السوفياتي لحمل المزارعين والايدى العاملة المتخصصة على الهجرة الى المدن فى شرقي البلاد .

وقد تكون فى البلاد مناطق مكتظة بالسكان واخرى متخلخلة بهم . فتعمد الحكومات الى تشجيع الهجرة من الأولى نحو الثانية . لقدنظمت الحكومة الاندونيسية الهجرة فيها من جزيرة جاوة المزدحمة الكثيفة الى الجزر المجاورة القليلة السكان . وشجعت الحكومة اليابانية على الهجرة من الجزر المتوسطة ذات الكثافات العالية الى جزيرة هوكايدو في الشمال . ومع ذلك فلم تنجح مثل هذه المحاولات النجاح الكافي لتخفيف الضغط بالمناطق المزدحمة .

ويكون تعويق الهجرة الريفية دعما للزراعة فى الارياف وذلك بادخال الاصلاحات الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية والثقافية . فقدتوزع فيها الملكيات الكبيرة ويشجع العمران وتقام صناعات متممة للزراعة وتنشّط الحياة الثقافية والاجتماعية .

العوامل الجغرافية

تتناول بعض البحوث علاقة الهجرة الداخلية بالمسافة التي يجتازها المهاجر . ان اختيار المكان وبعد الشقة منوطان بعوامل مختلفة كتوافر المعلومات المفيدة الدقيقة عن ذلك المكان ، وسبل العمل فيه وتشابه الحياة الصناعية فى البلد الأصلي وفى البلد المقصود .

على ان **ستوفر** Stouffer لم يجد علاقة ضرورية بين الانتقال والمسافة وانما وجدها بين بين الانتقال وتوافر سبل العمل ووظائفه . فزعم ان عدد المهاجرين الذين يجوبون مسافة ما متناسب طردا مع وظائف العمل المتوافرة في نهاية الطريق ، وعكسا مع وظائف العمل التي تتهيأ في ابان الطريق . ومع ذلك فان قضية الهجرة أشد اشتباكا من تلك العلاقة المبسطة . وسنعود الى تأمل رأيه فى صدد قياس حركة الهجرة .

هذا وان الحواجز الطبيعية تؤلف حائلا يقف امام سهولة الهجرة الداخلية فى البلاد الواحدة كما هو حاصل في سويسرة وفى النرويج . فربما كانت التضاريس الجبلية قد قللت بعض الشيء من شدة اتساع عمران مدنها .

وفى مقابل ذلك قد يكون لكبر الدولة واختلاف مرافق الحياة فيها وتعدد تلك المرافق شأن فى زيادة تيار الهجرة .

واذا تمعنا في هذا الأمر تفهمنا بالقياس الى الهجرة الداخلية حركة الهجرة من دولة صغيرة قليلة المرافق الى دولة كبيرة متعددة المرافق .

وقد يكون للمناخ العذيّ الجيد اثر عميق . وقد قيل ان لطف مناخ كاليفورنيا كان أشد جذبا للمهاجرين من بريق الذهب .

• • •

القسم الثاني

الآثار الاقتصادية للهجرة

ا ـ لما كانت الهجرة تحمل الفئات الفتية المنتجة لزم أن تغيِّر نسبة عدد المنتجين الى العيال . ولذلك كانت ذات مكانة فى ميزان النفقات التي تقتضيها اعاشة العيال من شيوخ وأطفال . فاذا كان الشعب الذى يتلقى الهجرة هرما بالمعنى الديمغرافي (اى قليل المواليد) نجم عن تلك الهجرة تخفيف اعباء العيلة . وقد يكون للدولة المهاجَر اليها سياسة فى الحث على الزواج والانسال فتزيد كثرة المواليد فى البداية اعباء العيلة ولذلك تكون هجرة الشبان من العاملين الى البلاد مرحّبا بها اذ تخفف تلك الاعباء .

ان هجرة العناصر الفتية من الناس هجرة عمل منتج ، ولكن هذا العمل المنتج يحمل فى أطوائه المبالغ التي قدمتها البلاد الاصلية لتنشئة تلك العناصر وتربيتها واعدادها طوال مدة الفتوة والشباب ، كما يحمل ريعها وثمراتها . كل ذلك يقدَّم هدية الى البلاد المقصودة في قوى أولئك العاملين الجسدية والفكرية . وهكذا يستبين كيف ان تيارات الهجرة التي حملت الألوف المؤلفة من الأوروبيين ومن سكان الشرق الأوسط الى امريكا وفرَّت على أمريكا نفسها تلك النفقات الكبيرة التي يقتضيها ذلك الاعداد وتلك التربية والتنشئة . فحملت فى اشخاص المهاجرين اليها ثراءً كبيراً وريعاً متعاظما . ومن الصعب حساب مقدار ذلك الريع والثراء . وقد أجرى مثل ذلك الحساب الذى يتتبع تكاليف الانسان منذ ولادته الى ان يبلغ سن العمل والهجرة ولكن الأرقام ليست الا تقريبية ، اذ كانت تختلف وسائل التربية والتنشئة والاعداد باختلاف الاشخاص والمجتمعات وبتفاوت الأعمال والاختصاصات .

تذهب تلك المبالغ هدرا اذن بالنسبة للبلاد التي يهاجر منها المهاجرون ، وكأن هؤلاء يتهاربون مما هم مدينون به لمجتمعهم الأصلي . ولما كان جلهم أو كلهم من الشبان كما ذكرنا كانوا يخلفون

وراءهم طائفة كبيرة من الشيوخ والعجزة والأطفال الصغار اى يزيدون أعباء العيلة فى ذلك المجتمع الذى غادروه . على أنه قد يمدّ المهاجرون أهليهم بالمال حينا بعد حين ، فيتلافون بذلك تلك الاعباء او يؤوبون بثرواتهم بعد تجميعها الى اوطانهم الأولى .

ب ـ يرى باحثون أن هجرة أدوات الانتاج تفضي الى تعادل أسعارها في مختلف البلاد . فاذا كانت الايدى العاملة رخيصة ومزدحمة فى مكان وهاجرت الى مكان آخر هي فيه قليلة وغالية ، ادى ذلك الى انخفاض اجورها فى الاماكن المقصودة وارتفاعها فى الاماكن الأصلية حتى ينتهي الأمر الى درجة التعادل .

يصح هذا الراى حين تنافس اليد العاملة المهاجرة اليد العاملة الوطنية فى اسواق العمل . ولكن هذه المنافسة اصبحت ضيقة المجال نادرة الوقوع بسبب التشريعات التي تحدّ من الهجرة وتحمي اليد العاملة الوطنية . وبسبب عدم اختصاص المهاجر احيانا وقلة اطلاعه على شروط العمل في البلاد المتقدمة صناعيا فقد يقع التنافس فى الاعمال التي لا اختصاص فيها ، وعندئذ يستغل ارباب العمل جهود المهاجر حيث يعمل فيحمي ابناء البلد اسباب العنت والمشقة . ومع ذلك فقد يؤدى انخفاض الأجور فى المجالات غير الاختصاصية الى انخفاضها فى مجال الاختصاص.

على ان ذلك الانخفاض لا يقع حين تكون اليد العاملة المهاجرة مُعينة لليد العاملة الوطنية داعمة لها مكملة اياها في بلاد تنشأ فيها مشروعات واسعة جديدة تزيد في الانتاج الوطني وتوسع الموارد الاقتصادية ، فترفع بالتالي مستوى الاجور وذلك كما حدث فى الهجرة الى الولايات المتحدة سابقا . فانه لما زاد عرض اليد العاملة غير الاختصاصية ابان الهجرة اليها تفتحت آفاق جديدة للعمل ادت الى رفع مستوى الحياة ورفع الأجور معه .

ان التنسيق بين الأجور واسعار السلع المصنوعة يحتاج لبعض الوقت ، ولهذا كان انتظام الهجرة يسمح بأمثال ذلك التنسيق وتكون الأجور اقل تعرضا للاضطراب مما لو جرت الهجرة بدفقات مفاجئة غير متوقعة . على أن نقابات العمال فى البلاد المتقدمة تشرف على مستوى الأجور وتحول دون انخفاضه .

والتحليل نفسه ينطبق على الأجور فى البلد الأصلي الذى تصدر عنه الهجرة . نعم هنا يكون التاثير مباشرا فالعامل لا يجهل شروط العمل وهولا يصطدم بتشريع يحدد له مُقامه . ربما يسبق الى الوهم ان الأجور ترتفع لنقص اليد العاملة ولكن ذلك لا يحدث دائما . فقد تكون الهجرة حائلة دون نشوء مشروعات جديدة فلا تزيد الموارد الاقتصاديه ولا يرتفع مستوى الحياة .

ج ـ هذا وغالبا ما يظن أن الهجرة الى البلد تعرض طائفة من سكانه لخطر البطالة وأن الهجرة منه تقلّل ذلك الخطر .

ربما كان هذا التخوّف سببا في تحديد نطاق الهجرة ببعض البلاد ايام الأزمات عند حلول البطالة فيها ، كما كان سببا فى حمل بعض البلاد على تشجيع الهجرة منها . بيد أن دراسات جديدة انتهت الى نتائج مغايرة لذلك الظن .

يأتي المهاجرون من ميادين مُعَيَّنة . ويقيمون بمناطق مُعَيَّنة أيضا ، فلا ينافسون مباشرة اليد العاملة الوطنية . وربما دخلوا فى مشروعات جديدة فسدُّوا الحاجات المطلوبة فى بعض الصناعات وزادوا النشاط الاقتصادى . وربما أدى النزوح في المقابل من بعض ميادين العمل في البلاد الأصلية الى ضيق وعسر ينتهيان الى البطالة وشح الموارد .

ثم ان المهاجرين مستهلكون أيضا زيادة على كونهم منتجين ، فهم يحتاجون الى سلع الاستهلاك المختلفة من مساكن وأثاث وملابس وأطعمة وغيرها ، فهجرتهم تزيد الطلب على أمثال تلك السلع .

واذا ضم المهاجرون بينهم ممثلين لشتى أنواع العمل فلا يلزم من هجرتهم حلول البطالة فى البلد التي يهاجرون اليها .

لا يزاحم الأطباء والحلاقون أحدا على حد تعبير « ألفرد سوفي » ، لأن المهاجرين انفسهم بحاجة الى حلاقين والى خدمات طبية متنوعة .

وينطبق التحليل نفسه على أحوال البلد الأصلي الذى تصدر عنه الهجرة . ومعنى ذلك أن عواقب الهجرة فى هذا المجال ليست بسيطة ، وانما تتداخل هي وشؤون أخرى بحيث تكون احتمالية .

ان البطالة فى التحليل الماركسي عاقبة لامندوحة منها لتراكم رؤوس المال في المجتمعات الراسمالية . ويمكن خفض البطالة بتشجيع الهجرة من البلاد عندئذ . ذلك ان الراسمالية قد اتسعت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر اتساعا سريعا ، وكانت الهجرة من اوروبا ضئيلة فانتشرت البطالة وحلَّ الشقاء بين افراد الطبقة الكادحة فى أوروبا الغربية . ولما اشتدت الهجرة فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتمست الدول الغربية لها اسواقا جديدة في مستعمراتها كان ذلك علاجا غير مباشر للبطالة وللضيق عندها . ثم بدأت الهجرة من جنوبي أوروبا وشرقيها ولكنها لم تكن كافية لكي تعدّل آثار تراكم رؤوس الاموال . ولمّا حلَّ القرن العشرون اشتد تكدس رؤوس الاموال في أوروبا وتجاوز امكان التنسيق بين البطالة واستغلال اسواق المستعمرات الكثيرة على الرغم من تدفق تيار الهجرة فكثرت البطالة وتدنّت الأجور . ويقدر بعض الباحثين عدد العمال المهاجرين من اوروبا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ بخمسين الى ستين مليون عامل . يدخل فى هذا العدد الابناء المنحدرون من المهاجرين انفسهم . فلو لم تتدفق تلك الهجرة الى خارج اوروبا لكانت البطالة المزمنة التي ستستحكم بين اولئك العمال حافزا على اندلاع الثورات فى بلادهم .

وأيا كان الأمر فان الرويّة تقتضي تأمل سياق الهجرة ، وتستدعي تبيُّن مختلف العوامل المرافقة لها فى البلاد التي تمسها ، وتستلزم استبانة غزارتها وطول أمدها وآثارها القريبة والبعيدة .

هذا ولا بد في صدد بحث الآثار الاقتصادية من الاشارة الى الاموال التي يأخذها المهاجر او يهربها الى مكان هجرته الجديد خوفا عليها من ان تمسها يد التأميم . وكذلك لا يفوتنا التلويح

بالمبالغ التي يدخرها المهاجر فى بلد هجرته ويرسلها الى اهليه وذويه كما سلف او يرجع بها عند اوبته النهائية . والمهم هنا حسن التصرف بتلك الاموال وتثميرها فى كلا الجانبين ، وكذلك حسن تلافي خروجها او دخولها . فلكل امر جانب سلبي وآخر ايجابي .

ولا شك ان هذه العواقب الاقتصادية ملتحمة بالآثار الديمغرافية .

الآثار الديمغرافية

سبق أن ألمعنا بأن ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان فى قطر يحفز على الهجرة منه ، وأن انخفاضه يشجع على الهجرة اليه . في المقابل تستطيع الهجرة نفسها ان تكون مؤثرة في معدل النمو الطبيعي على التفصيل الآتي :

لو بقي الناس فى امكنتهم الأصلية لتصعب عليهم حسن استغلال الموارد الطبيعية فى العالم ، كما يتصعب عليهم ان يفسحوا فى مجال العيش لأفواج جديدة ما تفتأ تفد الى العالم في نمط المواليد . لقد ساعدت هجرة الناس الى اماكن قليلة السكان كما حصل فى امريكا وكما يحصل فى سيبريا على اقامة التوازن بعض الشيء بين عدد الناس والموارد المتوافرة . من وجهة النظر هذه يمكن القول ان الهجرة دعمت زيادة النمو الطبيعي للسكان فى العالم على فترات طويلة والى مدى بعيد، وانه لولاها لامتنع على ذلك المعدل ان يزيد.

أما معدل نمو السكان الطبيعي في الاماكن المقصودة او في الاماكن الاصلية فمن الصعب ايضاح علاقات عامة حتمية لآثار الهجرة فيه . تلك الآثار متعلقة بصفات الهجرة هل هي نهائية او طويلة الأمد ، وبأعمار المهاجرين وجنسهم من ذكور واناث ، وبمعدلي المواليد والوفيات فى تلك الامكنة المقصودة ، وبخصب السكان المحليين ووفياتهم ، كما يمكن استشفاف تلك الآثار ايضا فى سكان الأوطان الاصلية التي صدرت الهجرة منها .

الهجرة الى البلاد وأثرها فى نمو السكان ـ يرى بعض الباحثين أن الهجرة الى البلاد لا تؤثر في زيادة سكانها الا اذا حملت معها تنظيما اقتصاديا جديدا ناجعا او غيرت نمط استهلاك السلع بينهم . ومن الواضح ان هذه النظرة تعزى الى نظرية مالتوس فى السكان .

ويرى آخرون ان تلك الهجرة قد يكون لها اثر ولكنه غير مباشر فى معدل نمو السكان ، وأن اثرها هذا قد يكون خفض ذلك المعدل حين تزيد فى عمران المدن وفي تقدم الصناعة وتحسين مستوى المعيشة وتبديل نمط السلوك من الوجهة النفسية . واذا أقام المهاجرون بالمدن كان مقامهم عائقا لهجرة الريفيين من أهل البلاد الى تلك المدن فيحافظ الريفيون على معدل نموهم الطبيعي . وهكذا نجد أن الامور احتمالية ، وليس من التبصر في شيء اقحام علاقة حتمية ثابتة فى هذا الشأن .

اذا اغفلنا السكان الأصليين فى المكان الذى وصل اليه المهاجرون فان زيادة سكان هذا المكان بالمهاجرين انفسهم تابعة لأمد الهجرة ، فان كانت الهجرة نهائية واستمر مقامهم بالمكان ربوا وازدادوا ازديادا كبيرا اول الأمر وذلك بسبب تركيبهم الفتي ، فان اكثرهم من الشباب ومعدل الوفيات بينهم ضئيل . بيد ان هذا الازدياد الشديد لايلبث ان يتمهل الا اذا استمرت الهجرة . فان

توقفت او ضؤلت لم يلبث عامل الزمن ان يغير تركيبهم العمري ، ويوجهه نحو الشيخوخة والهرم فينقص عندئذ معدل المواليد بينهم ويرتفع معدل الوفيات .

ويلاحظ فى الهجرة الخارجية اربىاء الذكور في العدد على الاناث وهذا يفضي الى ارتفاع نسبة الزواج بين النساء المهاجرات ، والى التبكير فيه فيرتفع معدل الخصب بينهن ايضا . ولكن ربما يتمهل الازدياد بعض الشيء ان بقي جزء من الذكور عزابا . وقد يختلطون بالسكان الاصليين ويتزوجون من نسائهم فيكون ذلك عاملا فى زيادة السكان .

ان المهاجرين فى الغالب يأتون كما سبق من بلاد معدل المواليد فيها عال فيبقى هذا المعدل بينهم في مقامهم الجديد عاليا ايضا . ولكنهم بالتدريج قد يكتسبون عادات البلد الجديد ويتجهون نحو الانصهار فيه اتجاها سريعا او بطيئ بحسب الظروف. وقد يكون البلد الجديد صناعيا فيحملهم طراز الحياة فيه على تنظيم اسرهم ،وضبط نسلهم . ولكن هذا الضبط لا يكاد يتم الا بعد جيل او جيلين .

ويرى **هلفاكس** وهو عالم اجتماعي من مدرسة **دوكايم** الفرنسية ان العامل المرفولوجي ذو اثر بليغ فى زيادة النسل او قلته ، وان الناس فى هجرتهم نحو مناطق قليلة السكان يزيد نسلهم بصورة عامة . وبالمقابل اذا وصلوا الى مناطق غاصة لا بد ان يحدّوا من ذريتهم كما يفعل المرء في الزحام حين يلمّ من ذاته . وكل ذلك ياتي بصورة غير مباشرة عن طريق التأثر بنفقات المعيشة وانماط التفكير والسلوك المشترك .

الهجرة من البلاد واثرها ــ لقد المنا بعض الشيء بأثر الهجرة فى معدل نمو السكان للبلد المقصود فما هو اثرها في ذلك المعدل نفسه للبلد الاصلي الذى انطلقت منه الهجرة ؟ هنا ايضا يصعب الوصول الى علاقة حتمية جازمة . ذلك ان بعض الباحثين يرون ان هذه الهجرة حين تخفض الضغط الديمغرافي فى البلد الاصلي وتنقص عدد بعض الافواج فانها على المدى الطويل تنشط الزواج فيه وتدعم خصب الانسان وتزيد فى العاقبة معدل النمو . ويرون ان اوروبا انما ازدادت ذلك الازدياد السريع ابان القرن التاسع عشر بعد هجرة طائفة كبيرة منه . نستطيع ان نتفهم هذا الراى حين نشبه المجتمع بالجسد . فكما ينشط الجسم بالتعويض حين يؤخذ جزء ضئيل من دمه كذلك يتكاثر الناس ويربل المجتمع حين تهاجر طائفة منه . ويرى الباحث الايطالي **كورادو جيني** انه قد يصح ذلك فى بعض البلاد ولكنه لا يصح في اخرى .

هذا الادعاء يرفضه آخرون حين يزعمون أن اوروبا يكون عدد سكانها اكبر بكثير لو لم يمسسها تيار الهجرة اذ كان يزداد سكانها ثمانية وثمانين مليونا فوق ما ازدادوا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ لولا اجتياح ذلك التيار لها .

هذان الموقفان المتعارضان محتملان بالنظر الى سياق صروف الهجرة . فالهجرة من البلاد قد تخفض الضغط الديمغرافي فيها وتحفز على النشاط كما سلف بالتبكير فى الزواج وبالترغيب فى الذرية وبخفض وفيات الرضع ، أو قد تقف عائقا اذ يكون المهاجرون عن البلاد على الغالب شبانا فتدخل الهجرة خللا في توازن فئات الأعمار بين الذكور والاناث ويرتفع معدل الوفيات ، لان

وفيات المهاجرين الشبان أقل من وفيات المقيمين . وربما نقص بسبب الهجرة معدل المواليد في البلاد ايضا .

وهكذا يختلف النظر الى آثار الهجرة من البلاد هل تستطيع ان تخفض حقا مقدار الضغط الديمغرافي الحاصل بكثرة المواليد ؟ لقد تبيّن للباحثين ان هذا الخفض اسهل سبيلا واقرب مأتى حين يحصل عن طريق التصنيع ورفع مستوى المعيشة وتحسين وسائل الزراعة وزيادة الوعي والثقافة خصوصا في بلاد العالم الثالث ،وان الهجرة ليست الا بلسما وقتيا لذلك الضغط يهدىء ولكنه ليس بالعلاج الناجع .

هذا وعند اعتبار الهجرة الداخلية نوّهت نظريات عرقية كآراء **هانسن** في المانيا أواخر القرن القرن التاسع عشر بأهمية العرق الصافي المغامر الكثير التوالد في الارياف وهو الذي يمد المدن بفيض من ابنائه الأشاوس المقاديم ، ولكنهم يختلطون بغيرهم في المدن ويتأثرون بعادات هجينة وتنقص بذلك مواليدهم وينضب بالتدريج ذلك المعين الثر المتحدر من الارياف الذي هو ذخر المجتمع ومصدر حضارته الخلاقة . وقد تبذت تلك الآراء على العموم ، ولكن الباحثين مع ذلك يرون أن معدل المواليد العام في البلاد لا بد من ان يتناقص بوجه عام بسبب تيار الهجرة الريفية التي تحمل الشبان الى المدن وتغيّر من عاداتهم الديمغرافية فيها ، كما تترك فراغاً ديمغرافيا بالارياف وراء تلك الفئات المهاجرة .

ومهما يكن من أمر هذه البحوث المتعارضة فان عددا من الأمم كاليابان مثلا اجتاحها تيار الهجرة الريفية وزاد سكانها على الرغم من ذلك حتى وقت قريب .

هذه الآثار كلها وثيقة الصلات بالأمور الثقافية والاجتماعية .

الآثار الاجتماعية

ليس المهاجرون منتجين ومستهلكين فقط، وانما هم ايضا اناس هاجروا بعاداتهم ولغاتهم وافكارهم ونحلهم الدينية وآرائهم السياسية ونوازعهم الشخصية وماضيهم السحيق وآمالهم المجنحة ، فلا بد من التوفيق بين ذلك ومقتضيات مجتمعهم الجديد . وهو عملية قد يطول امدها او يقصر ، يتم بنجاح او يخفق . وذلك متوقف على تدابير السلطات المسؤولة عنهم في مكان الوصول وعلى البيئة الانسانية التي ينزلون بين ظهرانيها .

عناصر الانسجام والتلاؤم متعددة لا بد من الاشارة الى بعضها .

قد يقع تنافس اقتصادى بين المهاجرين واهالي المنطقة فينجم عنه حذر وكراهية عميقان، والا فالحياة سهلة والوفاق غير عسير .

وربما يتعطل المهاجر عن العمل او يصيبه المرض فيبيت عبئا على الدولة المضيفة . فاذا منحت الدولة الصناعية المهاجرين حقوق رعاياها من التأمين على المرض والبطالة سهلت عليهم الاندماج ودرات عنهم اشباح البؤس وما يجره من عواقب وخيمة واعباء ثقيلة على المجتمع نفسه .

على انه قد تختلف العادات والتقاليد واللغة فيتصعب الاندماج وتذر مشكلات تنم على الشذوذ المدني وتشف عن النشوز الاجتماعي . والزواج المختلط بؤرة شقاق ونزاع فى بعض الاحيان .

ويبذل المهاجرون جهودا نفسية للمواءمة ، فان لم تنجح ظهرت عنها اضطرابات عقلية متفاوتة ولا سيما بين ابنائهم ، لان الآباء يعيشون في اجواء نفسية شبه منعزلة بسبب العادات المتأصلة لديهم . ولكن ابناءهم يمزقهم التفاوت بين عادات اهليهم وعادات أترابهم فى المجتمع الجديد ، بين الاسرة وجو المدرسة ، بين الطباع الموروثة والتطبع المكتسب .

قد يتجمع المهاجرون من الشعب الواحد في بلد الهجرة ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم فيؤلفون ما يدعى بالجالية وظهور امثال هذه الجالية يثير مشكلة التعايش بينها وبين السكان الاصليين . وقد يتجه هذا التعايش نحو الانصهار بين الطوائف بحيث يؤثر بعضها فى بعض ويفقد كل منها بعض خصائصه ، أو نحو الاندماج بحيث يزول بعضها ويذوب فى البعض الآخر ، او هي تحافظ على التفرقة العنصرية بحيث تقيم هي من عاداتها وقوانينها ونظمها حواجز فاصلة .

هذا وربما كان من المناسب ان نذكر هنا بعض الامثلة على النشوز الاجتماعى والاضطراب النفسي اللذين يتعرض لهما المهاجرون .

ان المسح الذى جرى على البولونيين فى فرنسا كشف عن ان الذين اجرموا منهم وظهرت عليهم اعراض الاختلال العقلي كانوا عمالا زراعيين يعيشون فى مزارع نائية معزولة لا سبيل لهم الى الاتصال بالناس .

لقد جرت محاولات لوصف مغبات الهجرة على شخصيات المهاجرين وعلى تكيفهم النفسي وعلاقة ذلك بالامراض العقلية . فلوحظ ان اعلى نسبة للمرض العقلي موجودة عند المهاجرين الذين وقعوا فى ضروب من الصراع الذاتي ابان تلاؤمهم مع ثقافة اجنبية جديدة . وقديما رأى ابقراط أن المبعدين عن اوطانهم الاصلية تساورهم نوازع من الاضطراب شديدة . ولقد جاء فى الشعر العربي :

وارحمتا للغريب في البلد النازح	ماذا بنفسه صنعا
ضيّع اخوانه فما انتفعوا	بالعيش من بعده ولا انتفعا

يدل مضمون هذين البيتين على حالة الضياع والقلق والحنين التي تخامر نفس المهاجر البعيد . وقد وضع هوفر Hofer عام ١٦٨٥ لفظة النوستالجيا اى الحنين لتدل على حال المهاجرين الذين تلوح عليهم امارات التفكير الدائم فى اوطانهم ومعها سمات الحزن والارق والزهد في الطعام والضعف والقلق وخفوق القلب والذهول وكتمان المشاعر . ولكن قد تنطوى الموازنة بين المهاجرين وسكان البلاد الاصلية على مزالق خفية . ذلك ان المهاجرين الذين استجابوا لتيار الهجرة قد اصطفاهم هذا التيار اصطفاء شديدا وهم لذلك يشتركون فى صفات خاصة تؤثر فى نسبة المرض الذى قد يصيبهم .

لقد ساق مثلا تيار الهجرة الماضي الى ماوراء البحار الشبان الذكور من افقر الطبقات الاجتماعية فى اوروبا وفي غيرها ، كما ساق فئات أخرى من مختلف الاعمار ذكورا وأناثا ، فلا تجوز عندئذ المقايسة بين اولئك المهاجرين جملة وبين السكان الاصليين المضيفين . لا بد عندئذ من الانتباه لبعض العوامل كتأثير قوانين الهجرة الاصطفائية وتأثير السن او الجنس للتعرض للامراض . ان بعض الذين هاجروا هم أناس يحبون التنقل ويكرهون الاستقرار ، وربما كانوا مهيئين بذلك لمرض انفصام الشخصية . فكأنهم اصطفوا انفسهم لركوب متن الهجرة . لقد كان هذا الاصطفاء الذاتي التفسير المفضل فى ارتفاع معدل المصابين بالفصام بين النرويجيين الذكور الذين هاجروا الى مينيسوتا . وأبانت الكشوف السريرية أن الهجرة قد تصيب صاحبها بمرض البارانويا . يمكن ان نسمى صاحبها باللغة العربية البرشاع او الفجفاج . ويعالج هذا المرض باعادة المصاب الى الوطن الذى تركه والى الثقافة التي اعتادها وعاش فى جوها ولاءمت ميوله ونوازعه .

والطريف في البحوث التي اجريت على المهاجرين عند اضطرابهم انها اظهرت الاوضاع الاجتماعية لمرضاهم من خلال ضروب هذيانهم . فلقد أبرز مرضى الفصام فى الولايات المتحدة بين الذكور المنحدرين من أصل ايرلندى او اصل ايطالي مجموعة من الاعراض المتناقضة تتعلق تعلقا ظاهرا بثقافتهم الاصلية . يكابد الايرلندى الادمان على السكر ، كما يستحوذ عليه الاهتمام بالاثم والجرم فيغدو رهن الهذيان المستمر . ويجنح الايطالي نحو الشذوذ الجنسي (الجنسية المثلية) ويضطرب سلوكه ويبرز عداؤه للسلطة . هذه الفروق تعزى الى تأثير محيطهم الاجتماعي والثقافي . وقد جرت دراسة مشابهة على الايرلنديين والايطاليين مكّنت الباحثين من توقع طائفة من ردود افعالهم . الاسر الايرلندية تسيطر فيها الامهات ، والآباء ظلال لا شأن لها ، والاولاد أطفال وأعباء أبدا قلقون مكبوتون جنسيا ، لهم مواهب الخيال لا العمل . ويسيطر فى الاسر الايطالية الآباء ويطلقون لابنائهم حرية التعبير عن الانفعال والاعتداء (الجسدى) والقضايا الجنسية .

واذا التقت مجتمعات على غاية من التعارض فى العرق والثقافة كما كان الامر عندما استوطن الاوروبيون في افريقية نشأت ضروب من الصراع الاجتماعي والسياسي تُنغّص حقا حياة الناس وتؤدى الى اضطراب الهيئات الاجتماعية اضطرابا جزئيا او كليا . وامثال ظاهرة الماوماو فى كينيا وتقديس البضائع المشحونة فى غينية الجديدة والحركات الوطنية الافريقية واعمال العنف العرقي فى المجتمعات المختلفة ، كذلك الجرائم الفردية بين الاطراف المتقاتلة المتقابلة في جنوب افريقية ، كل تلك الظواهر يمكن ان تعتبر ضروبا شتى للصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي .

ذلك أن بعض انواع الهجرة ضرب من الغزو العسكري بل قد رافقت الحملات العسكرية فعلا . ولا شك ان الاستعمار الغربي كان آفة كبيرة على كثير من الأقوام في مختلف نواحي الارض . وايا كان الامر فان ثمة من الدراسات الواسعة التي تدخل فى هذا النطاق ما يكاد يتجاوز الحصر .

آثار الهجرة الداخلية

هذا وان آثار الهجرة الداخلية تشبه في مختلف المجالات آثار الهجرة الدولية . وبشيء من التأمل يمكن عرض آثار الهجرة الداخلية على غرار آثار الهجرة الدولية في المجال الاقتصادى والديمغرافى والاجتماعي ، مع بعض الفروق فى التنظيم والاستمرار والتوجيه .

ان المدن تنمو كما سبق بالهجرة الريفية اليها . واذا لم تنظم تلك الهجرة اشتد الازدحام فى المناطق الفقيرة وتجاوز أمر تخطيط المساكن في الضواحي طاقة الحكومة . وقد تتصدع الاسر ويتشرد الاطفال وتستشرى الجنح والجرائم وتضطرب الاخلاق وتشتد العلل . ولكن هنالك تطورا عاما فى العادات يجرى في مختلف المناطق قريبه او بعيده ، دانيه أو قاصيه. ويزيد اشراف الحكومات فى الوقت الحاضر على مختلف مرافق الحياة العامة والخاصة .

ان الهجرة الريفية فى العصر الحاضر هي التي جعلت المدن تتكاثر وسكانها يزدادون ذلك الازدياد المتعاظم العملاق الى الحد الذى نجده اليوم . كان الريفيون قديما اكثر من المدنيين بوجه العموم . واليوم انقلب الميزان فى البلاد الصناعية بسبب التطور الاقتصادى فأصبح مجموع سكان المدن أعلى بكثير من مجموع سكان الارياف . وبهذا الاتساع الكبير تغيرت حياة الانسان نفسها في المجال الاجتماعى والنفسي والتموينى. لقد قل شأن الجماعات الاولى كالاسرة الكبيرة والعشيرة والطائفة وأمثالها مما كان يؤلف اطارا يحف بالمرء من كل جانب ويمسكه فى معترك الحياة ويربطه بمحيطه الانساني وبمدينته. فتفرقت تلك الجماعات وانتشرت فى غمار الحياة وغدا المرء كائنا مُتفككاً بين سيول الجماهير الغفيرة يشعر بوحدته ولا يرتبط الا بعمله ووظيفته ، وحلت العلاقات المالية محل العلاقات الودية الشخصية وصار الانتاج والاستهلاك هما القولتين الهامتين في كيان المدينة الكبيرة المتسعة.

ان التاريخ لا يرجع الى الوراء واشكال الحياة المتمهلة لن تعود . وهذا الوضع الحاضر انما هو عاقبة التطور الاقتصادى العميق . والمهم الآن هو اسباغ مزايا القلب والروح في أجواء المدن بالاضافة الى حسن التخطيط والتنظيم العقليين .

على ان الاتساع الكبير فى عدد السكان المدنيين جعل الحكومات فى بعض البلدان تتخذ التدابير المناسبة لتقوية تيار الهجرة الى الارياف ولا شك ان وسائل المواصلات اليسيرة وجمال الريف وادخال بعض الصناعات فيه يدعم ذلك ،كما ان شيوع الهاتف والراديو والتلفزيون يقلل العزلة فيه ويزيد من الاتصال بالمدن أى زيادة .

لقد أسهبنا في بيان أسباب الهجرة الخارجية والداخلية وآثارهما ما اتسع لنا مجال القول ، وذلك فى توازن شديد بين الاسباب والآثار وفي تشابه كبير بين هاتين الهجرتين . وقد آن لنا ان نعرض طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها.

• • •

القسم الثالث

قياس الهجرة وتخمين مقاديرها

يعتمد العلم على القياس الى درجة انه قيل في تعريفه أنه قياس المقادير . ذلك أن الظواهر اذا تلامحت بشكلها الكيفي بقيت غامضة وداخلها نصيب من الابهام . ومتى انقلبت بالقياس الى مقادير كمية ازداد وضوحها واشتدت دقتها وانجلت جوانبها العلمية. والهجرة كبقية الظواهر الديمغرافية تحتاج الى ان يتناولها القياس وتفتقر الى أن تعبر عنها الارقام . وثمة طرق متعددة لقياسها اصبحت متعارفة يسهل عرضها . ولكن لما كانت الهجرة مشتبكة العوامل ، متفاوتة المعلومات فى الدقة ، لزم الانتباه لذلك عند كل تطبيق ولدى اجراء كل حساب احصائي في هذا الشأن . ونحن نعرض هنا أشمل هذه الطرق واخصها بالتعليم .

القياس المباشر ـ

يتيسر هذا القياس حين يتيسر تسجيل حركة الهجرة كما تجرى في الواقع . واذا تمت الهجرة بالبحر او الجو من دولة الى دولة يصح الاعتماد على كشوف المسافرين فى الباخرة او الطائرة لمعرفة نوع انتقالهم ، وذلك عند الاقلاع او الارساء . ولكن اذا كانت الحدود بين الدولتين برية غدا الاحصاء اقل دقة ما لم تتخذ التدابير لتمييز المهاجرين من السياح الذين لم يغيروا محال اقامتهم ولضبط حركة المرور على الحدود. وبوجه عام تؤخذ المعلومات فى مراكز الهجرة عن خصائص المهاجرين الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والقومية حين يهاجرون من دولة الى أخرى ثم تجمع وتصنف وتبوب وتغدو صالحة للافادة . وقد يُعتمد فى احصاء الهجرة على جوازات السفر أو سمات الدخول أو تصريحات الاقامة أو تصريحات العمل . فهي كلها تبرز هجرة الأجانب . أما في شأن الهجرة الداخلية فان بيانات تغيير محالّ الاقامة ، والجوابات عن بعض السؤالات المطروحة فى التعداد وسجلات الأحوال المدنية وسجلات المعاهد العلمية وغيرها تشف عن هذه الهجرة .

فمجموع القادمين الى البلاد والنازحين منها يدعى حجم الهجرة كما سلف ، وينسب الى متوسط عدد السكان فى السنة أو فى خلال فترة زمنية مسمّاة فيحصل معدل حجم الهجرة . وهو يقيس حركة الهجرة الخارجية التي تحدث من البلاد الى خارجها والعكس ، فيُظهر هذا القياس مدى نشاط تلك الحركة .

والفرق ما بين القادمين والنازحين اوالداخلين والخارجين يدعى « صافي الهجرة » أو « ميزان الهجرة » . وهو فيض الهجرة اذا أربى عدد المهاجرين الى البلد و « غيض الهجرة » ان نقص . وينسب صافي الهجرة الى عدد السكان في منتصف السنة فيحصل معدل صافي الهجرة او معدل فيض الهجرة أو معدل غيض الهجرة بحسب الاعتبارات .

ويمكن ان ننسب النازحين الى متوسط عدد السكان خلال السنة فذلك معدل النزوح أو معدل الهجرة من البلاد ، او ننسب القادمين اليه فذلك معدل القدوم أو معدل الهجرة الى البلاد . وهكذا يتحصّل معنا اربع علاقات بسيطة متمايزة :

معدل حجم الهجرة = $\frac{ق + ن}{ك} \times ثا$ (١)

معدل صافي الهجرة = $\frac{ق - ن}{ك} \times ثا$ (٢)

معدل النزوح = $\frac{ن}{ك} \times ثا$ (٣)

معدل القدوم = $\frac{ق}{ك} \times ثا$ (٤)

(ق) عدد القادمين ، (ن) عدد النازحين ، (ك) متوسط عدد السكان في السنة (ثا) عدد ثابت يعتبر فى ألغالب مائة أو ألفا .

ان الهجرة الى المجتمع بمثابة المولودية ، فهي تزيد فى السكان ، والهجرة منه بمثابة الوفاة فهي تنقص السكان ، وان كان البون كبيرا جدا وشاسعا بين الوفاة والهجرة من الوجهة الفردية ومن الوجهة الانسانية ، أطال الله أعمار المهاجرين ورد غربتهم . ولكن النظرة الديمغرافية على الأغلب حسابية . ثم ان معدل صافي الهجرة يشبه الى حد ما معدل النمو الطبيعي الذى هو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات .

على أنه يمكن أن نلاحظ ما يلي :

١ ـ معدل المواليد ومعدل الوفيات يتعلقان بمجتمع ما . بيد أن معدل الهجرة الى البلد يقرن طائفة من مجتمع بمجتمع آخر قد يختلف فى كثير من الخصائص عنه .

٢ ـ معدل المواليد ومعدل الوفيات وأمثالهما أمور عامة ومستمرة في مختلف المجتمعات لا يخلو منها مجتمع ، على حين تيار الهجرة تتغير جهاته ويشتد او يضعف بحسب الظروف وبحسب البلدان والمجتمعات .

٣ ـ يمكن أيضا حساب نسب خاصة بأعمار المهاجرين من البلاد أو اليها وبجنسيهم من الذكور والاناث ، وبقومياتهم وبصفات أخرى لهم اقتصادية او ثقافية أو غيرها .

٤ ـ مهما دق ضبط الهجرة فهي لا شك اقل انضباطا من تسجيل المواليد والوفيات ولذلك كانت معدلاتها اقل دقة أيضا .

٥ ـ فى حساب الهجرة الداخلية قد تعد هجرة المهاجر من مكان الى آخر مرتين : مرة بصفة النزوح ومرة بصفة القدوم .

التخمين او القياس غير المباشر : ــ

١ ــ يكون ذلك بطريقة الاحصاء الحيوى ،اذ يحسب الفرق بين نمو السكان الكلي المشتمل على الهجرة ونمو السكان الطبيعي المقتصر على المواليد والوفيات . فالفرق يعطينا ذلك التخمين:

$$ك_{ز} = ك + م - و + ص$$

(ك) عدد السكان فى التعداد الأول ، (كز)عددهم فى التعداد الثاني الذى جرى بعد فترة (ز) من الزمن ، (م) المواليد خلال الفترة ، (و)الوفيات ، (ص) صافي الهجرة

$$فيكون\ ص = (ك_{ز} - ك) - (م - ن)$$

وفي هذه الحال ينبغي ان يكون تسجيل المواليد والوفيات دقيقا .

٢ ــ وكذلك تعتمد طريقة التعمير في القياس غير المباشر . وهي ان يؤخذ عدد السكان في التعداد الأول ثم ينتبه لنسب التعمير فى فئات الاجيال المختلفة ويحسب ما يصير اليه عدد السكان فى زمن التعداد الثاني . والفرق بين التعداد الثاني وحصيلة حساب التعمير يعطي صافي الهجرة :

$ص = ك_{ز} - ك_{ت}$ $ك_{ت}$ عدد السكان المحسوب بنسب التعمير

ولما كان هذا الحساب يجرى على أجيال مختلفة من السكان أمكن أن يكشف حاصل الحساب عن صافي الهجرة فى كل فئة من فئات الاعمار .

٣ ــ وقد يلجأ الى طريقة مكان الميلاد .ذلك أن اغلبية التعدادات فى العالم تضع سؤالا عن مكان ميلاد الشخص . فيصح عندئذان نقارن مكان الميلاد بمكان الاقامة الحالى لنستخلص صافى الهجرة في زمن التعداد .فنحن اذ ذاك نطلع على مقدار المهاجرين بين المقيمين من السكان . ولكن هذه الطريقة لاتعلمنا شيئا عن زمن هجرة المهاجر .. وكذلك لا تشف عنها دائما ، اذ ربما عاد المهاجر بعدهجرته الى مكان اقامته الاصلي قبيل التعداد .

٤ ــ يضاف الى جميع ما سلف المسوح السكانية . فهي تستطيع أن تستشف بطرقها الخاصة عن تيارات الهجرة . ولكن طرق المسح بالعينة هذه عامة وليست مقصورة على الهجرة . فتكفى الاشارة اليها .

هذا ، ومتى عرفت المقادير السالفة أمكن حساب قرائن او ادلة عددية مختلفة تشف عن مدى الفائض او الفائض من الهجرة في كل بلدكما يلي :

$$\frac{النازحون}{القادمون} = \frac{ن}{ق} \qquad (١)$$

$$\frac{\text{فيض الهجرة}}{\text{القادمون}} = \frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{ق}} \qquad \text{حين ق} > \text{ن} \qquad (٢)$$

$$\frac{\text{غيض الهجرة}}{\text{النازحون}} = \frac{\text{ن} - \text{ق}}{\text{ن}} \qquad \text{حين ن} > \text{ق} \qquad (٣)$$

$$\frac{\text{القادمون}}{\text{حجم الهجرة}} = \frac{\text{ق}}{\text{ق} + \text{ن}} \qquad (٤)$$

$$\frac{\text{النازحون}}{\text{حجم الهجرة}} = \frac{\text{ن}}{\text{ق} + \text{ن}} \qquad (٥)$$

$$\frac{\text{فيض الهجرة}}{\text{حجم الهجرة}} = \frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{ق} + \text{ن}} \qquad (٦)$$

وربمـا يجـدر ان نذكر امثلـة على بعض العلاقات السابقة فنأخذها من استراليا :

عدد المهاجرين اليها خلال سنة ١٩٦١ = ١٢٧ر٥٨٦

عدد المهاجرين منها خلال سنة ١٩٦١ = ٩٥ر١٤٧

عدد سكان استراليـا مقدرا فى ١ تموز (يوليو)سنة ١٩٦١ ١٠ر٥٠٨ر١٨٦

$$\text{معدل القدوم} = \frac{١٢٧،٥٨٦ \times ١٠٠٠}{١٠،٥٠٨،١٨٦} = ١٢،١$$

$$\text{معدل النزوح} = \frac{٥٩،١٤٧}{١٠،٥٠٨،١٨٦} \times ١٠٠٠ = ٥،٦$$

الفرق بين المعدلين يعطي معدل ميزان الهجرة وهو فيض = ٦،٥

جمع المعدلين يعطي معدل حجم الهجرة او مدى نشاطها = ١٧،٧

اما القرائن التي سلفت فمن السهل حسابها .منها مثلا :

$$\frac{\text{فيض الهجرة}}{\text{القادمون}} = \frac{٦٨،٤٣٩}{١٢٧،٥٨٦} = ٥٤\%$$

وهذا معناه ان نسبة الفائض الى القادمين هو ٥٤ فى المائة .

وكذلك يمكن ان نحسب :

$$\frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{ق} + \text{ن}} = \frac{٨٦،٤٣٩}{١٨٦،٧٣٣} = ٣٧\%$$

اى نسبة الفائض الى حجم الهجرة هو ٣٧ فى المائة هكذا ..

ولو أجرينا الحساب على ايطاليا عام ١٩٦١ لوجدنا ان ميزان الهجرة فيها هو غيض لأن تيار النزوح اقوى من تيار القدوم .

وقد ينسب فيض الهجرة الى مقدار النمو الطبيعي للسكان فنحصل على النسبة المئوية لنمو السكان بالهجرة الى نموهم الطبيعي .

$$\frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{م} - \text{و}} \times ١٠٠$$

(ق) القادمون كما سبق ، (ن) النازحون ،(م) المواليد ، (و) الوفيات .

نأخذ المثال الآن على جاميكا بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠

ميزان الهجرة = ـ ١٣٠٦٠٥

النمو الطبيعي للسكان = ٣٦٦ ، ٠٧٥

وعليه يكون = $\frac{-١٣٠٦٠٥}{٣٦٦ ، ٠٧٥}$ × ١٠٠ = ـ ٧ ، ٣٥

أى ان أكثر ثلث كمون نمو السكان مضاع بالهجرة من جاميكا .

هذا ويمكن حساب احتمال الهجرة اوالتعرض لها لفئة من فئات الاعمار وليكن العمر لهذه الفئة (ز) وذلك فى فترة سنة أى ز ، ز + ١

$$\text{نرح} = \frac{\text{نز}}{\text{كز} + \frac{1}{2}\,\text{وز}}$$

باعتبار (حز) احتمال نزوح الفرد من تلك الفئة او ذلك الفوج ، (ن) عدد النازحين من ابناء ذلك الفوج بذلك العمر في غضون السنة ،(ك) عدد ذلك الفوج فى منتصف السنة (و) عدد الوفيات في ذلك العمر خلال السنة نفسها . أما القادمون الذين هم فى سن (ز) وهم معرضون للهجرة فقد انضووا في عداد الفوج (ك) .

بيد ان احتمال القدوم لا يمكن اسناده الى عدد سكان منطقة الوصول لان القادمين هم من غير هؤلاء السكان وليسوا جزءا منهم .

هذا ومن المناسب ان ننتبه الى أن عدد المهاجرين لا يعادل عدد مرات الهجرة ، لان مهاجرا واحدا قد يقوم بالهجرة عدة مرات فى خلال حقبة من الزمان ولا سيما اذا تطاولت الحقبة . ويقترب عدد المهاجرين من عدد مرات الهجرة كلما قصرت تلك الحقبة . ولذلك اعتبرت السنة فى التصنيف الآنف معيارا لطول مدة الاقامة او مدة الغيبة

الهجرة والنموذجات الرياضية

كان العلماء عامة يتكلمون فى بحوثهم على القوانين الكلية والنظريات العامة . وقد طرا تطور فى فلسفة العلوم على اعتباراتهم ، فاصبحوا يتحدثون الآن في الغالب بدلا من تلك الالفاظ عن

النموذجات . ومن المناسب هنا ان نورد بعض النموذجات الرياضية الكثيرة المستعملة خاصة فى تبين تيار الهجرة الداخلية كي نوفي البحث بعض حقه . وفى سياق بحثنا نبرز شيئا فشيئا صفات النموذج الرياضي لننتهي الى بعض تعبيراته المطبقة في هذا المجال .

النموذج الرياضي نظرية شرطية استنتاجية ومعنى ذلك انه جملة من القضايا او المصادرات تؤدى بعد قبولها الى جملة من النتائج والاعتبارات .

قد يعرض الباحث هذه الاعتبارات والنتائج على محك التجربة وعلى ميدان المشاهدة والملاحظة لمعرفة انطباقها على الواقع . ولكن يمكن الاستغناء عن هذه المقايسة. امكان الاستغناء هذا عن المقايسة أول السبيل للتفريق بين النظرية والنموذج ، لأن النموذج امر فكرى صرف يقدم حلا يمكن قبوله او رفضه . ربما يصح القول ان بعض النموذجات اكثر واقعية من غيرها . ولكن لا يجوز هنا القول انها صادقة او ألصق بالصدق بالمعنى المنطقي للصدق . ومع ذلك فالنموذج ليس مجرد تركيب اعتباطي .

النموذج نظرية تحاول ان تفسر طبيعة ظاهرة ما بصرف النظر عن كونه اما صادقا واما كاذبا على حد التعبير المنطقي . وهذا معناه انه لا مانع من وجود عدة نموذجات تقدم ايضاحات متفاوتة لظاهرة واحدة دون ان يلغي بعضها بعضها . وهذه سمة ثانية لتفريق النموذج عن النظرية بالمعنى العام التي لا بد من ان تكون لها صفة الشمول او الكلية . لقد قالوا قديما : **لا علم الا بالكليات** . ولكن النموذج الرياضي قد يفسر حادثة خاصة او ظاهرة مفردة . لقد اتخذ النادر او المفرد فى العصر الحاضر مكانه فى فلسفة العلوم ، لان المفرد او النادر بصفته نادرا او مفردا قد يعارض العام والكلي فيستدعى اعادة النظر فى المكاسب العلمية لتوسعة وجهة النظر . هذه امور معروفة فى فلسفة العلوم نوه بها المفكر الفرنسي الراحل **غاستون بشلار** . ويمكن ذكرها هنا في مجال النموذج التي يطبق في الاحوال المفردة او الخاصة أحيانا من المجال الانساني او الاقتصادى . يمكن مثلا التعبير عن قواعد سير مشروع من المشروعات الصناعية او الاقتصادية بنموذج رياضي . بل يمكن القول ان تقدم الرياضيات والعلوم الانسانية الحديث كان متصلا بدراسة الامور الخاصة او المفردة وبتحليلها . لا شك ان النموذج بطبيعته يشتمل على قضايا كلية ، ولكن احكام القضايا الكلية كانت تعجز وحدها عن ايضاح تلك الظواهر فكان لا بد من ان يُلحق بها بعض القضايا الجزئية او الاحكام المفردة .

هذه التوطئة البسيطة اردنا ان نقدمها للشرح بعض النموذجات الرياضية التي وضعها الباحثون لايضاح ظاهرة الهجرة الداخلية وقياسها . وتظهر محاولات تطبيق النموذجات الرياضية عليها جانبا من جوانب التطور فى تطبيق الرياضيات على العلوم الاجتماعية .

لقد ظن الباحثون منذ منتصف القرن التاسع عشر انهم يستطيعون ان يضعوا قوانين او نظريات عامة للهجرة . لقد درس **رافنستين** Ravenstein ظاهرة الهجرة فى انكلترا وعدد من المجتمعات الاخرى سنة ١٨٨٥ ، ولخص نتائج دراسته في سبع قضايا يمكن ان تعتبر مجموعها ضربا من النموذجات السكونية المشتقة من الواقع . وهذه الاحكام او القوانين هي الآتية :

١ ـ اغلب المهاجرين يؤثرون الامكنة القريبة والمسافات الشقة قل المهاجرون .

٢ ــ الناس الذين هم على مقربة من المدن الكبيرة يهاجر بعضهم اليها حين تزدهر الموارد الاقتصادية فيها ، والفراغ الذى يتركونه فى اعمالهم يملؤه مهاجرون ريفيون يأتون من الاماكن القاصية فى البلاد .

٣ ــ كل تيار للهجرة يقابله تيار معاكس يعدله .

٤ ــ اهل الحضر اقل اندفاعا نحو الهجرة من اهل الريف .

٥ ــ كلما كانت الهجرة قريبة أربى العنصر الانثوى فيها على الذكور .

٦ ــ تقدم الصناعة يزيد فى معدلات الهجرة .

٧ ــ رغبة الناس فى تحسين احوالهم الاقتصادية اقوى حافز لهم على الهجرة . هذا الى جانب حوافز اخرى غيره مؤثرة .

لقد مر نحو تسعين سنة على بيان تلك العلاقات ، وما زال اكثرها سليما وان كان غير حتمى . ومن المعلوم ان الامور الاجتماعية وعلاقاتها الجارية انما هي رهن التغير الدائم خلال الزمان بتغير الاحوال ، فهي « لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر » كما كان يقول **ابن خلدون.**

وكانت ميكانيك نيوتون مسيطرة على عقول العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يحسبون انه يمكن اعتمادها في مختلف الاعتبارات ومتفاوت البحوث ، فقربوا فى ايضاح ظاهرة الهجرة بينها وبين قانون تجاذب الكتل سواء كانت مغناطيسية او غيرها . ولما كانت الكتل هنا عبارة عن المدن والارياف زعموا اول الامر ان تيار الهجرة متناسب طردا بين كتلتي قطبين من السكان او مركزين لهم ، والكتلة هنا عدد السكان فى كليهما ، ومتناسب عكسا مع مربع المسافة :

$$ت = \frac{ك \times كَ}{ب^{2}}$$

يعتبر **زيبف** Zipf أن توزع السكان فى بلد ما ينظمه توازن قوتين متضادتين : قوة التنويع ، تيسر نقل المواد الأولية تيسيرا اقتصاديا الى مراكز الانتاج ، وقوة التوحيد ، تنظم نقل السلع والغلات الى المستهلكين . فالتوزع الحاصل يجعل نفقات النقل في حدها الادنى : وهي نفقات نقل السلع والاشخاص . ويختار العلاقة الآنفة على الشكل $\frac{ك \times كَ}{ب}$ ، فيطبقها على طائفة كبيرة من الارقام التي تتعلق بوسائل الاعلام والمواصلات « كالبرقيات والمخابرات الهاتفية وحمولات السكك الحديدية والباصات والطائرات » في داخل الولايات المتحدة . وقد عمد باحثان آخران هما **جون.ك.ستوارت** John, Q. Stewart **ووليام ورنتز** William Warntz من انصار ما ندعوه بالفيزياء الاجتماعية الى استعمال العلاقة فى رسم ما دعواه مصورات القوى الكامنة لتوزع السكان مستندين الى التشابه بين علاقتي زيبف ونيوتون . وهنالك خطوط متساوية الكمون كما فى الفيزياء .

ولما **درس تيودور اندرسون** Th. Anderson **مؤخرا احصاءات الهجرة في الولايات المتحدة** اعتبر العلاقة تي = ثا × (ك × كَ) / (ب^يه) ، ووجد أن (يه) فيها تتغير من ٤ر. الى ٣ر٣ . فالقيم الضئيلة تتعلق بهجرة اهل المدن ، والقيم المرتفعة تتعلق بهجرة اهل الريف ، وانها بوجه عام هبطت بعض الشيء فى غضون قرن (من ١٨٥٠ الى ١٩٥٠) . ومن الواضح ان (ثا) فى **العلاقة يمثل عددا ثابتا** آخر .

تلك العلاقة التي هي نموذج رياضي تدعى علاقة باريتو زيبف احيانا نسبة الى العالم الاقتصادى المشهور باريتو والى الباحث الذى عاود معالجتها . وهو نموذج بُني اول الأمر على اعتبارات نظرية محض . ولا شك انه هو وامثاله لا يشف عن سداد الفروض التي يستند اليها الا بعد عدد واف من الامثلة التي ينطبق عليها .

ثم ان الذى يسوغ وجود (ك) و (كَ) فى البسط (او الصورة) هو أولا ان عدد الراغبين فى الهجرة بالمكان الاصلي متناسب طردا مع عدد سكانه ، وان عدد وظائف العمل الفارغة في المكان المقصود متناسب ايضا مع عدد سكانها .

بيد ان هذا الفرض الأخير معرض للنقد ، وهو انه ان كانت تلك الوظائف الفارغة متناسبة في المكان المقصود مع عدد سكانه فذلك حين تكون حركة الهجرة قائمة على التعويض . أما حين تنشأ وظائف عمل جديدة فى المجتمع الاصلي او المجتمع الآخر فلا بد من تغير ذلك التناسب . وربما كان الافضل فى دراسة هجرة الغرباء الى البلد المقصود ان نعتبر (كَ) ممثلة لعدد الغرباء فيه لا لعدد سكانه .

ثم ان علاقة باريتو – زيبف تقدم لنا تناظرا دقيقا في التجاذب بين سكان منطقتين . ولا شك ان تيار الهجرة من منطقة مسماة الى منطقة ثانية تختلف شدته عنها من المنطقة الثانية الى الأولى . ولكن هذا الاختلاف يمكن تلافيه بتغيير العددين الثابتين حسب اعتبار النزوح من المنطقة او القدوم اليها .

نموذج الهجرة هذا من مزاياه البساطة . ومن السهل معرفة المتغيرات الداخلة فيه . ولذلك كثر استعماله مع تعديلات متعددة واعتبارات متفاوتة مشتقة من مجرد النظر او مبنية على الواقع .

بيد أن باحثين آخرين اقترحوا نموذجات اخرى طبقوها على الهجرة . ولا بد ههنا من ايراد بعضها لزيادة الفائدة . وهي تعطي نتائج قريبة من دستور باريتو زيبف ، ولكنها تقتضي ادخال عدد اكبر من الثوابت . ويزداد سداد تطبيقها مع زيادة هذه الثوابت .

اقترح **غ. كلدورف** G. Kulldorf علاقة اسية على الشكل التالي :

تي = ثا ط ــ ل (ب ــ هـ)

حيث (تي) عدد المهاجرين من المكان الاصلي ، (ثا ، ل ، هـ) ثوابت موجبة وحيث البعد بين البلدين ب ≥ هـ ، و ط هو العدد الأسي فى اللوغاريتم الطبيعي (e) .

ثم اقترح علاقة ثانية على الشكل :

$$\text{تي} = \frac{\text{ثا}}{\text{ب}} \; \text{ط}^{\frac{-(\text{لوب} - \text{ر})^{2}}{2\,\text{ى}^{2}}}$$

حيث ب > ١ . و (ثا ، ر ، ى) ثوابت ،(ولو) اشارة الى اللوغاريتم .

ان أ.هـ.جونسن O.H. Johnsson ينظرالى الهجرة على انها سيال يصدره مركز وتمتصه بيئة هي السكان المقيمون فى المكان المقصــود . والعلاقة عنده هي :

$$\text{تي} = \frac{\text{ثا ط} - \text{ر ب}}{\text{ب}}$$

(ط) العدد الاسي فى اللوغاريتم الطبيعي،(ر) ثابت الامتصاص ، (ب) البعد ، (ثا) عدد ثابت .

وكل من هــذه العلاقات النموذجية قــدتستعمل فى غرض آخر غير حساب الهجرة . فقد جربت هذه العلاقة الأخيرة في دراسة انتشار غبارالطلع من الازهار .

وقد تقدمت هذه الدراسات حين استطاع س.أ.**ستوفر** سنة ١٩٤٠ ان يقتــرح نموذجــا رياضيا استغنى في التعبير عنه عن ذكر المسافةالجغرافية المباشرة . فافترض أن عدد المهاجرين الى مسافة مســماة يتناســب طردا مع عــدد« وظائف العمل المعروضة » فى نهاية المسافة ، وعكسا مع مجموع وظائف العمل المعروضــة فىخلال هذه المســافة .

هنا تقع المشكلة في تعريف وظائف العمــلالمعروضة وحسابها . وكل ما يمكن فعله هــو حساب مجموع المهاجــرين الذين وصــلوا الىالمنطقة وكانوا مقيمين بها فى فترة الزمن المعتبرة أيا كان مصدر هجرتهم ، وهو ما اعتمده ستوفرنفسه . والتعبير الرياضي لهــذا النموذج هو :

$$\text{تي} = \text{ثا} \; \frac{\Delta\,\text{س}}{\text{س}}$$

(تي) هو دائما عدد المهاجرين مــن المكانالأصلي المقيمين فى المكان المقصود ، (Δ س) عدد وظائف العمل المعروضة فى المكان المقصود ، (س)عدد الوظائف المعروضة فى الدائرة التي مركزها نقطة تمثل المكان الأصلي ونصف قطرها ب الذىهو البعد الجغرافي . ويتمثل المكان المقصــــود بشريط دائرى عرضــه (Δ ب) محصــور بيندائرتين متحدتي المركز نصــفا قطــريهما ب ــ $\frac{\Delta\,\text{ب}}{2}$، ب + $\frac{\Delta\,\text{ب}}{2}$، فتكون ($\Delta$س) عددوظائف العمل المعروضة في هذا المكان الشريطي ، (س) عدد الوظائف المعروضــة في دائــرة ثالثةمتحدة المركز مع الدائرتين الأوليين ونصف قطرها (ب) .

وقد اقترح ســتوفر نمطا آخــر لنموذجالهجرة الرياضي أخذه ووسعه الباحثان **اومرغال** Omer Galle **وكارل تاوبر** Karl Taeuber نكتفي بالاشارة اليه خوف الاطالة .

وقــد نجح تطبيق هــذين النموذجين علىالهجــرات الامريكية نجاحا كبــيرا ، ولكنهما لم يمتنعا عن النقد ولا سيما حول ما يراد بالوظائفالمعروضة . فقد تتسع الصناعة اتساعا كبيرا فى منطقة ما ، فلا يشغل بعض الوظائف فيها وهكذااذا حسبنا عدد الوظائف بشاغليها لا يكونالحساب دقيقا . اما فى المناطق الريفية فالمزرعة تستطيع انتغذى شخصا جديدا مثلا دون زيادة وظيفة معينة

له . فالقياس الذي يقتضي حساب العدد الكلي للمقيمين في المنطقة ربما لا يقابل العدد الحقيقي للوظائف المعروضة . ثم ان عدد المهاجرين المتوقع الذي يقيس تيار الهجرة هو جزء من العدد الكلي للمهاجرين المستعمل في النموذج والمعتمد في قياس الوظائف المعروضة . فالنتيجة يتضمنها الفرض .

وثمة نموذجات رياضية للهجرة غير ما سبق تتناولها من جهة تطورها وتبدل شدتها في خلال الزمن ، وهذه يمكن ان ندعوها تطورية . وقد اقتصرنا على النموذجات القليلة الآنفة اذ كانت تشتمل على القليل ، المهم من المتغيرات كعدد السكان وعدد المهاجرين والبعد بين البلدين وعدد وظائف العمل المعروضة .

وللنموذجات اصناف كثيرة منها النظرى ومنها الوصفي ، منها السكوني ومنها التطورى ، منها الحتمي ومنها الاحتمالي ، وهلم جرا .

ومجمل الكلام ان عدد المهاجرين المتبادل بين منطقتين تابع طردا لقوة النبذ في المكان الأصلي ، وقوة الجذب في المكان المقصود ، وعكسا للبعد الجغرافي اى المسافة المكانية او لعدد الوظائف المعروضة في الطريق وهو ما يمكن تسميته بالبعد الاجتماعي .

● ● ●

القسم الرابع

الهجرة في البلاد العربية

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث ، فاذا نظر اليها على أنها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظر الى الدول القائمة فيها اعتبرها هجرة خارجية دولية . اما الموقف الاول فيسوّغه ان الشعب فيها يكاد يكون واحدا ، وقد اختلط بعضه ببعض في غمار التاريخ مكونا بلغته وثقافته وحضارته وعاداته وماضيه وامجاده وآلامه وآماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من ارسخ شعوب الدنيا كيانا واعمقها وجودا في الأرض وفي السماء .

واما الموقف الثاني فيسوّغه أن لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على أرضها وعضوية في هيئة الأمم ونظاما اقتصاديا وسياسيا يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين **تلك الدويلات** (التصغير هنا للتحبب) ، لأن اقامة الحواجز لا تستطيع ان تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية ولا ان تمسّ الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن ان تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين . واذا كانت اوروبا على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها وماضيها تتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالموكب الانساني الحضاري لا بد من ان تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات متعددة وان بقيت السيادة الكاملة لكل منها مصونة ومحصّنة.

وهكذا لا مندوحة من دراسة الهجرة فى كل دولة منها . وحقا تكاد تكون الهجرة على الرغم من تشابهها فيها من بعض الجوانب متفاوتة الخصائص جدا . ويحتاج تأمل الهجرة في كل دولة من تلك الدول وايضاح سماتها الى افاضة واسعة فى تأمل الأرقام وتبين التطور الاقتصادى والديمغرافي والاجتماعي والسياسي . وهذا يؤلف موضوعا يحتاج الى معالجة مستقلة ربما تتاح فى المستقبل القريب . ومع ذلك يجدر ذكر بعض الامثلة البسيطة مع الارقام للدلالة على جوانب من تلك الهجرة . وربما لا تميز هذه الأرقام أحيانا بين العرب والاجانب من المهاجرين .

لقد غدت بعض البلاد العربية مناطق تستقبل المهاجرين كامارات العربية المتحدة وقطر والكويت وليبيا والسعودية بسبب التطور الاقتصادى المتصل باستخراج النفط على ان بعضها الآخر كان وما زال مصدرا للمهاجرين كسوريا ولبنان . ونحن هنا نلم ببعض خصائص الهجرة فى الكويت ثم فى سوريا ولبنان .

الكويت بلد من اصغر البلاد في العالم ودخل الفرد فيه من أعلى المستويات . من أهم الملامح الديمغرافية لهذا البلد وجود عدد كبير من المهاجرين غير الكويتيين فيه وقد جاوزوا في العدد السكان الأصليين فى السنين الاخيرة . والجدول الآتي يعطي فكرة واضحة عن عدد المهاجرين والأصليين فى البلاد وهو يبين التركيب السكاني في أربعة تعدادات للسكان بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٧٠ .

السنة	الكويتيون	غير الكويتيين	المجموع
١٩٥٧	١١٣٦٢٢	٩٢٨٥١	٢٠٦٤٧٣
١٩٦١	١٦١٩٠٩	١٥٩٧١٢	٣٢١٦٢١
١٩٦٥	٢٢٠٠٥٩	٢٤٧٢٨٠	٤٦٧٣٣٩
١٩٧٠	٣٤٧٣٩٦	٣٩١٢٦٦	٧٣٨٦٦٢

معدل النمو السنوى العام فى الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٧٠ يبلغ ٣ ، ١٠٪

واذا طرحنا معدل النمو الطبيعي فى الكويت وهو حول ٥ ، ٣٪

حصل معدل فيض الهجرة وهو ٨ ، ٦٪ وهو معدل مرتفع جدا .

ويرجع هذا الارتفاع الى ان الاقتصاد الوطني يتسع اتساعا كبيرا لا مندوحة فيه عن الحاجة الى الطاقات البشرية . هذا برغم ارتفاع معدل النمو الطبيعي وتشجيع الدولة له وهو من أعلى المعدلات فى العالم .

ان معظم النشاط الاقتصادى يقوم به المهاجرون والجدول الآتي يبرز التفاوت بين الكويتيين والمهاجرين ذكورا واناثا فى عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ .

	النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان			النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان		
	ذكور	أناث	المجموع	ذكور	أناث	المجموع
الكويتيون	١٩ ، ١	٠ ، ٥	١٩ ، ٦	١٨ ، ٢	٠ ، ٦	١٨ ، ٨
غير الكويتيين	٥٤ ، ٠	٣ ، ١	٥٧ ، ١	٤١ ، ٥	٣ ، ٧	٤٥ ، ٢
المجموع	٣٧ ، ٦	١ ، ٩	٣٩ ، ٥	٣٠ ، ٥	٢ ، ٣	٣٢ ، ٨

ويتبين مما سبق ان سكان الكويت يزدادون بسرعة كبيرة وأن اكثر من نصـــف هذا الازدياد يعود الى الهجرة . ولا شـك انه في التقديرات السكانية لمستقبل الكويت تبرز الهجرة الخارجية عاملا من اهم العوامل الديمغرافيـــة . هذا وان شدة تيار الهجرة الى البلد ومنه مسـألة تتعلق بسياسة الدولة وهذا أمر لا يمكن توقع اتجاهاته المقبلة على الرغم من ان البلاد ما تزال بحاجة الى مزيد من الأيدى العاملة فى النشاط الاقتصـــادي لسنين عديدة .

الهجرة من سوريا ولبنان

هذه الهجرة قديمة العهد نسبيا وكانت فى الغالب تابعة لتيارات الهجرة العالمية كلما حصل تيار حمل معه فريقا من الســكان . والذى كان يسهّل هذه التبعية في السابق الاستعمار والضيق وتجزئة البلاد وقلة الاستقرار الاجتماعي وسوء توزيـع الثـروة . كان اللبنانيون يطلـق عليهـم السوريون ولهذا قرنّا ذكر سوريا ولبنان معا فى الهجرة .

حملت الهجرة أول الأمر السوريين الى بقية البلاد العربية ولا سيما مصر فأقاموا فى القاهرة والاسكندرية وهذا شيء طبيعي يجـرى فى بـلاد شقيقة . وكان فى طليعة المهاجـرين المثقفون هربا من الضغط التركي ثم التجار والعمال . ولما ان وصل تيار الهجرة العالمية في أواخر القرن التاسع عشر الى سوريا بدأت الهجرة تستخف السوريين دفعات قوية الى الولايات المتحدة حول سنة ١٨٩٠ ولكن القوانين التي وضعتها هذه البلاد في سـبيل الهجرة خففت تيارها . وقد جذبت المكســيك السوريين واللبنانيين اليها حتى بلغ عدد المهاجرين منهم خمسة عشر الف نسمة سـنة ١٩٢٧ . ثم صدف المهاجرون عنها للاضطهادات الدينية التي نشبت فيها ، وتحول القسم الأكبر من المهاجرين الى امريكا الجنوبية ولا سيما البرازيل والأرجنتين والاورغواى ، وبعضهم توقف فى بوليفية وفنزويلة . ثم شرع السوريون ينتجعون افريقيـة ولا سيما بعد سنة ١٩٣٥ . وقد حدثت الهجرة الى الشرق الأقصى بطريق غير مباشر اذ يسافر الســورى مبدئيا الى الولايات المتحدة ويجمع بعض الثروة ويعبر المحيط الهادى . وقد تحصل الهجرة الى تركيا وايران فى بعض الظروف . وما تزال الهجرة تجري نحو امريكا الجنوبية وافريقيـة وذلك ان بعض الأسر كانت قد هاجرت اليهما فهي تدعـو بعض أفرادها او أقربائها الى اللحاق بها . ويكاد يوجد السوريون واللبنانيون الآن في أغلب بقاع الأرض .

وقد بلغت شدة الهجرة من لبنان وسوريا بالنسبة لعدد السكان حدا جعل الشعراء يشيدون بالأوبـة ويَتفنّنون بالحنين الى الوطن . وربما استطاع الشعر ان يقول فى بعض الأحيـان ما لا يقوله النثر فى بيان آفات الهجرة . يقول الشاعر القروى :

ردّوا علـى الوطـن القـديم ترابــه ... هـــذا أقــل البــر يا غيّـــابه
ذاك الاهــاب الغضّ تحـت ثيابكــم ... بالأمس كــان اهابـــه وثيابـــه
تتعجبـون لضـــعفه ولـــو انكـــم ... فيـــه لكنتـم جنـــده وحـــرابه
ليـت الأحبـة عنـد ازمـاع النـــوى ... للغـرب أغلــق دونهـــم أبوابـــه
أو ليت بَـرْ الشـــام ادرك أن فـــي ... ســـفر الزنـــود العامـرات خـرابه

ويصعب احصاء المهاجرين السوريين واللبنانيين فى العالم ويزيد فى صعوبة هذا الاحصاء ان فريقا من المهاجرين تجنسوا بالجنسية الأجنبية . ويقدر عدد المهاجرين بمليوني نسمة تقريبا أكثرهم في أمريكا الجنوبية .

ويؤثر المهاجر مكانا على مكان في هجرته اذا كان له قريب أو صديق فيه والا تبع ذلك مجرى الصروف . وللاخبار المروية عن مكان الهجرة واحوال الآيبين منه والقوانين الموضوعة حول ذلك تأثير كبير . وتألقت نجوم كثير من المهاجرين فى ميادين الثقافة والادب والعلم والسياسة والاقتصاد . وأدب المهجر الحديث يذكرنا بأدب الاندلس القديم . ولكن تلك الجاليات بدات تنصهر فى المجتمعات الأجنبية شيئا فشيئا وتنسى ذرياتها لغتها الأصلية بالتدريج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا اليها ما عدا فريقاً آثر الاياب الى الاوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح امامه ابواب العمل والرزق فانكفأ الى اهليه . ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي اسرته فرجع حامدا نجعته .

ويبدو من ذلك ان لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة فى البلاد الاجنبية . ويضاف ان المهاجرين لا ينسون اهليهم فهم يمدونهم بالمال فى الحين بعد الحين . وتلوح هذه الهجرة الديمغرافية مستتبعة لهجرة مالية أضعف منها تجرى بعكس اتجاهها . هذا زيادة على الدعاية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية .

بيد أن مساوىء الهجرة أكثر من مزاياها اذ انها تلحق بالبلاد نقصا فى القوى الديمغرافية والاقتصادية . فالمهاجرون كما سلف شباب اوكهول اى هم فى سن العمل والانتاج . فلما هاجروا اضاعت البلاد فيهم رجالا منتجين ، كما تضيع فيهم مجموع النفقات التي استدعتها تربيتهم وتنشئتهم وريعها ، ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم المجمعة ان عادوا بها الى البلاد أو ارسلوا نصيبا ضئيلا منها الى أهليهم ، لأنهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتركوا في بعض المشروعات او استصلحوا الأرض فزادوا رأس المال هناك . ولو لبثوا فى بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد . ومع ذلك فثم مجال للمناقشة تتلامح جوانبه مما سبق فى القسمين الأول والثاني من هذا البحث ، وهنالك دراسات حديثة تقدر توزع اللبنانيين في العالم سنة ١٩٥٩ على الشكل الآتي :

امريكا الشمالية	٤٢٠ ٠٠٠	(منهم ٤٠٠ ٠٠٠ بالولايات المتحدة)
امريكا اللاتينية	٦٩٢٠٠٠	(منهم ٣٥٠ ٠٠٠ بالبرازيل) (و ٢٠٠ ٠٠٠ بالارجنتين)
افريقية	٧٠ ٠٠٠	(منهم ٣٠ ٠٠٠ فى مصر)
اوقيانوسية	٢٧ ٠٠٠	
اوروبا	٥ ٠٠٠	
جزر الكنارى أو الخالدات	٣٥٠	
آسية	١٥٠	(وربما كان هذا التقدير منخفضاً)
المجموع :	١٢١٤ ٥٠٠	

اى حوالي مليون وربع المليون . وفى تلك السنة نفسها كان عدد اللبنانيين اولي الجنسية اللبنانية فى لبنان نفسه مليونا ونصف المليون . وعندئذ يؤلف المهاجرون من اللبنانيين ٤٥٪ تقريبا من الرعايا اللبنانيين عامة . فكأن لبنان المثقف الممول يضع رجلا على الجبل فى ارضه ورجلا على اليابسه في ما وراء البحار .

اما الهجرة الخارجية الى سوريا ولبنان فقد كانت على دفعات بسبب بعض الكوارث كهجرة الأرمن على اثر مذابحهم سنة ١٨٩٤ و١٨٩٥ وبعد تسلط حزب تركيا الفتاة على الحكم . وكذلك هجرة الأشوريين سنة ١٩٣٣ . بيد ان أهم هجرة تلقتها سوريا بل أكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . انها غزو سياسي وعسكرى تحت ظاهر قومي لأناس ينتسبون لقوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى براء منه . وقد تسببت بجلاء الفلسطينيين الى مختلف البلدان . ولعل في الآفاق العالمية ما يبعث على الأمل فى احلال السلام وتوطيد العدالة .

هنالك هجرة دائمة بين سوريا ولبنان ، ولبنان هو الذى يتلقى الآن هجرة العمال السوريين لارتفاع مستوى الأجور وللنشاط الاقتصادي الواسع فيه . وقد تلقى ايضا هجرة الاغنياء والمتمولين السوريين مع رؤوس أموالهم المهربة اليه .

وربما كان من المناسب هنا أن نورد تحقيقا احصائيا بالعينة اجرته مديرية الأحصاء المركزى ببيروت على القوى العاملة بلبنان فى تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ ظهر فيه ان عدد الغرباء من عرب واجانب يبلغ حوالي ١٧٧٦٧٥ يؤلف المهاجرون العرب منهم ٩٠٪ والاجانب ١٠٪ . ذلك العدد لا يشمل الفلسطينيين الذين يقدر عددهم بحوالي ١٣٠٥٠٠ ممن يعيشون في المخيمات ، وربما وصل عددهم الآن الى ٣٠٨١٧٥ . اما مديرية الأمن العام فتقدر عدد الغرباء المقيمين فى لبنان بنحو ٥٦٤٠٥١ بالاستناد الى تصريحات الاقامة وتجديداتها . منهم ٢٧٩٥٤١ سوريا و ١٩١٢١٧ من بلاد عربية اخرى و ٩٣٢٩٨ من الأجانب .

واذا قدر سكان لبنان فى تلك السنة بمايقرب من ٢،٣٩٥،٠٠٠ فان الغرباء يؤلفون ربع السكان تقريبا (٢٣٪ بالضبط) .

اما الهجرة الداخلية فى سورية ولبنان فلاندحة من الالمام بها . اذ يهاجر الفلاح او القروى الى المدينة متى تعلم نظرا للبون الكبير بين حياة المدن وحياة الريف ولاتساع مجال العمل له فى المدينة . والريف السورى في الداخل على جماله مهمل للغاية . ولا يكاد المرء يجد فيه الضرورى من الشروط الصحية والاجتماعية والثقافية . ولوانه اخذ بالعناية والانعاش والتعهد وحسنت الأحوال الصحية والاجتماعية فيه لأمكن خلق تيارات للاصطياف والاستجمام على الأقل . ومن الناس من يغلب عليهم حب الطبيعة والميل الى الهدوء والتأمل فيؤثرون المقام فى الريف ولو بعض اشهر السنة .

ويهاجر الفلاحون المعوزون الى المدينة طلبا للعمل والرزق والكفاف ويقيمون عادة في ضواحيها قبل ان تنالها يد التنظيم . وقد يتشرد اطفالهم ولا يزال التشرد فى بلاد الشرق احدى الآفات الكبيرة . وتبعته لا تقع على الافراد فحسب بل على المجتمع الذى لا يعالجه معالجة ناجعة .

ويفد كثير من الفلاحين وفودا موسميا رجالاونساء الى المناطق الزراعية في موسم الحصاد ليقوموا به تلقاء بعض الأجور الزهيدة فتمتلىءبهم اسواق المدن قادمين اليها من القرى القريبة. وهم حين يكونون فى ساحات حمص وحماة بانتظارعقود العمل يقومون برقصات الدبكة الشعبية الجميلة الشائقة للتسلية . وقد ضؤلت هذهالتحركات بسبب دخول آلات الحصاد الحديثة .

كذلك نجد فى بادية الشام تحركا موسمياللبدو الرحل فى رعاية الماشية . وفى لبنانالشمالي هجرة موسمية طريفة يترجح بها سكان قريةزغرتا بين هذه القرية ابان الشتاء للاعمال الزراعية وبين قرية اهدن في الجبل للكسب حين يحلموسم الاصطياف .

وسوف يوزع الفلاحون فى سوريا علىاراضي الجزيرة توزيعا منظما بعد الانتهاء من سد الفرات .

على انه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الا اننوه بتيار من الهجرة جديد وفريد فى نوعه الى البلاد المتقدمة الغنية ، وهو هجرة العقول .ونخص هنا في البحث هذه الهجرة من سوريا .

هجرة العقول

ذلك ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطردالسريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهدالعلمية تلك الحاجة المتزايدة ، كما أن نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة . ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية المتقدمة تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة . ولهذاطفقت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالمالثالث .

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قداشتدت فى السنين الأخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذى أفادتهالدول المتقدمة فى المال وفى الوقت من هجرة العقول اليها قد عزز ذلك التيار ودعمه . وكلزيادة فى جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر . فقد المت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصرذلك التيار ولا سيما ان تلك العناصر فى الغالب ناشئة فتية تومضبالوعود . فكان فقدها في بلادهاالأصلية « ضِغثاً على إبّالة » كما يقول المثل العربي القديم . وليس ما يمنع تلك الدولالمتقدمةازاء الربح من رأس المال البشرى هذا من ان تضع لامتصاصه خططا سرية وعلنية باطنة وظاهرة .

انهذا التيار فىالحقيقةيندفعمنمختلفالبلاد متقدمة ومتخلفة بحسبالاغراء المادىوالظروف الملابسة . ولكن نسبة الكفايات الفكرية المهاجرةفي مجموع السكان لدى بعض البلدان المتخلفة أعلى منها لدى البلدان المتقدمة حين تهاجر طائفةمن علمائها ومفكريها الى بلاد اوسع منها وأكثر اغراء . ذلك ان بعض الكفايات العلمية فى ايطالياوفرنسا وانكلترا وغيرها تهاجر الى الولايات المتحدة ، على حين ان كثيرا من العناصر الفتيةالعلمية تهاجر من بلاد العالم الثالث الى مختلف نواحي العالم المتقدم .

والذى يسترعى الانتباه ازدياد عدد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى اوروبا والولايات المتحدة . وهذه الزيادةناشئة عن قوتي نبذ وجذب كما هو شأن تيارات

الهجرة عامة . قوة النبذ فى البلد الاصلى ضآلةالرواتب والاجور واضطراب الاحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشيءفيها ان يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضآلة فرص العمل العلمى وانخفاض المردود فيالبحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية فى بحثه وانتاجه ، على حينيقابل كل ما سلف فى البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية واعداد هائل من الاجهزةوالمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتتامالاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون اسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامنجوانب الرقي .

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الاصليةتستنزفخيراتها وتطيحبمواردها وتعوق تقدمها. ان العالم الذى اعدته بلاده قد كلفها نفقاتباهظة عليه ان يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه فى تقدمها ، وذلك انما يتم في سنيحياته المنتجة ، فكأن هجرته الى البلاد الغنية هدية من فقير معدم جمع بَلَغَ معيشته وقدمهاللموسر الثرى ليزيد ثراءه ويساره ، ولا سيما ان تلك السنين المنتجة سوف تمضي فى البلدالمقصود .

هنالك تخمينات كثيرة حول تلك الهجرةفى مختلف البلدان ، وبما يكون من المناسب ان نعطي مثالا واحدا على هذا النوع من الهجرة فيبلد عربي على الاقل وهو سورية .

تخمين هجرة الكفايات العلمية في الفترة ١٩٥٦ – ١٩٦٩

	الطب	الهندسة	العلوم الاساسية	الطب البيطري	الزراعة	الاسنان طب	الصيدلة	المجموع
ارقام تخمينية	٢٧٦٩	٣٠٤٩	١٣٩٢	٤٤	٤١٩	١٩٥	٣١٤	٨١٨٢
نسبة المهاجرين بين المختصين فى القطر	٪٦٥	٪٦١	٪٥٩	٪٥٠	٪٣٩	٪٣٤	٪٣٣	٪٥٧

من هذا الجدول يبدو ان اكثر من نصفالمختصين فى سوريا يغادرونها الى بلد آخر واذا علمنا ان البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاءالنازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة فى تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ،تبينتلنا العواقبالغاشمة لهذه الهجرة والمواقف العاقة لأولئك المهاجرين . ولا بد من اتخاذالتدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها واسباغ التكريم لهاوالعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر. وقد كان للعلم فى ماضي البلاد العربية أعلى مكانةوأجل شأن واسمى غاية . ومثل هذا الغبن واقع فى بقية البلاد العربية . وهو من العقبات العاتيةالتي تعترض فى سبيل تقدمها السريع . ولا شك ان الخسارة من هذا النوع تستدعى خساراتتالية متفاقمة . ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يَخرّج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلكخسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدانافراد متعددين ، ومبالغ طائلة وامكانات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغى اعطاء العالم مكانةطليعية فى تنمية المجتمع ، وتقديم أفضل الاحوال المناسبة ، وعونه على القيام بأعباء رسالته الفكريةوتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفى المجال العالمي ان امكن .

خاتمة

ان سمات الهجرة منذ الحرب العالميةالأخيرة تبدلت تبدلا عميقا في انحاء الأرض فقد اتسع اشراف الدول على تيارات الهجرةواستحكم ، ولا سيما عقب الفوضى التي استمرت طوال الحرب فى هذا الشأن فأصبح تيار الهجرةفى العصر الحاضر موجها او مأخوذا على الاقل بالضبط اى بالتشجيع أو التعويق حسبسياسات الحكومات . ثم ان اقواما جلوا عن مساكنهم وأوطانهم بسبب الحرب الغاشمة وبعضالاتفاقيات التي تلتها بعضهم استقر ، وبعضهم آب او يرغب فى الأوبة ، وبعضهم رغب فى هجرةجديدة . كل ذلك جعل هيئة الأمم المتحدة وطائفة من الدول تولي عنايتها الاشراف على أولئك الناسواعادتهم الى مواطنهم الأصلية ، او تتكفل مساعدتهم بوجه عام ، ولو الى امد محدود ،سواء كانوا لاجئين او منقولين او مهاجرين . وربما كان من المناسب في ختام هذا البحث انلقي نظرة على الهيئات العالمية والحكومية التي تجعل نصب اعينها الأشراف على تلك التحركات. فلقد تألف اكثرها بغاية هذا الاهتمام الى زمن محدود وهي :

١ ـ لجنة الحكومات لعون اللاجئين(C.I.R.)

٢ ـ ادارة هيئة الأمم المتحدة للعونوالتعمير (U.N.R.R.A.)

٣ ـ الهيئة العالمية لعون اللاجئين (I.O.R.) وقد خلفت المنظمتين السابقتين من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان مركزها جنيف .

٤ ـ اللجنة العليا للاجئين فى هيئة الأممالمتحدة (U.N.H.C.) أتت بعد الهيئة السالفة وجُدِّدت مدتها عدة مرات .

٥ ـ هنالك جمعية غير تابعة لهيئة الأممركزها جنيف تهتم بالمهاجرين الأوربيين وتساعدهم فى هجرتهم وهي (C.I.M.E.) تكونت سنت ١٩٥١ بمبادرة من الولايات المتحدة.

٦ ـ وثمة لجان اضيق مما سبق تهتمبالمهاجرين . منها لجنة في المجلس الأوربي ، ومنها منظمة الصليب الأحمر وغيرها .

٧ ـ وفى البلاد العربية وكالة غوث اللاجئين (UNRWA)تهتم باللاجئين الفلسطينيين . ولكنها على خلاف المنظمات السابقة لا تستطيع انتساعدهم على الرجوع الى أوطانهم . وجل عملها تخفيف البؤس الذى هم فيه .

تلك المنظمات على الرغم من اعمالها الجيدةلا تسمو الى غاياتها المجيدة .

والخلاصة أن الانسان بطبيعته يتداولهعاملا النبذ والجذب الاجتماعيان ، وتتنازعه قوتان : النزوع الى الحركة والتنقل والتغيير ،ثم الميل الى الهدوء والاقامة والمحافظة . فهو يضطرب ويقيم ، ويتحرك ويسكن ، وهلم جرا .وهو اينما حل وحيثما رحل يجازف ويركب الاخطار . وينجم عن كل ذلك ظواهر انسانيةواجتماعية ليست الا جزءا من الظواهر الطبيعية

العامة . لقد استعرنا فيما سبق لفظ التيار من بعض الظواهر الطبيعية كتيارات البحار والسيول والمد والجزر للتعبير احيانا عن ظاهرة الهجرة . ولما كانت الظواهر الطبيعية تحتاج الى التنظيم للاستفادة منها ولتوزيع خيراتها الثرة الثرية بدلا من التعرض لآفاتها المدمرة ، كذلك نرى لزوم الاهتمام بالظواهر الانسانية التي تنضوى الهجرة فى نطاقها ، لكي تنظم ، ان فى الداخل وان فى الخارج ، تنظيما معقولا يتحامى الفتن ويتلافى الكوارث ويمنع الحروب ويدفع النزاع ويسعى لوئام المجتمعات واسباغ العدالة والسلام فى ربوع أمنا الأرض .

على أننا فى عصر يؤذن كل شيء فيه بالتغير نظرا للتطور الكبير في التكنولوجيا . ولا احد يستطيع ان يستشف المستقبل وأن يتوقع ما فيه من مفاجآت . وربما جاء يوم فتح فيه فى باب الهجرة فصل يتعلق بعدد النازحين الى كواكب جديدة ملائمة .

* * *

معجم المصطلحات

عربي	انكليزي	فرنسي
احتمال	Probability	Probabilité
احصاء الهجرة	Migration statistics	Statistiques migratoires Statistiques de migrations
اقلية	Minority	Minorité
اعادة للوطن	Repatriation	Rapatriement
اكتظاظ السكان	Over-population	Surpeuplement Surpopulation
امتصاص	Absorption	Accomodation
انتـاج	Production	Production
اندماج	Integration	Intégration
انصهار	Fusion	Fusion
انطباع ثقافي	Acculturation	Acculturation
بطالة ، تعطل عن العمل	Unemployment	Chômage
تبادل السكان	Population exchange	Exchange de population
تخلخل السكان	Under-population	Sous-peuplement Sous-population
تصاريح الاقامة	Residence permits	Autorisation de séjour
تصاريح العمل	Labour permits	Autorisation de travail
تعايش	Coexistence	Coexistence
تفرقة السكان	Segregation	Ségrégation
تمثـل	Assimilation	Assimilation
جالية	Colony	Colonie
جلاء	Exodus	Exode
حتمية	Determinism	Déterminisme
	Gross migration	Migration totale
حجم الهجرة	Volume of migration	Volume total des migrations
حراك ، تحرك ، انتقال	Mobility	Mobilité

فرنسي	انكليزي	عربي
Mouvement naturel de la population	Natural population movement	حركة السكان الطبيعية
Mouvement général de la population	General population movement	حركة السكان العامة
Cycle économique	Business cycle	دورة التجارة
Visas d'entrée	Visas Entry permits	سمات الدخول ، تاشيرات الدخول
Voyageurs	Travellers	سياح
Politique migratoire	Migration policy	سياسة الهجرة.
Migration nette Balance migratoire	Net migration Balance of migration	صافي الهجرة او ميزانالهجرة
Pression démographique	Population pressure	ضغط السكان
Expulsion	Expulsion	الطـرد
Méthode de mouvement naturel	Vital statistics technique	طريقة الاحصاء الحيوى
Méthode des coefficients de survie.	Survival ratio technique	طريقة نسب التعمير
Durée d'absence	Length of absence	طول الغيبة
Emigration nette	Net emigration	فيض الهجرة
Immigration nette	Net immigration	فيض الهجرة
Listes de passagers	Passenger records Passenger lists	كشوف المسافرين
Réfugié	Refugee	اللاجيء
Durée de présence	Duration of stay	مدة الاقامة
Niveau de vie	Level of living Standard of living	مستوى المعيشة
Enquête	Survey	مسح
Taux de natalité	Birth rate	معدل المواليد
Taux de mortalité	Death rate	معدل الوفيات
Lieu d'origine	Place of origin	المكان الاصلي

فرنسي	انكليزي	عربي
Lieu de départ	Place of departure	مكان المغادرة
Lieu de destination	Place of destination	مكان الوصول
Lieu d'arrivée	Place of arrival	المكان المقصود
Personne déplacée	Displaced person	المنقول
Accroissement naturel	Natural increase Natural growth	نمو طبيعي
Accroissement brut	Total growth	نمو عام او كلي
Modèle	Model	نموذج
Migration	Migration	الهجرة
Immigration sélective	Selective immigration	الهجرة الاصطفائية
Immigration	Immigration	الهجرة الى البلاد (القدوم)
Migration de retour	Return migration	هجرة الاياب
Migration externe Migration extérieure	External migration	هجرة خارجية
Migration interne Migration intérieure	Internal migration	هجرة داخلية
Migration internationale	International migration	هجرة دولية
Emigration	Emigration	هجرة من البلاد (النزوح)
Migration saisonnière	Seasonal migration	هجرة موسمية



المراجع

العربية عامة

١ ـ المعجم الديموجرافي المتعدد اللغات ـ وزارة الثقافة ،القاهرة ، ١٩٦٦

٢ ـ عبد الكريم اليافي ـ في علم السكان ـ جامعة دمشق ، ١٩٥٩ .

٣ ـ عبد الكريم اليافي ـ فصول في المجتمع والنفس ـ دمشق ، ١٩٧٤

خاصة

٤ ـ القوى العاملة في لبنان ـ تحقيق بالعينة ـ مديرية الاحصاء المركزي بيروت ، ١٩٧٢ .

الانكليزية
عامة

1 — Multilingual demographic dictionary — English Section — United Nations Population studies, n°29, 1958.

2 — The determinants and consequences of population trends, ST/SOA/Ser.A/17 United Nations, 1953.

3 — Bogue, D. J., Principles of demography, U.S.A., 1969.

4 — Shryock, H. C., Siegel J.S. and Associates, The methods and materials of demography, Bureau of Census, U.S.A., second printing, 1973, Vol. 2.

5 — Spiegelman, M., Introduction to demography, Revised edition, U.S.A., 1970.

خاصة

6 — Demographic measures and population growth in Arab Countries, Cairo demographic centre, n°I, 1970.

7 — Eckwa — Demographic situation in Kuwait, pop. con. 5/E, 1974.

8 — Galle Omer R. and Taeuber Karl E., Metropolitan migration and intervening opportunities — American sociological review, 1966. Vol. 31.

9 — Hagerstrand, T., Migration and area
Lund studies in geography, n°13, 1957.
Geographic measurements of migration — Entretiens de Monaco en Sciences Humaines, 1962.

10 — Jerome, H., Migrations and business cycles
National bureau of economic research, N.Y. 1926.

11 — Khoury, F., From village to suburb
Order and change in greater Beirut
University of Chicago Press, 1974.

12 — Murad, J., Brain drain
Ecwa/pop. con. 1 up 6/E., 1974

13 — Olsson, G., Distance and human Interaction
a migration study, Geografiska annaler, vol. 47, 1965.

14 — Ravenstein, E.G., The laws of migration, Journal of the royal statistical society, 1885 and 1889 (U.K.).

15 — Stouffer, S., Intervening opportunities : A theory relating mobility and distance, American sociological review vol. 5, n°4, 1940.

Intervening opportunities and competing migrants Journal of regional science, vol. 2, 1960.

16 — Zipf, G.K., The P1 P2/D Hypothesis : On the intercity movement of persons American sociological review, vol. 11, 1946.

الفرنسية

عامة

1 — Dictionnaire démographique multilingue
Volume français — Nations Unies — Etudes démographiques n°29

2 — Hugon, P., Démographie, Dalloz, 1971.

3 — Landry, A., Traité de démographie, Ed. Payot, 1945.

4 — Sauvy, A., Théorie générale de la population, vol. 2, Ed. PUF, 1966.

5 — Courbage, Y. et Fargues, Ph., La situation démographique au Liban Tome 2 Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1974.

خاصة

6 — Courgeau, D., Les champs migratoires en France
I.N.E.D., cahier n°58, 1970.

7 — Dollat, L., Migrations humaines, „ Que sais-je ? ", n°224, PUF, 1965.

8 — Safa, E., L'émigration libanaise, Univ. St. Joseph, Beyrouth, 1960.

9 — Touma, T., Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les maronites au Liban du XVIIe siècle à 1914.

Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1971.

Un village de montagne au Liban (Hadeth-el-Jobbé), Paris et la Haye, 1958.

د . عبدالكريم أحمد

مشكلة التزايد السكاني وأثرها في تطور التربية في البلاد النامية

شهدت الاعوام القليلة الماضية ظاهرة ملفتةللنظر ، وتثير قدرا كبيرا من القلق ، هي التزايد السريع فى عدد السكان فى العالم . اذ تؤكد كل التوقعات أن عدد سكان العالم ، الذى يبلغ الآن اقل من اربعة آلاف مليون نسمه ، سيصل فيغضون ٤٠ عاما الى حوالي ثمانية آلاف مليون نسمة ، اى الضعف تماما اذا استمرت الزيادةبالمعدل الراهن . وبرغم أن هذه الزيادة ليست مفاجئة ، بمعنى أنها جاءت نتيجة لعوامل طبيعيةمعروفة تماما، فأنها برزت على السطح فى السنوات الأخيرة ، واتخذت ابعادا دفعت عددا كبير منالخبراء الاجتماعيين والاقتصاديين الى الاصرار على أنها باتت خطيرة فعلا وارتفعت أصواتهم تحذر من نتائجها ، وتدعو بشدة والحاح الى

تكتيل الجهود لمواجهتها ، وتؤكد ان « الانفجار السكاني » يهدد الحضارة البشرية كلها بكوارث فظيعة اذا نحن فشلنا في ايجاد الحلول الملائمة بهـا . (١)

ومنذ اربع سنوات أصدرت الأمم المتحدة دراسة عن حالة سكان العالم ، كانت العبارة الأولى التى استهلت بها هذه الدراســة هي :« يمكن أن نقول عن يقين أن العصر الحديث شهد تحولا ثوريا حقيقة فى ميزان تكاثر الجنس البشرى . . . فلم يتسن قط فى أى عهد من عهود التاريخ حفض معدل الوفيات بين البشر الى المدى الذى تسنى فى غضون السنوات المائة الأخيرة » . وتعقـد الدراسة مقارنة بين البلاد النامية والمتقدمة فى هذا الصدد، فتشير الى ان هذه الظاهرة السكانية (هبوط معدل الوفيات) بدأت فى البلاد المتقدمة . منذ منتصف القرن المـاضى ، امـا في البـلاد النامية فقد برزت الظاهرة الى الوجود « بروزاً اكثر فجائية واكبر حجما ابتداء من منتصف القرن الحالى فحسب » .

وقد يساعدنا على توضيح ابعاد هذه الزيادة ان نعرض صورة لتطور الزيادة السكانية فى العالم مستقاة من نتائج دراسة نشرتها منظمة اليونسكو فى مايو الماضى ضمن حملة التنبيه والتحذير التى أشرنا اليها .

كان عدد سكان العالم فى مطلع القرن الماضى، اى منذ أقل من ١٧٥ سنة ، حوالي الف مليون نسمة ، ثم زاد هذا العدد الى ٢٠٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٣٠ ، ثم الى ثلاثة آلاف مليون فى عام ١٩٦٠ ، وسيصل الى حوالى ٤٠٠٠ مليون فى العام القادم . اى أن عدد سكان العالم ، الذى زاد حوالي ٣٠٠ مليون نسمة فقط فى ستة آلاف عام، ثم زاد حوالي ٧٠٠ مليون نسمة فى الـ ٢٠٠٠ عام التالية ، (٢) زاد حوالي ١٠٠٠ مليون فى ١٣٠ سنة (من ١٨٠٠ الى ١٩٣٠) ، ثم الف مليون اخرى فى الـ ٣٠ سنة التالية (من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٦) ثم الف مليون ثالثة فى حوالي خمسة عشر عام فقط .

أن هذه الصورة الرقمية لاشك مقلقة ، وهي تفسر الى حد كبير تشاؤم القائلين بانه اذا استمرت الزيادة بهذا المعدل فان سكان العالم سيصلون الى ٦٥٠٠ مليون نسمة قبل نهاية هذا القرن .

وكما أشرنا ترجع هذه الزيادة الى عمليـة طبيعية بحتة لا تنطوى على عنصر المفاجاة ، فكلما تقدم الانسان فى مدارج الرقى صار أكثر قدرة على محاربة العوامل التى تجعل عمر الفرد اقل مما يستطيع ان يصل اليه بحكم تكوينه البيولوجي، مثل المجاعات والكوارث الطبيعيــة والامـــراض

---

(١) من اهم الشواهد على الخطورة التى يضفيهـا الخبراء على نتائج هذه الظاهرة ان الانباء طالعتنا مؤخرا بان هيئة الامم المتحدة دعت الى عقد مؤتمر عالمي ضخم يضم ممثلين عن ١٥٠ دولة للنظر فى مواجهة آثارها . وقد تم انعقاد هذا المؤتمر فى النصف الثاني من شهر اغسطس الماضي ، وقال كورت فالد هايم فى خطاب افتتاحه « ان هذا المؤتمر اخطر واهم مؤتمر دولي تنظمه الهيئة ـ اذ يتعين على المؤتمر ايجاد الحلول المناسبة لمشكلة الانفجار السكاني المصحوبة بانخفاض المواد الغذائية فى جميع انحاء العالم مما يهدد بحدوث مجاعات رهيبة وخاصة فى الدول النامية » .

(٢) يقدر الخبراء ان عدد سكان العالم قبل استقرار الجنس البشرى فى الزراعة (اي منذ حوالي ٨٠٠٠ عام) كان لا يزيد عن عشرة ملايين نسمه باى حال من الاحوال ، بل لعله كان اقرب الى خمسة ملايين . وانه بلغ ٣٠٠ مليون نسمه منذ الفي عام فقـط .

الوبائية ، والحد من آثارها المدمرة . وأدت ذلك بدوره الى انخفاض معدل الوفيات واطالة الفترة التى يستطيع فيها الفرد أن ينجب . وقد تحقق هذا التقدم كله تقريبا فى المائتى سنة الماضية ـ وهي الفترة التى زاد فيها عدد السكان من ١٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مليون نسمة دون أن نتنبه لمغزى هذا التصاعد السريع فى معدل الزيادة . وهكذا وجدنا أنفسنا لأول مرة فى التاريخ البشرى ، أمام « ثورة ديموجرافية » تهدد فى رأى البعض ، بكارثة ماحقة .

ولسنا فى حاجة ، ونحن حيال هذه الصورة الى تأكيد ان مثل هذا التزايد فى السكان له آثار عميقة على الجهود المبذولة لنشر التعليم وتحسين نوعيته ، وبخاصة فى البلاد النامية . فالجانب التربوى من الصورة يشير الى أن مجموع من هم فى سن الدراسة من (٥ الى ١٩ سنة) قد زاد فى الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨ حوالى ٢٠٠ مليون تلميذ ، اى بمعدل زيادة سنوية ٣٥ر٢ (٣) ويرى الخبراء ان متوسط الزيادة السنوية فى عدد هذا القطاع من السكان سيصل الى ٣٦ مليون نسمة سنويا طوال الربع قرن التالى ، اى أن على الاجهزة التربوية ان تستعد لمواجهة عبء اضافى على ما تحمله الآن يقدر بحوالى الف مليون تلميذ قبل ان ينتهى هذا القرن .

فاذا ادخلنا فى اعتبارنا ان هـذه الأرقام تنصب على العالم كله ، الدول المتقدمة والنامية على السواء ، وانها تمثل فى الواقع عبئا بالنسبة للبلاد النامية اكبر بكثير مما تمثله بالنسبة للبلاد الأخرى ادركنا بعض ابعاد المشكلة بالنسبة لنا ، وعندما نضيف الى ذلك الأعباء الاضافية التى تقع على عاتق الاجهزة التربوية فى المنطقة التى يعيش فيها كما سيأتى تفصيلا ـ والمعوقات الكثيرة الأخرى التى تقلل من فعالية اية جهود تبذل فى سبيل التغيير الاجتماعى عموما فيها ، نصبح فى وضع افضل لدراسة هذه المشكلة وتقدير متطلبات مواجهتها .

لقد حاولنـا في هـذه المقـدمة ان نعرض الخطوط الرئيسية للقضية المطروحـة ، ويبقى امامنا الآن ان نتناول كلا من هذه النقاط بشيء من التحديد فيما يتصل بالبلاد النامية ، ولكن قبل أن نخوض فى هذا الجزء من البحث ينبغي أن نشير الى حقيقتين هامتين ، تتعلق أولاهما بالقضية ككل ، والأخرى بظروف البلاد النامية بصفـة خاصة .

ان هذا التزايد المذهل فى عدد سكان العالم ، الذى بلغ من حدته أن صار يطلق عليه **« الانفجار السكانى »** ، ليس ظاهرة منعزلة ، بل هو جزء من تطور واسع النطاق يمثل ثورة حضارية شاملة فى جميع مناحي الحياة ، الاقتصادية والعلمية ، واكبها ـ ونجم عنها ـ تغير ضخم فى الخريطـة السياسية للعالم ، وبخاصة وضوح انقسام الجنس البشرى الى مجموعتين متميزتين من الشعوب ـ شعوب متقدمة واخرى نامية (٤) . وقد صاحب هذا التطور الضخم تطور آخر على صعيد الوعي الاجتماعي والفردى هو فى الحقيقة الذى يضفى على كل التطورات الأخرى مغزاها الحالى .

---

(٣) زاد عدد سكان العالم فى نفس الفترة اكثر قليلا من ٥٠٠ مليون نسمه اى بمعدل ٢٪ سنويا وهو اقل من معدل زيادة تلاميذ المدارس كما نرى .

(٤) يرى البعض ان اهم المشكلات التى يواجهها العالم الان ثلاث : زيادة الهوة بين الامم الغنية والامم الفقيرة . زيادة العدد المطلق للأميين . الانفجار السكاني (وقائع اليونسكو ١٩٧٢) . ولكن من الجلى ان هذا الرأى لا يمس الا بعض جوانب الصورة .

والحقيقة الأخرى التى نريد الاشارة اليهاهنا هي أنه من الخطأ ان نتصور أن كل المشاكل التربوية التى تعانيها البلاد النامية ترجع أساساالى ما يطلق عليه الانفجار السكانى ، فهناك عوامل اخرى عديدة يتطلب الأمر عرضها حتى تأتـيالصورة متكاملة ويمكن الاحاطة بالمشكلة وجذورها اذ ان البلاد النامية تختص بمجموعة من السماتالمشتركة التى لها أثر كبير فى تفاقم المشكلة وفيما يترتب عليها من ظواهر تربوية خاصة،ولا مندوحةامام الباحث من التعرض لهذه السمات اذا اراد ان يعطى انطباعا صحيحا عن القضية ، خصوصاوان هذه السمات تترك آثارا مباشرة وغير مباشرة فى كل مناحى النشـاط البشـرى ، الاقتصادىوالاجتماعي والسياسى ، فى هذه البلاد بحيث لا يمكن استيعاب خلفية أية قضية من قضاياها دونالالمام بها . (٥)

فكل البلاد النامية تقريبا تعرضت مثـلالسيطرة أجنبية ، واستغلال اقتصادى شوهـا نموها واضعفا بنيتها الاجتماعية والاقتصاديـةبصورة تكاد تكون متماثلة فيها جميعا ، ونحن وان كنا لا نستطيع أن نعزو كل ما بين البلاد النامية منتشابه فى السمات الى هذا العامل وحده ، الا انه لا ريبفى أن التشوية الذى تعرض له نموها بسببهكان له أثره الواضح فيها جميعا .

● ● ●

كان متوسـط المواليـد فى البلاد الناميـةوالمتقدمة على السواء حتى منتصف القرن الماضى يبلغ حوالي ٤٠ فى الالف والوفيات حوالي ٣٠ فىالألف ، ثم بدأ معدل الوفيات ينخفض فى البـلاد المتقدمة حتى وصل الآن الى أقل من ١٠ فى الالف،بينما ظـل ثابتا تقريبا فى البلاد الأخـرى حتى منتصف القرن الحالى ، اى منذ أقل من خمسةوعشرين عاما ، اذ ظل معدل الوفيات فيها فوق ٣٢ فى الألف . ولكننا لا نلبث أن نفاجأ فى السنواتالقليلة الماضية (ومما يسترعى الانتباه أن هذه الفترة ذاتها هى الفترة التى بدأفيها انحسـارالاستعمار الغربي) بهبوط معدل الوفيات فى هذه البلاد الى النصف تماما ، اى حوالى ١٦ أو ١٧ فىالالف ، كما صاحب ذلك بطبيعة الحال ارتفاع فى متوسط الأعمار من حوالى ٤٠ سنة الى اكثر منخمسين سنة .

وبذلك صارت المحصلة التى لدينا الآن هىانه اذا كان الجنس البشرى كله يتزايد فى الوقت الحاضر بما يقدر بحوالي ٧٠ مليون نسمة سنويا ،فان أكثر مـن ٥٥ مليون منها فى البلاد الناميـة وحدها ، بينما لا تتجاوز الزيـادة السنوية فىالبلاد المتقدمـة فى اوروبا وامـريكا الشـمالية واستراليا واليابان أكثر من ١٤ مليون ، اى بنسبة٤ الـى ١ .

وفيما يتصل بالأطفال،وهم العنصر الرئيسىحاليا فى الجانب التربوى من المشكلة ، فان معدل الوفيات بينهم فى البلاد النامية هبط من ٢٣٠ الى١٤٠ فى كل الف طفل ، بل ان بعضها هبط فيه

---

(٥) لا يفوتنا هنا ان نسجل ان ذلك لا يعني ان كلالبلاد النامية متطابقة بعضها مع بعض ، فهناك اختلافات واضحة بينها وتتفرد كل منها ، او كل مجموعة منها ، بعدةخصائص يجب ان تؤخذ فى الاعتبار عنـد محاولة اكتشاف الحلول الملائمة لمشاكلها . ولهذا السبب عمدنا الى تخصيصمكان خاص للبلاد العربية فى هـذا البحث . وفيما يتصـل بالسمات المشتركة بين البلاد النامية ، انظر مثلا « عبد الكريماحمد » « القومية والمذاهب السياسية » القاهرة ١٩٧٠ . حيث يوجد بحث مسهب حول الموضوع والاراء المختلفة فيهوقائمة بالمراجع التي تعالجه .

المعدل الى مادون ٣٠ فى الألف ـ حوالى المعدل السائد فى بعض اكثر البلاد تقدما . (٦) ويعنى ذلك ان على الأجهزة التعليمية أن تواجه زيادة سنوية فى مجموع من يجب تعليمهم تبلغ ٤٪ على الأقل من هذا المصدر وحده، بالاضافة الى الزيادة الأصلية .

كما يعنى من ناحية أخرى، لها صلة مباشرة أيضا بالواقع التربوى فى البلاد النامية أن أية محاولة لتحسين مستوى المعيشة وتحسين أوضاع الطبقات الأقل دخلا ، التي تتألف منها الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد ، مقضى عليها بالفشل الى حد كبير ، او على الأقل لا يمكن أن تصيب سوى نجاح ضئيل جدا ، لأن ارتفاع معدلات الزيادة السكانية تبتلع معظم نتائج الجهود المبذولة فى هذا السبيل ، كما يبدو بوضوح من نتائج التجربة الجزائرية والمصرية فى هذا المجال ، وهما من التجارب الرائدة التى كتلت فيها كل امكانيات المجتمع لتحقيق هذا الهدف .

وعندما نعود الى الجانب التربوى البحت نجد فى معظم البلاد النامية عاملين آخرين مهمين ساعدا على ذلك التدفق الرهيب الذى شاهدته المدارس فيها .

ففى مواجهة الاستعمار الأجنبي كان لمطلب « الاستقلال » والتخلص من النير الأجنبي والاستغلال الاقتصادى المصاحب له أولوية خاصة على الاهداف الأخرى فى هذه البلاد ، فكرست له شعوبها أكبر قدر من جهودها على حساب غيره من الأهداف ، ومن بينها العمل على تعليم أبنائها ، فظلت النسبة الغالبة بينهم محرومة منه . وقد حصلت معظم هذه الشعوب على استقلالها بعد نضال طويل ودام فى كثير من الحالات ، وكان على رأس هذه الحركات النضالية عادة قيادات من المثقفين من أبناء البلاد ممن لا ينتمون الى « طبقة » اجتماعية معينة ، وبحكم أن هذه القيادات تفتقد الى التأييد الطبقى فى دعم حكمها للبلاد بعد الاستقلال فانها لم تجد أمامها سبيلا سوى السعى للحصول على تأييد الجماهير . وفى الغالب كان من أهم ما قدمته القيادات الجديدة لجماهير شعوبها اتاحة فرصة التعليم وتيسير سبله وتخفيض نفقاته ، أو رافعها كلية عن عاتق التلميذ . ومن الجلى أن ذلك أدى الى تدفق سيل ضخم من الطلاب والتلاميذ مما القى عبئا ثقيلا تنوء به اكتاف الأجهزة التربوية فى هذه البلاد .

وعلينا أن نضيف الى ذلك مصدرا آخرا من مصادر زيادة عدد من يجب أن يتمتعوا بالخدمات التعليمية فى البلاد النامية، ونعنى به ظاهرة الاقبال على تعليم الفتيات فى مناطق كثيرة من هذه البلاد . فالى عهد قريب كان عدد البنات فى المدارس اقل بكثير من الأولاد ، وكان ذلك يرجع الى عزوف الأهالى عن ارسال بناتهم الى المدارس لاسباب دينية واقتصادية واجتماعية . ولكن فى الفترة الأخيرة بدأت تظهر فى عدد كبير من هذه المناطق اتجاهات اجتماعية تؤدى الى زيادة الاهتمام بتعليم البنات ، والنتيجة الطبيعية لذلك هى زيادة مجموع التلاميذ من ناحية ، وضرورة تغيير بعض جوانب مهمة من النظام التعليمي ذاته من ناحية أخرى . وكلها أعباء تعتبر جديدة ، ومفاجئة ، على الأجهزة التربوية خصوصا فى المناطق التى مازالت تطالب بأن يكون للاناث مدارس خاصة لا يختلطن فيها بالذكور .

---

(٦) جمعت هذه المعدلات والمتوسطات وما سبقها ، من نشرات هيئة الامم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة ومن النشرات الاحصائية الرسمية المتاحة التى تصدرها بعض الدول .

هذا ، ويلعب التركيب السكانى من الناحيةالعمرية دورا غير صغير فى زيادة المشاكل التربوية حدة فى البلاد النامية . اذ أن نسبة من هم فيسن الدراسة التقليدية ــ أى اولئك الذين بين الخامســة والخامسة عشرة على الاقل ــ الىمجموع السكان تزيد فى هذه البلاد عنها فى البلاد المتقدمة كثيرا ، ففى الأولى تبلغ هذه النسبةحوالي ٢٣ فى المائة ــ وتصل فى البلاد العربية الى ما يقرب من ٢٧٪ ــ ولا تكاد تصل فى الثانية الىأكثر من ١٨ فى المائة . وبعملية حسابية بسيطة نجد **أولا** : ان المجهود الذى يجبأن تبذله الأجهزةالتعليميــة فى البلاد الاقل حظـا تزيد ــ عندما يتساوى عدد السكان ــ حوالى ٥٠٪ عن المجهودالذى يلقى على عاتق الأجهزة المقابلة فى البلاد الاكثر تقدما بسبب هذا العامل وحده ، **وثانيا** ،بنفسالعملية الحسابية البسيطة نستطيع أن نتبين ان فى مثل هذه الأوضاع تكون نسبة ما يبقى بعد ذلكمن الســكان القادرين على الانتاج ــ اى أولئك الذين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين ــأقل فى البلاد النامية منها فى البلاد الأخــرى ، وبالتالــى فان عــدد مــن يمكن توفيرهــم للقيامبالخدمات التربوية ، وكذلك ما يمكن تخصصية من امكانيات مادية ، أقل بكثير ايضا . واذا اخذنافى الاعتبار ما نعرفه من ضعف انتاجية الفرد فى بلادنا عموما ، وانه لا يستطيع عادة ان يستمر فىالعمل الى الخامسة والستين (بل ان متوسط العمر نفسه لا يصل الى هذا السن (٧) ،وكذلكان نسبة كبيرة من الاناث فى كثير من المناطق النامية لا يسمح لها حتى الآن بالعمل أو تعمل فىأعمال غير منتجه مثل الخدمة فى المنازل ، لعزوف الكثيرين عن تعليم بناتهن كما أسلفنا ، استطعنا انتصور مدى العبء الكمى وحــده ، الذى ترزح تحته الاجهزة التعليمية فى البلاد النامية .

وقد اندفعت معظم المجتمعات النامية ، بعدأن تخلصت من الاستعمار مباشرة ، ولم يحدث ذلك الا منذ عهد قريب جدا بالنسبة لعدد كبيرمنها ، فى صراع مرير ضد عوامل التخلف الداخلية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . واعتبر قادةهــذه المجتمعات أن التغلب على الجهل بالذات ونشر التعليم على أوسع نطاق هو الضمان الوحيدللمحافظة على الاستقلال الذى حققته بلادهــم باعتباره الوسيلة الرئيسية فى القضاء على العاملينالآخرين وفى تحقيق التنمية التى تتيح لشعوبهم الحياة الانسانية الكريمة .

فاذا أضفنا الى ذلك أن القيم الاجتماعية تغيرتكثيرا فى معظم هذه المجتمعات بعد ان دخلت فى مضمار الدول المستقلة ، وخصوصا تلك التىمرت بثورات اجتماعية، بحيث أن « الجدارة » ــ التىتحولت فىالبلادالنامية الىمجردالحصولعلى« الشهادة المدرسية » ــ أخذت تحل محل الانتماء الاجتماعي فى بعــض المجتمعات ومحل المــال فىمجتمعات اخرى ، فى توفير الامتياز الاجتماعي والاقتصادى . وقد جعل هذا التحول فى القيمالتعليم الوســيلة الرئيســية للرقى الاجتماعــي والاقتصادى بالنسبة للافراد فى هــذه البلاد ؛وبذلك برز عامل آخر من العوامل التى حــدث

(٧) يبلغ متوسط عمر الفرد فى البلاد المتقدمة ٧١سنة ، ولا يتجاوز ٥٨ سنة فى البلاد النامية .

بالجماهير الى التدفق على المدارس . ودفعت القيادات الى زيادة هذا التدفق اشتعالا باعتبار ان التعليم هو العصا السحرية التى يمكن أن تحقق للمجتمعات سبل التقدم (٨) .

الا أن البلاد النامية فى اندفاعها نحو التعليم لم يكن لديها الوقت الكافى ، ولا الامكانيات الفنية والمادية ، لتطوير نماذج تربوية خاصة بها تسد احتياجاتها الحقيقية ، ولذلك عمدت فى أغلب الأحيان الى التقليد الأعمى للنماذج الأوروبية باعتبارها خلاصة ما بلغته « التربية الحديثة » من تقدم وفعالية. بل كثيرا ما رأينا بعض التربويين فى بلادنا يقبلون على نماذج ثبت فشلها فعلا فى البلاد التى وضعتها أصلا . كما سارع بعضهم الى التقاط أى اتجاه جديد فى تكنولوجيا التربية يظهر فى البلاد المتقدمة ــ التى تختلف ظروفها وواقعها تماما ــ حتى قبل أن يتثبت أصحابه انفسهم من صلاحيته . وقد ادى ذلك الى ارتفاع فى نفقات التعليم بشكل يتجاوز كل الحدود المتصورة للعائد منه ، كما كان عاملا مساعدا فى القضاء على النماذج التعليمية الخاصة التى كانت أصلا فى هذه البلاد ــ مثل « الكتاتيب » فى بعض البلاد العربية ــ وكانت هذه النماذج ذات قيمة تربوية لا تنكر ولكنها تحطمت باسم « **تحديث التربية** » دون أن تبذل أية جهود حقيقية لتطويرها بحيث تتفق مع التغيرات الكبرى الأخرى التى تمر بها المجتمعات النامية .

واكثر من ذلك ، كان من نتائج هذا الاندفاع فى تقليد النماذج التربوية الغربية أن أصبح النظام التعليمى فى البلاد النامية أكثر تأثرا باحتياجات البلاد المتقدمة التى نقلت عنها هذه النماذج منها باحتياجاتنا التى تختلف تماما . وقد كان لذلك آثار ضارة فى كثير من الأحيان ، ليس أقلها أنها ارغمتنا على زيادة الاعتماد على البلاد المتقدمة أكثر فأكثر ، فى حين أصبحت لدينا أعداد ضخمة من الخريجين فى مجالات لاحاجة بنا اليها ، ونقص واضح فى المجالات التى نحن فى مسيس الحاجة اليها فعلا ، مما نجم عنه مشكلة عسيرة الحل هى مشكلة بطالة ذوى المؤهلات العليا وما يترتب عليها من آثار اقتصادية وسيكلوجية واجتماعية سيئة . (٩) فمن الأمور

---

(٨) يعبر احد خبراء التربية فى معرض شرحه للجهود المبذولة فى تحديث « التربية فى جنوب آسيا عن وجهة نظر مقاربة قائلا : ان التعليم يمكن ان يصبح اكثر العوامل فعالية فى تضييق الهوة مع الوقت بين الرخاء والفقر ... اذ برغم ان التعليم لا يستطيع ان يساعد كثيرا على التقريب بين الدخول على المدى القصير ، فانه بالتاكيد يستطيع ان يفعل الكثير فى الراء حياة الفقراء كما فى حياة الاغنياء . ويختم رايه بان « المجتمعات النامية تستطيع ، بمعونة النوع الملائم من التربية ان تحقق اكتفاء وتوافقا قد لا يستطيع تحقيقها بعض المجتمعات الثرية » .

Prem kirpal ,, Modernization of Education in South Asia ; The Search for Quality.,, International Review_of Education No. xvII 1971.

(اوردها تقرير لجنة فور ص ٣

وبرغم ان الكاتب يسجل عدة اتجاهات فى هذه العبارة قد لا نتفق معه فى بعضها ، الا ان حديثه ينبىء عن مدى ما يعلقه بعض التربويين فى البلاد النامية على التعليم كدواء للامراض التى تعاني منها هذه البلاد وكوسيلة لتحقيق اهدافها.

(٩) يذهب بعض علماء الاجتماع الى ان اندفاع البلاد النامية فى الاخذ بالتنمية على الانماط الغربية ادى الى عدة نتائج ضارة بهذه البلاد أ ــ تركيز التنمية فى المدن على حساب الريف مما يؤدى الى اتساع الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدن والريف ب ــ صارت الانماط الانتاجية والاستهلاكية تعكس حاجات الاغنياء اكثر مما تعكس حاجات الفئات الافقر حالا ، ج ــ تزايد الاعتماد من جانب البلاد النامية على البلاد الغنية ، وتناقص القدرة على الاعتماد على الذات د ــ تحكم ايدى قليلة فى الانتاج واستبعاد الجمهرة الساحقة من التاثير فيها .

Peter Harper : ,, Prospects '' Vol. III No. 2 1973 P. 192.

والراى هنا ينصب على التنمية بمعناها الواسع الا أننا نرى باعيننا انه ينطبق تماما على التنمية فى المجال التربوى .

المسلم بها ان النظام التعليمي عندما يكون مجردتطبيق لنماذج قامت فى بيئة مختلفة يثير مشاكل ويترك فجوات تحدث أضرارا بالغــة علــى كل المستويات ويعرقل النمو الطبيعي للمجتمع الذى يتعلق به الأمر .

وعلى اكتاف هذا النظام التعليمي المشوه والأجهزة القاصرة القيت اعباء الزيادة المتصاعدة فى أعداد التلاميذ الناجمة عن الانفجار السكاني والعوامل الأخرى التى أشرنا اليها . وقد بذل العاملون فى الخدمات التعليمية فى بعض البلاد النامية ــ بمعونــة مشكورة مــن جانب بعض المنظمات الدولية ــ جهودا بطولية لمواجهة هذه الأعباء وبرغم ذلك كانت النتائج مخيبة للآمال وغير مرضيــة بالنسبة لجميع الاطــراف ، وتعالت الأصوات من كل جانب وتوالت الاتهامات بالعجز والتقصير وكثرت الحلقات والمؤتمرات واللجان المتخصصة لاستقصاء الأسباب وعلاج الحالة .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رجال التربية والمشتغلين بالخدمات التعليمية فى البلاد النامية ومحاولة تبرئتهم من هذه النتائــج التى خيبت الآمال البراقة الاولى المعقودة على التعليم . ولكننا لابد أن نسجل بعض المعوقات وجوانب النقص والأعباء الاضــافية الملقــاة على عــاتق الأجهزة التعليمية فى البلاد النامية حتى تتضح الصورة أكثر امامنا .

اولا : ان كل البلاد النامية تقريبا تمر ، بحكم ظروفها وتطلعها الى التقدم ، بفترة من الانتقال السريع من مجتمعات زراعية تقليدية الى مجتمعات تلعب فيها الصناعة دورا متزايدا فى الانتاج . ويصاحب هــذا الانتقال عادة قلقلة اجتماعيــة واقتصادية عميقة الأثر فى تكوينها ، كما تتطلب تدريبا شاقا على وسائل الانتاج الحديثة ، وتكوين المهارات والخدمات التي تفتقد اليها واللازمة لسير المجتمع الحديث فى جميع المجالات ــ ومن الجلى أن العبء الأكبر فى القيام بهذه المهام يقع على عاتق الاجهزة التربوية بمختلف انواعها ، بما فيها أجهزة تعليم الكبار .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الظاهرة ان اللهفة على التنمية الاقتصادية السريعة بهدف رفع مستوى المعيشة لدى شعوب طال حرمانها من كثير من مستلزمات الحياة ، دفع البلاد النامية الى تكتيل الجهود فى هذا الاتجاه وتكريس كــل الامكانيات المتاحة لهذا الغرض . وتحت هــذا الشعار ربط النظام التعليمى فى كثير من الحالات بالاحتياجات الاقتصاديــة فى اطــار ما يســمي « **بخطة العمالة** ». **ومن المعروف ان محاولة تنظيم البناء التعليمي بما يتفق مع متطلبات التوسـع الاقتصادى (الذى قــد يتطلب مثلا زيادة عدد الفنيين المتوسطين اكثر مما يتطلب زيادة عدد المؤهلين تأهيلا جامعيا) تواجه عادة عقبات شديدة ناجمة عن تطلع معظم التلاميذ الى الالتحاق بالتعليم العالى والجامعي ، لما يعود عليهم به مــن مزايا اقتصادية واجتماعية ، حتى عندما تكون الامكانات المتاحة غير كافية لاستيعابهم جميعا .** وعلــى الأجهزة التعليمية ان توفق بين هذه الاتجاهات المتعارضة والا تكون قد فشلت فى جانب هام من مهمتها .

ولا يسعنا هنا الا الاشارة الى أن الضعف المشهود للامكانيات المادية والفنية فى البلاد النامية يجعل قيام الاجهزة التربوية فيها بهذه المهام أصلا بطريقة مرضية مشكلة عسيرة جدا ، خصوصا

بالنظر الى أن من السمات المشتركة بين هـذه البلاد أنها جميعا تقريبا تعانى عجزا شديدا فى معظم الكفاءات الفنية والادارية الضرورية للقيام بالمهام التى تتطلب تدريبا علميا طويلا ومكلفا(١٠).

ثانيا : لا يقتصر العبء الملقى علـى عاتق الاجهزة التعليمية فى البلاد النامية علـى القيام بالمهام الخاصة السـابقة ، بالاضافـة الى المهام العاديـة التى تقوم بها الاجهزة المقابلة فى البلاد المتقدمة ، وفى ظل ظروف اجتماعية قاسية ونقص شديد فى العناصر الأساسية فى العملية التربوية ، هناك مهمة اخرى ضخمة تقوم بها هذه الأجهزة تتطلب جهودا شاقة وخبرات متعددة ومرونـة كبيرة فى مواجهة مشكلاتها، وهي مهمة محو الأمية. **فمن المعروف ان الأمية متفشية بشكل وبائي فى معظم البلاد النامية ، وقد بدات بعض هذه البلاد فى محاربة هذا المرض منذ عشرات السنين ، ولكن برغم كل الجهود المبذولة فى محو الأمية يزداد العدد المطلق للأميين عاما بعد عام (وان كانت نسبتهم لمجموع السـكان تقل) بسـبب النمو السكانى الكبير .** ففى حين كان عدد الأميين فى العالم ٧٠٠ مليون فى عام ١٩٥٠ صار يقدر بأكثر من ٧٨٣ مليون فى ١٩٧٠ — اى بعد عشرين عاما من الجهود المتصلة فى هذا المجال . فضلا عن ان نتائج التجارب العديدة التى نشاهدها فى ميدان محو الأمية فى مختلف البلاد النامية اثبتت بما يدع مجالا للشك أن الأساليب الحالية المسـتخدمة لاتحقق الأهداف المرجوة ، ولا حتى ما يقرب منها، فى المدة المحددة لها . ومازال أمام التربويين الذين يعملون فى هذا الميدان ان يبذلوا جهودا أكبر لبلورة الأساليب المثلى التى تحقق نتائجا أسرع واكثر ثباتا .

ثالثا : لقد تبين بالأحصاءات الدقيقـة أن هناك خسائرا كبيرة فى الطاقات والمال تحدث أثناء العملية التعليمية فى البلاد الناميـة ، من ابرز شواهدها ترك الدراسـة قبل انتهائها لأسباب مختلفـة ترجـع فى كثير مـن الأحيـان لأسباب اقتصادية . الا أن قسما كبيرا من هذا الفاقد يرجع أيضا الى عيوب فى النظم التعليمية يمكن تلافيها .

فالنظام التعليمي فى معظم البلاد النامية مثلا يعطى أهميـة خاصـة لاجتياز « الامتحان » فى الانتقال من سنة دراسية الى أخرى . ويؤدى ذلك الى نتيجتين مباشرتين . فهو يدفع عددا مـن التلاميذ الذين « رسبوا » الى الانصراف كليـة عن التعليم قبل أن يكونوا قد حصلوا اى شىء له قيمة دائمة وبذلك ينضمون الى جحافل الأميين ، كما تكون النفقات التى تكبدها المجتمع لتعليمهم قد ذهبت هباء . ومن ناحية أخـرى لا يخفف انصراف هؤلاء « الراسبين » عن التعليم من العبء الكلى لأن اعدادا مقابلة من الذين يرسبون يبقون « للاعادة » وهم كفيلون بزيادة العبء الى ما كان عليه أو أكثر . (١١) .

ولا شك فى ان جانبا غير صغير من الفاقد التعليمي الكبير الذى يزيد من تكلفة التعليم فى البلاد النامية ، ويلقى أعباء من نوع خاص على المدرسة يعود ايضا الى ضعف المستوى الصحى

---

(١٠) من الامثلة البارزة على ذلك ان الاستقصاء الذى اجرته اليونسكو في عام ١٩٦٦ حول الاوضاع التعليمية فى افريقيا جاء فيه أن خريجى العلوم يمثلون ٢ر. لكل ١٠٠٠٠٠من السكان ويقابل هذا الرقم ٢ر. ، ٤ر١ ، ٣ على التوالي لآسيا (بما فيها اليابان) وامريكا اللاتينية والبلاد العربية .

(١١) بدات بعض البلاد النامية فى الاتجاه الى تعديل نظمها التعليمية لتلافي هذه الظاهرة ، ولكنها ما زالت حتى الآن منتشرة على نطاق واسع وفى حاجـة الى جهـود جادة للتخلص منها بصورة مرضية .

بين التلاميذ ، بسبب سوء التغذية والعادات غير الصحية المنتشرة بين الفئات الأفقر حالا من سكان هذه البلاد ، وما ينجم عن ذلك من ضعف عام في مستوى التحصيل والأداء بينهم . لذلك نجد ان من الواجبات الرئيسية التى تطالب بها المدرسة الاهتمام بنوع خاص بصحة روادها ، بل وتغذيتهم مجانا فى كثير من الأحيان ، وما يترتب على ذلك من مجهود خاص للقيام بالمهام الكثيرة المتعلقة به .

رابعا : هناك نوع آخر من المهام التى تفرضها الظروف على العملية التربوية فى كثير من البلاد النامية تتطلب جهودا اضافية وتعقد المناهج وتقتطع جزءا غير صغير من وقت وطاقات الأعداد المحدودة المتاحة من المعلمين . ففى عدد من البلاد النامية ، وبخاصة تلك التى تتألف من جماعات مختلفة لغويا أو دينيا أو سلاليا وتسعى الى دعم وحدتها ، يقع على عاتق المدرسة دور كبير فى القيام بهذه المهمة وتطالب بالاسهام بنصيب الأسد عادة فى اعداد سكانها لتقبل فكرة الوجود فى دولة واحدة . ويكون ذلك شاقا بصفة خاصة فى البلاد التى تتعدد فيها الجماعات المختلفة لغويا وتجد المدرسة نفسها مضطرة الى القيام بمهامها المختلفة بأكثر من لغة مع المحافظة على عدم المساس بأى من القيم المتباينة التى يثير المساس بها حساسيات خاصة فى مثل هذه التجمعات السكانية المختلطة .

ويزداد هذا النوع من المهام تعقيدا عندما يكون على النظام التربوى فى بلد من البلاد النامية ان يواجه اختلافات كبيرة فى مستوى التعليم وانتشاره وكفاية عناصره بين منطقة ومنطقة داخل البلد الواحد ــ كما هو الحال بين المدينة والريف فى الأغلبية الساحقة من هذه البلاد . (١٢)

ولا يقتصر هذا النوع من المهام على البلاد المؤلفة من جماعات مختلطة ذات خلفيات حضارية متباينة ، وهي مهام لا يدرك عادة مدى تعقيدها وأثرها العميق فى العملية التربوية سوى من يعانونها فعلا ، بل يشمل جانبا آخر من المجهود التعليمى فى كل البلاد النامية تقريبا . فهذه البلاد كما أشرنا حظيت بالاستقلال بعد نضال شاق بحيث صارت المحافظة على هذا الاستقلال هدفا تربويا قائما بذاته ؛ ولذلك صار من واجبات المدرسة العمل على المحافظة على « الشخصية القومية » وبث « روح الوطنية » ودعم « الوحدة القومية » . وقد يبدو أن هذه المهمة ليست ذات شأن كبير بالنسبة لما أسلفنا من مشاكل ومهام ، وبخاصة ان شيئا من هذا القبيل يقع أيضا على عاتق المدرسة فى البلاد المتقدمة . ولكننا نستطيع ان نتبين الى اى مدى تحتل هذه المهمة مركزا متميزا بين أهداف التربية فى البلاد النامية ومقدار ما تستغرقه من طاقات ووقت ، عندما نراجع مقررات المؤتمرات والحلقات التى تتعرض لمشكلات التعليم وأهداف التربية فى هذه البلاد ، فان مطلب المحافظة على الطابع القومى وترسيخ دعائم الشخصية القومية يعتبر مهمة ذات أولوية خاصة نجد صداها بوضوح فى البرامج المدرسية والمواد الاضافية التى تلتهم جزءا غير صغير من جهود المدرسين والتلاميذ على السواء (١٣) .

●●●

(١٢) لا يقف الامر عند الاختلاف بين المدينة والريف ، فقد توجد هذه الاختلافات بين مناطق باكملها . ففي الهند مثلا تبلغ نسبة عدد المقيدين فى المدارس فى المرحلة الاعدادية ٧١٪ في كمبالا بينما لا تزيد عن ٢٢٪ فى بيهار . ويبلغ الفرق اكثر من ذلك فى السودان بين بعض المناطق الشمالية والجنوبية .

(١٣) انظر مثلا ما تيوز وعقراوى ، « التربية فى الشرق الاوسط العربي » ص ٦٩٣ ، وهو ترجمة عربية لدراسة قاما بها فى البلاد العربية من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ . وهما وان كانا يتحدثان عن هذه الظاهرة اصلا فى البلاد العربية فانها تشمل كل البلاد النامية باختلاف درجات نموها . ففي مؤتمر البندقية الذى عقد في ١٩٧٢ يعبر مندوب غينيا عن افكار من هذا القبيل قائلا « ان بعث ثقافة وطنية يعني تمكين البلاد من ان تجد من جديد روحها وتوازنها المنوى واعدادها لاستيعاب التقدم دون ان تذوب فيه » (وقائع اليونسكو . اكتوبر ١٩٧٢)

هذه هى بعض المهام التى تلقى على عاتق أجهزة التعليم والتربية فى البلاد النامية والعقبات التي تواجهها . وهذا هو جانب من الظروف القاسية التى عليها ان تقوم بدورها فى ظلها .

وعلينا ان نشير هنا الى ان « المدرسة » فى هذه البلاد يفترض فيها أن تقوم بهذه المهام جميعا ، بالاضافة الى المهمة التقليدية ، فى غمرة تطور سريع لا تكاد تستطيع ان تلاحقه ، وبدون أية مساعدة جدية من المؤسسات والوسائل التربوية الأخرى فى المجتمع ، مثل وسائل الاعلام الحديثة التى يفترض فيها أنها من الوسائل الأساسية فى التعليم (١٤) .

وعندما نأخذ ذلك كله فى الاعتبار نستطيع ان نتصور الدلالات الحقيقية للتزايد السكانى السريع ، الذى يزيد كل مشكلة من هذه المشاكل حدة ويجعل كل عقبة أكثر خطورة واصعب حلا ، وأن ندرك مدى تأثيره فى تطور التربية فى البلاد النامية .

وسنحاول ان نعرض بالتفصيل نتيجة واحدة من النتائج التى تفجرت بصورة يكاد يعجز معها الجهد التربوى عن تحقيق أى تقدم فى البلاد النامية ، وهى مشكلة « الكم والكيف » التى تعتبر اخطر ما يواجه التربويين فى هذه البلاد من قضايا .

ولكن لما كانت هذه القضايا كلها حيوية جدا وخطيرة حقيقة بالنسبة لبلادنا فاننا سنفرد السطور التالية لتسجيل دلالات ما تقدم بالنسبة للعرب .

منذ قرابة عشرين عاما القى احد رواد التربية الحديثة من العرب محاضرة يحذر فيها من مخاطر الزيادة السكانية السريعة ويعزو ظاهرة « أن الانسانية فى كثير من انحاء العالم تتعذب لما يعانيه الأفراد والجماعات من الم الجوع الى « الزيادة المطردة فى السكان » . ثم ينتهى الى ان هذه الحالة الأسيفة « حدت بأحد علماء الانتروبولوجيا أن يتساءل : هل لنا بعد هذا ان نعيب على الاسكيمو الذين يقتلون العجائز » ؟ (١٥)

وليس بغريب ان ترتفع احدى الصيحات الأولى للتنبيه الى خطورة المشاكل الناتجة عن التزايد السريع فى عدد السكان من بلد عربى . اذ أن عدد سكان البلاد العربية زاد فى غضون الستينات الماضية وحدها بنسبة تقرب من ٣٢٪ من مجموع السكان ، أى ان العرب زادوا حوالى ٣٠ مليون نسمة فى عشر سنوات بمعدل نمو سنوى ٢ر٣٪ ؛ وهو معدل لا تكاد تعرفه أية منطقة اخرى

---

(١٤) قد يكون من المفيد هنا ان نورد بعض الارقام التى تدل على ضعف ما يمكن ان يكون لوسائل الاعلام الحديثة من فعالية فى هذا الميدان فى البلاد النامية فقد قدرت نسبة الصحف فى افريقيا بنسخة واحدة لكل ١٠٠٠ من السكان ، وفى البلاد العربية ١٨ نسخة لكل ١٠٠٠ ، وفي اوروبا وامريكا ٣٥٠ لكل الف . وتقدر نسبة اجهزة الراديو بجهاز واحد لكل ١٠٠٠ فى افريقيا ، اما فى امريكا فعدد اجهزة الراديو اكثر من عدد السكان (١٣٣٩ لكل ١٠٠٠) . ومن اجهزة التلفزيون لا يوجد فى كل البلاد النامية سوى خمسة ملايين جهاز بينما يوجد منها فى البلاد المتقدمة حوالي ٢٤٥ مليون ، اى بنسبة واحد الى ٤٩ برغم من ان عدد السكان الاولى يبلغ ثلاثة امثال الثانية .

(١٥) د . امير بقطر فى محاضرة القاها فى ٢٦ ديسمبر ١٩٥٣ بعنوان « التربية الجنسية ومشكلة السكان » نشرت فى مجلة « التربية الحديثة » العدد الرابع ـ ابريل ١٩٥٥ . ونحن وأن كنا نختلف معه فيما يوحي به من أن السبب فى الجوع الذى يعانيه عدد كبير من سكان العالم هو مجرد « الزيادة المطردة في السكان » ، الا اننا اردنا ان نسجل هنا صيحة التحذير المبكرة هذه .

فى العالم ، وبما باستثناء بعض المناطق فى امريكااللاتينية . فأعلى معدل لتزايد السكان فى الفترة ذاتها فى البلاد النامية الأخرى هو حوالى ٦ر٢٪ ،بينما تكاد تقف الزيادة السكانية فى البلاد الاكثر تقدما عند ١٪ فقط . (١٦)

وتشـير الدراسـة التى اعتمدنا عليهـا فىتوضيح ابعاد هذه الصورة الى انه من المتوقع أن ترتفع نسبة الزيادة السكانية فى السبعينات الىاقل قليلا من ٩ر٣٪ أى حوالى ٤٨ مليون نسمة فى السنوات العشر من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ .

فما هـو نصيب المدرسة العربية من هذهالارقام ؟ فى عام ١٩٧٠ كان عدد من هم فى سن المدرسة من ابناء العرب (بين ٥ ـ ١٤ سنة)يبلغ حوالى ٣٣ مليون تقريبا ، ومن الطبيعي أن نتوقع زيادة هذا العدد بصورة يقول عنها كاتبهذه الدراسة انها« زيادة خطيرة ومحرجة » خلال السبعينات ، وهى حوالى ٣٤ مليون طفل جديد .اى أن الزيادة المتوقعة خلال السبعينات ستبلغ حوالي ٧٥٪ من المجموع فى عام ١٩٧٠ .

وتؤكد الدراسات التى تجرى حاليا فى بعضاجهزة الاحصاء السكانى والتربوىفى البلاد العربية ان هذه الارقام غير مبالغ فيها ، بل انها تكاد تكونأقل مما تسفر عنه المؤشرات المختلفه (١٧) .

الا ان المدرسة العربية لا تستوعب كل هذاالعدد كتلاميذ ، فهناك قسم غير صغير منهم ، بخاصة فى المناطق الريفية والصحراوية ، لا تراهمالمدارس . ولكننا نستطيع ان نتصور العبء الكمي علـى مدارس التعليم العام بمراحلـة الثلاث ،الابتدائى والاعدادى والثانوى ، عندما نرجع الى الارقام المتاحةفىهذاالصدد من النشراتالرسميةلبعض الدول العربية .ونستطيع أن نأخذنموذجا الاحصاءات التعليمية فى مصر ، اذ هى تمثل أكثرمن ثلث مجموع سكان البلاد العربية كلها .

فى العام الدراسى ٦٧/٦٦ كانت المدارسالابتدائية فى مصر تضم قرابة ثلاثة ملايين ونصف وفى عام ٧٣/٧٢ كان الرقم قد اقترب من أربعةملايين تلميذ ، بمعدل زيادة سنوية من ٣٪ الى ٥ر٣٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة .

وبلغ عدد تلاميذ المرحلة الاعداديةفى ٦٧/٦٦حوالى ٦٧٨ الفا ، ارتفع الى اكثر من مليون فى العام الماضى ٧٣/٧٢ ، بمعدل زيادة بين ٩ر٦٪ وأكثر من ١٠٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة . وفى

---

(١٦) الدكتور محمد الغنام « التربية فى البلاد العربية»(مطبوعات المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها فى البلاد العربية ـ بيروت) ص ٨ وما بعدها . وهذا المؤلف وثيقـةمهمة من الوثائق التربوية العربية تتضمن كثيرا من الاحصاءات والافكار المبنية على دراسة مستفيضة للواقع التربوى العربي.ويحدد الغنام المعدلات السنوية المتوسطة للزيادة فى البلاد العربية المختلفة (مستندا الى تقديرات قسم السكان فىمنظمةالامم المتحدة) مـن عام ١٩٦٣ و ١٩٦٨ كما يلـي : الجزائر ٩ر٢٪ ، السعودية ٧ر١٪ ، البحرين ٣ر٣ ، العراق ٤ر٢ ،الاردن ٣ر٣ ، الكويت ٨ر٦٪ ، ليبيا ٧ر٣٪ ، المغرب ٩ر٢٪ ، قطر ٦ر٧٪ ، مصر ٥ر٢٪ ، السودان ٩ر٢ ، سوريا ٩ر٢ ،تونس ٢ر٢٪ ، جنوب اليمن ٢ر٢٪ .

(١٧) تدل الاحصاءات التقديرية الرسمية فى مصر علىان عدد السكان زاد من حوالي ٥ر٢١ مليون فى ١٩٥٢ الى ٨ر٢٤ مليون بمعدل نمو سنوى ٣٨ر٢٪ من ١٩٥٢ الى ١٩٦٠و ٥٤ر٢٪ من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ ثم هبط الى ٢٤ر٢ بعد عام ١٩٧٠ ـ ويعزى الهبوط فى المعدل فى السبعينات الى نقصفى معدل المواليد نتيجة لحملات تنظيم الاسرة والارتفاع العام فى مستوى المعيشة والتعليم .

المرحلة الثانوية وصل عدد التلاميذ فى ٦٧/٦٦الى ٢٤٤ الفا ارتفع الى ٣٢٢ الفا بمعدل زيادة وصلت الى ٤٫٨٪ فى عام ٧٢/٧١ و ٣٪ فى العام الماضى (١٨) .

ونستطيع أن نخلص من هذه الارقام الى حقيقتين لكل منهما اثره البالغ فى الأعباء الملقاة على عاتق المدرسة العربيــة . الأولى هى أن عدد الخدمات التعليمية حاليا فى البلاد العربية لا تصل الا الى ثلث من يجب ان تصل اليهم على أحسن الفروض ، وان لنا أن نتوقع ان يتزايد هذا العبء بسرعة كبيرة فى السنوات القادمة . **والحقيقــة الثانية** هى أن معدلات الزيادة فى عدد تلاميذ التعليم العام مرتفعة عن معدلات النمو السكانى كما هــو واضح مــن معدلات الزيادة فى المرحلــة الاعداديــة فى السنــوات الثلاث الأولــى مــن السبعينات التى تفوق كثيرا معدل النمو السكانى فى اوائل الستينات. ولا شك ان الحقيقة الاولى تساعد كثيرا على تفسير هذا الارتفاع فى معدل زيادة التلاميذ بالنسبة لمعدل النمو السكانى .ولكن هناك أيضا اسباب أخرى هى بعض ما أشرنا اليه فيما يتعلق بالبلاد النامية. ولعل اوضح هذه العوامل ، وما يمكن أن نتحقق منه بالارقام ، هو الاقبال المتزايد فى مصر على تعليم البنات ، فقد ارتفع عدد التلميذات فى التعليم العــام بمراحله الثلاث ، ومعه دور المعلمين والمعلمات ، من حوالى ٦٢٣ الف فى عام ٥٤/٥٣ الى ما يقرب من ٢ مليون فى عام ٧٢/٧١ أكثر من ثلاثة ارباعه فى المرحلة الأولى الابتدائية ، اى ان هذه الاعداد ستتزايد أكثر فأكثر فى المستقبل القريب جدا (١٩) .

وهناك عامل آخر هام ، من العوامل التى سبقت الاشارة اليها عند الحديث على البلاد النامية عموما ، ينطوى أكثر من غيره على تفسير للاندفاع نحو التعليم فى مصر فى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، هو تغير وجهة النظر العامة الى التعليم واعتباره أحد العناصر الرئيسية ، بل والعنصر الأول ، فى التقدم الاجتماعي والاقتصادى مع التشجيع الكبير من جانب القيادات الحاكمة لهذا الاتجاه . ولا نعتقد أنه يمكن تفسير زيادة عدد التلاميذ المقيدين فى المدارس الابتدائية مثلا الى ثلاثة أمثاله فى اقل من عشرين عاما (من ١٫٤ مليون فى ١٩٥٣ الى قرابة ٤ مليون فى ١٩٧٢) الا اذا ادخلنا فى الاعتبار هذا العامل .

ولا يقتصر العبء الكمى الذى تتحمله معظم المدارس العربية على هذا التصاعد السريع فى عدد الاطفــال الجــدد . اذ الى جانب اولئك الذين لم يبدأوا تعليمهم بعد ، هناك أولئك الذين بدأوا المرحلة الأولى ولم يستطيعوا اكمالها لأى سبب ممن يجب تعليمهم منذ البداية . (٢٠)

---

(١٨) هبط معدل الزيادة السنوى في المرحلة الثانوية فى مصر من ١٦٫٩٪ فى ٦٧/٦٦ الى ٦٫٦٪ فى ٦٨/٦٧ ثم الى ٦٫٣٪ فى ٦٩/٦٨ و ٦٫١٪ فى ٧٠/٦٩ واخيرا الى ١٫٧٪ فى ٧١/٧٠ ثم عاد الى الاوضاع ثانيا الى ٤٫٨٪ فى ٧٢/٧١ ، وليس هناك تفسير ديموجرافي او اجتماعي واضح لهذا الهبوط الاخير . وقد يرجع السبب الى تعديلات فى بعض الاوضاع الاحصائية التي عدل عنها فى السنوات التالية .

(١٩) اخذت هذه الارقام من دراسة نشرها مركز التوثيق التربوى فى القاهرة عام ١٩٧٢ بعنوان « التربية والتعليم فى جمهورية مصر العربية » .

(٢٠) هذا ويقدر البعض بان قرابة نصف عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية لا يستمرون الى نهايته ويخرجون بعد سنة او اثنتين او ثلاثة ، اى انهم لا يمكن ان يكونوا قد استفادوا شيئا ويجب العمل على استعادتهم الى حظيرة المدرسة وتعليمهم منذ البداية . (نشرت الصحف القاهرية ان وزير التربية والتعليم فاجا بعض مدارس التعليم الالزامي ووجد ان اغلبية التلاميذ الذين مرت عليهم اربع سنوات ما زالوا لايعرفون القراءة والكتابة بصورة مرضية). والتقدير السائد بين المشتغلين بالتربية فى مصر مثلا ان حوالي ثلث الميزانيــة المخصصة للتعليم الالزامي يضيع بسبب هذه الفئة التى لا تتم تعليمها الى نهاية المرحلة الابتدائية ولا تكون قد استفادت شيئا .

ويؤدى التوزيع السكانى فى البلاد العربيةبين الريف والحضر الى زيادة الخدمات التعليمية صعوبة بالنظر الى الأوضاع السائدة فى الريفالعربي وانخفاض مستوى المعيشة فيه . ومن المعروف ان نسبة سكان المدن فى البلاد العربيةاقل من ٤٠٪ من مجموع السكان ويعيش الباقي فى الريف ـ بالاضافة الى نسبة صغيرة مازالتتعيش كبدو برغم الجهود المبذولة لتوطينهم وتعويدهم على الاستقرار الزراعى والحرفى . وبمعنى آخر فأن أكثر من نصف العرب الذين يجب ايصال الخدمات التعليمية اليهم يتطلبونجهودا مضاعفة فى ظل ظروف لا تتوافر فيها العناصر الأساسية للعملية التعليمية بصورة تتيحللاجهزة المختلفة أداء دورها التربوى بشكل جدى . (٢١)

وأخيرا ، وليس آخرا ، لا يسعنا هنا الاالاشارة الى أن البلاد العربية كانت من أوائل البلاد النامية التى اخذت بمفهوم تكافؤ الفرص التعليميةوتشبثتبمبدأ ديموقراطية التعليم وعملت جاهدة على تطبيقة (٢٢) .

وكانتنتيجة كل هذه العوامل توسعا ضخمافى التعليم امتد الى كل ركن فى الساحة العربية برغم الظروف الشديدة القسوة التى تحدثناعنها .

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هنا هو :هل امكن تدبير متطلبات هذا التوسع،من مدرسين مؤهلين تأهيلا ملائما ، وأبنية مدرسية وادواتكافية وكتب مدرسية ووسائل تربوية مساعدة فى مستوى لائق ؟ او بمعنى آخر هل امكنالاحتفاظ بالمستوى المأمول . (٢٣) وهو مستوى مرتفعالى حد كبير اذا صدقنا الشعارات المرفوعة،للتعليم ؟

يجيب على هذا التساؤل احد خبراء التربيةالعرب قائلا : هناك ما يشبهالاجماع علىانتوسع التعليمفيهذه البلاد لم يصاحبه بوجهعام تحسينمقابل لنوعيته ، بل ان هذا التوسع لم يحصل فى الغالب الا على حساب هذه النوعية ؟ (٢٤)

ان مشكلة الكم والكيف هذه ليست قاصرةعلى البلاد العربية كما أشرنا ، وليس السبب فيها هو التصاعد المستمر فى معدل الزيادة السكانيةوحدة، ولكن ،لاشكأن هذاالعاملهواحدالعوامل الرئيسية التى ادت الى هذه الظاهرة وزادتهاحدة وبروزا فى البلاد النامية كلها .

●●●

---

(٢١) ان ضعف الخدمات التعليمية فى الريف فى البلاد العربية امر ملحوظ استرعى انتباه معظم المشتغلين بامر التربيةفى البلاد . وقد كانت « قلة حظ ابناء الريف من فرص التعليم » احد اوجه النقص فى التعليم العربى التى سجلها مؤتمر وزراء التربية العرب الذى عقد عام ١٩٧٠ فى مراكش .

(٢٢) كان من مقررات مؤتمر وزراء التربية العرب المذكور تاكيد حق كل مواطن عربى فى التعليم بالقدر والجودة اللازمين للحياة العصرية .

(٢٣) جاء فى مقررات هذا المؤتمر ايضا « الاخذ بمفهوم التربية المستديمة المتكاملة انماء لشخصيةالانسان ، وتجديدا للمعرفة ، ومواكبة للتطورات العلمية والاجتماعيةفيعصر سريع التغير » و « أهمية تحقيق التوازن الكميوالتحسين النوعى للتعليم وكذلك بين الجوانب النظرية والعملية فى التربية المدرسية »

(٢٤) الغنام ، المرجع السابق ص ٣٠ . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد ان اكد ان جميع البلاد العربية تقريبا تشكو من نقص خطير في معظم عناصر العملية التعليمية من المعلمين الي المباني والاجهزة الى مستوى الكتب ونتائج الامتحانات .

كان التوسـع الكمى فى التعليم فى البـلادالنامية نتيجة شبه حتمية للعوامل العديدة التى اشرنا اليها . وقد صاحب هذا التوسع هبوطملحوظ فى نوعية التعليم فى معظم هذه البلاد .
فهل أصبح لزاما على قادة البلاد النامية وشعوبهاان يختاروا بين الكم والكيف ، بمعنى انه من المستحيل ، أو على الاقل من العسير جدا ، تحقيقالتوسع الكمى فى التعليم الا على حساب نوعيته مادامت الامكانيات المادية والفنية المتاحة قاصرةعن تحقيق الهدفين ، الكم والكيف معا ؟ وأنه اذا اريـد تخريج مواطنين متعلمين تعليما حـديثاوجيدا فلا بد من الحد من عدد الذين تتاح لهم فرص التعليم بحيثيصبح وقفا على نخبةمتميزةتختار على أساس معايير محددة ، مثل درجـة الذكاء أو القدرة على التحصيل أو القدرة علىالانفاق .

هذا هو ما يطالب به البعض الآن كما قالمدير عام اليونسكو فى تقريره الذى اشرنا اليـه سابقا . فهو يتحدث عن ذلك متسائلا : ان البعضيطالب الآن بالحد من سرعة الانطلاق الرائع الذى شهدته الستينات فى التعليم فى البلاد الناميةبحجة المحافظة على الكيف : فهل هذا هو الحل الأمثل ؟

وهل اذا سـلم الخبراء التربويون وقادةالبلاد الناميـة بوجود هـذا التناقص بين الكـم والكيف يسـتطيعون التحدث بعد ذلـك عـن« ديمقراطية التعليم » ، وهل تقبل شعوب البلاد النامية هذا الحل ؟

لاشك أن « ديموقراطية التعليم » هـدفتصبو الى تحقيقه كل الدول ، متقدمها وناميها على السواء . ولكن فى حين أن الدول المتقدمةاستطاعت ان تقطع شوطا طويلا فى تحقيقه فى ظروف مواتية وفى مدة زمنية مريحة نسبيا بحيثكان فى وسعها ان تتغلب شيئا فشيئا على كثير من المشاكل التى تواكب مثل هذه المسيرة ، فان البلادالنامية فى تطلعها الى تحقيقة بدورها وجدت نفسها فجأة تواجه انواعا جديدة من المشاكلالصعبة وبخاصة المشـكلة التى نتحدث عنها ، مشكلة الكم على حساب الكيف أو الكيف علىحساب الكم .

وقـد كثر النقاش حـول هـذه القضيـةواختلطت فيها المفاهيم بحيث تراكمت الأفكار والحلول بصورة تتطلب من الدارس أن يبذلجهدا خاصا فى تحليل مضامينها وتنسيقها حتى يستطيع أن يتبين خيوطها الأساسية .

ان أول ما يطالعنا فى هذا الخليط من الأفكارهو تساؤل يلح فى طلب اجابة واضحة تنير السبيل لما يمكن أن يأتي بعد ذلك ، وهو : ماهي مقتضياتالديموقراطية فى ميدان التربية ، وبمعنى آخر ماهو جوهر مفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ؟

من الملاحظ أن الاقبال المتزايد على التعليمظاهرة عامةفى جميع انحاء العالم وفى كل المجتمعات ايا كان مقدار تقدمها أو نموها وأيا كانت أوضاعهاالاجتماعية والسكانية أو ثقافتها أو مميزاتهـا الحضارية . ومن ناحية أخرى فان آراء الناسفى اى بلد فى العالم وتصوراتهم عن مجتمعاتهم فى المستقبل مهما تنوعت فان عنصرا رئيسيا مـنعناصر هذا التصور لا بد أن يكون تنمية الموارد الطبيعية والبشرية التى يملكونها .

فهل هـذا الاقبال هو نتيجة الرغبـة فىالتنمية ، أم أن هناك قيمة أخرى تتدخل فى الأمر بحيث لا يمكننا تفسير ديموقراطية التعليمفى ضوء هاتين الحقيقتين ؟

هناك اجابتان مختلفتان على هذا التساؤل ،تذهب احداهما الى ان ديموقراطية التعليم، وهي هنا مقترنة بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ، تعنى « مقعدا فى قاعة الدرس لكل راغب فى التعليم » فى المجتمع . وبرغم أن هذه الاجابةتنصب على ان المجتمع عليه ان يكفل مكانا فى المدارس لجميع ابنائه دون اشارة الى محتوىما يتلقاه التلميذ أو نوعية التعليم ، وبالتالي نوعية المواطن الذى تخرجه المؤسسات التعليمية، فليسهناك فى الوقت الحاضر ، فى حدود علمنا ، من يقبل هذا التفسير ، بل يصر أصحاب هذه الاجابةدائماعلى أنالكم يجبان لا يكون على حسابالكيف بأى حال ، وانهما يجب أن يسيرا جنبا الى جنبفى كل خطوة يتقدمها المجتمع الى الامام تربويا ؛ وان كانوا لا يحددون ماهية هذا « الكيف » أوالأسس التى يتصورونها لتحديده .

ويذهب اصحاب الاجابة الثانية الى أنديموقراطية التعليم هى أساسا مفهوم يتحقق بالارتقاء بالمجتمعككلتربويا وسد احتياجاتالتقدمتكنولوجيا واجتماعيا بحيث يعم « الخير » جميع أبناء المجتمع . فالديموقراطية هنا لا تنصب علىتكافؤ الفرص التعليمية لافراد المجتمع دون تمييز باعتبار أن ذلك هو « خير » المجتمع تربويا ، بلتنصب على « خير » آخر أكثر عمومية وأوسع نطاقا .

ولكن اول ما يتبادر الى الذهن هنا هوان تحقيق هذا الهدف يتطلب اختيار اكثر الأفراد قدرة على ملء الفجوات الموجودة ، او المتصورة ،فى البناء الاجتماعي ومنحهم فرصة أوسع ونصيبا اوفر فى المجهود التربوى للمجتمع . وهذا فى رأينابرغم أنه يخلصنا من مشكلة الكم والكيف من حيث تصبح الزيادة الكمية غير مطلوبة لذاتها ، ينطوىعلى نفى مباشر لمفهوم ديموقراطية التعليم، كما تفهمه أغلبية الناس عموما .

اذا أن الاهتمام تربويا « ببعض » افرادالمجتمع دون الآخرين ، ايا كانت المبررات « والخير » الذى يحققه ذلك ، يجعل من مبدأتكافؤ الفرص مفهوما مشوها ، خصوصا عندما نأتي الى المعيار الذى سيختار بمقتضاه المحظوظونوتعيين الحَكَم الذى سيضع مواصفات اولئك الذين يرشحون لملء الفجوات ، بل ومن الذىيحدد هذه الفجوات ؟ وهل معيار تحديد أولويات ملء الفجوات ـ حتى اذا اتفق عليها ـ هواحتياجات المجتمع القائم أم مجتمع المستقبل ؟ وغير ذلك من الثغرات الأخرى التى تخلق مشاكلاجديدة بدلا من أن تحل المشكلة التى تواجهنا أصلا .

ولنعد الآن الى تحليل الاجابة الاولى لعلنانخلص منها الى بعض الافكار التى قد تنير امامنا السبيل .

علينا أولا ان نسجل أن ديموقراطية التعليملا يمكن ، كما اسلفنا، أن تعنى مجرد تكافؤ الفرص للجميع فى الحصول على مقعد فى مدرسة ، او انيكون التعليم ـ بصرف النظر عن نوعيته ـ فى متناول كل راغب فيه ، بل انها تعنى أيضا وبنفسالقدر منالتركيز أن يكون مضمونالتعليم واهدافه مما يحقق الاهداف الديموقراطية بصفة عامة ،وان يرتفع مستوى الفرد من جميع النواحي معنويا وماديا ـ اي ان لا يكون مجرد وسيلةلاعداده لكسب لقمة العيش .

ومن ثم فان مجرد المساواة فى فرص الدخولفى المدارس لا تعنى التكافؤ فى الفرص التعليمية ، حيث أن اولئك الذين لديهم قدرة اقتصاديةمرتفعة يستطيعون الحصول على مساعدات

تعليمية اضافية تتيح لهم سد النقص فى الخدمةالتلعيمية التى يتلقونها مع زملائهم الأرق حالا ، كما يساعد على التفوق المدرسى على هؤلاء الزملاء ـ اى أن انخفاض مستوى الخدمات التعليمية تعنى فى الحقيقة تمييز « البعض » على غيرهم حتى وان وصلت هذه الخدمات الى الجميع .

نستطيع ان نخلص من ذلك اولا الى آنهلا ديموقراطية فى التعليم ، ولا تكافؤ فى الفرص التعليمية ، الا اذا سار التقدم فى الاتجاهين معا ـ زيادة مطردة فى عدد من تصل اليهم الخدمات التعليمية وتحسين فى نوعية هذه الخدمات ـ فهمايمثلان فى الواقع جانبين مترابطين تماما لقضية واحدة . وعلينا ان ندرك أنه برغم الضغوط الهائلةالتى يمثلها التصاعد الكبير فى النمو السكانى وغيره من العوامل الأخرى التى تزيد من التدفق علىالتعليم ، فان التوسع الكمى غير المصحوب بجهود مقابلة لتحسين النوعية لا يحل المشكل ،بل انهفى الحقيقة يخلق مشاكل جديدة أكثر خطورة وينحدر بفكرة التربية بأكملها الى مستوىالشعارات الديماجوجية التى تعتبر مرضا متفشيا فى كثير من البلاد النامية . بل ان شعوب هذهالبلاد ذاتها قد بدأت ، كما تدل الشواهد التى يستطيع ان يلمسها كل من يهمهم الأمر ، ترفض هذا النوع المشوه من التعليم وصرنا نسمع أصداء المطالبة بتحسين النوعية فى كل المحافل (٢٥) .

ان عدم التناقض بين الكم والكيف فى التعليم والترابط العضوي بينهما قد صار أمرا مسلما به من الجميع نظريا ، ولكن التطبيق الفعلى مختلفتماما . اذ يبدو أن الأجهزة التعليمية فى البلاد النامية وما يتوفر لديها من امكانيات مادية وفنيةأضعف من أن تتحمل اعباء هذه المهمة المزدوجة ، ومن المشاهد بصفة عامة ان النظام التربوى فىبلدنا عندما يعجز عن ملاحقة الزيادة في الاعداد أو سرعة التطور الاجتماعى ينخفض مستوىالخدمات التى يقدمها ، وهكذا تنشأ مشكلة الكم والكيف .

والواقعان الضغوط الاجتماعية والسياسيةالمختلفة التى أسلفنا الاشارة اليها دفعت العاملين فى الخدمات التعليمية فى البلاد النامية الى منحالأولوية للتوسع الكمى والتركيز على تخطى العقبات التى تعترضه بحيث اخذت القضاياالأخرى التى تتعلق بالمضمون والمستوى تتراجع عما هى جديرة به من اهتمام . فلم يعد لدىهؤلاء التربويين وقت او طاقة كافية لمواجهة القضايا التى يتطلب التغير السريع اعادة النظرفيها مثل علاقة التربية بالمجتمع وبالمتعلم نفسه او علاقة التربية بالمعرفة . بل ان المشتغلينبالتخطيط التربوى ، الذين يعتبرون الدعامة التى يعتمد عليها المجتمع فى المحافظة على التوازنالمطلوب بين الهدفين ، انصرفوا عن هذه القضايا ولم نعد نجد فىانشطتهم وكتاباتهم اهتماما حقيقيابالمستوى والمضمون .

وقد جاءت فقرة فى التقرير الذى قدمهمدير عام اليونسكو فى اوائل عام ــ ١٩٦٩ عن نشاط المنظمة ما يؤكد هذه الظاهرة اذ يقول :« ان الدور الأساسي الذى قامت به نظريات

---

(٢٥) جاء فى تعليق على مؤتمر وزراء التربية الافريقيةالذى عقد فى نيروبي ١٩٦٨ ، « ان المبدأ العام الذى يحظى الان بالتاييد والقائل بان النمو (الكمي) ليس هدفا يمكنتحقيقه بمعزل عن نوعيته وعن ما يسهم به فىالتوافق الاجتماعي والسعادة البشرية ، .ان هذا المبدأ ينطبق ايضا على التربية».

R. Ochs ,, Prospects '' Vol. III N2 Summer 1973.

التخطيط التربوى وتطبيقاتها لادماج التربية فى خطط التنمية فى بلاد العالم الثالث ومواجهة مقتضيات التزايد السكانى وانطلاق الأمانى الديموقراطية نتيجة للاستقلال ، ان هذا الدور يفسر دون شك ان تلك النظريات والتطبيقات كانت فى البداية تنحصر تقريبا فى النواحى والعوامل التربوية التى يمكن قياسها كميا ؛ ثم يستطرد مدير عام اليونسكو موضحا « كان تخطيط التربية يبدو وكأنه مقياس لكميتين : الأهداف من جهة والوسائل من جهة اخرى ، وفيما بين اعداد النماذج الاقتصادية القياسية من جانب ، واقامة اجهزة التعبئة من جانب آخر ، اغفلت حقيقة التربية ، وهى السلوك التربوى الانسانى ، حتى صارت فى المكان الثانى من الأهمية ... لقد كان تخطيط التربية ينظر اليه ويستفاد منه على الأكثر فى ترشيد التوسع الكمى للتعليم فى البلاد النامية».
ونحن وان كنا نوافق مدير عام اليونسكو على ان الضغوط المختلفة تفسر اندفاع المخططين التربويين لتكريس جهودهم فى الاتجاه الكمى واهمالهم لما اطلق عليه « حقيقة التربية » ولكنها ، فى نظرنا ، لاتبرر هذا الاهمال . كما تختلف معه فى ان ذلك حدث فى « البداية » فقط ، لأنه ما زال يحدث حتى الآن على جميع المستويات ولا يقتصر على التخطيط التربوى وحده ، بل ينصب على جهود الخبراء من كل نوع تقريبا فى ميدان التربية . اننا نرى بأعيننا ، بل ويشارك بعضنا مرغمين فى ذلك ، كيف يلجأ العاملون فى المؤسسات التربوية احيانا الى مواجهة الزيادة الكمية فى التلاميذ بواسطة اجراءات يعلمون تماما ما تحدثه من أضرار بالغة ، مثل تحميل احد عناصر العملية التربوية أعباء اكثر مما اعدت له لتخفيف الضغوط التى يتعرضون لها ـ فعندما لا تتوفر الامكانيات لبناء مدارس مثلا يضطر بعضهم الى الالتجاء الى نظام الفترتين فى اليوم الواحد فتستخدم الأبنية المتاحة لفريق من التلاميذ صباحا ولآخر مساء او يتجهون الى استخدام ابنية غير صالحة بالمرة كقاعات للدرس، وهم يعلمون تماما أن عدد المعلمين المتاحين وطاقاتهم لا يمكن ان تكفى لمواجهة هذا الاجراء الذى يلقى اعباء شبه مستحيلة على المدرسين وعلى العناصر الأخرى مما يترك اثرا بالغ السوء فى نوعية الخدمات التعليمية المقدمة ،ولكنهم يحتجون بأن عملية اعداد المدرس اللائق شاقة ومكلفة وطويلة وأن محاولة توفير المدرسين دون اعداد كاف أسوا تأثيرا فى النوعية فى نهاية المطاف .

ان مواجهة مشكلة الكم والكيف هذه لا تتحقق بالحلول الجزئية والجزافية أو الشعارات الديماجوجية الجوفاء والاجراءات التى تخفف الضغوط . ان الامر يتطلب حلولا جذريه شاملة تنصب على اعادة النظر فى اهداف التربية ذاتها واساليبها ونظمها . ان هذا ، فى رأى معظم من يعتد برأيهم من الخبراء ، هو الأمل الوحيد فى التوفيق بين مطلبين ملحين بنفس الدرجة لا معنى لديموقراطية التعليم الا بهما معا . وفي سبيل ذلك ينبغى عدم الضن بأى جهد لاجتذاب ذوى الكفاءات الرفيعة الى مهنة التعليم ودعم أجهزة البحث التربوى بأفضل الخبرات .

ان القدرة البشرية التى سجلت التقدم المذهل الذى عرفه العصر الحديث فى مختلف مناحى الحياة لا يعجزها ان تجد الحلول الملائمة لهذه المشكلة ـ التى لا يكون هناك معنى لأى تقدم اذا لم نحلها .

ومن الحلول المطروحة فى هذا الصدد محاولة الحد من النمو السكانى المطرد الذى يشهده العالم الآن . وبرغم أن الزيادة السكانية الضخمة ليست هى العامل الوحيد الذى أدى الى المشكلة الكبرى

التى يواجهها التطور التربوى الآن ، وبرغم أن علاج هذه الزيادة لن يؤدى الى أكثر من تخفيف الضغط وتأجيل الحاجة الملحة الى حل المشكلة فى جوهرها فان من واجبنا الانتهى هذه الدراسة قبل أن نسجل بعض الأفكار المتصلة بها .

الواقع أن وجهات النظر تختلف بشكل واضح فيما يتصل بخطورة الزيادة السكانية السريعة فى العالم وأساليب التعامل معها . فالبعض يذهب الى ان هذه الزيادة تهدد العالم فى المستقبل القريب بكارثة بحيث اذا لم تتخذ اجراءات حاسمة وسريعة فلن تمضى بضع سنوات حتى « يأكل الناس بعضهم بعضا » .

وهناك فريق آخر يجنح الى التفاؤل على أساس ان التقدم التكنولوجى الباهر الذى تحقق حتى الآن ، والذى يتحقق كل يوم ، كفيل بسد حاجات الملايين الزاحفة من البشر .

وبرغم ان هذه الفريق يعلن صراحة اعتراضه على التركيز المغالى فيه على بعض الاجراءات ، مثل تنظيم الأسرة وسياسات تحديد النسل ، بل ويعتقد دعاته ان الزيادة السكانية هى زيادة فى عدد الايدى العاملة ومن الممكن ان تكون ميزة كبرى اذا احسن استخدامها ، فأنه يتفق مع أصحاب الرأى الأول فى ان هناك حاجة ماسة الى اصلاحات جذرية ، اقتصادية واجتماعية وتربوية وسياسية ، على نطاق عالمى .

ولكن ماهى « الاجراءات » التى يقترحها كل من الفريقين ؟ يؤكد بعض اصحاب الرأى الأول ، وهم الذين يطلق عليهم « المالتسيون الجدد » New Malthusists ضرورة ايقاف النمو السكانى بصورة حاسمة عن طريق الوسائل الدعائية ان أمكن ، والا فبالاجراءات التشريعية ، بل وعن طريق التدخل البيولوجى اذا تطلب الأمر . كما يطالب هذا البعض كذلك بالحد من التعليم بحيث يقتصر على سد احتياجات العمالة .

وينظر عدد من دعاة هذا الاتجاه الى القضية على أنها أساسا مشكلة اخرى من مشاكل البلاد النامية ويجب معالجتها على هذا الأساس . فالهدف الجوهرى فى رأى بعضهم هو أن تحقق البلاد النامية معدلا متوسطا لنمو الانتاج القومي الاجمالى لا يقل عن ٦٪ ، لأنه بذلك اذا أمكن ايقاف معدل النمو السكانى عند ٥ر٢٪ زاد الناتج القومى للفرد بنسبة ٥ر٣٪ فى السنة وهذا كاف لمضاعفة الدخل المتوسط للفرد خلال عشرين عاما . (٢٦)

والملاحظة التى تسترعى الانتباه فى مثل هذا الرأى انه فى الوقت الذى تطالب فيه الدول النامية بالحد من التزايد السكانى ، نجد بعض الدول المتقدمة تسعى الى « استيراد السكان » ، فبرلين مثلا تدفع اعانة مهاجرين . وقد ترددت أصداء هذه الملاحظة فى أقوال المدافعين عن الاتجاه الثاني الذين يذهب بعضهم ، كما جاء فى مقدمة التقرير الذى وضعته اللجنة الدولية لتنمية التربية

---

(٢٦) دينال بهرمان « كيف يسخر العلم والتكنولوجيا فى خدمة التنمية » وهو مقال نشر فى « وقائع اليونسكو » اكتوبر ١٩٧٢ ، تعليقا على اعمال لجنة الامم المتحدة الاستشارية لتطبيق العلوم والتكنولوجيا في مجالات التنمية . ومن الجلى ان كاتب المقال يرى ان مضاعفة دخل الفرد فى البلاد النامية ـ على انخفاضه الشديد حاليا ـ فى عشرين عاما هدف كاف ، اما التطلع الى مستوى قريب مما تحقق فى البلاد الاخرى فامر فى رايه بعيد المنال وحتى ذلك الهدف المتواضع لا يمكن ان يتحقق الا بايقاف النمو السكاني عند ٥ر٢٪ سنويا .

برئاسة ادجار فور ، الى ان مثل هذه العلاجات من شأنها ان تدعم الفوارق غير العادلة القائمة الآن داخل كل مجتمع وبين الشعوب المختلفة وتعميقها وان تزيد من التشويه الاجتماعي الذى يعتبر لب المشكلة . (٢٧)

ويهاجم هذا التقرير وجهة نظر « المالتسيين الجدد » من ناحية اخرى ، على اساس انه حتى لو قبلت وجهة النظر هذه فانه من العسير جدا تطبيقها لضعف امكانيات التنبؤ باحتياجات العمالة ومواصفاتها فى ظل التغير الاقتصادى والتكنولوجي السريع والمستمر الذى يمر به العالم الآن ، وبخاصة فيما يتصل بالبلاد النامية.

وكانت التوصية التى انتهت اليها اللجنة صاحبة التقرير فيما يتصل بالربط بين التعليم والعمالة هي « ان هدف التربية فيما يتصل بالعمالة والتقدم الاقتصادى ينبغى الا يكون مجرد اعداد للشباب والبالغين لمهنة محددة بذاتها طوال الحياة ، بقدر ما يكون العمل على خلق أفضل الظروف والمواصفات للتحرك داخل المهن المختلفة وتوفير الحافز الدائم لاثارة الرغبة فى التعليم والتدريب لدى الفرد » ، وهى توصية تنطوى كمانرى على اتجاه معاكس تماما لما يدعو اليه المالتسيون الجدد .

ويعبر ، بصورة أوضح واكثر تأكيدا ، عن هذا الاتجاه المعاكس للمالتسية الجديدة بحث ألقى فى المؤتمر الذى عقدته اليونسكو فى باريس فى مطلع هذا العام حول موضوع « السكان والقانون » جاء فيه « ان نمو السكان يؤدى الى انجاز اقتصادى أفضل ، على المدى الطويل ، من الجمود السكانى » ، ثم يضيف صاحب البحث ان وجهة النظر القائلة بأن خفض معدل الزيادة السكانية فى البلاد النامية خطأ ، « وقبولها واصدار قوانين للحد من النسل على أساسها قد يؤدى الى مأساة » .

ومما هو جدير بالذكر ان وجهات النظر الرسمية المعلنة التى عارضت الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكانى تنقسم الى نوعين . فبعضها يتخذ هذا الموقف على اساس أيديولوجى ، والبعض الآخر يتخذه على أساس ما تمليه ظروفه الطبيعية والمادية .

فقد قال **المراقب الصينى** فى اجتماع لجنة السكان التابعة لهيئة الامم الذى عقد فى جنيف فى نوفمبر من العام الماضى « اننا قد تعلمنا من تجربتنا الخاصة انه غير صحيح وغير صادق القول بأن الزيادة السكانية هى السبب الرئيسى فى فقر البلاد فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وتخلفها ، وان اتباع سياسة سكانية يؤدى بصورة قاطعة الى حل مشكلات الفقر والتخلف » .

ويحدد السوفييت وجهة نظرهم فى هذه القضية على اساس ايديولوجي أوضح كما يأتى : « تدل التجربة التاريخية على أن النمو السكانى لا يمكن ان يكون عقبة للنمو الاقتصادى والثقافى. اذ لما كانت الحياة الاجتماعية أساسها هو مستوى الانتاج المادى وظروفه ، فان حل مشكلة المواءمة بين النمو الاقتصادى والاجتماعى والنمو السكانى لا يتطلب الحد من النمو السكانى ليتلاءم مع النمو الاقتصادى ... ، ولكنه يكمن فى تحقيق معدلات من النمو الاقتصادى تتجاوز معدل النمو السكانى وتضمن ارتفاعا فى مستوى المعيشة » .

---

(٢٧) Learning to Be من مطبوعات اليونسكو ١٩٢٧ . ولنا عودة الى هذا التقرير فيما بعد والى بعض التعليقات التى اثيرت حوله .

اما النوع الثانى من وجهات النظر الرسمية التى تعارض الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكانى فتمثلها بعض الدول النامية التى تملك مساحات شاسعة من الارض وموارد ضخمة بالنسبة لعدد سكانها مثل البرازيل وشيلى . وتذهب وجهات النظر هذه الى ان التركيز على مشكلة زيادة السكان بهذا الوصف ودون ربطها اصلا بالموارد الطبيعية غير المستغلة فى كل بلد امر غير مقبول ، فالبلاد التى تزايد عدد سكانها فى القرن الماضى اعتمادا على الموارد الطبيعية للبلاد الاخرى ــ وهى لا تزال تعتمد على هذه الموارد لرفاهتها ، بل ولحياتها حتى الآن ــ تريد من البلاد النامية ان تحد من الزيادة السكانية فيها حتى لا يزيد عدد سكان العالم الى حد يهدد بكارثة . اى ان البلاد التى يبلغ معدل السكان فيها بين ١٠٠ و ٣٠٠ لكل كيلو متر مربع لا تتحمل اية اعباء فى مواجهة الكارثة التى تهدد العالم ، فى حين يطلب الى البلاد التى يبلغ المعدل فيها اقل من ٢٠ نسمة للكيلو متر المربع ان تتحمل وحدها العبء الرئيسى فى علاج المشكلة .

ومن هذا المنطلق قال **مندوب شيلى** فى هيئة الامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧١ ان مشكلة النمو السكانى قضية مصطنعة تثيرها الدول المتقدمة كحجة تبرر بها تقاعسها عن القيام بواجباتها حيال المجتمع العالمى ، وان ما يتطلبه الامر حقيقة هو « مواجهة اسباب التخلف عن طريق زيادة المساعدات التجارية والمالية وتسهيل انتقال التكنولوجيا الحديثة والتعاون بين البلاد المتقدمة والنامية فى جميع ميادين المساعدة الفنية . »

ومن ناحية اخرى نرى بعض البلاد النامية الاخرى تتبنى وجهة النظر المعارضة على اساس انها « تدرك تماما أن رفع مستوى معيشة الفرد وحل مشكلة البطالة ، أو حتى ضمان استمرار المعدل الحالى للتعليم المدرسى ، يكاد يكون مستحيلا اذا استمر المعدل الحالى للنمو السكانى « كما قال مندوب تونس .

وبين البلاد العربية تبنت كل من مصر وتونس والمغرب سياسات تهدف للحد من التزايد السكانى ، فقد اصدرت الحكومة التونسية مثلا عددا من التشريعات فى هذا الاتجاه ، مثل رفع سن الزواج وتحديد المعونات العائلية لمن لديهم اكثر من ثلاثة ابناء ، واباحة عمليات الاجهاض .

وهكذا نرى ان القضية تتعدد فيها الاتجاهات بحيث لا يكاد يعرف عن يقين اى سبيل هو الصحيح ، ويعتمد اكثر الخبراء اتزانا فى الوقت الحاضر الى الاكتفاء باطلاق صيحات التنبيه والدعوة الى العمل على اكتشاف الحلول ، كما فعل مدير عام **اليونسكو** فى تقريره عام ١٩٦٩ الذى اسلفنا الاشارة اليه عندما قال « **المهم ان يعرف المجتمع البشرى الآن انه سائر فى عملية تحول سكانى وتقنى وفكرى وخلقى على نطاق لم يسبق له مثيل ، وان تغيير التعليم جذريا يقع فى صميم هذه العملية . وحل مشكلة التعليم ... عامل مؤثر فى درجة الوضوح والتمكن من فهم الانسانية لهذا التحول والسيطرة عليه ، ومن ثم فعليه تتوقف الى حد ما طبيعة هذا التحول » ، او كما فعل سكرتير عام هيئة الامم المتحدة فى خطاب اعلانه لعام ١٩٧٤ « عام السكان العالمى » قائلا « يولد كل سنة ١٢٧ مليون طفل ، ويبلغ سن الدراسة ٩٥ مليون فرد ، ويصل ١٩ مليون الى سن الخامسة والستين ،**

وينتظر أن يرتفع هذا المعدل فى المستقبل .. ان كل امة وكل مجتمع وكل اسرة يجب أن تقيم باناة مدى تاثير هذه الاتجاهات فى امالها فى الحياة الافضل وفى التربية الارفع وفى الصحة الاحسن وفى السعادة)) . (٢٨)

ان هذه التصريحات الرصينة تلم بأطراف القضية كلها تقريبا وتدعو الى العمل الجاد على حلها ، لكن بعض البلاد المكتظة فعلا بالسكان مثل مصر لا تستطيع أن تحلها بمفردها حلا جذريا يستأصل المشكلة من منابعها ، كما انها لا تستطيع أن تنتظر حتى يتكتل الجنس البشرى ويسخر قدراته العظيمة فى الوصول الى جوهر هذا التحول والسيطرة عليه ، وليس أمامها الا أن تلجا الى بعض الحلول الجزئية المطروحة لتخفيف الضغط والحصول على متنفس مؤقت : فترة من الوقت تمكنها من التقاط انفاسها وتتيح لها المشاركة فى ايجاد الحل .

وليس لهذا السبب وحده تلجأ بعض مثل هذه البلاد الى الدعوة لتحديد النسل وتنظيم الاسرة ، فللامر جانب آخر مهم جدا بالنسبة لها . فتنظيم الاسرة له هدف اخر ينصب على رفع مستوى ((الأسرة)) ـ وهى الوحدة البشرية الاساسية ـ وعلى تأكيد كرامة المراة والطفل بمنح المراة فرصة حرمت منها طويلا ومنح الطفل نصيبا أكبر من الرعاية الضرورية لنمو الكائن البشرى فى المراحل الاولى من نموه .

فالى عهد قريب جدا كانت المراة فى معظم المجتمعات التقليدية ينظر اليها على ان مهمتها الوحيدة فى الحياة هى الانجاب وتربية الاطفال والاعمال المنزلية الاخرى ، وان الرجل هو المسئول عن النشاط الخارجى الذى يوفر للاسرة الدخل الذى يعيش به . ولكن الملاحظ الان فى جميع بلاد العالم تقريبا أن عدد النساء اللاتى يعملن فى الانشطة الاقتصادية المختلفة خارج المنزل يتزايد ، بحيث بدات الفوارق بين الجنسين فى هذا المجال تزول شيئا فشيئا . وكان من آثار ذلك أن بدأ الاتجاه الى تعليم الفتيات لاعدادهن للقيام بأعمال أفضل تدر عائدا اقتصاديا اوفر ـ وليس لاعدادهن لحياة أفضل وأسعد فى مجتمعاتهن . وقد آن الاوان لتغيير هذا الاتجاه والاهتمام بالمراة لذاتها ، ولعل الجهود المبذولة فى بعض البلاد لتنظيم الاسرة تكون بداية خطوة سليمة فى هذا الاتجاه .

كما انه من الملاحظ أن أطفال الاسر الصغيرة العدد يتمتعون عادة بصحة أفضل ومستوى اقتصادى وثقافى أرفع ، ومن هنا أيضا كان تنظيم الاسرة هدفا ضروريا اذا أردنا لابنائنا حياة أسعد .

ولكن ما الحل فى القضية الرئيسية التي يدور حولها البحث ، قضية تزايد السكان بهذه الصورة المذهلة ؟

ان القضية من الخطورة بحيث تتطلب منا وقفة قصيرة من التأمل نحاول فيها البحث عن الطريق المؤدى الى حل . فالعالم يمر الآن فعلا بمرحلة من التغير السريع الذى كادت أبعاده تفلت من مقدرة البشر على الاستيعاب والمحاولات التى يبذلها خبراء التربية ، والخبراء الاخرون فى

(٢٨) The Unesco Courier مايو ١٩٧٤ . وهو عدد خاص أصدرته المنظمة بمناسبة ((عام السكان العالمي)) بعنوان ((وغدا كم سيكون عددنا)) .

مختلف الميادين الاجتماعية والتقنية للحاق بالتغير السريع ، ومحاولة التنبؤ بخط سيره في كل من هذه الميادين لم تحقق حتى الان النجاح الذى يتوقعه أولئك الذين يحسنون الظن بالتقدم الذى بلغه الانسان فى العصر الحديث .

ولسنا هنا بمعرض البحث عن حل شامل للقضية بجميع جوانبها العديدة ، وكل ما نطمع فيه هو اثارة بعض النقاط التى قد تفيد فى تحديد الطريق الذى يمكن أن نسير فيه سعيا وراء حل للجانب التربوى منها .

ولكن برغم أن التربية ، كما يقول تقرير « لجنة فور » ، عالم قائم بذاته ، فأنها فى الوقت ذاته انعكاس للعالم كله . انها جزء من المجتمع تعمل على تحقيق اهدافه وتنمية موارده ، ولكنها أيضا تؤثر فيه ربما أكثر من أى عامل مفرد أخر .

فما هى حقيقة المشكلة التى تواجه التربية الآن ؟

ان المشكلة الحقيقية فى اعتقادنا هى أن الانماط التربوية التقليدية التى حددنا أنفسنا داخل اطارها فى البحث عن الحلول هى فى الواقع أنماط قامت أصلا لفائدة قلة فى عالم يعيش فيه الكثيرون ، مثلها فى ذلك مثل الانماط الاقتصادية والاجتماعية التقليدية الاخرى . وعندما بدأت القيم التى تعتمد عليها هذه الانماط تنهار فوجئنا بأن هؤلاء «الكثيرين» يريدون أيضا ، ومن حقهم ، ان يحصلوا على ما كان متاحا للقلة فقط . وعندما عجزنا عن ايجاد الحلول على أساس الانماط التقليدية تهيجنا واتجهنا الى تحطيم ما هو قائم دون تفكير جدى فى البديل . لقد حطمنا الاسس التربوية القائمة وهبطنا بمستواها الى الحضيض تقريبا واكتفينا بأن نلقى التبعة على مشكلة « الكم والكيف» لاننا عجزنا عن ايجاد الحلول ـ وكان من الطبيعى أن نعجز مادمنا قد كبلنا أنفسنا مقدما بأسس ونظم وأساليب تربوية لم تعد صالحة أصلا لمواكبة التغييرات الكبرى التى يمر بها الجنس البشرى الان . ان التغيير المطلوب صعب ، ومحاولة القيام به على الاسس التقليدية مستحيل .

ومن المعروف ان تغيير النظام التربوى فى مجتمع ما حتى يتكيف مع الظروف المتغيرة أمر عسير ، لان النظم التربوية تملك على حد قول البعض ، قوة دفع ذاتية تدفعها الى المحافظة على ذاتها والى مقاومة التغيير . ولكننا لا نتحدث هنا عن صعوبة تغيير النظام التربوى فى مجتمع ما ، بل نتحدث عن الصرح التربوى القائم بأكمله ، نتحدث عن ـ « وجهة نظر » الجنس البشرى فى طريقة حياته بأكملها ، وعن تغيير أسس الحضارة الغربية التى سادت العالم المعاصر بأكملها .

اننا نتحدث عن ثورة يجب أن تقوم داخل عالم التربية حتى تواكب التغيير الثورى الذى يمر به العالم وتمهد السبيل لوجهة نظر جديدة تجعلنا فى وضع أفضل لحل المشاكل الكبرى التى نواجهها . ان ربط التخطيط التربوى «بالعمالة »مثلا قد أصبح الشعار المفضل فى معظم البلاد النامية ، وبعض البلاد المتقدمة ، برغم اننا جميعا نعرف عن يقين أن التعليم عندما يوضع فى خدمة التنمية الاقتصادية يؤدى الى التركيز على تنمية احدى قدرات المتعلم على حساب قدراته الاخرى ويخلق منه كائنا ذا جانب واحد . فهل فكرنا فى ربط « العمالة » بميول الناس وقدراتهم بدلا من اخضاع هذه القدرات والميول للعمالة ؟

ان تقرير لجنة فور الذى اشرنا اليه يعتبر **من السمات** التى تتميز بها التربية فى العصر الحديث ان نموها يجنح الان على نطاق العالم ، ولاول مرة فى تاريخ البشرية ، الى ان يسبق التنمية الاقتصادية ، بعد ان كانت التربية تتبع باستمرار النمو الاقتصادى . ويؤكد ان الدول السابقة فى هذا المضمار بنجاح هى اليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية !! .

ان هذا ، فى راينا ، لم يحدث من قريب أو بعيد ، وكل ما حدث هو أن التربية كانت تتبع النمو الاقتصادى فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى معين ، وهو مبدأ حرية التعامل laissez Faire ، وصار ذات الشىء يحدث الان فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى آخر هو « التخطيط » .

ثم يحدد التقرير المذكور **سمة اخرى** من سمات التربية فى العصر الحديث ، وهى ان التربية تعمل الان ، ولاول مرة فى التاريخ ايضا ، على اعداد الناس لنوع من المجتمعات لم توجد بعد . ويشير الى ان هذا الاتجاه يبدو بوضوح فى البلاد التى تسعى نحو اقامة مجتمعات تختلف جذريا عن حاضرها فى اعقاب تغييرات عميقة حدثت فى نوعية قيادتها الاجتماعية أو السياسية . ولا شك ان ذلك صحيح الى حد بعيد جدا ، فأحدى سمات العصر الحديث كله ان « تتصور » طلائع المجتمعات تنظيما جديدا تراه أفضل لمجتمعاتهم ويقنعون شعوبهم باستخدام ارادتها فى خلق المجتمعات التى تصوروها ، ويعملون بكل الوسائل الدعائية ، ومنها التربية ، لتحقيق هذا الهدف . ولكن هذه المجتمعات التى « لم توجد بعد » تقوم فى الحقيقة على الاسس والانماط القديمة برغم كل ما يحيطها من بريق ، وليست دور التربية فى هذا كله سوى « اداة » أو « مخلب القط » ، فليس لها اى دور ايجابى حقيقى فى اعداد الناس لان يتصوروا بانفسهم نوع المجتمعات التى تلائم قيمهم الجديدة قبل أن تعدهم للعيش فيها .

والسمة الثالثة التى يتحدث عنها التقرير هي التناقض الذى بدأ يظهر بين انتاج المؤسسات التعليمية وحاجات المجتمعات التى تعمل فيها هذه المؤسسات ؛ وهذا ايضا صحيح ، والسبب الرئيسي فيه يؤيد وجهة النظر التى نحاول عرضها هنا . أنه يرجع فى جوهره الى التغيير الجذرى فى القيم ، التى أصبحت ترى أن من حق الكثيرين « أن يحصلوا على الخير ، والثبات العنيد للانماط التقليدية ، التى قامت فى خدمة القلة .

• • •

وما دمنا بصدد الحديث عن محاولة التخلص من الأنماط ذاتها باعتبارها قيدا على حركتنا يجعلنا عاجزين تماما عن اكتشاف الحلول الجذرية الشاملة لمشاكلنا الكبرى ، فان الفرصة مواتية للتحدث عن فكرة « التقدم » فى البلاد النامية والانماط التى صيغ فيها .

ان مفهوم التقدم بمعنى « اللحاق » بالمجتمعات الاكثر تقدما ينطوى بوضوح على ان البلاد النامية يجب ان تسير فى ذات الطريق الذى سارت فيه البلاد الاخرى وان « تتقولب » فى الأنماط السائدة فيها .

ومن وجهة النظر التى نعرضها يعتبر مفهوم التقدم بهذا المعنى قيدا على البلاد النامية ويضعها فيما يشبه « قميص المجانين » الذى يصنع خصيصا ليشل حركتهم حتى يمنعهم من الايذاء .

ولكن لحسن الطالع بدأت بوادر التغيير فى هذا الاتجاه تبدو هنا وهناك ؛ اذ برغم ان « النموذج الغربي » ظل هدفا رئيسيا من اهداف التنمية والتقدم بالنسبة للبلاد النامية ، فانه قد اخذ الآن يفقد بعض بريقه لديها . فقد بدأت بعض المجتمعات النامية تفكر فى تطوير نظم اجتماعية وسياسية خاصة بها . « نابعة من ترابها » ، وان كانت المحاولات التى قامت فى هذا الاتجاه لم تحقق نجاحا لانها لم تستطع أن تتخلص من الانماط الاجتماعية والسياسية التقليدية فى بلورة أفكارها . ولكن البذرة وجدت ، وستنمو اذا هيئت لها الظروف المواتية .

لقد آن الأوان لان يتخذ التقدم فى البلاد النامية من البلاد المتقدمة نماذج لا ليحتذى بها ولكن ليتجاوزها بهدف خلق حضارة اكثر تلاؤما مع القيم الجديدة التى تمخض عنها تطور الوعي البشرى .

ان المشكلة التى يواجهها الجنس البشرى الآن جديدة تماما ، ومن ثم فهي تحتاج الى حلول جديدة قد يكون بعضها بمثابة قفزة فى الظلام . الا اننا نستطيع أن نقلل من مخاطرها الى الحد الادنى اذا نحن وفرنا لها ماهي جديرة به من جهود وامكانيات مادية وتقنية ومهارات بشرية متاحة .

ومن الطبيعي أن تعجز البلاد النامية عن القيام بهذه المهمة وحدها فى وقت مناسب ، ولكن هل المشكلة هي مشكلة البلاد النامية وحدها ؟

يبدو أن هذا هو التصور الغالب فى كثير من دوائر الغرب . فعلماء البلاد المتقدمة ومفكروها قد اكتفوا حتى الآن بتقديم النصائح الجاهزة التى لا تستند الى دراسة جادة أو بحث علمي عظيم . ونظرة واحدة الى مجموع ما ينفق فى أنشطة البحوث فيها تدل على أن ما نقوله لا يمكن الا أن يكون صحيحا . (٢٩)

ان المشكلة ليست بالقطع مشكلة البلاد النامية وحدها ، بل ان ظواهرها فى البلاد المتقدمة تكاد تكون اكثر شيوعا . وفى ميدان التربية وحده تكفي مظاهرات التمرد والقلق التى ظهرت بين الطلبة فى اكثر بلاد العالم تقدما فى السنوات الاخيرة للدلالة على مدى حاجة الانظمة التربوية فيها الى تغيير . فالحاجة الملحة الى القيام بثورة فى المفاهيم التربوية ليست مقتصرة على بعض البلاد فى العالم دون البعض الآخر . انها ظاهرة عامة نجمت عن سرعة نمو الوعي البشرى وعدم ملاحقة التغييرات الاجتماعية والفنية والاقتصادية لهذا النمو بسرعة كافية ، وهي تقض مضاجع التربويين فى جميع انحاء العالم .

---

(٢٩) يقدر ان ٩٨٪ من مجموع انشطة البحوث والتنمية التى تجرى فى العالم (خارج البلاد الاشتراكية) تضطلع بها امم متقدمة وتخصص منها حوالي نصفها لشئون الدفاع والفضاء والطاقة الذرية ، كما ينصب ٢٦٪ منها على البحوث الصناعية المرتبطة بالاستهلاك و ٢٢٪ للبحوث الاساسية ، ولا يبقى سوى ١٪ تقريبا للبحوث التي يفترض انها تهم العالم الثالث .

وحتى اذا كانت هناك مشاكل تمس البلادالنامية أكثر من غيرها ، هل يعني ذلك ان تظل البلاد النامية بلادا نامية وتظل البلاد المتقدمة بلادامتقدمة ؟

ان انقسام العالم الى دول متقدمة واخرىنامية ، فضلا عن انه ليس الصورة المثلى للعالم فى الوعي البشرى الجديد ، يعرقل جهود الجنسالبشرى ككل فى الاستفادة من قدراته العظيمة ، ولن نرى بشائر الفجر الجديد الا عندما نتكاتفجميعا على تحقيق الوحدة لعالم متناسق نعيش فيه فى سلام .



علي السلمي *

المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية

تحتل المشكلة السكانية اهتماما بالغا لدى الاقتصاديين والسياسيين ورجال علم الاجتماع وغيرهم من المشتغلين بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وقد اسهمت فروع مختلفة من المعرفة الانسانية فى محاولات تحليل تلك المشكلة وتحديد مظاهرها ومسبباتها . كما شاركت جميعا وبدرجات متباينة فى تقديم مقترحات علاجها والتخفيف من آثارها .

وبرغم انقضاء السنوات الطويلة منذ الكشف عن خطورة المشكلة السكانية واحتمالاتها المدمرة للرفاهية الانسانية عموما ، وبرغم الحصيلة العلمية الوافرة من الدراسات والنظريات التي تحاول سبر غورها والتماس الحلول لها ، فما زال التقدم نحو الحل الحاسم لتلك المشكلة العالمية يسير وئيدا . والاحساس بتفاقمها واحتمال خروجها عن السيطرة يهدد الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى لكثير من شعوب العالم .

---

* الدكتور علي السلمى استاذ ادارة الاعمال المساعد بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، والمعار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الكويت . له العديد من المؤلفات والبحوث . ومن اهم مؤلفاته : الادارة العلمية والسلوك الانساني فى الادارة .

وفى بحثنا هذا سنحاول تحليل العلاقة الحقيقية بين المشكلة السكانية وبين عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واستعراض المداخل التقليدية لعلاج مشكلة تزايد اعداد السكان ، ثم نطرح مدخلا جديدا يناقض كثيرا من تلك المداخل السابقة ، ويقدم اطارا متكاملا للتعامل مع السكان باعتبارهم عنصرا فعالا فى احداث النمو الاقتصادى والاجتماعي ، ويبعد الفكرة الشائعة من ان الكيان السكاني للمجتمع يمثل عبئا اقتصاديا يجب التخلص منه او تقليصه .

ويعتمد مدخلنا فى دراسة وتحليل المشكلة السكانية على مفاهيم ونظريات علم الادارة (١) باعتباره العلم المختص بدراسة طرق تحليل المشكلات واتخاذ القرارات ، واعداد الخطط الهادفة الى تامين العلاج الأمثل للمشكلة، وصولا الى تحقيق نتائج وغايات ينشدها المجتمع او بعض فئاته ، وذلك فى حدود ما هو متاح من موارد وامكانات ، وفى اطار الظروف والاوضاع السائدة وما قد تفرضه من قيود على حرية الحركة والتصرف .

وعليه فان بحثنا يتعامل مع المتغيرات الآتية :

= المشكلة السكانية .

= التنمية الاقتصادية .

= التنمية الاجتماعية .

كذلك يحاول البحث اختبار بعض الفروض الاساسية وهي :

ــ ان تزايد عدد السكان المستمر هو العامل الاساسي فى احداث التخلف الاقتصادى والاجتماعي .

ــ ان الزيادة المضطردة فى اعداد السكان تعوق جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ــ ان السبيل الامثل للدولة النامية لكي تحقق النمو الاقتصادى والاجتماعي يتحدد في ضبط الزيادة السكانية ووضع قيود على اعداد السكان .

ــ ان انخفاض عدد السكان فى الدولة النامية يؤدى الى الاسراع بمعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وسوف نعمد الى تحليل هذه الفروض واختبارها معتمدين على أسلوب التحليل المنطقي، الذى يستند الى الاسس والمفاهيم النظرية . ولابدلنا اذن من ان نحدد اولا الاطار الفلسفي الذى يدور هذا البحث في نطاقه .

---

١ ــ يمثل علم الادارة المعاصر حصيلة متكاملة من المبادىء والمفاهيم والمعارف مستمدة من التحليل النظرى والتجريبي للمشكلات الانتاجية ، والتي تتفاعل مع كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية فى تكوين إطار فكري شامل .

الاطار الفلسفى للبحث

ينطلق هذا البحث من ركيزة فلسفية مؤداها ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي عملية حركية Dynamic ومستمرة ، تحتاج الى حشدكل الموارد والامكانات المتاحة من ناحية ، كما تحتاج الى التخطيط والتنظيم العلميين من ناحيةاخرى . ومن ثم فان احداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية انما يتوقف بالدرجة الاولى علىأمرين : **الأول** هو انواع وكميات الموارد والطاقات المتاحة للاستغلال فى المشروعاتالانمائية ، **والثاني** هو اسلوب وكفاءة ادارة عمليات الانماء (٢) .

وانطلاقا من هذا المفهوم نصل الى الاسسالمبدأية الاتية :

١ ــ ان السكان هم عنصرفى احداث التنميةالاقتصادية والاجتماعية فى اى مجتمع .

٢ ــ ان عدد السكان ليس هو البعدالوحيد للاسهام في التنمية ، بل ان نوعيات هؤلاء السكانوخصائصهم تمثلبعدا اخطر واهمفيعمليات التنمية .

٣ ــ ان التنمية الاقتصادية والاجتماعيةلا تعتمد فقط على الطاقات المتاحة فعلا ، بل ترتكز الى حد كبير على ما يمكن الكشف عنه منطاقات وما يظهر من موارد محتملة .

٤ ــ ان القدرة على الاستفادة القصوى منالطاقات والموارد المتاحة والمحتملة هي العنصر المتحكم فى تحديد معدل النمو الاقتصادىوالاجتماعي . وان هذه القدرة ترتهن بالسكان دون غيرهم من عناصر وموارد الانماء .

وحيث نصل بتفكيرنا الى هذه المرحلة ،فان المنطق يقودنا الى استنتاج رئيسي يحكم التحليل الوارد في هذا البحث تماما ، وهو انكفاءة الادارة وفعاليتها فى المجتمع تمثل العامل الحاسم فى تقرير مصير جهود التنمية الاقتصاديةوالاجتماعية .

المشكلة السكانية :

تختلف الاساليب المستخدمة فى التعبير عمايسمى بالمشكلة السكانية وذلك بحسب الخلفية العلمية والاهتمام الخاص بمن يقوم بالتعبير .**فالتعبير الاقتصادى عن المشكلة السكانية** يتبلور عادة فى انها الزيادة المستمرة فى اعداد السكانبمعدلات تفوق معدلات انتاج السلع والخدمات اللازمة لاشباع احتياجاتهم ، الأمر الذى ينعكسفي انخفاض نسبي للدخل القومي ، وتقلص نصيب الفرد من هذا الدخل ، ومن ثم ينحدر مستوىالمعيشة ويتهدد المستوى العام للرفاهية الاقتصاديةفى المجتمع . ويستخدم تعبير « الانفجارالسكاني » عادة للدلالة على الزيادة الصافية المتعالية فى اعداد السكان بالقياس الى احجامالسلع والمنتجات ، خاصة الغذائية منها .

---

٢ ــ يتفق معظم كتاب الادارة الآن على ان مشكلة التنميةالاقتصادية والاجتماعية هي فى الاساس مشكلة ادارية ، ومن ثم يركزون على اهمية ما يسمى « ادارة التنمية » Development Administration

ومـن ناحية ثانية نجـد علماء الاجتمـاع ينظرون الى المشكلة السكانية من زاوية آثارهـا الاجتماعيـة من حيث التغيير المترتب عليهـا في الهيكل الاجتماعي ، واختلاف الاهمية العدديـة للطبقات الاجتماعية المختلفة . وهم يركزون على المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الزيادة السكانية ، ومنها مشكلات انحراف الشباب وانتشار الجرائم ، والتحولات الاخلاقية فى المعتقدات والقيم الناشئة عن الفقر وانخفاض مستوى المعيشة . كذلك يهتم علماء الاجتماع فى تحليلهم للمشـكلة السكانيـة بآثارها على الحركة الاجتماعية Social Mobility وعلـى حـركات الهجـرة سـواء الداخليـة او الخارجيـة . وهم يخلصـون فى النهايـة الـى استنتاجات تشير بشكل او آخر الـى الاخطـار المصاحبة لزيادة اعداد السكان ، ومن ثم فهـم يباركون الحلول القائمة على منطق ضبط الزيادة السكانية بشكل عام .

وعلى النقيض من اسلوب علم الاقتصاد ومنهج علم الاجتماع ، فان **علم الادارة** ينظر الى المشكلة السكانية نظرة شمولية متكاملة ، ويأخذ بعين الاعتبار ابعادها المختلفة ، وذلك وفقا لمنطق أن السكان هم احد عناصر المجتمع ، وبالتالي فهم يمثلون نظاما فرعيا Sub-System ضمن نظام اكبر Total-System (٣) هو التكوين الاقتصـادى والاجتماعي والسياسي والحضارى للمجتمع .

وبالتالي فان المشكلة السكانية فى التصـور الادارى هي **عدم القدرة على استغلال الطاقـات والموارد البشرية المتاحة والقدرات والمهـارات الانسانية التي يملكها المجتمـع بـدرجة تحقـق الاهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسيـة لهذا المجتمع** . ومن ثم فان المنطق الادارى يرفض اعتبار زيادة السكان فى حد ذاتها مشكلة ، كذلك فان هذا المنطق لا يعتبر أن تحقيق خفض في عدد السكان سـوف يؤدى بالضرورة الى تحسـين الاوضاع الاقتصادية او المعيشية للناس فى مجتمع معين .

ان المشكلة السكانية الحقيقية فى التحليل الادارى هي توفر طاقات بشرية لا تسهم في انتاج السلع او الخدمات التي يحتاجها المجتمع ، اوتسـهم ولكـن بقـدر اقـل ممـا تسـمح به امكاناتها الفعلية . ومـن ثم فانـه طبقا للتحليل الادارى نحن نعادل بين المشكلة السكانية وبـين انخفاض كفاءة استخـدام العنصر البشرى فى الانشطة الانتاجية للمجتمع . وعلى ذلك فـان القضـية الاساسية فى موضوع السكان يمكن ان تتبلور فى الابعاد الاتية :

١ ــ أن عدد السـكان فى اى مجتمع هـو محصلة لتفاعل عديد من العوامـل الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية (٤) .

---

٣ ــ نحـن نشـير بذلـك الى مفهـوم النظم The systems Concept والذى يسود الفكر الادارى الحديث . ويقصد بالنظام ذلك الهيكل او التكوين الكلي الذى يتركب من اجزاء او نظم فرعية تقـوم بينها عـلاقات تفاعل واعتماد متبادل بحيث ان السلوك النهائي او الموقف العام للنظام الاكبر يكون محصلة لتفاعل الاجزاء المكونة له .

٤ ــ يقسم بعض المختصين هذه العوامل الى درجات من حيث مدى تاثيرها فى حجم السـكان الى طـويلة الاجـل ، متوسطة الاجل ، وعارضة ، انظر

IAN, Bowen, Population, Cambridge University Press, 1966., p. 11.

٢ ــ ان المحتوى الحقيقي لتلك العوامـل المؤثرة في عدد السكان ينحصر فى النظام الادارى السائد فى المجتمع Administrative System ،ودرجة الكفاءة في ادارة عمليات الانماء الاقتصادى والاجتماعى ، ومن ثم الكفاءة فى استخدام طاقات السكان المتاحة .

٣ ــ ان تركيب السكان من حيث درجات المهارة والمعرفة والقدرة على الانجـاز يفـوق فى اهميته عدد السكان من حيث الارتباط بالنشاط الاقتصادى والانتاجي للمجتمع ، كذلك فان هذا التركيب السكاني هو فى حد ذاته نتـاج للنظـام الادارى السائد ، ودرجة تطوره وكفاءته فى اعداد وتأهيل السكان لمباشرة الاعمال الانتاجية بكفاءة .

من التحليل السابق نخلص الى حقيقة هامة هي ان المشكلة السكانية كما حددنا هي نتيجة مباشرة لمستوى الكفـاءة الاداريـة السائـدة فى المجتمع ، ومن ناحية اخرى فان هـذه المشـكلة بذاتها تعود مرة اخرى لتسهم فى خفض مستوى الكفاءة الادارية بالمجتمع ، وهكذا تدور العلاقة في حلقة جهنمية تتبدى للناظرين فى مظاهر اقتصادية واجتماعية مضللة تبعدهم عن التصور الصحيح للمشكلة .

ان قصور وتخلف النظام الادارى في المجتمع، وانخفاض مستوى الكفاءة الادارية به ينعكس على شتى مظاهر الحياة الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافية والسياسية . وتتضح مظاهر انخفاض الكفاءة الادارية بالدرجة الاولى فى :

١ ــ عدم الدقـة فى تحديد الاهـداف الاقتصادية والاجتماعية ، ومن ثم توجيه الموارد والطاقات المختلفة نحو مشروعـات ومجـالات التشغيل ليست هـي الافضل أو الامثـل ، وبالتالي يتدنى العائد منها وتتحقق خسائر صافية للمجتمع فى صورة ضياع فرص افضل للاستثمار.

٢ ــ عدم الدقة فى التخطيط (او عـدم الالتجاء الى اسلوب التخطيط اصلا) بما يؤدى اليه ذلك من سوء التوقيت وتضارب الانشـطة وتداخل الجهود بشكل يقلل من الانتاجية الكلية ، ويحول بين عناصر الانتاج وبين ان تصل بكفاءتها الى الحد الامثل . كذلك فان سـوء التخطيط يتجلى فى ضعف التنسيق بين مجالات الاستخدام المختلفة ، الامر الذى يترتب عليه وفرة فى المتاح لبعض المجالات اكثر من حاجتها ، وندرة في المتاح لمجالات اخرى بما يقل عن حاجتها ، والمحصلة النهائية لكل تلك المظاهر هي قصور الناتج الكلي عن الوفاء بالاحتياجات التي يتطلبها المجتمع .

٣ ــ عدم الدقة فى التنظيم والتنسيق ، وتداخـل الاختصاصـات وتضـارب السلطـات وتناقضها ، وخلق تنظيمات واجهزة تستغـرق كميات هائلة من موارد المجتمع دون ان تسـهم بانتاج يتعادل وتلك الموارد . ان بطء الاجراءات وتعقـد اساليـب العمـل ، وتجمـد القواعـد والسياسات كلها مظاهر متكررة وشائعة للتخلف الادارى ، بما يترتب عليه من تواضع الانجازات وارتفاع تكلفتها الحقيقية بالنسبة للمجتمع .

٤ ــ غياب الرقابة الموضوعيـة والمتابعـة المستمرة لاوجه النشاط المختلفة ، بما يسمـح بوقوع الاخطاء والانحرافات واستمرارها ، وتفاقم آثارها السالبة على الجهاز الاقتصادى والكيان الاجتماعي .

ان الدعوى الاساسية التي نطرحها في هذاالجزء من البحثهي **ان التخلف الاداري في المجتمع هو السبب المباشر للمشكلة السكانية ، وبالتالي للمظاهر الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عليها . كذلك فان هذه المشكلةومظاهرها تعود مرة اخرىلتدعم وتكرس التخلف الاداري لتزداد المشكلات حدة وتتعقد مظاهرها وتتداخل بما يباعد بينهاوبين الحل السليم .**

ان هذه العلاقة المتبادلة بين المشكلة الاداريةوبين المشكلة السكانية هي في تصورنا لب المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الدول النامية . ولناان نستدل على سلامة هذا الاستنتاج من الدلائل التالية :

١ ــ ان الدول النامية سواء في افريقيا أوآسيا او امريكا اللاتينية تعاني جميعا من التخلف الاداري بدرجات شديدة . وانها جميعا تتسم بسيطرة التنظيمات البيروقراطية التقليدية على النظم الاقتصادية فيها .

٢ ــ ان الدول النامية تتسم بصفة اساسيةوهي الارتفاع النسبي في اعداد السكان بها . ان معظم هذه الدول تعاني مما اصطلح الاقتصاديونعلى وصفة بالانفجار السكاني .

٣ ــ ان معظم هذه الدول النامية تعاني منارتفاعمستمر في معدلات المواليد ومعدلات الزيادة الصافية سنويا في اعداد السكان .

٤ ــ كذلك تتسم هذه الدول بتخلف التركيب النوعي للسكان كالاتي :

أ ــ ارتفاع نسب الاطفال والشيوخ بينالسكان .

ب ــ ارتفاع نسب النساء غير المستغلات .

ج ــ انخفاض نسبة القوى العاملة الىاجمالي السكان .

د ــ انخفاض نسبة القوى العاملة المنتجةالى القوة العاملة الاجمالية .

هـ ــ ارتفاع نسبة العاملين في اعمالالخدمات والمهن غير المنتجة (كالباعة الجائلين ، والخدم ، والاعمال المعاونة فيالهيئات والمؤسساتوالشركات) .

و ــ ارتفاع نسبة العاملين باجهزة الادارةالحكومية البيروقراطية بالقياس الى المشتغلين بالمهن الصناعية والانتاجية .

ز ــ تخلف التركيب المهني للقوة العاملةوشيوع العمل بالمهن اليدوية والتي لا تتطلب قدرا عاليا من المهارة .

ح ــ انخفاض المستوى التعليمي العامللسكان وشيوع الامية بين افراد القوى العاملة .

ط ــ انخفاض المستوى الصحيالعام وشيوع الامراض بين افراد القوى العاملة .

ى ــ انخفاض المستوى العام للانتاجية بينافراد القوى العاملة .

فاذا اضفنا الى الدلائل السابقة دليلا آخرهو ان معظم الدول النامية تشتغل اساسا بانواع النشاط الاقتصادى الاقل انتاجية كالزراعة اوالتعدين ، وحتى تلك الدول التي تتمتع بثروات خاصة كالنفط او بعض الحاصلاتالزراعية الهامةكالقطن والحبوب مثلا ، الا اننا نجدها غير قادرة على استثمار تلك الثروات بالاتجاه الى تصنيعهاوتحقيق العائد الأمثل منها . بالعكس فالشاهد أن هذه الدول تعمد اساسا الى تصدير هـذهالثروات الى الدول المتقدمة اقتصاديا في صورتها الخام لتستبدلها بالسلع الاستهلاكية فى المقامالاول .

كذلك يلاحظ ان هذه الدول الناميةوالتي تعاني من الزيادة فى اعداد سكانها لم تحاول الافادة من الوضع السكاني للدول المتقدمة التيتفتقر الى اليد العاملة ، ولم تلجأ الى استثمار طاقتها البشرية الهائلة كمصدر للدخل القومي منخلال التهجير الى تلك الدول الغنية على نطاق واسع منتظم .

نخلص من كل ما سبق الى ان المشكلةالسكانية ليست هي زيادة اعداد السكان بل هي فى الاساس عدم قدرة الجهاز الادارى فى المجتمععلى استثمار طاقات هؤلاء السكان ، وتحويلها الى انتاج نافع له قيمة . ومن ثم فالمشكلة اداريةوليست ديموجرافية او اقتصادية .

واستكمالا للتحليل فاننا نتوجه الان اليدراسة **المتغير الثانى** فى بحثنا وهو التنمية الاقتصادية لكي نستدل على مدىارتباطه بالمشكلةالسكانية ، وللتأكد من سلامة ما توصلنا اليه من استنتاجات تتعلق بتلك المشكلة .

التنمية الاقتصادية :

تمثل التنمية الاقتصادية احدى العلاماتالبارزة فى التاريخ الحديث لكثير من بلدان العالم ، وهي التحدى الرئيسي الذىيواجه شعوبا متعددةفي عالمنا المعاصر . وقد اختلفت الاراء حول ماهية التنمية الاقتصادية ، كذلك اختلفت المداخلالهادفة الى احداثها ، وتتركز اهداف التنمية الاقتصادية عادة فى القضاء على مظاهر التخلفالاقتصادى والتي تبدو فيما يلي :

١ ــ انخفاض مستوى الدخل الفردى ومايترتب على ذلك من سوء التغذية ، وانتشار الامراض وارتفاع نسبة الامية وتدهور حالةالاسكان للغالبية من افراد المجتمع .

٢ ــ انشغال الغالبية من السكان باشغالالنشاط قليل الانتاجية ، خاصة في الزراعة والخدمات وانتشار ظاهرة البطالة المقنعة ، حيثيزيد عدد العاملين دائما عن الاحتياجات الحقيقية للعمل .

٣ ــ ازدياد الميل الى الاستهلاك مع ضعفمستويات الادخار والاستثمار .

٤ ــ انخفاض المستوى العام للانتاجية فىالمشروعات وارتفاع التكلفة النسبية للانتاج .

ولقد كانت مظاهر التخلف الاقتصادى محلاهتمام ودراسة الاقتصاديين لفترات طويلة ، كما

جذبت انتباه المفكرين الاجتماعيين الى المشاركةفي ايجاد حلول لها ومن اهم النماذج الشائعة عن مداخل احداث التنمية الاقتصادية ما يلي :

اولا : النموذج الاقتصادى الكلاسيكي (٥) :الذى يقوم على أساس الاقتناع بأن القانون الطبيعي هو الفلسفة الحقيقية فى الحياة، وبالتالي فان « الحرية » هي محرك النمو والازدهار فى المجال الاقتصادى . وتتلخص مبادىء الفكرالكلاسيكي عن التنمية الاقتصادية فى الآتي :

١ ــ القانونالطبيعي هو اساس تنظيمالحياةالاقتصادية ، ومن ثم تكريس الحرية الاقتصادية.

٢ ــ تقسيم العمل الى الحد الذى يقبلهالسوق .

٣ ــ تحرير التجارة الخارجية حيث تقومكل دولة بتصدير السلع التي تتمتع فيها بمزايا نسبية .

٤ ــ احداث تراكم راسمالي يتم تمويله منالقيمة الفائضة .

٥ ــ الاهتمام بالتكوين الراسمالي الجديدوالتطوير التكنولوجي للتغلب على مضار الزيادة فى السكان خاصة والموارد القومية محدودة اوثابتة .

ويقوم المنطق الاساسي للنموذج الكلاسيكيعلى أساس ان ضغط الزيادة السكانية على الموارد الطبيعية المحدودة يؤدى الى تعويق عملية النموعلى الرغم من الزيادة في التكوين الرأسمالي . اى ان المشكلة السكانية بمعناها الاقتصادى واضحةفى هذا المنهج الفكرى باعتبار انها عائق فى سبيل التنمية .

ثانيا : نموذج الابتكار كمدخل للتنمية (٦) :وقد روجله الاقتصادى شومبيتر Schumpeter حيث أوضح ان التجديد والابتكار هما مصدرالارباح ، وان المزيد من الارباح هو أساس التنمية الاقتصادية . ويعود التجديد والابتكار فى نظريةشومبيتر اساسا الى « المنظم Entrepreneur الذى يمارس وظائف البحث عن الجديد فى الانتاجويقوم على تنفيذه .

ويتسع مفهوم التجديد فى نظرية شومبيترليشمل محاولات تغيير معدلات الموارد الى الاستخدامات ، وزيادة الطلب الفعال ، وتخفيضاسعار عناصر الانتاج او تحقيق مزايا الوفورات فى الانتاج . ومن خلال عمليات التجديد يحصلالمجددون من المنتجين على مزايا اضافية تسمح لهم بتحقيق ارباح غير عادية ، مما يشجع علىاجتذاب رؤوس الاموال لهذا النشاط الانتاجي ، الامر الذى يؤدى الى انخفاض نسبي لمعدلاتالارباح نتيجة للتوسع الانتاجي . ومن ثم يواصل المجددون محاولات الابتكار للاحتفاظ بتفوقهمالنسبي على منافسيهم . ومع كل موجة من موجات التجديد يرتفع المد الاقتصادى للمجتمعوينتقل خطوة فى طريق النمو والتقدم .

---

٥ و ٦ Hoselitz, B. (ed.) Theories of Economic Growth, The Free Press, N.Y. 1960.

ويبرز من نظرية شومبيتر بعض الافكار الهامةالتي سنعود الى تأكيدها حين نناقش المدخل الادارى للتنمية الاقتصادية ، وهذه الافكار هي :

١ ـ ان الادارة العلمية للانتاج التييمارسهاالمنظم في رأى شومبيتر هي العنصر الحاسم فى احداث التجديد ومن ثم النمو الاقتصادى .

٢ ـ ان منطق الانماء عند شومبيتر هومنطق ايجابي يستند الى فكرة الخلق والانشاء الجديد .

٣ ـ ان التكنولوجيا لها دور هام في احداثالنمو .

تلك الافكار تترابط معا، وسيكون لها مكانهاالهام فى المنطق الادارى عن التنمية الاقتصادية .

ثالثا : لقد عبر آرثر لويس (٧)عن مفهومآخرللتنمية الاقتصادية يستند الى أن التنمية هي فى الاساس عملية تراكم رأس المال الذى يستخدملتجهيز طاقة العمل التي يتم نقلها من قطاع الزراعة الى قطاع الصناعة . ان انتقال الايدىالعاملة من قطاعات الانتاج الاقل انتاجية مثل الزراعة الى القطاعات الاعلى انتاجية كالصناعةيحقق زيادة فى الانتاجية الكلية للمجتمع .

ويتضح أن نموذج لويس يقتصر على ابرازدور رأس المال فى احداث التنمية ، وانما يشترك ايضا عنصر العمل ويقبل فكرة تحسن الانتاجيةكعامل مساعد للنمو الاقتصادى .

وبرغم اختلاف النماذج الاقتصادية فىمفاهيمها عن التنمية الاقتصادية ، الا انها تركز بشكل عام على اربعة عناصر تعتبرها محركاتللنمو الاقتصادى هي :

١ ـ تراكم رأس المال .

٢ ـ التغير فى حجم السكان .

٣ ـ التنظيم .

٤ ـ تقسيم العمل .

وقد كانت نظرة الاقتصاديين الى السكانمختلفة فيما يتعلق بأثر الزيادة السكانية على النمو الاقتصادى . فالبعض منهم كان يعتقد انالزيادة السكانية ستعوق التنمية ، وتقلل معدلاتها كما كان **ريكاردو** و **سميث** يعتقدان (٨). بينما كان **كينز** يرى ان زيادة عدد السكان تعني زيادة الطلب ، وهو من العوامل المشجعة علىالاستثمار والنمو الاقتصادى (٩) .

---

٧ ـ W.A. Lewis, Economic Development with Unlimited Supplies of Labour, The Manchester School, May, 1954.

٨ و ٩ ـ Meier, G.M. & Baldwin, R.E. : Economic Development, N.Y., Wiley, 1957.

التصور الاداري للتنمية الاقتصادية :

ان الفارق الاساسي بين التصور الاداري للتنمية الاقتصادية وبين التصورات الاقتصادية لها يمكن ان يتضح من النقاط الآتية :

١ ــ ان المداخل الاقتصادية تركز على واحد او اكثر من عوامل الانتاج باعتباره المحرك الاساسي للتنمية ، بينما التصور الاداري ينظر الى التنمية باعتبارها عملية متكاملة وشاملة تعتمد على تفاعل مجموعة العوامل الانتاجية وغيرها من المحددات الاجتماعية والانسانية لانتاج معدلات معينة من الانماء الاقتصادي .

٢ ــ ان المداخل الاقتصادية تعتبر التنمية مشكلة مستقلة الى حد ما عن خصائص وصفات المجتمع الانسانية وتقاليده وعاداته الحضارية ، بينما المدخل الاداري لا يفصل بين محاولات الانماء الاقتصادي وبين التكوين الاجتماعي والحضاري .

٣ ــ ان دور السكان والزيادة السكانية غير متفق عليه في المداخل الاقتصادية للتنمية ، اذ تعتبره بعض النظريات عاملا معوقا لجهود التنمية ومبددا لآثارها ، بينما تميل نظريات اخرى الى اعتبار أن السكان والزيادة في اعدادهم من العوامل المساعدة على احداث التنمية .

٤ ــ ان المداخل الاقتصادية عموما تميل الى تصوير التنمية الاقتصادية باعتبارها تغيرا مفروضا على المجتمع من الخارج ، اي بفعل قوى ومؤثرات خارجية يتم ادماجها في الكيان الاقتصادي للمجتمع من خلال احداث زيادات في التكوين الرأسمالي ، او استيراد اشكال من رأس المال او التطوير التكنولوجي . أما المدخل الاداري للتنمية فانه يعتبرها تغييرا ذاتيا ينبع من داخل الكيان الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ولا تتحقق له الفعالية الا من خلال قبول افراد وجماعات المجتمع له ، وتحمسهم لأحداثه والمشاركة الايجابية في تحقيقه . ومن هنا نجد التصور الاداري للتنمية الاقتصادية يضع اهمية كبرى في خصائص التكوين السكاني للمجتمع ، من حيث مدى تقبلهم لمفاهيم التنمية والتغيير والتطوير ، او معارضتهم لمثل هذه الاتجاهات .

وفي ضوء هذه النقاط يمكن ابراز التصور الاداري للتنمية الاقتصادية في انه محاولة احداث تغيير شامل وجذري في نظم وعلاقات الانتاج والعمل ، واسس استخدام الموارد والطاقات المتاحة ، وخلق الظروف المناسبة لتطوير الطاقات والموارد ، واستقبال الطرق والاساليب الجديدة في الانتاج ، كل هذا بهدف تحسين وتطوير الكفاءة الكلية للتشغيل الاقتصادي للمجتمع ، وتحقيق زيادات صافية في الانتاج القومي كماً ونوعا ، وترشيد توزيع الناتج القومي بين المساهمين في انتاجه وفقا لأسس ومعايير اقتصادية واجتماعية عادلة ومقبولة .

وتتركز اهم خصائص المدخل الاداري في التنمية الاقتصادية في الآتي :

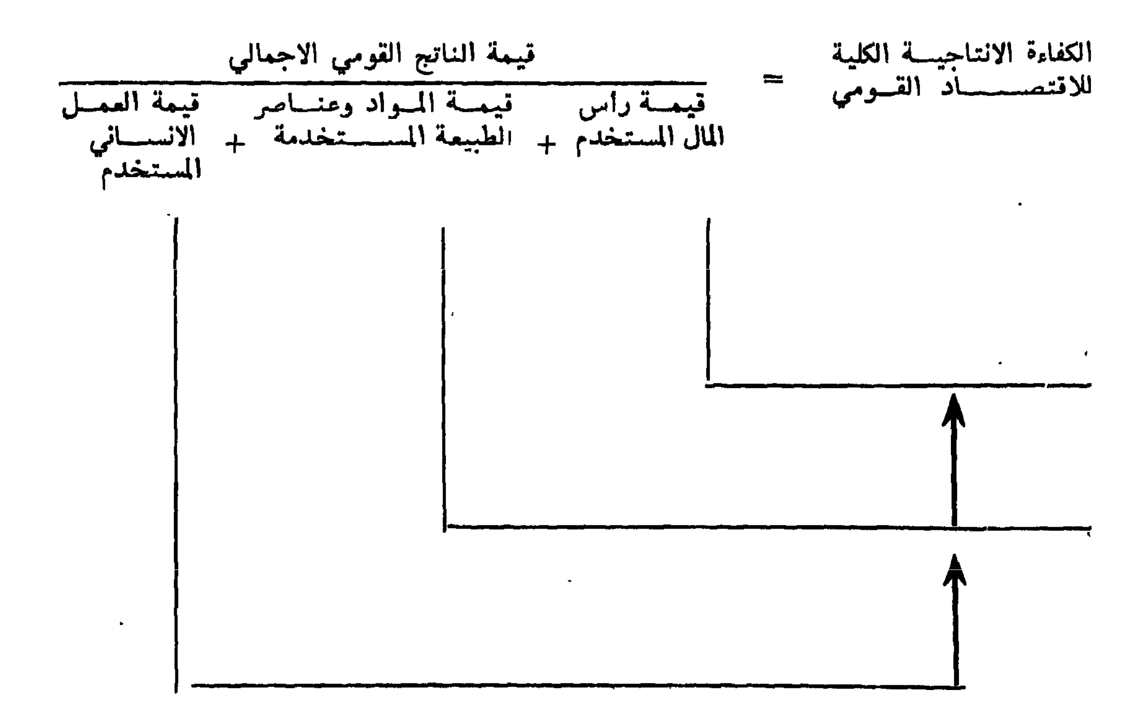
١ ــ ان الادارة العلمية تحقق بالتخطيط والتنظيم والمتابعة الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، ومن ثم تصل الى افضل النتائج الممكنة في اطار القيود والمحددات السائدة .

٢ ـ ان المنطق الادارى يعتبر العنصر البشرى هو الركيزة الاساسية لجهود التنمية ، ومن ثم فان توافر عناصر الانتاج الاخرى لا قيمة له الا اذا توفر العنصر البشرى القادر والراغب فى الانتاج والعطاء .

٣ ـ ان التنمية الاقتصادية هي فى حقيقتها تنمية للطاقات البشرية ، ومحاولة رفع كفاءة القوى العاملة ، وزيادة معدلات اسهامها فى الانتاج القومي .

ان الكفاءة الانتاجية هي محور التفكير الادارى في التنمية . وبالتالي فان جهود الانماء يجب ان تتركز جميعا فى محاولة رفع الكفاءة الانتاجية في الانشطة الاقتصادية . وحيث ان السكان هم المصدر الاول للكفاءة الانتاجية ، اذن فالتنمية الاقتصادية تتوقف تماما على مدى كفاءة السكان ودرجة الافادة منهم فى تعظيم الناتج القومي .

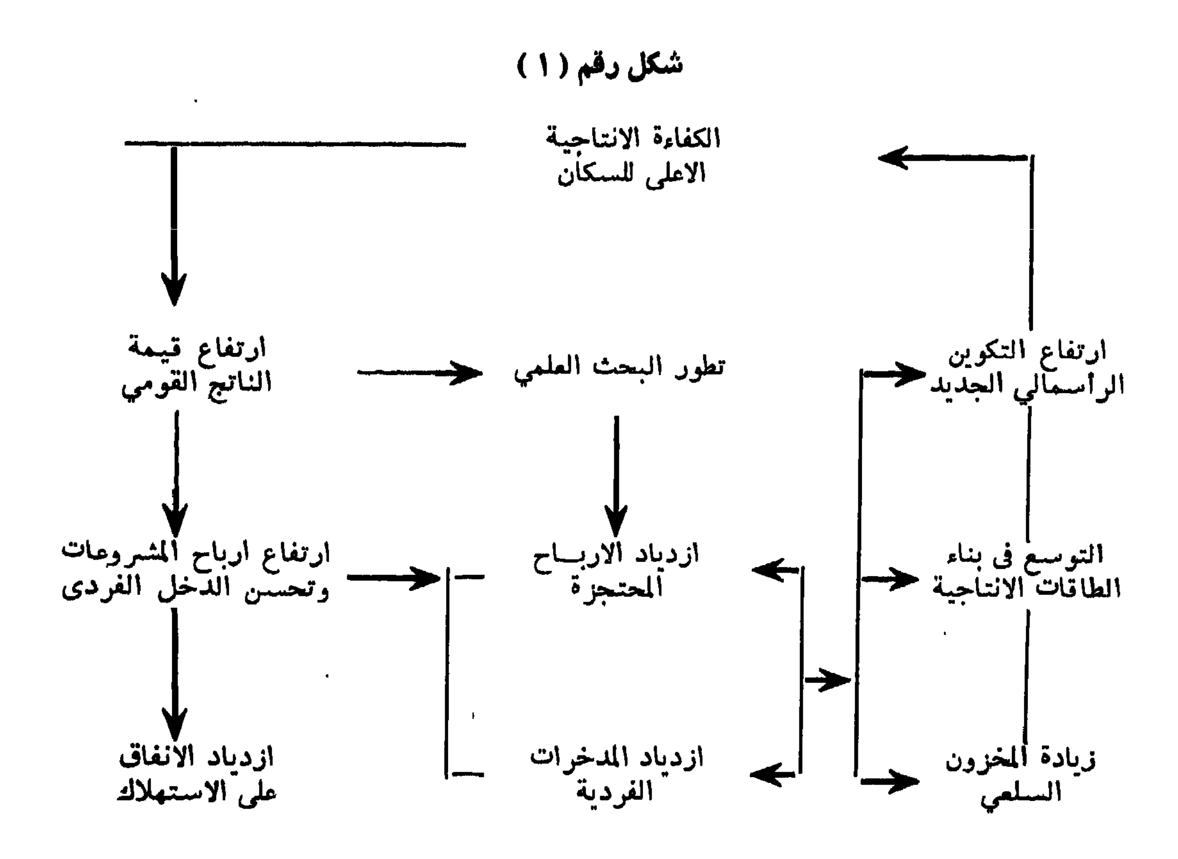
ولذلك فان المدخل الادارى للتنمية الاقتصادية يعتمد على المنطق الآتي :



اى ان قيمة العمل الانساني هي مصدر تنمية قيم راس المال وعناصر الطبيعة ، ومن ثم هي مصدر الزيادة الحقيقية في الناتج القومي الاجمالي .

ويمكن تصوير العلاقـة بين ارتفـاع كفاءةالسكان الانتاجية وبين التنمية الاقتصـادية كما يلي :

شكل رقم (١)



ان الكفاءة الانتاجيـة للسـكان هي مفتاح التقدم والنمـو ، ومن ثم فان المدخـل الادارى للتنمية الاقتصادية يركز على تعظيم هذه الكفاءةالانتاجيـة ، ومن ثم فانه يقدم حلـولا مختلفة للمشكلة السكانية كما سيرد تفصيلا فى جزء تال من هذا البحث .

التنمية الاجتماعية :

لعل تعبير ((**التنمية الاجتماعية**)) من اكثر التعابير الشائعة غموضا نظرا لكثرة اسـتخدامه للدلالة على اشـياء مختلفة . وسـبب اهتمامنا بدراسة هذا الجانب هو ارتباطه الشديد بالمشكلة السكانية ، وتعارض المفاهيم السائدة حول العلاقة بين السكان وبين محاولات التنمية الاجتماعية . وكما كان الشأن بالنسبة للتنمية الاقتصـادية ، فاننا نعرض هنا تحليلا لمفهوم التنمية الاجتماعية توصلا الى الكشف عن العلاقة بينها وبين المشكلة السكانية من ناحيـة ، وبين المنطـق الادارى فى الانماء من ناحية اخرى .

لقد شاع فى كثير من الدول النامية ارتباط بين جهود التطوير والانماء الاقتصادى من ناحية ، وبين الرغبة في تحسين حال المجتمع وتوفير اسباب الرفاهية للمواطنين من ناحية اخرى . ومن ثم

اقترنت التنمية الاجتماعية بالتنمية الاقتصادية فى مشروعات وخطط الانماء الخمسية والعشرية لدول العالم النامية .

ويلاحظ باستمرار ان مفهوم التنمية الاجتماعية السائد يخضع لمنطق تقديم مزيد من الخدمات ، واشكال الرعاية الاجتماعية للمواطنين بهدف التخفيف من اعباءهم ، والاسهام في حل مشكلاتهم ذات الاساس الاقتصادى غالبا . من ذلك ما نلاحظه أن جهود التنمية الاجتماعية تتجه فى اكثر الاحيان الى :

١ ـ توفير درجات أعلى من الأمن الاجتماعي من خلال تطوير نظم وبرامج التأمينات الاجتماعية، والضمان الاجتماعي وغير ذلك من اشكال وضروب إسهام الدولة فى تأمين حد ادنى من الدخول للمواطنين حال اصابتهم بما يقعدهم عن العمل ، او ضمان هذا الدخل الادنى لذويهم فى حالة الوفاة .

٢ ـ تطوير وتحسين مستوى الخدمات الصحية والعلاج الطبي لفئات المواطنين ذوى الدخول المحدودة ، والعمل على مكافحة الاوبئة والامراض المتوطنة ، ونشر الوعي الصحي بين افراد وجماعات المجتمع .

٣ ـ تأمين مستوى مقبول من الاسكان لذوى الدخول المحدودة ، وتوفير فرص الحصول على سكن مناسب للعائلات الكبيرة التي قد تعجز بمواردها الذاتية عن تدبيره .

٤ ـ محاولة رفع المستوى الثقافي للمواطنين من خلال برامج هادفة الى تقريب الثقافة الحديثة لمفاهيم الانسان العادى ، ونشر التذوق الفني بين الجماهير .

٥ ـ العمل على نشر التعليم وتخفيض تكلفته ومكافحة الامية ووضع البرامج لتعليم الكبار .

كل تلك المظاهر لا تنتمي فى تحليلنا الى التنمية الاجتماعية برغم أن هذا هو الاسم الذى يطلق عليها . ونحن نضع تلك الجهود جميعا فى فئة أنشطة الرعاية الاجتماعية او ما يطلق عليه Social Welfare حيث هي لا تهدف الى احداث تغييرات جذرية فى الاوضاع والعلاقات الاجتماعية، بل يقتصر اثرها على مجرد التخفيف من حدة الشعور بالمشكلات الاقتصادية وعدم العدالة الاجتماعية ، وبالتالي فان تأثير هذه المحاولات على الكفاءة الانتاجية للسكان يكون محدودا الى حد بعيد للأسباب الآتية :

١ ـ ان هذه الجهود في الرعاية الاجتماعية تتعامل مع جوانب متفرقة من الحياة الاجتماعية للانسان ، ولا تتعامل مع المحددات الفعلية للكفاءة الانتاجية بشكل مباشر .

٢ ـ ان محاولات الرعاية الاجتماعية لا تصل الى الاسباب الحقيقية للتخلف الاجتماعي والذى يؤثر تأثيرا سالبا على الكفاءة الانتاجية للسكان ، وانما تتجه بالدرجة الأولى الى محاولة علاج مظاهر هذا التخلف الاجتماعي .

٣ ـ ان الاجهزة القائمة على توفير تلك الرعاية الاجتماعية تتعدد وتتباين فى اهتماماتها واساليبها ، ولا تصدر عن سياسة موحدة اوخطة متكاملة . وبالتالي فكثيرا ما يحدث ان يستفيد بعض المواطنين من خدمات مكررة لبعض هذه الاجهزة ، بينما يفشل آخرون في الحصول على أى قدر منها .

٤ ـ ومن الملاحظ ايضا ، ان تلك الجهود المبذولة فى سبيل الرعاية الاجتماعية تتجه فى الغالب الى المواطنين فى المناطق الحضرية من الدولة، بينما لا تكاد تصل الى الآخرين فى المناطق الريفية وذلك نظرا لبعدهم عن مراكز التأثير السياسي من ناحية ، ولتركز البيروقراطية الحكومية فى المدن من ناحية اخرى . وبرغم الاتجاه الشائع فى بعض الدول مؤخرا والذى يطلق عليه اسلوب « تطوير المجتمع Community Development والذى يرمي الى تجميع جهود الاجهزة العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية وتركيزها بالنسبة لمنطقة معينة (قرية ، او حي باحدى المدن) وتخطيط توفيرها على أساس تكاملي ، الا ان المنطق الذى تقوم عليه هذه الجهود ما يزال هو منطق الرعاية الاجتماعية وليس التنمية الاجتماعية الشاملة .

ومن ثم فان المنطق الادارى العلمي يعتبر ان تشتت جهود العمل الاجتماعي ، وعدم فعاليته ينعكسان على المشكلة السكانية بشكل مباشر ، حيث لا يوفران الاساس السليم لرفع كفاءة السكان الانتاجية ، وبالتالي يتواجد اعداد من السكان لا يملكون القدرة او المهارة او الدافع للعمل الانتاجي ، وهذا ما يتمثل فى المظاهر الاقتصادية للمشكلة السكانية ، اى زيادة اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات الزيادة فى الانتاج القومي .

التصور الادارى للتنمية الاجتماعية :

أن التنمية الاجتماعية فى المفهوم الادارى شأنها شأن التنمية الاقتصادية هي عملية تغيير جذرية تستهدف القضاء على اوضاع وعلاقات اجتماعية سائدة ، واحلال اوضاع وعلاقات جديدة محلها . وبشكل محدد فان التنمية الاجتماعية فى التصور الادارى هي محاولة علمية مخططة ومتكاملة تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعي للافراد فى مجتمع معين بما ينعكس على الكفاءة الانتاجية للسكان بشكل ايجابي .

وبالتالي فان التنمية الاجتماعية تتصف بالخصائص الآتية :

١ ـ انها عملية شاملة ومتكاملة تتعامل مع المحددات الاساسية للسلوك الاجتماعي ، وتدرك التفاعل والتداخل بين تلك المحددات .

٢ ـ انها عملية مستمرة نظرا للتغير المستمر فى محددات السلوك الاجتماعي ولضرورة متابعته بما يضمن استمرار توفر الظروف المساعدة على التحول الاجتماعي الايجابي ، وتجنب الارتداد الى الاوضاع والعلاقات الاجتماعية السابقة .

ولقد وضح لنا ان التنمية الاجتماعية تستهدف فى الاساس اعادة تشكيل التكوين السكاني للمجتمع وذلك من خلال التأثير على انماط السلوك الاجتماعي السائدة ، ونتيجة للدراسات فى مجال

العلوم السلوكية (١٠) فقد تحدد طريق العمل من اجل التنمية الاجتماعية لرفع الكفاءة الانتاجية للسكان في أمرين :

الاول : محاولة التأثير فى خصائص الانسان :وذلك بالعمل على تغيير مكوناته الشخصية وهى :

= مدركات الانسان واسلوبه في الفهم والادراك .

= دوافع الانسان ورغباته واهدافه .

= خبرات الانسان وتجاربه .

= اتجاهات الانسان ووجهات نظره .

= القيم والمعتقدات التي يؤمن بها .

= العادات والتقاليد التي يقدرها ويلتزم بها .

الثاني : محاولة التأثير فى خصائص البيئة التي يعيش فيها الانسان ، وهي ذات شقين **بيئة مادية واخرى اجتماعية** . والهدف هنا يتمثل فى العمل على تغيير الجوانب الآتية فى حياة الانسان :

= البيئة المادية المباشرة التي يعيش فيها وهي المسكن ومكان العمل .

= البيئة المادية المحيطة وهي المنطقة السكنية التي يقطنها والمنطقة التي يقع بها مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المباشرة فى مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المحيطة فى نطاق الاسرة والاصدقاء والاقارب .

= البيئة الاجتماعية غير المباشرة وهي تتمثل فى المجتمع الكبير الذى ينتمي اليه الانسان .

وفي ضوء هذا التصور لمفهوم التنمية الاجتماعية تأخذ محاولات رفع الكفاءة الانتاجية للسكان بعدا جديدا ، كما تنبع حلول غير تقليدية للمشكلة السكانية .

وضع التكوين السكاني فى مشكلة التنمية :

من خلال التحليل السابق توصلنا الى عدد من الاستنتاجات الاساسية التي يقوم عليها المنطق الذى يستند عليه بحثنا وهي :

١ ــ ان قضية السكان تمثل عنصرا هاما في مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

---

١٠ ــ راجع الدكتور علي السلمى ــ السلوك الانساني فى الادارة ، دار المعارف ١٩٧٣ .

٢ ـ ان التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية لا تنفصلان ، بل هما وجهان لنفس المشكلة ، وهي الرغبة فى تطوير حياة الافراد والجماعات فى المجتمع ، وتهيئة ظروف معيشية افضل لهم .

٣ ـ ان الكفاءة الانتاجية للسكان هي المحدد الاساسي والعامل الحاسم فى فعالية جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٤ ـ انه يمكن باستخدام منطق واساليب الادارة العلمية رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ، ومن ثم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وهذا الانماء الاقتصادى والاجتماعي يسهم بدوره في رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ومن ثم تتراكم الآثار الايجابية للعمل الاقتصادى والاجتماعي .

وخلاصة هذه الاستنتاجات ان التكوين السكاني يقع فى صميم مشكلة التنمية ، ويلعب دورا مؤثرا فى علاجها او تعويقها ، وذلك وفقا للخصائص الفعلية للسكان . ويصور الشكل التالي علاقة التكوين السكاني بعملية التنمية المتكاملة :

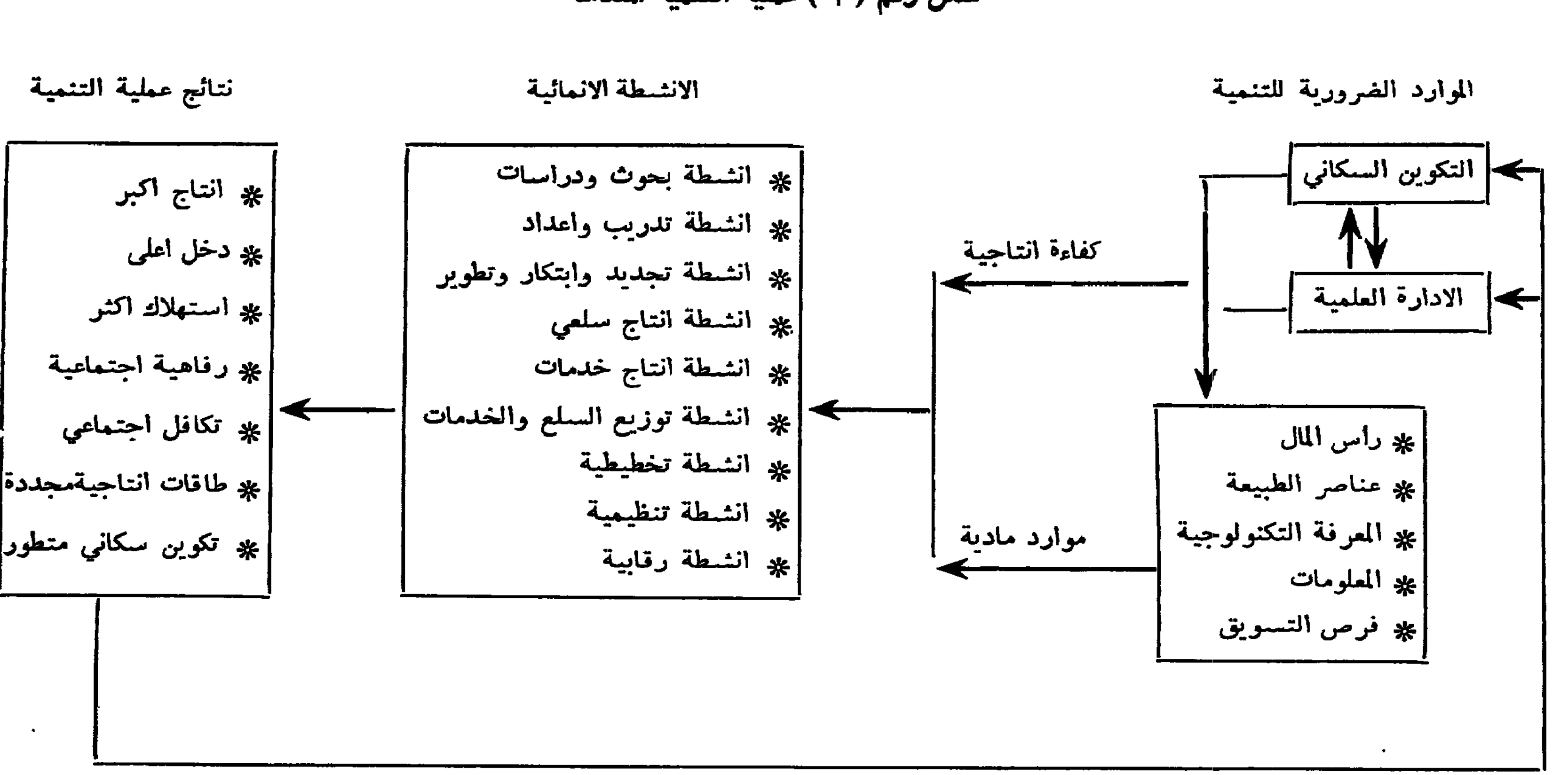
من الشكل السابق (رقم ٢) يتضح لنا ان توجيه اساليب الادارة العلمية نحو تعظيم الفائدة من التكوين السكاني ينتج مستوى معينا من الكفاءة الانتاجية. كذلك فان تفاعل الادارة العلمية والكفاءة الانتاجية للسكان يتيح فرصة لاستغلال الموارد المادية (خلاف العمل الانساني) المتاحة للمجتمع ، ومن جماع الكفاءة الانتاجية والموارد الاخرى المتاحة يكون اداء الانشطة الانمائية امرا ممكنا . وكنتيجة للعملية الانمائية تتحقق للمجتمع الفوائد المستهدفة والتي تتمثل بالدرجة الأولى فى انتاج ودخل اعلى بما يتيح مستوى افضل للاستهلاك والرفاهية الاجتماعية . كذلك تزداد القدرة على التكافل الاجتماعي من خلال نظم توزيع الدخول . كما يكون في الاستطاعة خلق وتجديد الطاقات الانتاجية الجديدة للمجتمع بتأثير الاستثمار وعمليات التكوين الراسمالي . واخيرا فان خصائص التكوين السكاني ذاتها تتعرض لتغييرات من تأثير الانشطة الانمائية ونتائجها ، وبشكل عام فان التكوين السكاني فى نهاية دورة ما من دورات عملية التنمية سوف يصبح اكثر تقاربا مع المواصفات التي تتسم بها التكوينات السكانية في الدول المتقدمة صناعيا .

التكوين السكاني المتوافق مع متطلبات التنمية :

ان التساؤل الاساسي الآن يتعلق بخصائص التكوين السكاني الامثل ، ونقصد ذلك التكوين السكاني الذى يتصف بخصائص مساعدة لعملية التنمية ومتوافقة مع متطلباتها .

ويلاحظ ان الفكر الاقتصادى حين يتعرض للتكوين السكاني الامثل فانما يهتم بالدرجة الاولى بالعدد الامثل للسكان . وفى هذا المجال ترددت فكرتان حول العدد الاقصى من السكان ، والعدد

شكل رقم (٢) عملية التنمية المتكاملة



الادنى منهم (١١) وبرغم ان هـذه الافكـار تتعلق بالتحليل فى حالة السكون Static ، الا انهـا لا تثير الاهتمام الادارى كثيرا . وانما التكوين الامثل للسكان فى المفهوم الادارى يتجه الى خصـائص السكان وتركيبهم النـوعي والمهني ، وصـفاتهم النفسية والاجتماعيـة والقيـم والمعتقدات التي يؤمنون بها . اما العدد من السكان فيأتي فى مرتبة تالية من الاهمية .

ونسـتطيع ان نقدم بعض الملامـح التي اوضحت الدراسات الادارية الحديثـة ضرورة توافرها فى السـكان حتى تتهيـأ الفرص للتنمية الاقتصادية :

١ ـ توفر نسبة كافية من السكان فى فئـة العمر المناسبة للعمل والانتـاج وهي تتراوح بين عشرين وخمسة واربعين سنة . ففي تلك الفئة العمرية يوجد السكان الذين يسهمون في المتوسط بدرجة اعلى واكفأ من غيرهم فى فئات العمر الادنى او الاعلى .

٢ ـ ارتفاع المستوى التعليمي بين السكان بشكل عام وبين الافراد في فئة العمر ٢٠ ـ ٤٥ بشكل خاص ، نظرا لانعكاس هذا التعليم المرتفع على امكانيات وقدرات الافراد فى العمل .

٣ ـ ارتفاع نسبة القوى العاملة المنتجة الى اجمالي عدد السكان ، اى ارتفاع نسبة القادرين على العمل والراغبين فيه الى اجمالي السكان . وهذا الارتفاع فى نسبة القوى العاملة يتيح فرصا للعمل الانتاجي ، ويسمح بتشـغيل واسـتثمار الطاقات والموارد الانتاجية المتاحة .

٤ ـ توفر صفات نفسـية محابيـة للنمو والتقدم بين السكان واهمها :

أ ـ وجود درجة عالية من الدافع الى الانجاز Need Achievement وهو الرغبة فى تحقيق نتائج واهداف متميزة . وقـد اثبـت احد الباحثين وجود ارتباط بين الدافع الى الانجاز وبين درجة التقدم الاقتصادى للمجتمع (١٢) كذلك اوضحت الدراسات ذاتها ان اكثـر افـراد المجتمع تمتعا بالدافع الى الانجاز هم الاقـدر على النجـاح فى الاعمال المتصلة بمجالات الانماء الاقتصادى .

ب ـ توفر درجـة عاليـة من الرغبـة فى المشاركة Participation والانخـراط فى العمـل Job Involvement بين السكان . ان هذه المشاركة والانخراط في العمل تعني ان اسـهام الفـرد فى تحقيق اهداف الانتاج لا يقتصر على اداءه لواجباته الروتينية فحسب ، بل سوف يقدم على الابداع

---

١١ ـ يقصد بالعدد الاقصى للسكان Maximum Population ذلك العدد من السـكان الـذى يتحقق عنـد تسـاوى معدل الوفـاة ومعدلات المواليد ، اى عندما تصبح الزيادة الصافية فى السكان صفرا وذلك عند مستوى معين من الخبرة الفنية واساليب وطاقات الانتاج . وقد يتحقق هذا الحد الاقصى اما بفعل ارتفاع معدل الوفيات مع ثبات معدل المواليد ، او انخفاض معدل المواليد وثبات معدل الوفيات ، او تغير المعدلين فى اتجاهين مضادين وذلـك نتيجة لاسـباب صحية ، واجتماعية وسياسية واقتصادية . اما الحد الادنى للسكان فهو اقل عدد ممكن من السكان الواجب توافره لامكان قيام حياة ونشاط اقتصادى او اجتماعي فى بقعة ما .. راجع IAN, Bown, op.cit. p. 124.

١٢ ـ توصل عالم النفس دافيد مكلالند مـن اثبـات وجود ارتباط بين درجة توفر الدافع الى الانجاز فى شـعب من الشعوب وبين درجة التنمية الاقتصادية التي يحققها هذا الشعب . وقد اجرى مكلالند دراساته على بيانات تاريخية عن الولايات المتحـدة الاميركيـة وايطاليا وانجلترا . راجـع مؤلفه :

McClleland, D.C., The Achieving Society Princeton : D. Van Nostrand Co., Inc., 1961.

والخلق والابتكار في محاولة لحل مشكلات العمل ، والتماس طرق واساليب اكثر تطورا فى الانتاج تعود عليه وعلى المجتمع بالفائدة . ان الشعوربالمشاركة والانخراط فى العمل يؤدى الى خلق الشعور بالمسئولية الجماعية والمصلحة المشتركة. ويتبلور هذا الشعور فى انماط سلوكية فى العمل والانتاج تتميز بالايجابية والاقدام. ولقد اوضحتاحدى الدراسات ان النجاح غير العادى الذى تحققه منظمات الانتاج فى مجتمع ما يتوقف الىحد كبير على درجة الشعور بالمشاركة والانخراط فى العمل بين العاملين فى تلك المنظمات (١٣) .

ان هذه الصفة في التكوين السكاني من أهمما تحتاجه جهود الانماء الاقتصادى في الدول النامية حيث تتبلور فى اسهام المواطنين بالعمل مناجل الصالح العام ، والحفاظ على الملكية العامة والثروة القومية ، والشعور بالمسئولية الكاملةحتى فيما يخرج عن حدود عمل الفرد . وكلها صفات تفتقر اليها الدول المتخلفة اقتصاديا .

جـ ـ توفر درجة عالية من الرغبةفى الانتماء Affiliation Need وهي درجة ارتباط الفرد بوطنه او مجتمعه او جماعته ، ومدى شعورهبالرغبة فى العمل من اجله . ان اهم ما تعاني منه كثير من الدول النامية ذلك الشعور بالتباعدوالانفصال الذى يتسم به ابناؤها ، خاصة هؤلاء الذين يحققون مستوى اعلى من العلم والثقافة اوالخبرة الخاصة . ولعل قضية استنزاف العقول Brain Drain هو دليل حاسم على ذلك . انهؤلاء الذين يتم استنزافهم هم شباب من ابناء الدول النامية ، حققوا قدرا عاليا من العلموالخبرة ثم استقطبتهم دول كبرى غنية من خلال الاغراء بمغريات شتى ، مادية وغير مادية . ولكنما يعنينا هنا ان بلادهم النامية تحرم من خبراتهم وعلمهم بسبب نقص الرغبة فى الانتماء لديهم .ان هؤلاء الشباب اذ يباعدونانفسهم عن اوطانهم، ومن ثم تتدنى مساهمتهم فى انماءها انما يدللونعلى قيمة توفر الرغبة فى الانتماء لدى سكان دولة ما ، حتى تتوفر ظروف افضل للتنمية . وهنا لابد من ان نورد تحذيرا هاما هو ان الرغبة فى الانتماء يجب الا تفهم بمعنى التواجد المادى فيالوطن ، ولكن القصد هو الانتماء الفكرى والعاطفي للوطن ، والعمل من اجل تحقيق اهدافه حتى ولوكان الفرد يقيم خارجه . ومن ذلك يستقيم في تصورنا مبدأ الهجرة من اجل تخفيف المشكلاتالاقتصادية مع استمرار وجود الانتماء للوطن ، وذلك اذا عمل ابناء الوطن المهاجرون على الاسهامفى تمويل ودفع حركة الانماء فى بلدهم ، ولو بشكل غير مباشر . ولعل في نجاح حركة الهجرة لابناءلبنان واستمرار ارتباطهم بوطنهم ، دليل على ما تقدم ، برغم ان كثيرين من هؤلاء المهاجرين قدتجنسوا بجنسيات بلاد المهجر .

د ـ توفر درجة عالية من الرغبة فى القدرةعلى تحمل المخاطر Risk-taking ان صفة اساسية في انشطة الانتاج والاعمال المرتبطةبالتنمية هي نسبة المخاطر التي تحوط هذه الانشطة ، وعدم القدرة على التاكد من نتائجها .ان عدم التأكد Uncertainty ينشأ بسبب عوامل ومتغيرات كثيرة تتفاعل جميعا لتجعل نتائج نشاطاقتصادى او انتاجى معين غير واضحة وقت

---

١٣ ـ Patchen, M., Participation, Achievement, and Involvement on the Job. Englewood Cliffs, N.J. Prentice-Hall, Inc., 1970.

الاعداد لهذا النشاط . ومن ثم فان القائم باتخاذ قرار فى هذا الشأن لا بد وان يتصف بدرجة مناسبة من الرغبة فى تحمل المخاطر حتى يكون قادرا على اتخاذ قرارات تتسم بالجراة والحسم من ناحية ، وحتى يتمكن من اتخاذ القرارات في التوقيت السليم من ناحية اخرى . ولقد وضح من دراسات عديدة ان المديرين في قطاع الاعمال الذين يحققون معدلات نجاح اكبر ، هم الذين يتصفون بالميل الى تحمل الاخطار (١٤) . وكذلك فانه يمكن التعميم بأن درجة التقدم الاقتصادى لدولة ما تتأثر الى حد بعيد بمدى ميل سكانها الى قبول المخاطر وتحمل النتائج المترتبة على القرارات التي يتخذونها . والى جانب تلك الصفات النفسية التي يجب توافرها فى سكان دولة ما حتى يصبحوا عنصرا فعالا فى احداث التنمية الاقتصادية ، هناك عدد آخر من تلك الصفات نوردها فيما يلي :

- الرغبة فى القوة والميل الى السيطرة .
- الرغبة فى التنافس والميل الى تحدى الآخرين .
- قبول التغيير وعدم التمسك بالقديم لذاته .
- المرونة فى التفكير وامكان تعديل الآراء والاتجاهات .
- القدرة على الحركة السريعة فى مواجهة المواقف المتغيرة .
- القدرة على الاقناع والتأثير فى الآخرين .
- تقدير الوقت واهميته .
- تقدير الدقة والحرص على التدقيق في الامور .
- القدرة على مواجهة الواقع وقبول مايفرضه من التزامات .
- النظرة المستقبلية للامور والقدرة على التنبؤ والتوقع .
- النظرة الشاملة للامور والقدرة على ادراك الجوانب المختلفة للظاهرة او المشكلة .
- القدرة على التحليل والتدبر وفصل الظواهر الخارجية عن حقائق الامور .

وحين نعدد هذه الصفات المرغوبة ، فنحن لا نقصد ضرورة توافرها في كل سكان دولة ما ، او ان توجد بدرجات متساوية ، ولكن القصد انه اذا توافرت تلك الصفات فى نسبة مؤثرة من السكان الذين يشغلون مراكز قيادية فى حركة الانماء وفى تلك الفئة من السكان الذين ينتمون الى القوة العاملة المنتجة فان ذلك كفيل باحداث حركة انمائية سريعة ومستمرة .

---

١٤ - Atkinson, J. W., „ Motivational Determinants of Risk-Taking Behavior ", in Motives in Fantasy, Action and Society, ed. J. W. Atkinson.
Princeton, N. J. : D. Van Nostrand, Co. Inc., 1958.

واخطر ما يتعلق بتلك الصفات المرغوبة فى السكان انها ليست جميعا موروثة ، اى ان توافرها يخضع فقط لعوامل وراثية تخرج عن سيطرة الانسان ، ولكن النسبة الكبيرة من هذه الصفات مكتسبة من البيئة الاجتماعية والحضارية، وبالتالي يمكن اكسابها للافراد المعنيين من خلال اعادة تشكيل الجو الاجتماعي المحيط بهم . ومن هنا تنبع خطورة واهمية الترابط العضوى بين التنمية الاجتماعية وبين التنمية الاقتصادية . ذلك اننا اوضحنا فيما سبق ان التنمية الاجتماعية تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعي تغييرا جذريا ، وهذا التغيير هو فى حقيقته اكساب الافراد صفات وخصائص جديدة تتوافق مع مطالب التنمية الاقتصادية .

ويتم احداث هذا التغيير الجذرى فى صفات وخصائص السكان (او الفئة المقصودة منهم بالتغيير) من خلال استخدام اساليب ومفاهيم الادارة العلمية ، المستندة الى حصيلة المعرفة النابعة من العلوم السلوكية .

التكوين السكاني من وجهة النظر الادارية

من خلال التحليل السابق نصل الى تحديد للنظرة الادارية الى السكان . ان علم الادارة على عكس علم الاقتصاد لا يعتبر السكان عبئا اقتصاديا ، وعلى عكس علم الاجتماع لا ينظر اليهم باعتبارهم مجموعة من المشكلات والصراعات الاجتماعية . ان السكان فى المنطق الادارى لهم وظائف اساسية لها تأثيرها الهام على مستوى التنمية الاقتصادية ومعدلاتها. هذه الوظائف هي:

١ ـ الوظيفة الانتاجية :

ان السكان هم مصدر العمل وهم بالتالي عنصر الانتاج الرئيسي . وبرغم اهمية عناصر الانتاج الاخرى (رأس المال ، المواد) الا ان العمل الانساني هو اهم عناصر الانتاج جميعا . وتتباين درجة اسهام فئات السكان المختلفة فى العملية الانتاجية ، ومن ثم يعظم قدر السكان ، كلما زادت نسبة قوة العمل المنتجة بينهم ، وكلما ارتفع مستوى المهارة والقدرة للعاملين منهم .

وتهتم النظرة الادارية بالقوة العاملة الكلية بين السكان من ناحية ، كما تهتم اكثر بالتركيب الوظيفي والمهني لهذه القوة العاملة . وتعمل الجهود الادارية الى احداث تناسب وتوازن فى التركيب الوظيفي للقوة العاملة ـ بحيث تتوازن الاعداد العاملة فى الوظائف التالية :

أ ـ الوظائف والاعمال الادارية .

ب ـ الوظائف والاعمال اليدوية المصنعية .

جـ ـ الوظائف والاعمال المتعلقة بالخدمات الانتاجية .

د ـ الوظائف والاعمال اليدوية الزراعية .

هـ ـ الوظائف والاعمال الذهنية والفكرية « خلاف الادارية » .

و ـ الوظائف والاعمال المتعلقة بالخدمات غير الانتاجية .

وتميل المساهمة الانتاجية للسكان الى التزايد كلما اتجه هيكل القوة العاملة الى احتواء نسبة اعلى من شاغلي الوظائف الادارية والذهنية والفكرية . ومن ناحية اخرى فان الافراد العاملين فى كل نوع من الوظائف السابقة يمكن تصنيفهم الى درجات ومستويات مهارة كما يلي :

أ ــ المستوى الاعلى من المهارة .

ب ــ المستوى المتوسط من المهارة .

جـ ــ المستوى العادى من المهارة .

د ــ مستوى العمال غير المهرة .

ولا شك ان نسبة تواجد العمالة غير الماهرة تقل الى حد بعيد بين شاغلي الوظائف الادارية والذهنية عموما ، وتزداد عادة بين شاغلي الوظائف اليدوية المصنعية والزراعية ، والخدمات الانتاجية وغير الانتاجية .

وتزداد درجة اسهام القوة العاملة في تحقيق الناتج القومي وتحسين مستواه كلما ارتفع مستوى المهارة بين شاغلي الوظائف المختلفة .

٢ ــ الوظيفة الاستهلاكية :

ان للسكان وظيفة اخرى هامة مكملة لوظيفتهم الانتاجية ، وهي قيامهم باستهلاك السلع والخدمات التي ينتجها الجهاز الانتاجي للدولة . ولا تقل الوظيفة الاستهلاكية في اهميتها عن وظيفة الانتاج، نظرا لان الاستهلاك من العوامل الاساسية المحركة لنظام الانتاج وللنشاط الاقتصادى عموما . ان الدورة الانتاجية المتكاملة تبدأ فى حقيقة الامر من نقطة الاستهلاك الاخير (السوق) وذلك حين تحاول الادارة التعرف على احتياجات المستهلكين ورغباتهم ، التي يعمل الجهاز الانتاجي على تحويلها الى سلع وخدمات يقبل المستهلكون على شراءها مقابل اثمان يتكون منها ايرادات المشروعات ، ومنها يتم تمويل حصول المشروع على عناصر الانتاج اللازمة لاستمرار العملية الانتاجية . ومن ذلك يتضح ان حجم السوق الحقيقي هو المحدد الفعلى لمستوى النشاط الانتاجي . ولا يقتصر اهتمام الادارة بالمستهلكين على الجانب العددى لهم ، بل ان اهتمامها يتجه اكثر الى الخصائص الاجتماعية والنفسية لهم ، ومنها على سبيل المثال ما يلي :

أ ــ حجم الطلب الفعال للمستهلكين المتمثل في القوة الشرائية المصحوبة بالرغبة في الشراء .

ب ــ دوافع الشراء والعوامل المحددة للقرارات الاستهلاكية .

جـ ــ انماط الاستهلاك السائدة واسس توزيع الدخل القابل للانفاق على بنود السلع والخدمات المختلفة .

ان التكوين السكاني ، باعتباره أداة الاستهلاك ، يمثل عنصرا هاما فى تحريك انشطة الانتاج ، وخلق فرص للاستثمار وتشغيل الطاقات المادية للمجتمع ، ومن ثم خلق فرص للعمل وانتاج

الدخل . ومن الصفات الاساسية للمجتمعات المختلفة اقتصاديا تدني مستويات الاستهلاك ، وتخلف الانماط الاستهلاكية السائدة ، بينما تتسم المجتمعات المتقدمة اقتصاديا بارتفاع معدلات الاستهلاك وتطور انماطه . وبالتالي فان نمط ومستوى الانفاق الاستهلاكي اصبح الان من معايير قياس التقدم الاقتصادى .

٣ ـ الوظيفة الابتكارية :

ان للسكان وظيفة ثالثة وهامة هي انهم مصدر الحلول الابتكارية الخلاقة للمشكلات التي تواجه المجتمع . ان العلم والمعرفة والفنون والآداب هى ادوات يستغلها افراد المجتمع من اجل تعظيم رفاهيته وتطوره . ولا شك ان ارتفاع المستوى العلمى والثقافى للسكان ينعكس ايجابيا على الانتاج من حيث الكم والنوع ، كذلك ينعكس على اساليب وطرائق الانتاج . ومن هذا الجانب يبزغ تأثير هام للتكوين السكاني من خلال ادراكه واستخدامه لمفاهيم الادارة والتنظيم ، التي تسهم ايجابيا فى رفع كفاءة الاداء وترشيد الانشطة الانتاجية والاقتصادية .

٤ ـ الوظيفة الاستثمارية :

واخيرا فان التكوين السكاني للمجتمع يمثل اصلا من الاصول الراسمالية الرئيسية . ان من المستطاع النظر الى افراد المجتمع بما يتميزون به من علوم ومعارف وخبرات على انهم فرص للاستثمار يمكن الحصول على عائد كبير من وراء تشغيل خبراتهم فى مجتمعات اخرى تفتقر اليها . ولعل ابرز الامثلة على ما نقصد اليه بهذه الوظيفة هو التكوين السكاني فى مصر . ان مصر تتميز بوفرة فى سكانها يزيدون عن احتياجات التشغيل الاقتصادى الامثل للحجم الحالي من الطاقات الانتاجية المتاحة ، وفى ضوء المستوى التكنولوجي والتنظيمي السائد ، ولكن مصر فى الوقت ذاته تنفق جزءا كبيرا من دخلها القومي في اعداد وتكوين هؤلاء السكان ، واكسابهم خبرات علمية متنوعة فى شتى مجالات العمل الانتاجي واعمال الخدمات .

وبالنظر الى الحدود المفروضة على الجهاز الانتاجي فى مصر حاليا ، فان قدرته على استيعاب هذه الاعداد الوفيرة من اصحاب الخبرات محدودة ، ومن ثم يلجأون الى البحث عن مجالات للعمل فى خارج مصر سواء فى الدول العربية والافريقية المجاورة ، او فى الدول الاوروبية والامريكية (١٥) . وهؤلاء الافراد حين يبحثون عن أعمال خارج مصر ، فانهم يتعاملون على أساس فردي ، ويخضعون لصنوف من الاستغلال والمساومات وعدم الاستقرار الوظيفي لا تتعادل مع ما يسهمون به من خدمات للمجتمعات الجديدة التي يعملون بها . ومن هنا يأتي تصورنا للوظيفة الاستثمارية للسكان ، حيث لو تم تخطيط وتنظيم عملية تصدير العمالة الفائضة عن احتياجات المجتمع ، وتم تشغيلهم فى دول اخرى وفقا لنظم واتفاقيات يؤخذ فى الاعتبار عند عقدها عوامل الخبرة والمهارة والانفاق الاستثمارى الذى انفقته الدولة المصدرة من اجل اعداد ابنائها وتأهيلهم ،

---

١٥ ـ اعلن وزير الصحة فى مصر مؤخرا ان ما يقرب من ٢٧٪ من الاطباء المصريين يعملون خارج مصر .

كما يراعى فيها من جانب آخر نفقة الفرصة البديلة Opportunity Cost بالنسبة للدولة المستوردة (١٦) ، لو تم كل ذلك لامكن للدولة المصدرة تنمية مصدر هائل للدخل من ناتج عمل ابناءها بالخارج .

نخلص من كل ما سبق ان للتكوين السكاني دور ايجابي بناء فى احداث التنمية الاقتصادية لا بد من استثماره واتاحة الفرصة له لكي يؤتي ثماره . والسبيل الوحيد لتحقيق هذه الغاية هي اتباع مفاهيم واساليب الادارة العلمية من اجل استثمار المورد السكاني الى اقصى حد ممكن . وهذا ما سنفعله فى الجزء الاخير من بحثنا .

استراتيجية التخطيط السكاني :

ان المنطق الادارى العلمي في تحليل المشكلات وايجاد حلول لها يتخذ النمط التالي :

ـ تحديد المشكلة تحديدا دقيقا يفصل بين الاعراض والمظاهر الخارجية من ناحية وبين اللب الحقيقي للمشكلة من ناحية ثانية .

ـ تحليل وتتبع العوامل والمتغيرات التي تنشأ المشكلة الحقيقية بفعل علاقاتها المتفاعلة ، وتحديد انماط العلاقات بين هذه المتغيرات وتأثيراتها النسبية على المشكلة موضوع البحث .

ـ التحقق من صحة الفروض حول اسباب المشكلة ، وسلوك المتغيرات المنشئة لها ، وذلك باساليب التحقيق العلمي المختلفة (ابتداء من الملاحظة الشخصية، ثم تجميع البيانات الميدانية، انتهاء باجراء التجارب الميدانية والمعملية) .

ـ تلمس الحلول البديلة للمشكلة وذلك فى اطار الطاقات والموارد المتاحة على ان يؤخذ فى الاعتبار القيود المفروضة على الحركة فى مدى استخدام هذه الموارد .

ـ اختيار الحل الامثل الذى يحقق اقصى عائد مع ادنى التضحيات .

ان المنطق الادارى اذن يتجه فى الاساس الى بناء استراتيجيات (١٧) كل منها تعد بتحقيق عوائد معينة فى ظل ظروف متوقعة وتصبح مهمة اتخاذ القرار الادارى هي المفاضلة بين تلك الاستراتيجيات البديلة فى ضوء الاهداف التي يحاول متخذ القرارات ان يصل اليها .

واعتمادا على هذا المنطق فان المدخل الادارى لعلاج المشكلة السكانية يتبلور اذن فى ضرورة بناء استراتيجية للتعامل مع تلك الظاهرة، بما يضمن الوصول الي النتائج معينة مستهدفة .

---

١٦ ـ يقصد بنفقة الفرصة البديلة ، تلك النفقات التي كان لا بد للدولة المستوردة للعمالة أن تنفقها والوقت اللازم انتظاره حتى تستطيع هي تكوين افراد من ابنائها باعداد وخبرات معادلة للعمالة المستوردة .

١٧ ـ الاستراتيجية Strategy فى المعنى المستخدم هنا هي اسلوب استخدام وتحريك الموارد المتاحة للوصول الى هدف (او اهداف) محدد تحت ظروف وقيود معروفة او متوقعة .

وقبل ان نشرع في رسم ملامح مقترحةلتلك الاستراتيجية لا بد لنا من ابراز بعض خصائص التفكير الاستراتيجي الواجب اخذهافي الاعتبار عند تكوين استراتيجية سكانية :

١ـ انالتفكير الاستراتيجييتسم بالشمولية، اى الاحاطة بكل المتغيرات الممكن ادراك علاقتها وتاثيرها فى الظاهرة موضع البحث . ومن ثم فالاستراتيجية السكانية يجبأن تأخذ فى الاعتبار كافة الابعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضاريةوالسياسية للمشكلة السكانية .

٢ ـ ان الاستراتيجية الشاملة تبنى علىأساس اهداف بعيدة المدى ، وفى ضوء نظرة ممتدة الى المستقبل ، فهي لا تقتصر على ادراكالاوضاع القائمة فقط ، ولكنها تأخذ فى الحسبان التطورات المحتملة فى هذه الاوضاع . ومن ثم فان الاستراتيجية السكانية لدولة ما يجب ان تكون مستقبلية ، تستهدف تحقيق نتائج حاسمةفى مدى زمني بعيد نسبيا .

٣ ـ ان التفكير الاستراتيجي فى الوقت ذاتهيتعامل معالمواقف الحاضرة في اطار تصور شمولي للاوضاع المحتملة في المستقبل ، وبالتالي يمكنبناء استراتيجيات قصيرة او متوسطة المدى لمعالجة المشكلة السكانية وذلك ضمن تصوراستراتيجي شامل وطويل الاجل. ومن ثم تتكامل الجهود وتتراكم الاثار الايجابية على مدى الزمنالى ان تتحقق النتائج النهائية المرغوبة .

٤ ـ ان التفكير الاستراتيجي يعتمد فىالاساس اسلوبين لمعالجة المشكلات ، الاسلوب الهجومي Offensive والاسلوب الدفاعي defensive ويتوقف اختيار احد الاسلوبين على طبيعة الظاهرة موضع البحث وادراك المخططالاستراتيجي لحقيقة الظروف المحيطة ، وتقييمه لمدى الموارد المتاحة والقيود المفروضة علىاستخدامها .

ان الاستراتيجية المقترحة لعلاج المشكلةالسكانيةفى الدول النامية تقوم على الركائز الاتية:

١ ـ الهدف الاستراتيجي هو احداث تغييرات هيكلية فى التكوين السكاني وصولا الى التكوين السكاني الأمثل المتوافق مع متطلبات مستوىمعين من النمو الاقتصادى والاجتماعي .

٢ ـ يمكن ترجمة هذا الهدف الاستراتيجيالى هدف تكتيكي Tactical Objective هو العمل على الوصول بالكفاءة الانتاجية للتكوينالسكاني الى اقصى حد ممكن ، فى اطار تصور واضح للطاقات الانتاجية المتاحة وللتطوراتالمحتملة فيها .

٣ ـ اعتمادا على فهم معين للكفاءة الانتاجيةمؤداه انها مقياس للناتج بالنسبة الى المورد المستخدم فى الانتاج ، فان الكفاءة الانتاجيةللتكوين السكاني =

$$\frac{\text{الناتج القومي الاجمالي}}{\text{عدد السكان}}$$

وبالتالي فان الاستراتيجيات المطروحةللبحث من اجل زيادة القيمة النهائية لهذه النسبة هي :

١ ـ العمل على تخفيض عدد السكان مع ثبات الناتج القومي .

ب ـ العمل على زيادة الناتج القومي الاجمالي مع ثبات عدد السكان .

جـ ـ العمل على تخفيض عدد السكان بنسبة أعلى من الانخفاض المحتمل فى الناتج القومي الاجمالي .

د ـ السماح بزيادة عدد السكان مع زيادة الناتج القومى الاجمالي بنسبة اعلى .

وتتحدد الاختيارات بين تلك الاستراتيجيات البديلة على ضوء الاهداف القومية والاعتبارات الحضارية والعقائدية والسياسية .

٤ ـ وبناء على المنطق الادارى الايجابي الذى قدمناه فى هذا البحث فان الاستراتيجية السكانية المثلى بالنسبة لدولة نامية هي استراتيجية تضم البديلين الثانى والرابع ، بمعنى ان تكون هناك استراتيجية قصيرة او متوسطة المدى تستهدف تحقيق خفض نسبي في عدد السكان ، مع العمل على زيادة الناتج القومي من خلال التحسين المستمر في نوعية وخصائص وقدرات ومهارات هؤلاء السكان، ثم يكون هناك استراتيجية اخرى طويلة المدى تستهدف تحقيق التكوين الأمثل للسكان ، مع التطوير المستمر فى خصائصهم ونوعياتهم تتناسب مع الزيادات الاكبر فى الناتج القومي ، وتسمح باستيعاب القدر المتزايد من الانتاج وتتيح بذلك الفرص لاستمرار التوسع الانتاجي والتشغيل الاقتصادى للطاقات .

٥ ـ ويلاحظ ان البناء الاستراتيجي المقترح للسكان يتكامل مع استراتيجيات اخرى لا بد من تواجدها تستهدف رفع الكفاءة الانتاجية لعناصر الانتاج الاخرى وهي راس المال وعناصر الطبيعة (المواد) كما تستهدف تحسين وتطوير الكفاءة الادارية وتطوير وترشيد اساليبها وقراراتها .

ونعرض فيما يلي ملامح كل من الاستراتيجيات السكانية المقترحة :

الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى

وتستهدف تحقيق النتائج الاتية :

١ ـ تغيير التركيب النفسي للسكان .

٢ ـ تغيير التركيب الوظيفي للسكان .

٣ ـ تغيير التركيب الثقافى للسكان .

٤ ـ تغيير التركيب المهني للسكان .

٥ ـ تغيير تركيب المهارات للسكان .

وبصفة اساسية فان الاستراتيجية بعيدة المدى ترمى الى احداث تغيير هيكلي جذرى فى خصائص وهيكل التكوين السكاني للمجتمع ، تنعكس فى المدى الطويل على الكفاءة الانتاجية

ومعدلات التنمية الاقتصادية ، ومن ثم تحقق فى النهاية التكوين الامثل للسكان (العدد الامثل والخصائص المثلى) .

وتصل الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى الى تحقيق اهدافها من خلال سياسات وبرامج واساليب تتعلق بالعمل على تحقيق ما يلي :

١ ـ تغيير هيكل التنظيم الصحى واساليب الرعاية الطبية فى المجتمع .

٢ ـ تغيير هيكل التعليم العام والمتخصص والعالي .

٣ ـ تغيير هيكل التنظيم الاجتماعي وتطوير النظم الاجتماعية السائدة من خلال تعديل هيكل التنظيم الاقتصادى ، واعادة توجيه علاقات الانتاج في المجتمع بما يسمح بتدفق في الاستثمارات من ناحية ، وتوازن فى توزيع الدخول من ناحية اخرى .

٤ ـ تغيير النظم الثقافية وتطوير اساليب العمل فى مؤسسات التثقيف والاعلام العامة .

٥ ـ تثوير البيئة السكانية من خلال اعادة البناء المادى للمناطق السكنية المتخلفة ، وخلق فرص النمو الاجتماعي وترشيد العلاقات الاجتماعية بها .

٦ ـ اعادة صياغة المفاهيم والعقائد والقيم الحضارية السائدة فى المجتمع بالتعليم والتثقيف والتنظيم الاقتصادى الجديد .

الاستراتيجية السكانية متوسطة المدى :

تستهدف هذه الاستراتيجية احداث تحول مرحلي فى تركيب القوة العاملة من بين السكان ، وزيادة مستوى الكفاءة الانتاجية للمشتغلين ، وذلك كهدف مرحلي يتكامل فى المدى البعيد مع اهداف تغيير هيكل التكوين السكاني كله .

وتتجه هذه الاستراتيجية فى الاساس الى تحقيق ما يلي :

١ ـ خلق مجالات للعمل الانتاجي لاعداد العاملين فى اعمال غير انتاجية .

٢ ـ تحويل العمالة من الصناعات الاقل انتاجية الى الصناعات الاكثر انتاجية (في ضوء الطلب وظروف السوق) .

٣ ـ زيادة نسبة القوى العاملة الى اجمالي السكان (بالعمل مثلا على الاستفادة من النساء غير المشتغلات والاطفال حتى سن معينة) وتوجيه القوة العاملة الجديدة الى الاعمال التي لا تتطلب قدرا كبيرا من المهارة او الخبرة .

٤ ـ زيادة فعالية القوى العاملة الاساسية في الصناعات ذات الانتاجية العالية من خلال التدريب المنظم والمستمر .

٥ ـ تغيير انماط السلوك الانتاجي للقوى العاملة بالعمل على تقليل مسببات ضعف الانتاجية

(الغياب ، التمارض ، تقييد الانتاج ، الاسراف فى المواد ، عدم الدقة فى التشغيل) وذلك بالتدريب من ناحية ، وباستخدام نظم الحوافز الايجابية والسلبية من ناحية اخرى .

٦ ـ تحسين المستوى العام للكفاءة الانتاجية للقوى العاملة من خلال :

أ ـ التخطيط العلمي للقوى العاملة وتحديد الاحتياجات الدقيقة والنوعيات السليمة المطلوبة للعمل .

ب ـ التصميم العلمي للعمل Job design ووضع المعدلات القياسية للاداء وتصميم طرق واساليب العمل .

جـ ـ الاختيار العلمي الموضوعي للافراد ذوى المواصفات المناسبة للعمل ، وتدريبهم على طرق واساليب الاداء الموضوعة .

د ـ الاشراف العلمي على العاملين وتوفير التوجيه والارشاد اللازمين .

٧ ـ العمل على اعادة تكوين وتدريب النوعيات والاعداد الفائضة من القوى العاملة عن احتياجات الجهاز الانتاجي بالدولة ، من اجل استثمار طاقاتهم وخبراتهم فى مجالات العمل المتاحة بالدول الاخرى التي تعاني قصورا فى مواردها البشرية .

الاستراتيجية السكانية قصيرة الاجل :

وتتركز اهدافها على محاولة احداث تغيير سريع وملموس فى مدى الضغط السكاني على الطاقات الانتاجية من ناحية ، والعمل على زيادة المساهمات الانتاجية للسكان بشكل عام وتتبلور فيما يلي :

١ ـ اعادة توزيع القوى العاملة بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة ، تحقيقا للتوازن بين العمالة وبين طاقات الانتاج الاخرى .

٢ ـ تسريح جانب من القوى العاملة ذات الكفاءة الانتاجية المتدنية والتي تمثل عبئا على العملية الانتاجية بما يحقق تحسينا فى الكفاءة الكلية (احالة الشيوخ والمسنين الى التقاعد ، توفير العناية بالمرضى وذوى العاهات ، منع تشغيل الاحداث دون سن الرابعة عشرة .. الخ) .

٣ ـ تشجيع الهجرة الى الخارج فى ظل ضوابط تمنع تسرب الكفاءات وتستبقي العمالة الاقل انتاجية .

٤ ـ تشجيع برامج ضبط النسل والتخطيط العائلي من خلال الحوافز الاقتصادية والاجتماعية .

٥ ـ التدريب السريع لرفع الكفاءة .

تلك كانت ملامح التفكير الادارى الاستراتيجي فى موضوع السكان ، ولا شك ان التحقيق الامثل لهذه الافكار يتطلب وجود هيئة قومية في كل دولة نامية تعمل على اجراء الدراسات ، وتجميع المعلومات اللازمة لرسم الاستراتيجيات السكانية ، والاشراف على تنفيذها ، والتنسيق بين الجهات المختلفة المشاركة فى التنفيذ ضمانا للفعالية والكفاءة .

بقلم : و.س. ويتنسكاى
ترجمة : فاروق مصطفى اسماعيل

الموارد العالمية وعلاقتها بالسكان *

ليست علاقة الموارد الطبيعية بالسكان ، اوعلاقة السكان بالموارد الطبيعية بالمشكلة الحديثة العهد ، بل هي ترجع الى الفترة التي كان الانسان فيها ينتابه الخوف من أن يصبح من الكثرة بحيث لا تفي موارده الغذائية باحتياجاته ، أو الخوف من ان يصبح من القلة بحيث يعجز عن أن يحمي نفسه وموارده من اعدائه ، ولطالما كانت احدى مشاكل الانسان الرئيسية هي أن يحقق نوعا من التكيف والملاءمة بين موارده البيئية وعدد السكان حتى يستطيع ان يحيا الحياة التي ينشدها .

---

* العنوان الاصلى لهذا الموضوع هو World Resources in Relation to Population
وقد نشر في كتاب Population and World Politics صفحات من ٤٦ـ٧٥ . ومؤلف المقال هو الاستاذ و.س. ويتنسكاى المستشار الاقتصادى بمكتب العمل الدولى سابقاوالمستشار الاقتصادى الرئيسى بهيئة الامن الاجتماعى Social Security Board ومدير البحوث بمنظمة القرن العشرين Twentieth Century Fund واستاذ البحوث بجامعة هوبكنز Johns Hopkins Un.

ولقد ترتب على ذلك البحث عن مثل هذاالتكيف الذى نسـميه الآن « **سياسـة الموارد والسكان** » أن ظهر الكثير من التنظيمات المتناقضةالمتعلقة بالحقوق والواجبات الزواجيـة والأبوية لدى الجنس البشرى من ناحيـة ، وكثـير من اساليب وطرائق الزراعة والرى البـدائي وبناء السدود والقنوات من ناحية اخرى . ولقد كان انشغال الانسان بمثل هذه المشكلات فى الماضي محدودا للغاية ومحصورا فى نطاق القبيلة والمدينة، ولكن الذى يميز النظرة الحديثـة هو التفكير فى هذه المشكلات فى ضوء الموارد « العالمية » وعلاقتها بسكان « العالم » .

وقد نجم عن هذا الاتجاه الجديد الى حد ما من الشعور بأن العالم قد تضاءل وانكمش بفضل وسائل المواصلات والاتصال الحديثـة ، وذلك بالاضافة الى بعض الاسباب الملحة الاخرى التي تجعل من الضرورى معالجة مشـاكل السـكان والموارد على انها مشكلات عالمية .

فقبل الحرب العالمية الثانية انتبه عدد من علماء الديموجرافيا فى اوروبا وامريكا الى ظاهرة انخفاض معدل المـواليد Birth Rate في نطاق الحضارة الغربية فى مقابل النمو السريع للسكان في اتحاد الجمهوريات السـوفياتية الاشـتراكية وآسيا وافريقيا . ولقد ازداد الوعي فى السنوات الحديثـة بخطـورة الاضطرابات السياسـية والاجتماعيـة فى المناطـق المتخلفـة Under Developed Areas التي لا تسـتطيع ان تفي باحتياجات سكانها المتزايدين باسـتمرار ، وذلك وفقا لمستوياتهم الحاليـة والتي تميل الى الارتفاع باضطراد .

وتواجه دول الحضـارة الغربية فتـرة من النمو السكاني المتواصل البطىء نسبيا . وليس من الواضح اذا ما كان سكان امريكا الشـمالية واوروبا (فيما عدا سـكان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشـتراكية) سـوف تحقق زيادة سكانية تصل الى ٥ر٥٪ فى الفتـرة ما بين عـام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م حسب تقدير **فرانك نوشستين** Frank Notestein فى عام ١٩٤٥ ، او بنسـبة ٥ر١٧٪ حسب التقديـر المبدئي الذى ذكرناه فى كتابنا « سكان العالم والانتاج World Population and Production » . وبالمثـل فان تنبؤات خبراء الامم المتحدة التى تتوقع امكانية تزايد النمو السكاني بسرعة اكبـر لا تتوقع ان يصل ذلك التزايد الى حد الخطـر الجسـيم فى منطقة الحضارة الصناعية الحديثـة ، ويذهب هؤلاء الخبراء الى ان سـكان تلـك المنطقة التي تشمل امريكا الشمالية واوروبا الشمالية الغربية والوسطى والجنوبية واستراليا سوف يصـل عددهم الى ما بين ٥٤٨ مليون و ٦٥٥ مليـون نسمة في عام ١٩٨٠ فى مقابل ٤٨٦ مليون في عام ١٩٥٠ ، وهذه تمثل زيادة تتراوح بين ٦٥ر٠٪ الى ٩٧ر٠٪ سنويا خلال ثلاثين عاما .

وليس من شك ان استخدام التربة المتاحة والغابات والمناجم بطريقة افضل ، بالاضافة الى نمو الموارد الجديدة والاستيراد من اجزاء اخرى من العالم ، سوف يزود السكان الذين يتزايدون بهذه المعدلات بكل ما يحتاجـون اليه من الطعام والملابس والمأوى والضروريات الاخرى . والواقع ان الدول الصناعية الحديثة لن تواجه اية مشكلة تتعلق بالموارد السكان اذا نحن افترضنا ان الناس فى هذه المنطقة قد وصلوا الى مستوى معيشي مرتفع بدرجـة معقولة ، لانهـم لا يتطلعون الى تحقيق مستوى افضل يتميز بازدياد مطالب الفرد من جميع انواع المواد الخام بطريقة مطردة .

ولكن المشكلة تصبح اكثر خطورة حين نفكرفى سكان العالم ككل ، آخذين فى الاعتبار امكانية النمو السريع للسكان فى المناطق النامية ، وامكانيةوضع افتراضات اكثر دينامية وواقعية بدلا من مجرد الحفاظ على مستوى المعيشة الحالي .

بالاضافة الى ذلك فانه من غير المجدى انتقدر الموارد العالميةبالاشارة الى مطالب السكان فى المستقبل طبقا لانماط الاستهلاك السائدة فىالوقت الحالي ، فمن المؤكد ان مطالب الفرد من كل انواع المواد الخام سوف تزداد سواء في الدولالصناعية المزدهرة او فى المناطق النامية ، والسؤال المهم هنا هو ما اذا كانت الموارد المتاحةسوف تكفي لسد المطالب المتوقعة . ولقد واجهت لجنة الرئاسة لسياسة الموارد (لجنة بيلي) The President's Materials Policy Commission. (Paley's Commission) هذه المشكلة حين ارادت تقرير الموارد في الولايات المتحدة والدول الاخرى المتقدمة للفترة من عام١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ وقد افترضت ان النمو السكاني سوف يحدث بمعدلات معقولة ، بينما الطلب علىالمواد الخام سوف يرتفع بمعدلات غير مناسبة . وسوف احاول هنا ان اضع مخططا تمهيدياللمجموعة من الافتراضات التي يمكن ان نستخدمها فى تقرير كفاية الموارد العالمية مع نهاية هذا القرن.

افتراضات عن النمو السكاني :

ليس هناك تنبؤ للنمو السكاني فى المستقبلالقريب يمكن الزعم بأنه اكثر من مجرد تخمين يقوم على « معلومات اكيدة » . فبعد ان فشلتالتجارب الخاصة بالتنبؤات عن السكان فى المستقبل يتفق علماء الديموجرافيا الآن على انهملا يملكون الوسائل التي تمكنهم من وضع تنبؤات لفترات اطول من ٢٥ ــ ٥٠ سنة تقريبا ، لأنكثيرا من العوامل الوثيقة الصلة قد تتغير خلال هذه الفترة .

ومن ناحية اخرى فمن الصعب دراسةمشكلة الموارد العالمية فى علاقتها بالسكان دون ان يكون لدينا فرص عمل حول حجم سكان العالم فىالمستقبل ، والحل المعقول للمشكلة هو ان نعترف بعدم جدوى كل المحاولات التي استهدفت تقديرسكان العالم فى المستقبل ، وان نحاول في ضوء هذه الحقيقة ان نصل الى تقدير جديد ، او اننستخدم بعض التقديرات الموجودة بالفعل .

ولقد انتقد الكثيرون تقديرنا لسكان العالمعام ٢٠٠٠ م على أساس انها تقديرات منخفضة جدا ، وربما كان لهذا النقد ما يبرره ، فلقدافترضنا ان الزيادة فى سكان العالم ككل ، وفي كل قارة فى الفترة من عام ١٩٥٠ الى عام ٢٠٠٠ مسوف تكون (فى المليون) كما يلي :

	عام ١٩٥٠	عام ٢٠٠٠	الزيادة المئوية
سكان العالم	٢٤٠٠	٣٢٥٠	٥٥٪
امريكا الشمالية	١٦٦	٢٢٠	٣٣٪
امريكا الوسطى والجنوبية	١٦٢	٢٨٠	٧٣٪
اوروبا (باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية)	٣٩٦	٤٤٠	١١٪

اتحاد الجمهوريات السوفياتية	١٩٣	٢٦٠	٣٥٪
آسيا (باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية)	١٧٢٢	١٧٥٠	٣٨٪
افريقيا	١٩٨	٢٨٠	٤١٪
استراليا	١٣	٢٠	٥٤٪

ففي عام ١٩٥١ قام خبراء الامم المتحدةبوضع نسق من التنبؤات يقوم على أساس تصنيف الدول فى مجموعات ، وفقا لاتجاهاتها الديموجرافية السائدة فيها وليس بحسب القارة التي تنتمي اليها ، وكانت تقديراتهم تغطي حياةجيل واحد ـ أى ثلاثين عاما ـ وتردها الى عام ١٩٨٠ . ولكى نجعلها قابلة للمقارنة بتقديراتنالعام ٢٠٠٠ م . فقد حاولت ان ادفعها للامام مفترضا حدوث انخفاض طفيف فى معدلات النموالسكاني ، مع تخصيص للعقدين الاخيرين ٦٠٪ من الزيادة المتوقعة سلفا للعقود الثلاثة السابقةمن ١٩٥٠ الى ١٩٨٠ . وعلى أساس هذا التقدير الاستقرائي فان التنبؤات الثلاث التي تقدمها لنادراسة الامم المتحدة تعطينا التقديرات التالية لسكان العالم فى عام ٢٠٠٠ م .

٣٣٢٠ مليون	التقديرات الادنى
٣٨٠٠ مليون	التقديرات المتوسطة
٤٣٧٥ مليون	التقديرات الاعلى

وتتفق تقديرات نوتشتين Notestein وتنبؤاتنا مع تقديرات الامم المتحدة الادنى ، بينما تزيد تقديرات الامم المتحدة الاعلى بمقدار الثلث .

في عام ١٩٥٤ راجع خبراء هيئة الامم تقديراتهم ورفعوها وقدموا تلك التقديرات الجديدة الى المؤتمر الدولي للسكان فى روما International Population Congress وفيها ابرزوا بشكل واضح معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات في السنوات الاخيرة ، وقد اهتموا بدراسة خمسة اوضاع ديموجرافية رئيسيةهي :

١ ـ ارتفاع معدلات المواليد ومعدلات الوفيات على السواء .

٢ ـ ارتفاع معدلات المواليد مع ميل معدلات الوفيات للانخفاض (وان كانت لا تزال مرتفعة الى حد ما) .

٣ ـ ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات نسبيا .

٤ ـ انخفاض معدلات المولية مع انخفاض معدلات الوفيات نسبيا .

٥ ـ انخفاض او تذبذب معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات .

وقد صنفت جميع دول العالم وفقا لهذه الانماط او المناطق الخمسة ، ثم حدد المعدل النموذجي للنمو السكاني لكل دولة فى كل قارة (او لكل مجموعة من المناطق فى القارة الواحدة) .

وبتطبيق هذه المعدلات للنمو على السكان الذين سبق تقديرهم سلفا فى كل منطقـة عـام ١٩٥٠ اسـتطاع خبـراء الامم المتحدة الوصـول الى التقديرات التالية عن سكان العالم فى عام ١٩٨٠.

٣٢٩٥ مليونا	التقديرات الادنى
٣٦٢٨ مليونا	التقديرات المتوسطة
٣٩٩٠ مليونا	التقديرات المرتفعة

وواضح ان هذه التقديرات الجديدة لعام ١٩٨٠ تكاد تقترب من تنبؤاتنا المرتفعة بالنسبة لعـام ٢٠٠٠ م ، وهي التنبؤات التي ترتكز على تقديرات الامم المتحدة السـابقة ، ولو حملنا تنبؤات الامم المتحدة الى الامام فان سكان العالم فى عام ٢٠٠٠ م سيصبحون كما يلي :

٣٨٠٠ مليونا	التقديرات الادنى
٤٣٣٣ مليونا	التقديرات المتوسطة
٤٩١٢ مليونا	التقديرات المرتفعة

وتسجل هذه الاعداد زيادة ملحوظة تصل الى نحو نصف بليون نسمة تقريبا عن التقديرات الاستقرائية المستمدة من دراسـة الامم المتحدة السابقة ، ولكن التعارض بين التقـديرات التي اعدها فريق الخبراء ذاته فى عام ١٩٥١ ثم في عام ١٩٥٤ يلفت النظر ، وهناك اسباب قوية تجعلنا نعتقد ان التقديرات الاخيرة تمثل تحسنا ملموسا اذا ما قورنت بالدراسة السابقة ، فالدراسة التي اجريت اخيرا تتصف بدرجة غير عادية من الدقة .

ومن ناحية اخرى فهناك ما يدعو للشك فيما اذا كان الانخفاض السريع الذى حدث اخيرا فى معدلات الوفيـات والـزيادة في معدلات النمـو السـكانى تبرر مثـل هـذا التنقيح المتطرف لتقديرات السـكان فى المسـتقبل ، والواقع انا نخشى ان تكون التغييرات المؤقتـة فى الاتجاهات الديموجرافية كما تبدو فى تنبؤات الامم المتحدة الحالية قد وجدت كثيرا من المبالغة والمغالاة .

وبناء على ذلك فاني اميـل للاعتقـاد بأن التقديرات الحالية لا تبطل تنبؤات عام ١٩٥١ ، ولكنها تبعث على مزيد من الشك فيها . فالحد الادنى يظل كما فى التنبؤ القديم الذى استقرىء لعام ٢٠٠٠ م (٣٣٢٠ مليونا) اما الحد الاعلى فان التنبؤ الجديد يشير الى انه سيكون ٤٩١٢ مليونا ، وعلى أى حال فان الاتجاه الاكثر احتمالا هو مجرد رأى أو وجهة نظر .

وتختلف التقديـرات التي اعدها مختلف الباحثين اختلافا كبيرا فما بينها ، فمن ناحية نجد ان **والتر جـريلنج** Walter Greiling يتنبأ منذ عهد غير بعيد بما سيكون عليـه سـكان العالم ، ويبني تقديراته على أساس افتـراض ان النمو السكاني فى مناطق مختلفة ينمو بمعدلات سـنوية ثابتة ، ويربط ذلك بافتراض ان هذا النمو سوف يستمر الى منتصف القرن الحادى والعشرين ، ثم يتبع ذلك فترة من التوازن الديموجرافى Demographic Equilibrium عندما يصل سكان العالم الى نحو تسـعة بلايين نسـمة ، وقد ذهـب في تقديراته الى ان هؤلاء السكان سوف يصلون الى ٤ر٦ بليون فى عام ٢٠٠٠ م ، وهو رقم يقترب من التقديرات المرتفعة للامم المتحدة . اما التنبؤ بما

سيكون عليه الحال فى منتصف القرن التالي فانهغير مؤكد الى حد كبير ، ومع ذلك فان ثمة اسئلة تثار ولا يمكن الاجابة عليها دون افتراض عدد منالافتراضات التعسفية عن التغيرات التي ستطرأ في المستقبل فى طرق الحياة على هـذا الكـوكب(الارض) وعلى العكس فان معظـم التنبـؤات لعامي ١٩٨٠ ، ٢٠٠٠ تتم فى نطاق ضيق نسبيا .

ويمكن لنا من اجل التحليل ان نفترض انسكان العالم سوف يزدادون بليونا او بليونين بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، وهذا يعني زيادة عددالسكان من ٤ر٢ بليون الى ٤ر٣ بليون او ٤ر٤ بليون تقريبا أي بنسبة تتراوح بين ٤٠٪ و ٨٠٪ .

افتراضات عن مطالب المستقبل :

يعتمد تقدم المجتمع الانساني على عواملكثيرة لا تحصى يصـــعب التنبؤ بهـــا ، فمسرح الاحداث السياسية والاجتماعية فى عـــام ٢٠٠٠سوف يختلف عما نشـــاهده اليـــوم تماما مثلما تختلف اوضاعنا الراهنة عما كانت عليـــه عـــام١٩٠٠ ، وسوف يكون الاختلاف فى اسلوب الحياة على مستوى الكم والكيـــف معا . وان كثيرا منادوات الانتاج على نطاق واسع وانماط الاستهلاك الحالي سوف تصبح مجـــرد اثـــر يحتفظ به فىالمتاحف . ومن المحتمل ان تخفض بعض المـــواد الخام المعروفة الآن والتي تســـتخدم على نطاقواسع لتحل محلها مواد اخرى جديدة ، كما كان بعض هذه المواد التي نعرفها اليوم غير معروفة منقبل ، والمعروف ان الولايات المتحدة استخدمت في عام١٩٤٩منالبلاستيك مثلا اكثر ما استخدمتمن الرصـــاص والزنـــك والقصـــدير والنحاس والنيكل والالولمنيوم والمغنيسيوم معا . بينما كانتمطالبها من هذه المواد فى عام ١٩٢١ تزيد بأكثر من عشرين ضعفا عن حاجتهـــا الى البلاســـتيك ،ويمكننا ان نتوقع مثل هذه التغييرات فىالمستقبل، فالسيارة الحديثة ســـوف تعتبـــر من مخلفاتالماضي بعد نحو نصف قرن من الزمـــان ، ولن تختلف النظرة اليها عن نظـــرتنا نحن الآن الىالمركبات التي تجرها الخيول . من العبـــث ان نحاول معرفة ما اذا كان الفحم سوف يستخدمفى المستقبل بنفس الطريقة التي نســـتخدمه بها الآن ، أو سوف يستعمل اساسا كمصدر للوقودالسائل وللحصول على المواد الكيميائية ، وعندما نحاول النظر الى المطالب المستقبلة فـــلا بد وانتفترض ــ صراحة أو ضمنا ــ ان اى مادة خام تستخدم اليوم قد تستبدل بمنتجات اخرىلتحل محلها .

والواقع ان معدلات النمو التي اقترحهـــاتأخذ في الاعتبار التغييرات الكيفية والتغييرات الكمية التي تطرأ على الطلب .

الحاجة الى الطعام :

الواقع أن الحاجة الى التقدم الاقتصادى لاتبدو اكثر وضوحا فى أى مجال من المجالات اكثر من وضوحها فى مجال التغذية ، فالاختلافات فىاستهلاك الطعام بالنسبة للفرد ســـواء فى الدول الغنيةالمزدهرة أو فى المناطقالتى ينتشر فيها الفقرليس كبيرا بلغة السعرات الحراريـــة Calories فمتوسط السعرات الحرارية بالنسبة للشخصفى جنوب وجنوب شرق آسيا هي ٢٢٠ر٢ وحدة حرارية يوميا ، بينما هي ٢٤٠ر٣ سعرا حراريافى امريكا الشمالية ، لكن الاختلاف الاكثر اهمية

ودلالة انما يكمن فى الانماط الغذائية ، حيث نجد الخبز والارز والبطاطس في الدول الفقيرة فى مقابل غذاء هو مزيج من الاطعمة النشوية بالاضافة الى الاغذية الوقائية Protective Foods (كاللحم واللبن والزبد والبيض والفاكهة والنباتات الخضراء) فى الدول الغنية . ومع ذلك فان الاختلافات الكيفية فى الانماط الغذائية يمكن ان تتحول الى مقياس كمي حين تترجم تلك الأطعمة المختلفة الى السعرات الحرارية الاساسية ، كأن نبين مثلا قيمة السعرات الحرارية فى (العلف) الذى يؤدى الى انتاج كل رطل من اللحم او الزبد او كل « كوارت » من اللبن * او كل ١٢ بيضة من غير ان نحدث تغييرات جوهرية في قيمة السعرات الحرارية لاستهلاك الغذاء اليومي للفرد ، لأن الحاجة الى السعرات الاساسية تزداد بتحسن الغذاء .

ان الغذاء الرخيص فى المناطق النامية انما هو نتيجة للتكيف طويل المدى للاستهلاك وندرة الموارد ، ولكن بعد ان يتذوق الناس فى هذه المناطق طعاما افضل فسوف يحرصون على توفيره لأنفسهم ولاولادهم ، ولكن من الصعب على المرء ان يحدد معدل السرعة التي يمكن ان تتغير بها عادات الناس الغذائية . وبصورة عامة يمكن القول ان معدل الغذاء اليومي فى الولايات المتحدة يشتمل على ثلاثة او اربعة اضعاف السعرات الحرارية الاساسية لمعدل الغذاء اليومي فى آسيا وافريقيا . وقد لا تكفي خمسون عاما من الآن للدول النامية لتصل الى هذا المعدل ، مع التسليم بأن ثمة زيادة معتدلة في كمية الغذاء ، وتحسينات محدودة فى مكوناته . وقد يستطيع المرء ان يقدر ان مطالب الفرد للغذاء سوف تتضاعف مرة على الاقل فى العالم ككل فيما بين عام ١٩٥٠ ونهاية القرن الحالي .

وهذا التقدير تقريبي جدا بالطبع ، ويستطيع خبراء التغذية دون شك تحسينه ، وربما يرون ان متوسط حاجة الفرد من السعرات الحرارية الاساسية يمكن ان يرتفع مع نهاية هذا القرن بنسبة ٧٥٪ او ١٢٥٪ بدلا من ١٠٠٪ وقد يختلفون فيما بينهم عند هذه النقطة مثلما فعل الديموجرافيون . وايا كان الاتجاه المحتمل فى العادات الغذائية في العالم فان مطالب العالم المستقبلة من الغذاء يجب تقديرها عن طريق الربط بين النمو السكاني المحتمل والتحسينات المتوقعة فى التغذية . واذا نحن افترضنا ان سكان العالم سوف يزداد بنسبة من ٤٠٪ الى ٨٠٪ ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، فان المطالب الكلية للعالم من الغذاء فى نهاية هذا القرن سوف تصل بكل تأكيد الى اكثر من ضعفين ، بل وربما الى اكثر من ثلاثة اضعاف ما هي عليه الآن ، وهذا يفترض حدوث نمو ثابت بمعدل يتراوح بين ٤ر١ ٪ الى ٢ر٢٪ سنويا .

هذا النوع من الاستدلال يقودنا الى النتيجة التالية وهي **ان النمو السكاني ليس هو العامل الحاسم فى المطالب المتزايدة للجنس البشرى من الانتاج الزراعي وانما الاكثر اهمية من ذلك هو ارتفاع الاستهلاك بالنسبة للفرد .**

وهنا ايضا يكمن المصدر الاساس للشك فى تقدير كفاية الموارد العالمية . ان الهوة بين التقديرات الدنيا والتقديرات العليا للأمم المتحدة تبدو اقل اهمية من عدم قدرتنا على معرفة ما سوف يحتاج اليه الناس في جميع انحاء العالم لوجباتهم الغذائية فى الخمسين سنة القادمة .

---

* ربع جالون

الحاجه الى المواد الخام اللازمة للصناعة :

ان مطالب العالم واحتياجاته المستقبلة من الالياف والاخشاب والحديد والصلب والمعادن الاخرى ، والمواد الكيميائية والطاقة انما تعتمد جزئيا على النمو السكاني . ولكن بصفة خاصة على ارتفاع مستوى المعيشة . وعلى ذلك فان دراسة مشكلة كفاية الموارد العالمية يجب ان تتم فى ضوء الافتراضات المحددة المتعلقة بنمو الانتاج الصناعي فى العالم .

ومما له اهمية بالنسبة لهذه التنبؤات معرفة التغير في بناء الاقتصاد العالمي . فالحضارة الآلية التي بدأت فى الجانب الشمالي الغربي من **اوراسيا** وتطورت على سواحل المحيط الاطلنطي الشمالي من كلا الناحيتين تنتشر الآن فى كل مكان من العالم لكي تصبح هي الحضارة الاقتصادية العالمية . وقد بدأت الشعوب المختلفة فى الاطراف البعيدة فى امريكا الجنوبية وفي آسيا وافريقيا تتعلم استخدام الوسائل الحديثة للانتاج والمواصلات والاتصال ، وتكيف مؤسساتها ونظمها وطرقها فى الحياة طبقا للانماط الغربية .

ان الاتجاه نحو التماثل فى الاساليب التكنولوجية والنظم انعكس فى نهاية عصر الاستعمار اذ بدأ التنظيم الراسي Vertical Organization للاقتصاد العالمي (حيث تسيطر جماعة صغيرة من الدول المتقدمة على مناطق شاسعة من قارات اخرى لتمدها بحاجتها من المواد الخام) في الاختفاء ليظهر محله بالتدريج نظام آخر نشأ نتيجة للارتباك الذى يميز الوضع الحالي للشئون العالمية . وبدون الادعاء باننا نعرف الكيفية التي سيعمل بها هذا النظام بعد خمسين عاما من الآن فاننا نستطيع ان نفترض ان :

الاتجاه سوف يكون نحو تقليل الفجوة بين من « يملكون » ومن « لا يملكون » . فالمناطق المتخلفة سوف تحاول اللحاق بالدول المتقدمة والمتفوقة فى التكنولوجيا وانتاجية العمل ومستوى المعيشة ، ومع انها سوف تصل بالكاد الى المستويات الغربية الحالية مع نهاية هذا القرن ، فالاغلب ان التناقض سوف يقل ويتضاءل .

ولو عبرنا عن ذلك احصائيا فان ذلك يعني انه مهما تكن الافتراضات التي تستخدم لوصف النمو الاقتصادى المتوقع للولايات المتحدة فانه يجب افتراض معدلات سنوية أعلى الى حد ما للتقدم الاقتصادى فى المناطق الاقل نموا وتطورا ، وبالتالي بالنسبة للعالم ككل . مثال ذلك اننا اذا افترضنا ان الانتاج الصناعي للفرد فى الولايات المتحدة سوف يزيد بنسبة ٥ر٢٪ سنويا في المتوسط ، فانه يجب ان نفترض فى ثقة ان معدل الزيادة فى بقية انحاء العالم سوف يتراوح بين ٣٪ الى ٥ر٣٪ وبدون مثل هذا الاختلاف فى معدلات النمو السنوى سوف يستحيل تضييق الفجوة بين المستوى الاقتصادي فى الولايات المتحدة والدول الأقل ازدهارا . وهناك كثير من المؤشرات النسبية التي توضح ان الدول المتخلفة انما تحاول اللحاق بالدول الصناعية الرائدة . إن الامم المتحدة على سبيل المثال قد سجلت النسب المئوية التالية للزيادة التي وصل اليها الانتاج الصناعي في المناطق المتخلفة من عام ١٩٤٨ الى منتصف عام ١٩٥٤ .

الانتاج العالمي	٣٦٪
الولايات المتحدة	١٨٪
العالم باستثناء الولايات المتحدة	٥٨٪
اوروبـا	٦٢٪
امريكا اللاتينية (التعدين)	٢٥٪

أما الدول الصناعية فيمكن ترتيبها كما يلي فيما يتعلق بالانتـاج الصـناعي الذى حققته فى خمس سنوات فى الفترة بين ١٩٤٨ — ١٩٥٢ .

المكسيك	٣٣٪	السويد	١١٪
ايرلندا	٣٧٪	بلجيكا	١٤٪
الجزائر	٣٨٪	الدانمارك	١٩٪
النرويج	٤٠٪	المملكة المتحدة	٢١٪
شيلي	٤٣٪	الهنـد	٢٤٪
هولندا	٤٤٪	كنـدا	٢٧٪
اسبانيا	٤٨٪	فرنسا	٢٧٪
ايطاليا	٦١٪	فنلندا	٢٧٪
اليونان	٩٣٪	الولايات المتحدة	٢٩٪

وطبيعي ان الدولة ذات الانتاج الصناعي المحدود لا تستطيع ان ترفع من قدراتها الانتاجية بنسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ الى ٦٠٪ بسهولة اكثر من الدول الصـناعية كالولايات المتحدة او المملكة المتحدة وبلجيكا . لكن هذه المسألة بالذات تعتبر هي النقطة الحاسمة فى تنبؤاتنا ، وهي ان الدول النامية لديهـا الفرصـة لزيادة انتاجهـا الصناعي ، ومن ثم فان مطالبها للمـواد الخام سوف تزداد بنسـبة اسرع من مطالب الولايات المتحدة .

ان افتراض التقدم الاقتصادى المستمر في المناطق الناميـة يتطلب التغير فى توزيع مواردها بين مجموعات مختلفة من الاحتياجات ، فكلما كانت الدولة فقيرة كان الجـزء المخصص مـن الدخل للطعام كبيرا ايضا ، ففي اكثر المناطق فقراحيث يسـود اقتصـاد الكفاف Subsistence Economy فان ميزانية الغذاء تصـل الى نحو ٨٠٪ من جملة الانفاق الكلي ، ومن المحتمل ان هذه النسبة سوف تصل الى ٧٠٪ فى كل من الصين والهند والعراق وايران و٦٠٪ فى كل من المكسيك والبرازيل والاتحاد السوفياتي واليابان ، اكثر من ٥٠٪ فى الدول الزراعيـة في جنـوب وجنوب شرق اوروبا . وربما تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ فى الدول المزدهرة الصناعية المتقدمة . ان افتراض التقدم الصناعي يوحى بأن الانفـاق على السلع الصناعية يزداد بسرعة اكثر من الانفاق على الطعـام . فاذا كانت مطالب الفـرد للطعام (عدد السعرات الحرارية الاساسية) تتضاعف فان مطالبه للسلع الاخرى قد ترتفع الى اكثر من الضعف .

فاذا حاولنا ان نخضع انماط الاستهلاك فى مختلف مستويات الازدهار والرخاء لقانون **انجل** Engel فسوف نجد ان انفاق الفرد للغذاء يتضاعف حين يرتفع دخله بنسبة ثلاث مرات تقريبا ، فلو فرضنا ان الانسان فى المستوى الحالي للتنمية الاقتصادية في العالم كله ينفق نحو ٤٥٪ من دخله او موارده فى الطعام بينما يخصص نحو ٥٥٪ لاحتياجاته الاخرى . فان مضاعفة موارده المالية ثلاث مرات سوف يؤدى الى مضاعفة انفاقه على الغذاء ، بينما يرتفع اجمالي ما ينفق علي أوجه الانفاق الاخرى نحو أربع مرات ، وهذا معناه ان ازدياد مطالب الفرد واحتياجاته للمواد الخام الصناعية فى عام ٢٠٠٠ بمقدار أربع مرات سوف يعني مضاعفة استهلاكه للغذاء مرتين (بالنسبة للسعرات الحرارية الاساسية) .

واذا ربطنا ذلك بالتنبؤات البديلة للنمو السكاني فان هذه الافتراضات سوف تمكننا من تصور المطالب المحتملة لمواد الصناعة الخام فى نهاية القرن الحالي كما يلي : (١٩٥٠=١٠٠)

١٤٠ ـ ١٨٠	السكان
٤٠٠	مطالب الفرد للمواد الصناعية
٥٦٠ ـ ٧٢٠	اجمالي تلك المطالب .

ان معدلات النمو هذه تفترض تقدما يبلغ فى المتوسط نسبة تتراوح بين ٥ر٣ ٪ الى ٤ ٪ سنويا .

وبالمثل فان العامل الرئيسى يكمن فى نمو الاستهلاك بالنسبة للفرد اكثر مما يكمن فى الزيادة السكانية ، والواقع اننا اذا افترضنا ان المطالب بالنسبة للفرد من المواد الصناعية فى العالم ككل تزيد بنسبة ٨ر٢ ٪ سنويا ، وانها تتضاعف أربع مرات فى خمسين عاما ، فسوف نكتشف كيف ان مطالب العالم من هذه المواد سوف تتزايد بسرعة لتصل الي ستة اضعاف نتيجة لبعض الاوضاع المختلفة المتعلقة بالنمو السكانى . ويبدو أن هذا المستوى من المطالب سوف يمكن الوصول اليه فى مدى ٥٢ عاما (اذا نحن تقبلنا التقديرات المنخفضة ، وفى نحو ٤٥ عاما اذا نحن أخذنا بالتقديرات الاعلى ، وان نفس المستوى من المطالب سوف يمكن تحقيقه فى مدى ستين عاما ، اذا لم تحدث زيادة سكانية على الاطلاق ، بينما كانت مطالب الفرد من المواد الخام الصناعية تزداد بنسبة ٣ ٪ سنويا .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالمطالب المستقبلة للمواد الخام ، فان التقديرات السكانية المشكوك فى دقتها تقل اهميتها اذا ماقورنت بالافتراضات الخاصة بسرعة التقدم الاقتصادى .

وتؤيد التجارب والخبرات الحديثة هذا الزعم ، فوفقا لمؤشرات الامم المتحدة للانتاج الصناعي فان الانفاق تضاعف فى ١٥ عاما من عام ١٩٣٨ الى ١٩٥٣ ، بينما زاد سكان العالم بنسبة ١٦ ٪ تقريبا ، وهذا يعني ان المعدل السنوى للزيادة فى المتوسط كان ١ ٪ للسكان و ٧ر٣ ٪ للانتاج الصناعي للفرد .

وسوف يتبين لنا العلاقة بين هذين الاتجاهين فى السنوات الاخيرة . ففى الفترة

من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٣ زاد سكان العالم بنسبة ٦ ٪ بينما ارتفع الانتاج الصناعي العالمي بنسبة ٣٧ ٪ أى أن متوسط الزيادة السنوية كان ٥ر٦ ٪ للانتاج ومتوسط الزيادة فى المواد الخام ٢ر١ ٪ تقريبا بالنسبة لسكان العالم . وقد بلغ معدل النمو فى المطالب بالنسبة للفرد نحو ٥ر٢ ٪ وهو أعلى بكثير من تقديراتنا . مما يتيح الفرصة لما قد يثور من عقبات ، أو يصيبه التقدم الاقتصادى العالمي من نكسات .

وفى ضوء هذه التجربة فاني اعتقد أن تقديرى لحاجة العالم للمواد الخام الصناعية قد يزداد الي ست مرات فى الفترة من ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠ ، هو تقدير أقرب الى التحفظ سواء أخذنا افتراض النمو الاعلى أو الادنى للسكان ، وسوف يظل هذا التقدير متحفظا حتى ولو انتبه الجنس البشرى الى صوت الديموجرافيين وكف عن التناسل والتكاثر بمثل هذه السرعة .

الدراسات المسحية للموارد :

السؤال الذى يثار حول كفاية الموارد العالمية فى علاقتها بالسكان عام ٢٠٠٠ م يتلخص فيما اذا كان فى استطاعة الانسان خلال خمسة عقود (٥٠ سنة) أن يزيد مؤونته من السلع المصنعة الي أكثر من خمس أو ست مرات ، وبقول آخر هل سيتاح للانسان فى خلال النصف الثانى من هذا القرن أن يزيد من انتاجه العالمى من الغذاء بمعدل سنوى يبلغ فى المتوسط ٢ر٢٪ وان يزيد من انتاج المواد الصناعية والسلع المصنعة بمعدل يتراوح بين ٥ر٣ ٪ و ٩ر٣ ٪ ؟

لكى نستطيع تقييم الموارد الطبيعية للعالم يمكن الالتجاء الى المسوح التي نشرتها حديثا هيئة الامم المتحدة كالاجزاء الستة الخاصة باعمال المؤتمر العلمى للامم المتحدة لحفظ واستخدام الموارد (١٧ اغسطس ــ ٦ سبتمبر ١٩٤٩) .

Proceedings of the UN Scientific Conference on the Conservation and Utilization of Resources (August 17—September 6, 1949).

وكذلك « محددات ونتائج الاتجاهات السكانية » (١٩٥٣)

The Determinants and Consequences of Population Trends (1953)

وثمة كثير من المعلومات القيمة عن الموارد فى الاجزاء الخمسة التي يتألف منها تقرير لجنة بيلى Paley Commission ، وكذلك فى أعمال المؤتمر الاكاديمي الثانى لجامعة نورثوسترن

Proceedings of the Second Academic Conference of Northwestern University

وهو عبارة عن كتيب لطيف يحمل عنوانا يشبه عنوان هذا المقال «سكان العالم وموارد المستقبل»

World Population and Future Resources

الطاقة الانتاجية للتربة :

يشتمل كتاب «محددات ونتائج الاتجاهات السكانية » على مجموعة طريفة من التقديرات المتعلقة بالطاقة الانتاجية للتربة أو (حمولة الارض) ومعظم هذه المعلومات تبدأ بالانماط الحالية للاستهلاك ، وتقيس الطاقة الانتاجية للكوكب الذى نعيش عليه ، وذلك بالاشارة الى عدد السكان الذين يمكن تزويدهم بالغذاء اليومى الذى تتوفر فيه المواصفات الحالية من حيث الكم والكيف .

ولقد ذهب **اى • م • ايست** E. M. East منذ اكثر من ثلاثين عاما الى أن الارض يمكن ان تزود بالطعام ٢ر٥ بليون نسمة علي اقصى تقدير. لقد توصل الى هذا التقدير بافتراض أن هناك ١٣ بليون فدان * متاحة لانتاج الغذاء العالمى ،وان الفرد يحتاج الى نحو ٥ر٢ فدان لسد احتياجاته ، وقد اعتبر هذا العدد (٢ر٥ بليون نسمة) هو الحد الاقصى الذى لا يمكن تجاوزه، وافترض أن الناس سوف يكتفون بالغذاء المحدود والضروريات المادية القليلة التي تمثل المستويات الحالية لدى القرويين فى أوروبا ،والواقع أن ايست اسقط من الاعتبار امكانية استخراج كميات كبيرة من الغذاء من مصادرغير زراعية كالمحيط مثلا .

وبعد عشرين سنة قدر **ف • ا بيرسون** ،و **ف • ا هاربر** F. A. Harper الطاقة الانتاجية للتربة على أساس أن موارد العالم من الغذاءلا يمكن زيادتها زيادة محسوسةخلال جيل واحد، وان الجنس البشرى يجب أن يوزع مواردالغذاء المتاحة علي مستويات مختلفة حتى يمكنه البقاء . وقد استخدما المقاييس التي كانت سائدة فى عام ١٩٤٠ وكمية الطعام التي تكفى سكان العالم حينذاك (٢١٧٠ مليون نسمة) ،واستنتجا ان الارض يمكنها أن تمد بالطعام نحو ٨ر٢ بليون نسمة وفقا لمستوى الغذاءالاسيوى ، ١ر٢ بليون وفقا للمستوى الاوروبي ونحو ٩٠٠ مليون فقط وفقا لمستويات أمريكاالشمالية . وعلى النقيض من ذلك ياتي **بورمان** Boerman فيقدم لنا تقديرات تتراوح بين٦ر٥ ، ٣ر١٣ بليون نسمة وزعها على القارات (بالملايين) على النحو التالى :

امريكا الشمالية والوسطى	١٫٣٥١
امريكا الجنوبية	٤٫٠٦٠
أوروبا	٧٧٨
آسيا	٢٫٨٥٢
افريقيا	٣٫٨٠٣
استراليا	٤٥٠

أما أ • بنك A. Penck فانه يعطينا تقديرات تتراوح بين ٧ بلايين و ١٦ بليون نسمة ، فى حين يعتقد **ا • ف ويجمان** Wagemann انه عن طريق ادخال التحسينات الكافية فى المجال الزراعى فان الارض يمكنها أن تقيم اود نحو ٣٠ بليون من السكان بكل سهولة . وهذه التقديرات تقوم على افتراض امكانية تكييف هواء المساكن فى المناطق المدارية ، وتشجير السهول الروسية والتحكم فى تيار الخليج الدافىء Gulf Stream وري اراضى الصحراء الكبرى. والظاهر ان ويجمان نفسه لا يأخذ تقديراته بصورة جادة وانما يقدمها كنوع من التصور لما يمكن حدوثه فى المستقبل البعيد . كذلك قدرت وزارة الزراعة فى الولايات المتحدة القدرة المحتملة للزراعة وفرص التقدم الزراعى خلال العشر سنوات من ١٩٤٤ الى ١٩٥٤ مع عدم استبعاد حدوث اى

* فى الاصل acre وهى وحدة قياس مساحية تعادل ٤٨٤٠ ياردة مربعة وهو اقل قليلا من الفدان .

تغيير جذرى فى التكنولوجيا الزراعية . فقدوجدت الوزارة أن الولايات المتحدة يمكنهاتوفير الطعام لنحو ٣٨٠ مليون نسمة تحت ظروفالحرب .

ويرى ر . م . سولتر R. M. Salter ان زيادة المساحة المزروعة مع استعمال التربة بطريقة أفضل سوف يعطي ما يزيد على ضعفالانتاج العالمي من الحبوب واللبن ، واكثر من ثلاثة أضعاف محصول البطاطس والدرنةوالفواكه والخضر ، بالاضافة الى انتاج كميات أكبر من المواد الغذائية الاخرى .

ولم يأخذ سولتر فى الاعتبار امكانياتالتطورات الجديدة فى أساليب استخدام التربة، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على امكانية التوسعفى زراعة التربةالمدارية الحمراء فىأمريكاالجنوبية وافريقيا واندونيسيا والاراضى الواقعة فىالجزءالشمالي من المنطقة المعتدلة الشمالية ، وقد طبق تجربة الفليبين على الاراضى المدارية غيرالمستغلة ، كما طبق تجارب الدول الاسكندنافية وفنلندا على الاراضي الهامشية فى المنطقةالمعتدلة .

اما ل . د . ستامب L. D. Stamp فقد قدم لنا تحليلا رائعا للقدرة الانتاجية للتربة ونورد هنا السطور الختامية لكتابه الممتاز :

Land for Tomorrow : The Underdeveloped World

« ان المناطق الزراعية فى العالم فى وقتنا الحالىتستطيع اذاأمكن زراعتها زراعةمكثفة باستخدام أحدث الاساليب المعروفة أن تزود نحو ثلاثةبلايين من السكان بما يحتاجون اليه من الطعام فى مستوى غذائى مناسب . فاذا ما أمكناستخدام نفس الاساليب فى زراعة الارض التى لم تزرع بعد حتى الان أو لم تستغل بعدبطريقةملائمة، فان الزيادةالسكانية التى يمكنمواجهتها ترتفع الى عشرة بلايين نسمة » .. « وفى نفسالوقت فان العلم يضيف باستمرار الى المعرفة الانسانية أشياء جديدة ، ولدينا من الاسبابما يجعلنا نتوقع أن يساعد التقدم العلمى على تنشيط مشكلة الغذاء التى يحتاج اليها الجنسالبشرى وذلك اذا ما استطاع الانسان أنيتغلب على الحواجز التى يقيمها هو نفسه بين الامم » .

ولا شك أن غموض المفاهيم المتعلقة« بالارض » و « الارض المنزرعة » من ناحية ، والاختلافات فى تقدير الحدود التى يمكن أنيحققها التقدم العلمي والفنى فى مجال الزراعة من ناحيةأخرى هيمصدر الاختلاف فىالتقديراتالخاصة بامكانية الارض على تحمل السكان والتي تتراوح بين ٣ بليون نسمة وفقا لما ذهباليه بيرسون وهاربر و ٣٠ بليون يمكن أنيعيشوا بكل سهولة حسب ما يقول ويجمان .

مصدر التقديرات المثيرة للجدل :

لقد أوضح أريك زيمرمان Erich W. Zimmerman المعنى المزدوج لكلمة «الارض» اذ يقول:

« ان **الارض** بمعنى السطح هي شيء ثابت،بينما **الارض** بمعنى المجموع الكلي للمساهمة الطبيعية ليست شيئا ثابتا وانما ديناميا اليحد كبير ، انها لا تثبت عند شيء أبدا وانما تتغير باستمرار استجابة لتأثير الاتجاهاتوالافعال الانسانية المتغيرة وفوق كل شيء

استجابة للثقافة المتغيرة .. فليس ثمة علاقة بين مجموع سطح الارض ودراسة المصادر المتاحة تماما ، كما أن ليس ثمة علاقة بين مجموع المادة والطاقة فى الكون ، وذلك ان الذى يهم هو وظيفة Function ومعنى Meaning الارض ومظاهر الطبيعة الاخرى بالنسبة للانسان » .

وليس هناك من بين المشتغلين بدراسة الموارد العالمية فى الوقت الحالي من ينكر التفسير الدينامى الذى قدمه زيمرمان لمفهوم « الارض » كعامل متحكم فى تقييم « حمولة » الارض ، ولكن الاراء تختلف فى مدى ما يمكن أن تحققه « مرونة الارض » فى التنبؤات الاقتصادية الطويلة المدى .

فالدراسة التى قدمتها الامم المتحدة الى « الجمعية الامريكية للمحافظة على التربة » Soil Conservation Society of America عام ١٩٥١ افترضت امكانية الولايات المتحدة تزويد بليون من الناس بحاجتهم الغذائية اذا ماطبقت أحدث الاساليب التكنولوجية واستخدمت اقصى ما تستطيع من الطرق الوقائية للتربة وتسميدها ، واذا أمكن عن طريق اقامة سلسلة من السدود زراعة مساحة كبيرة من خليج المكسيك .

ومن الصعب علينا أن ننقل الرأى القائل بأن « الارض » سوف تنتج عام ٢٠٠٠ م نفس ما تنتجه الان ، لقد سألت دكتور **نتنسون** M. Nuttenson مدير المعهد الامريكى لايكولوجيا المحاصيل American Institute of Crop Ecology عن امكانية التوسع فى الانتاج الزراعى ، وسوف اقتبس هنا بعض مقتطفات اذن لي بنشرها من رسالته لي :

١ ــ على أساس الممارسات الحقلية الحالية والادوات الزراعية المستخدمة فى الدول ذات الكثافة السكانية العالية والتى تستخدم فيها الاساليب العلمية مثل اليابان فان انتاج الطعام فى الولايات المتحدة يمكن زيادته عدة مرات كلما جعلت الضغوط السكانية فى هذه الدولة ذلك امرا ملائما من الناحية الاقتصادية . وكذلك فان الممارسات وأنواع النباتات المحسنة فى اليابان يمكن أن تزيد انتاج الطعام الى حد كبير فى كثير من البلاد .

٢ ــ ان محطات التجارب الزراعية لديها كمية ضخمة من المادة العلمية المؤكدة المتعلقة بكيفية زيادة انتاج المحاصيل ، ولكن نتائجها التجريبية لم تستخدم بعد لاسباب اقتصادية (أعنى بها الانتاج الزائد Over Production فى السوق المحلية والافتقار الى القوة الشرائية فى الاسواق الخارجية ، والمنافسة بين مناطق الانتاج فى الولايات المتحدة والتى تتفاوت فيما بينها فى امكانية زيادة الانتاج وفقا للظروف البيئية . فعلى سبيل المثال نجد انه على الرغم من أن نبراسكا Nebraska يمكنها أن تضاعف انتاجها لكل وحدة من الارض فانها لم تفعل ذلك نظرا لان تكاليف الرى الاضافى والمخصبات الاضافية سوف تتجاوز تكاليف انتاج نفس القدر من المحصول فى ولاية أيوا Iowa مثلا حيث الامطار الوفيرة والخصوبة العالية للتربة ، والتي تسمح بعائد مرتفع من المحاصيل ، دون حاجة الى رى أو مخصبات باهظة التكاليف) .

٣ ــ أن الحد الاقصى من المحصولات يمكن الحصول عليه فى حالة الضرورة من مساحة محدودة من الارض عن طريق « الزراعة بدون تربة » أى « الزراعة بالماء » الذى أضيف اليه بعض المواد الغذائية Hydroponics . ان المسألة حتى الان مسألة اقتصادية بحتة الى حد كبير .

وان مرور الوقت وحده كفيل بأن يبين لنا الى أى حد يمكن استخدام هذه الوسائل ، ولكنها بكل تأكيد سوف تسمح بالتوسع فى انتاج الغذاء دون الاكتراث أو القلق فيما يتعلق بمساحة التربة المتاحة ، فانتاج الطعام النباتى يتطلب استخدام المحاليل الغذائية والحصى والرمل والمياه كوسائط للنمو ، ويعتبر الحصى الوسيط الاكثر انتشارا دون أن يكون لها غرض آخر سوى دعم النبات . ومن ثم فانه يمكن الحصول كل سنة على محصول وافر جدا دون أن نخشى من استنزاف التربة ، أو نضوبها أو انهيار بنائها أو التعرية أو الفيضان أو الجفاف ، أو ما الى ذلك من مشاكل أخرى مشابهة كتلك التى نعرفها فى الزراعة التقليدية ، ولقد استخدمت هذه الطريقة وما زالت فى جيش الولايات المتحدة وقد حققت نتائج ممتازة . وقد تعجز هذه الطريقة عن منافسة الزراعة التقليدية اليوم ، ولكنها بكل تأكيد تفتح افاقا جديدة لانتاج الغذاء كلما وأينما كانت ندرة الارض تحول دون حاجة السكان ومتطلباتهم الاقتصادية .

٤ ـ ولا شك أن التركيب الضوئى الصناعى Industrial Photosynthesis لانتاج البروتين والدهنيات والكربوهيدرات Carbohydrates عن طريق استخدام كائنات نباتية ذات خلية واحدة Unicellular مثل الطحالب Chlorella يمكن أن تزودنا بمصدر جديد للغذاء من المحتمل أن تصبح له نتائج كبيرة فى الصورة العامة لاحتمالية انتاج المواد الغذائية للانسان والحيوان على السواء . ولاشك أن انتاج الغذاء بواسطة التصنيع البيولوجى ما زال فى مرحلة البداية ، وان انتاج الطحالب طبقا لما ذهبت اليه مؤسسة كارنجى Carnegie Institution فى واشنطن يمكن معالجته ببراعة من خلال السيطرة على المواد الغذائية بطريقة تختلف الى حد كبير من حيث طبيعة الانتاج الجديدة لهذه العناصر النباتية الدقيقة للنباتات ذات الخلية الواحدة ـ من ٥٦ ٪ بروتين الى ٨٠ ٪ دهنيات فى حالة الوزن الجاف . ومهما تكن نتائج الدراسة الحالية فمن الواضح أن ثمة عملية تعتمد على استخدام بعض الكائنات الحية لتزويد الانسان عن طريق بعض العمليات الصناعية ، وليس عن طريق زراعة الحقول بمصدر غذائى يقدم للانسان كميات هائلة من الطعام من مساحات محدودة من الارض وسوف يؤدى ذلك فيما يبدو الى تغيير وضع السكان تغييرا تاما .

٥ ـ هذا الانتاج التركيبى للمواد الجديدة والمتمثل فى احلال الالياف واللدائن الجديدة يوصى بأن الارض المنزرعة بالالياف أو المحاصيل الاخرى يمكن أن تزرع بمحاصيل غذائية اذا استدعت الضرورة الاقتصادية ذلك ، وان انتاج الغذاء بطريقة تركيبية أو شبه تركيبية ليس بعيدا كما يتبادر للذهن ، وقد يؤدى الى تغيير أفكارنا التقليدية بطريقة جذرية فيما يتعلق باحتمال انتاج الغذاء فى العالم .

٦ ـ هذه الانجازات الحالية منها أو المستقبلة فى مجال العلوم الطبيعية قد تفترض حدوث تغييرات ثورية وتحسينات فى امكانيات الانتاج المحاصيل ، وهى امكانيات يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقدير السكان وموارد الغذاء فى المستقبل . ومنذ عشر سنوات فقط لم يكن لدينا تسجيلات أو تحليلات احصائية عن الحبوب يمكن أن تكشف لنا عن امكانية نتائج عملية التهجين أو عن الثورة التى احدثتها هذه الظاهرة فى المحاصيل وبخاصة بالنسبة للحبوب . والى

أى مدى يمكن أن تمتد هذه الثورة الى المحاصيل الرئيسية الاخرى ، بل ان السجلات الاحصائية للانتاج فى الماضى لم تكشف عن المقتضيات المروعة لامراض النباتات واساليب مقاومة الآفات واستخدام الهرمونات النباتية ، وكذلك التطور الثورى المرتقب كنتيجة لاستخدام الطاقة النووية Nuclear Energy فى مجالات زراعية عديدة ، والتى يمكن أن تجعل من الملائم اقتصاديا استخدام مياه البحر في الاقاليم المجدبة وشبه المجدبة من العالم ، وتساهم في اضافة مصدر من مصادر انتاج الغذاء لموارد الانسان الحالية .

٧ ــ ان استخدام الطاقة الشمسية Solar Energy الرخيصة لاغراض الرى أصبح امرا وشيك الحدوث فى المستقبل القريب

٨ ــ ان اساليب مقاومة الآفات سوف تصبح قريبا اكثر فعالية، كما ان احتمال السيطرة على الامراض فى تربية الحيوان (كما هو الحال فيما يتعلق بالسيطرة على ذبابة التسيتسى Tsetse التى تصيب الماشية فى افريقيا)أصبحت عالية ، وكذلك فان العلاج والادوية الوقائية أصبحت متوفرة بالنسبة لبعض امراض الحيوانات والدواجن الشائعة ، كما ان سلالة البراهما Brahma * تنبىء بتعديل أساليب تربية الدواجن والماشية فى الاقاليم الحارة من العالم .

٩ ــ ان الزراعة وكذلك بعض المظاهر البيولوجية الاخرى تخضع لتحسينات ضخمة، وان معلوماتنا الاساسية تزداد بالتدريج ،وسوف تكون فى متناول الانسان فى وقت غير بعيد الذى سوف يأخذها فى الاعتبار دون شك ويستفادمنها .كاداة مشروعة لدراسة المشكلات السكانية فيما يتعلق بالحاجة الى الغذاء والتنمية الاقتصادية .

ثم هناك المحاولات المبدئية لحراثة البحر بدلا من الاكتفاء بجنى ثمار البحر . ففى اسكتلندا تم تسميد الفيوردات Fiords بنجاح وقد ترتب على ذلك زيادة محصول السمك الى حد كبير ، وقد تم ذلك عن طريق تحصين وتقوية مناطق مغلقة من المياه ، ترتب عليها نمو العوالق المائية Plankton والتى كانت تصطاد بواسطة سمك « المنوه » Minnows * ثم بعد ذلك استخدمت اسماك أخرى . وقد امتدت التجربة لتشمل مناطق أخرى من المياه المفتوحة غير المحصنة كما كان الحال فى التجارب السابقة . ولقد تعلمنا ان نزيد المحارات « الرخويات البحرية » Oysters بسرعة وذلك بالسيطرة على الكائنات الحية المتناهية فى الصغر .

ان وزارة الزراعة قدمت العديد من الخطط التى يستخدمها الفلاحون الآن فى اغراض مماثلة لاكثار مخزونهم من سمك القاروس Bass الذى يتواجد فى البرك ويغل فى افضل الظروف نحو ٣٠٠ رطل سنويا فى الفدان الواحد ، وفى اقصى الطرف الجنوبى لخليج سان فرانسيسكو حيث يتم تبخير مياه البحر للحصول على الملح ،وحيث تنمو الطحالب ثم تجمع هذه القشريات للحصول

* سلالة من الطيوروذات الاصل الاسيوى ادخلت الى الولايات المتحدة في سبتمبر ١٨٤٦ وقد انتشرت على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن ١٩ .

* سمك اوروبى صغير الحجم .

على البروتينات منها ، وكان من الممكن أن تتم هذه العملية باستخدام سمك « المنوه » لولا وجود « النورس » الذى يعيش على هذه الاسماك والذى يصعب جمعه مثلما تجمع القشريات .

يجب أن نتذكر دائما ان ضغط المطالب المتزايدة سوف يعجل بنمو واستغلال أنواع جديدة من المحاصيل التى لا تحتاج الا الى قدر محدود من أشعة الشمس والرطوبة ، والتي يمكن زراعتها فى الاراضى الحدية وبخاصة فى المنطقة الممتدة على طول الحدود الشمالية للمنطقة المعتدلة الشمالية وكذلك فى الاراضى المرتفعة المدارية .

وسوف تزداد موارد الطعام فى الدول النامية زيادة ملحوظة عن طريق التحكم فى التلف الذى تلحقه الحشرات والحيوانات القارضة وامراض النباتات ، وكذلك عن طريق الاهتمام بتحسين امكانيات التخزين والنقل والتسويق .

كذلك فان صيانة التربة والمحافظة عليها يمكن أن يقضى على استنزاف الارض ، كما أن استصلاح التربة وخاصة الرى يمكن أن يجدد خصوبة المناطق المتآكلة والمستنفدة ، ويؤثر تأثيرا فعالا فى التوسعات الهامة فى الاراضى القابلة للزراعة ، وخير ما يساعد على ذلك فى المدى الطويل هو حسن استغلال مصادر المياه .

فى المجال المحلى المحدود فانه يمكن توجيه المياه الجارية نحو الاراضي الزراعية باستخدام الطرق والاساليب البدائية مثل السدود الصغيرة والقنوات ، أما على النطاق الاكثر اتساعا فان عملية الرى تتطلب كثيرا من التكاليف والانفاق للاعمال الهندسية ، ولو أن مثل هذه النفقات تصبح عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية حين تتعرض الزراعة للانتاج الزائد عن الحد Over Production بينما يكون استثمار هذه النفقات اقتصاديا حين يزداد الطلب ازديادا كبيرا . علاوة على ذلك فقد ظهرت امكانيات جديدة نتيجة للربط بين وسائل الرى والتحكم فى الفيضان وتحسين الملاحة فى الانهار وانتاج القوى الكهربائية . وهذا التداخل المتعدد الاغراض فى الدورة الهيدرولوجية Hydrological Cycle فكرة جديدة نسبيا وقد بدأت التجارب فى هذا المجال على نطاق واسع فى مشروع «وادى تنيسى » كما أن هذه الطريقة استخدمت بنجاح فى وادى كلومبيا (مشروع الكولي الكبير) Grand Coulee Project كذلك فان ثمة مشاريع اخرى طموحة بدأ تنفيذها فى الهند ومصر ، كما أن بعض الخبراء يعتقدون أن رى الصحراء الكبرى مسالة يمكن تحقيقها وتنفيذها باستخدام الوسائل الفنية الحالية اذا توفر المال اللازم .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالقدرة الانتاجية للارض فى المناطق المزدحمة بالسكان والمناطق الجافة الفسيحة ، فان كل نقطة من ماء النهر تصب فى البحر تعتبر خسارة فادحة. فباستثناء تيار الماء اللازم لدفع السفن فى الأهوسة عند مصب الانهار فان كل نقطة من المياه يمكن توجيهها الى الحقول وردها الى الدورة الهيدرولوجية خلال عملية البخر . والواقع انه يمكن تسخير التيارات الشديدة فى آسيا وافريقيا لتحويل الصحارى الى حقول خصبة وبساتين خضراء اذا ما توفرت الطاقة الرخيصة والتجهيزات الحديثة .

كذلك فان وجود مصادر جديدة للطاقة الرخيصة سوف يحل مشكلة تنقية مياه البحر وتوفيرها بكميات تكفى لرى الاراضى الممتدة على الساحل الباسفيكى لامريكا الجنوبية والساحل الشمالى لافريقيا وبعض اجزاء من استراليا .

ان القدرة الانتاجية للارض تعتمد الى حد كبير على التقدم فى مجال القوة Power وعلى العلاقة بين تكاليف الطاقة Energy واسعار المحاصيل الزراعية ، واذا افلح تزايد الطلب على الطعام الافضل فى تحرير الزراعة فى المناطق المتقدمة تكنولوجيا من المخاوف المترتبة على الانتاج الزائد ، فانه سوف يمكن تكريس ملايين الكيلوواتات من القوى الكهربية لمشاريع استصلاح الاراضى الضخمة فى المناطق الاقل تقدما . ولقد اصبح التقدم فى استخدام الطاقة بمثابة العمود الفقرى لتنمية الصناعات الحديثة والمواصلات، فالمصادر الحديثة للطاقة امتدت الى الزراعة فى شكل كهرباء ومحاريث آلية ، والاغلب ان الخطوة التالية فى استخدام الطاقة فى الزراعة سوف تكون فى مجال استصلاح التربة واعادة توجيه الدورة الهيدرولوجية .

موارد الطعام غير الزراعية :

يبشر الاستخدام المتزايد لمصادر الطعام غير الزراعية بزيادة اخرى فى قدرة الارض الانتاجية ، فموارد المحيط التى تغطى نحو ثلثى الكرة الارضية لم يكد الانسان يشرع فى استغلالها ولا يزال المحيط يمثل نوعا من التحدى للانسان، ومع ذلك فان اهتمام العلماء بكنوزه المخبأة يزداد بسرعة ، بل ان بعض الخبراء يعتقدون انه سوف يحين الوقت الذى يعتمد الانسان فى عيشه على المياه الى حد كبير ، وليس من المتوقع ان يصبح السمك مصدرا هاما للغذاء فى العالم، وذلك لان اسماك المحيط تخضع فى واقع الامر لقيود خطيرة ولكن الامل كبير فى الانتفاع بالاحياء الدقيقة الطافية فى المياه ، والخمائر والطحالب البحرية ومنتجات المحيط العضوية الاخرى المهملة .

وعلى اى حال فان المسألة ما زالت فى دور الاستكشاف التمهيدى ، ولكن جميع الخبراء يعترفون بأن المحيط يضم مخزونا لا ينضب من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات التى يمكن فى نهاية الامر ان تتحول الى غذاء للبشر أو علف للحيوان .

وسوف يضطر النقص فى مصادر الغذاء الاخرى الانسان الى ارتياد هذا المستودع ، وسوف يستخدم انتاج المحيط كعلف للماشية قبل أن يصبح صالحا لتغذية البشر مما سوف يساعد على تخصيص بعض الارض التى تستخدم الان فى أنتاج العلف الحيوانى لزراعة المحصولات الغذائية ، كما سيمكن فى الوقت نفسه التوسع فى انتاج الاطعمة الوقائية اى اللحم ومنتجات الالبان بتكاليف زهيدة .

المحاصيل الصناعية :

كذلك سوف تزداد قدرة الارض الانتاجية نتيجة للتقدم فى انتاج الالياف الصناعية والمطاط وما اليها ، كما ان التقدم الذى سوف تحققه فروع علم الكيمياء الان سوف يحرر جزءا من الارض التى تشغلها الان المحاصيل الصناعية كالقطن وبذرة الكتان .

ونحن الان فى المرحلة الاولى لهذه العملية ومن الصعب أن نتنبأ بكل مقتضياتها بالنسبة للاقاليم المتخصصة فى مثل هذه النباتات . فقد تنشب فيها اضطرابات اقتصادية حادة وقد يصعب استكمال اعادة تكييف الزراعة المحلية للاتجاهات التكنولوجية الحديثة مع نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فيجب أن نأخذ فى الاعتبار دائما تأثيرها على قدرة الارض الانتاجية .

* بعض التحفظات :

بينما يعترف خبراء الامم المتحدة بامكانية زيادة الطعام من المصادر الزراعية وغير الزراعية زيادة بالغة ، فانهم يخففون من تنبؤاتهم المتفائلة باثارتهم لنوعين من التحفظات ، أحدهما مرتبط بالصعوبات العملية والاقتصادية والاخر بالنظام السياسى للعالم . اما فيما يتعلق بالمعوقات العملية Practical obstacles المتعلقة بالتوسع فى الاراضى الصالحة للزراعة ، واستخدامها بطريقة افضل ، فان دراسة الامم المتحدة بينت ان الصعاب التى تجابه أى برنامج فعال من هذا النوع تصبح أكثر وضوحا عندما نحاول تعيين أى خطوات محددة بالذات لزيادة انتاج الغذاء فى مناطق معينة ، وفى هذه الحالة نجد أن الافتراضات أو العروض لا تجدى ليس فقط بسبب الصعاب الاقتصادية ، بل وأيضا بسبب لا مبالاة الناس وشكوكهم وجهلهم ، يضاف الى ذلك ان الدراسة تؤكد ان التنمية لا يمكن أن تتحقق اذا ما كانت مجزأة ، وانما لابد من ان تكون عملية متكاملة تقوم على الاعتماد المتبادل بين الموارد والناس ، ومثل هذه الصعوبات لن تختفى بطريقة آلية نتيجة لتقدم العلم والتكنولوجيا .

الا انه يمكن تحدى هذا النمط من التفكير فالاقتصاد العالمى الحديث انما يقوم فى الواقع على نظم منفصلة ومجزأة ، ولم يكن التقدم الاقتصادى فى وقت ما عملية متكاملة منطقية ومخططة تخطيطا محكما ، وانما تحقق فى شكل وثبات أو قفزات ، ونتيجة لسلسلة من التجارب المرتجلة تحت تأثير أحلام الناس ، وتخميناتهم وطموحهم ، صحيح انها عملية فيها الكثير من الاسراف والضياع فلقد اجتاز الجنس البشرى طريقا متعرجا شاقا بحيث يمكن للمرء أن يزعم انه كان فى الامكان تحقيق نفس النتائج أو أفضل منها فى وقت اقصر لو أن التاريخ البشرى كان قد سار حسب خطة وضعتها سلفا لجنة من الخبراء ، ولكن لسوء الحظ فان التشكل الاقتصادى للعالم حدث بطريقة فجائية لم يمكن معها الدعوة لعقد مؤتمر من الخبراء فى مهد الاقتصاد الحديث ، ومن المحتمل ان تتخذ التنمية فى النصف الثانى من هذا القرن نفس الشكل « الفسيفسائى » المجزأ الذى اتخذته من قبل ، ولكن مع اختصار للجهود والتجارب الضائعة التى لن يستفاد منها فى المناطق التى تحاول اللحاق بالامم المزدهرة الحديثة .

انهم يستطيعون بلا شك الاستفادة من المنجزات العلمية والفنية التى تستخدمها هذه الامم ، وبالطبع فان «اللامبالاة الانسانية والجهل» تمنع امكانية التقدم الاقتصادى السريع فى المناطق المتخلفة ، ولكن فى ايامنا هذه ليس ثمة مكان للا مبالاة وانما الذى يميز هذه المناطق فى المرحلة الحالية هو الحركة الفعالة والمطالب الملحة من أجل التحسين والتقدم ، والرغبة العارمة للمعرفة .

وهذا الحكم الاخير تؤيده نسبة التوزيع المئوى للانفاق العام، وخطط التنمية ومشروعات المساعدات الفنية فى هذه المناطق ، فالميـزانية المخصصة للتعليم العام فى بعضها اكبر من مثيلاتها فى الدول المتقدمة الحديثة ، والجدول التـالى يبين النسبة المئوية لميزانية التعليم من اجمالى الميزانية القومية لعام ١٩٥١ فى بعـض الدول المتقدمة والنامية .

بنمـا	١٩ر٩	الارجنتين	١٠ر٤
شـيلى	١٦ر١	السـويد	١٠
سـوريا	١٦	تركيـا	٩ر٨
بـيرو	١٥	ايرلنـدا	٩ر٢
جـواتيمالا	١٤ر٩	ايران	٨ر٩
كوستاريكا	١٤ر٧	نيوزيلندا	٨ر٧
سـيلان	١٤ر٦	فنـزويلا	٧ر٥
مصر	١١ر٦	المملكة المتحدة	٧
جزر هايتى	١١	العـراق	٦ر٨
المكسـيك	١٠ر٨	البرتغـال	٦ر٥
هندوراس	١٠ر٨	النرويج	٦ر٣
لبنـان	١٠ر٥	النمسـا	٥ر٨

والجدير بالذكر هنا هو ان الدول المتقدمة الحديثة تقع فى أسفل القائمة ، ولا شـك ان ترتيب هذه الدول قـد يتغـير عندما نعرض للميزانيات المحلية أوميزانيات المقاطعات والاقاليم ولكن الحقيقة تظل ان الدول النامية غالبا ماتنفق على مدارسها البدائية من ميزانيتها العامة جزءا اكبر مما تدفعه الدول المتقدمة على نظام تعليمها المتطور الراقى .

ومن ناحية اخرى فان الاموال المخصصة للتعليم العام تحتل ايضا مرتبة عالية فى خطط التنمية الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية وآسـياوافريقيا ، فبناء المدارس يعتبر بمثابة حجـر الزاوية لتنمية المجتمع المحلى فى الهند مثلا ، كما ان المعلمين والتربويين يأتون فى قمة قائمة الموظفين الذين تطلبهم الدول المضيفة ، سواء من صندوق الخدمات الفنية للامم المتحدة او هيئة المعـونة الخارجية بالولايات المتحدة .

وعلـى ذلك فانه يبدو ان الديناميـة وليس اللامبالاة والجهل ستكون هي الاساس للتنبؤات الاقتصادية البعيدة المدى .

اما التحفظ الثاني الذى يثيره خبراء الامـم المتحدة فلا يمكن دحضـه ، فمعظم التقديـرات الخاصة بانتاجية الارض تقوم على افتراض ان موارد الغذاء العالمية هي بمثابة مخزن واحد يمكن للجميع ان يسحبوا منه ، لكن الواقع ان هـذا المخزن او المستودع مقسم الى حد كبير . ونظرا

لان الكثير من شعوب العالم لا يمكنهم الاستفادةمن بعض اجزاء العالم الهامة فان القدرة الانتاجية الفعلية للارض اقل بكثير جدامن قدرتها النظرية.

ان القول بان موارد الغذاء العالمية يمكـن انتتضاعف ثلاث مرات مع نهاية هذا القرن لايعني بأى حال انه فى الخمسين سنة القادمة سـوفتتمكن كل قارة من ان توفر لسكانها الغـذاء المناسب كما وكيفا ، بل الاكثر من ذلك ان هـذاالقول لا يعني ان كل بلد سوف ينتج من الغذاء ما يكفي سكانه ، او سوف يكون لديه الوسائلالمناسبة لاشباع احتياجاته من الطعام عن طريق الاسـتيراد من الخـارج .

وحتى اذا اخذنا باكثر التنبؤات تفاؤلا عـنالقدرة الانتاجية للارض فسوف تكون هنـاك فى الاغلب مناطق شاسعة تعاني من النقص فىالطعام.ان تراكم الفائض فى مناطق معينة قد يبطىء من التقدم الزراعي في تلك المناطق ويجعل المحصولالفعلي اقل بكثير من القدرة الانتاجية النظريـة للتربة ، بينما يؤدى الغذاء فى مناطق اخـرىالى تعطيل التقدم الاقتصادى ، والى عـدم الاستقرار الاجتماعي .

ان القـدرة الانتاجيـة للتربة تفتح المجـالامكانية تحقيق التحسينات الهائلة فى تغذيـة السكان المتزايدين فى العالم ، **ولكن هذا فى ذاته**لا يحل مشكلة الجوع فى العالم . ان اسـباب استمرار الفقر لا تكمن فى نسبة **حجم هذا الكوكب**الىالسكان الذين يعيشون عليه أوفى نسبةالزيادة الهائلة فى عدد الافواه الجائعة الى حجم الكـرةالارضية ، وانما يكمن فى النظم السياسية التي لا تسمح لكل الناس بأن يستفيدوا من تكنولوجياالدول الاكـثر تقدمـا .

الحاجة للمواد الصناعية الخـام :

لقد افترضنا ان حاجة العالم للسلع المصنعةقد تصل في عام ٢٠٠٠م الى اكثر من خمسـة او ستة اضعاف ما هي عليه الان . وهذا الفـرضالذى يتعلق بالطلب على المـواد الخام يأخـذ فى الاعتبار الزيادة فى حجم الانتاج الصناعي بنسبـةمماثلة ، وبالطبع فان جميع فروع الانتاج لاتنمو بنفس المعدل ، وبالتالي فان الطلب على المـوادالخام المختلفة سوف يرتفع بطريقة غير متوازية ، وعلى ذلك فالمسألة اذن ليست ما اذا كان العرضالسنوى لكل مادة من المواد الخام يمكن ان تزداد بنسبة اكثر من خمس مـرات ، ولكـن ما اذاكان العرض بنسبة لجميع المواد (المعروفة والتي لم تزل غير معروفة) سوف تكفي لاشباع ومقابلةالنمو المتزايد فى مجال الانتاج الصناعى .

منتجـات الغـابة :

تعتبر الغابات الصنوبرية Coniferous Forests المصدر الرئيسي للاخشاب والمنتجات المرتبطة بها ، والمقدر ان محصولها السنوى يمكنان يصل الى اكثر من الضعف عن طريقاستغلالها بطريقة افضل ومع الاهتمام بتطوير الطـرق .كما ان استغلال الغابات ذات الاوراق العريضـة يساعد على زيادة المحصول الكلي الى ثلاثةاضعافالمطالب السنوية الحالية ، او حتى الى اكـثر من ذلك بتخفيض الفاقد من الانتاج ، وتعتمدالزيادة الاضافية على التقدم الذى تحققه زراعة الغابات والعناية بها ، وخاصة تنمية وتهجـينالاشجار السريعة النمو . ووفقا لرأى الخبراء

فان تهجين الاشجار ربما يصبح امرا مألوفا فى نحو عشرين عاما . كما هو الحال الان بالنسبة لتهجين الحبوب ، كذلك فان المزارع التجارية يمكن ان يتضاعف انتاجها مرتين او ثلاث مرات ما تنتجه الان من الاخشاب عن طريق النمو الطبيعي . وعلى ذلك فان امكانية مضاعفة انتاج الاخشاب خمس او ست مرات بالنسبة لحجم الاستهلاك السنوى الحالي مسألة ميسورة من الناحية الفنية ، ومع ذلك فان كثيرا من الخبراء يعتقدون انه قبل الوصول الى هذا المستوى من الانتاج فان الحاجة الى الاخشاب سوف تنخفض نتيجة الاستعمال الواسع النطاق للمواد الاخرى كالصلب ولدائن البلاستيك وما اليها .

الوقود المعدني Mineral Fuels

ان الاحتياطي المعروف من الفحم الحجرى يمكن ان يفي بمطالب العالم واحتياجاته بالمعدلات الحالية للاستهلاك لنحو الفي عام قادمة ، وحتى فى حالة ارتفاع معدل الاستهلاك السنوى الى نحو خمسة اضعاف او ستة اضعاف وفقا للتقديرات عام ١٩٥٠ فانه يمكن ان يفي بالحاجة لعدة قرون .

اما الاحتياطي المعروف من البترول والغاز الطبيعي فمن المحتمل ان يستنفد قبل نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فان الخبراء يعتقدون ان الاساليب الجديدة للاستكشاف والانتاج تشير الى امكان اكتشاف حقول جديدة للنفط ، ويساعد على ذلك استخدام الاحتياطي المتاح بطريق افضل واستغلال بترول الآبار المهجورة ، وحتي فى حالة الاستنزاف الكامل للابار الحالية ، فان العالم لن يترك بدون وقود سائل كما عبر ذلك **روبرت أ . ويلسون** Robert Wilson بشركة ستاندرد اويل فى انديانا حين قال : « سوف يكون لدينا موارد اخرى كالصخور البترولية والفحم والقطران والفضلات الزراعية بالاضافة الى الموارد الاساسية التي لاتنضب كالماء والهواء وضوء الشمس . ولعل الوسيلة النهائية للحصول على وقود سائل سوف تتوفر حين نبدأ بمحرك شمسى Solar Engine لتوليد الطاقة ، ويمكن استخدام القوة فى التحليل الكهربى للماء الى عنصريه الرئيسيين الهيدروجين والاكسجين ، اما الهيدروجين فيستخدم لتحويل ثاني اكسيد الكربون Carbon Dioxide فى الهواء الى اول اكسيد الكربون Carbon Monoxide وباضافة الهيدروجين الى أول اكسيد الكربون يمكن الحصول على الوقود السائل » .

المعادن :

في الواقع ان الجنس البشرى لديه احتياطي لا ينضب من خام الحديد والمنجنيز والبوكسيت والمغنسيوم بالاضافة الى البوتاسا والفوسفات . اما الاحتياطي المعروف من المعادن الاخرى المألوفة كالنحاس والرصاص والزنك والقصدير والكروم فهو محدود ، وعلى افتراض ان ثمة مطالب سنوية متزايدة ومطردة فان الترسيبات التي اكتشفت سوف تنضب قبل نهاية هذا القرن .

ان التهديدات بالاستنزاف الذى يوشك على الحدوث انما هو بمثابة تحد خطير لبراعة الانسان ومهارته ، وان الاستجابة لهذا التحدى تكمن فى الاستخدام الافضل للموارد المتاحة والتنمية المكثفة لها خاصة فى الاماكن المتطرفة من العالم ، والاستفادة من المخلفات والبقايا ، والبحث عن المستودعات الجديدة واحلال المنتجات الكيميائية المستحدثة محل المواد النادرة .

فمنذ سنوات كان يبدو من المؤكد انه لم يعد ثمة مجال على سطح الارض لاكتشاف ترسيبات معدنية ضخمة كتلك التي عثر عليها في الخمسين سنة الاخيرة او يزيد ، ومع ذلك فقد امكن الكشف عن مستودعات هائلة من البترول وخام الحديد ومعادن اخرى، مثل الترسيبات الحديدية الجيدة في فنزويلا وكندا وجنوب روديسيا ، وحقول النفط في كندا ، ومناجم الذهب الجديدة في مقارنتها بمناجم منطقة « الراند » الشهيرة في جنوب افريقيا ، والبوتاس واليورانيوم في الولايات المتحدة ودول اخرى كثيرة . ولا يزال البحث عن المعادن مستمرا بطريقة محمومة في كل انحاء العالم ، وقد ترتب على ذلك ان تغيرت خريطة المعادن لكوكبنا واشتملت على اقاليم نائية كان خبراء التعدين يجهلون حتى مجرد اسمائها منذ سنوات قليلة مضت .

اما اليورانيوم فهو عنصر جديد في اسرة المعادن ولقد كان وجودة منذ البداية امرا مشكوكا فيه في حوالى ستة انواع من المعادن، اما الان فان ما يزيد على مائة معدن معروفة تحوى في تركيبها على اليورانيوم ، عدا اربعة وعشرين معدنا آخر تشتمل على اليورانيوم بكميات تجارية .

وفي ضوء هذه التطورات الحديثة فان نضوب الموارد المعدنية في الارض في وقت قريب يبدو بعيد الاحتمال الى حد كبير ، ومن المؤكد ان الاحتياطي « المعروف » للمعادن التي تم اكتشافها قد ينضب ، ولكننا ما زلنا عند مدخل مخزن الكرة الارضية وما نعرفه عن كنوزها هو بغير شك جزء يسير مما لا نعرفه ، فنحن على سبيل المثال نعرف القليل جدا عن الموارد المعدنية التي تحويها مياه البحر او قاع المحيط .

الطاقة :

قد يفترض المرء ان استهلاك الطاقة سوف يزداد بنسبة تتفق مع حجم الانتاج الصناعي ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا ان زيادة الطلب على الطاقة سوف يصاحبها تقدم في وسائل او طرق استغلال مصادرها ، وفي ضوء انخفاض معامل كفاءة الطاقة في الاقتصاد الحديث انخفاضا كبيرا جدا فلن يكون من المبالغ فيه أن نزعم ان الانسان سوف يعرف كيف يحصل من نصف طن من الفحم أو البترول على كمية من الطاقة تعادل على الاقل تلك التي يحصل عليها من طن كامل من احدهما .

وهذا الافتراض يوحي بان العالم في عام ٢٠٠٠م سوف يستهلك من المعادن ما يعادل ضعفين الى ثلاثة اضعاف ما يستهلكه الان .

ولا شك ان توزيع الطاقة المستخدمة بين المصادر المختلفة سوف يعتمد على التقدم في استخدام المصادر الجديدة — اى الاشعاع الشمسي Solar radiation والذرة . Atom والسباق بينهما . فمنذ عامين او ثلاثة كان يبدو ان الطاقة الشمسية Solar energy تتقدم غيرها في هذا المجال وكان خبراء الفيزياء النووية Nuclear physics يتوخون الحرص والحذر في تقديراتهم لمدى القدرة على استخدام الطاقة الذرية اقتصاديا ، ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا اكثر تفاؤلا نتيجة لظهور المفاعل الذرى المتعدد الاغراض Multiple Purpose Reactor والذى كان ظهوره بمثابة نقطة تحول في تفكيرهم ، كما ان غزو الذرة ودخولها الى مختلف نواحي النشاط

الاقتصادى فى العالم ، على اعتبار انها ارخص واغنى مصدر للطاقة ، مسألة سوف تتحقق فى وقت اقرب مما كنا نظن .

وحتى فى الوقت الحالي فاننا نستطيع ان نرى صورة اقتصاديات الطاقة فى نهاية هذا القرن سوف تكون مختلفة تماما عن الشكل السائد الان ، ومن المحتمل ان يظل القرن التاسع عشر متحفظا بلقبه « قرن الفحم » . اما القرن العشرون فسون يكون من الصعب ان نسميه « قرن البترول » لان من المحتمل ان يكون الوقود المستخلص من القشرة الارضية فى شكل سائل حدث قصير الاجل في تاريخ الاقتصاد العالمي ، وسوف يمكن الحصول على كميات متزايدة من الوقود السائل من الفحم او حتى من العوائق المائية (البلانكتون) ، واذا افلحت حضارتنا الآلية في البقاء والاستمرار فمن المحتمل ان يتمكن الانسان من ان ينتقل من مرحلة استخدام المقادير الضئيلة من الطاقة التى يلتقطها من هنا وهناك من سطح الارض الى مرحلة السيطرة الكاملة المحسوبة على الطاقة الموجودة فى بيئته ، اى فى الاشعاع الشمسي ـ وفى الرياح المتصلة به ـ وفى الذرة .

طريق التقدم :

لقد عبرنا عن الزيارة المتوقعة فى الطلب على الغذاء والمواد الخام فى حدود متوسط المعدلات السنوية للزيادة والتي تتراوح بين ٤ر١ ٪ الى ٢ر٢ ٪ للغذاء ، ومن ٥ر٣ ٪ الى ٤ ٪ بالنسبة للمواد الخام .

على اى حال فمن المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى العالم سوف يتبع طريقا لا يشبه ـ الا فى النادر وعن طريق المصادفة البحتة ـ خطا بيانيا مئويا ذا ميل تدرجي .

ولا شك فى ان الاتجاه السائد في المطالب من اجل المواد الخام الصناعية ينعكس فى مؤشرات حجم الانتاج الصناعى .

فحجم الانتاج الصناعي الاوروبي زاد بنسبة اربعة اضعاف تقريبا ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٥٣ وقد كان متوسط معدل النمو خلال هذه الفترة كلها هو ٥ر٢ ٪ ، ولكن معدل الزيادة السنوية لم يصل الي هذا المتوسط اذ توقف هذا التقدم الصناعي ثلاث مرات نتيجة لقيام الحربين العالميتين والكساد الاقتصادى الذى وقع بينهما ، بينما حدث التوسع فى اربع موجات هي : من بداية القرن وحتى عام ١٩١٤ ، ومن عام ١٩١٨ الى ١٩٢٩ ، ومن عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٨ ، ثم من عام ١٩٤٤ الى وقتنا الحالي .

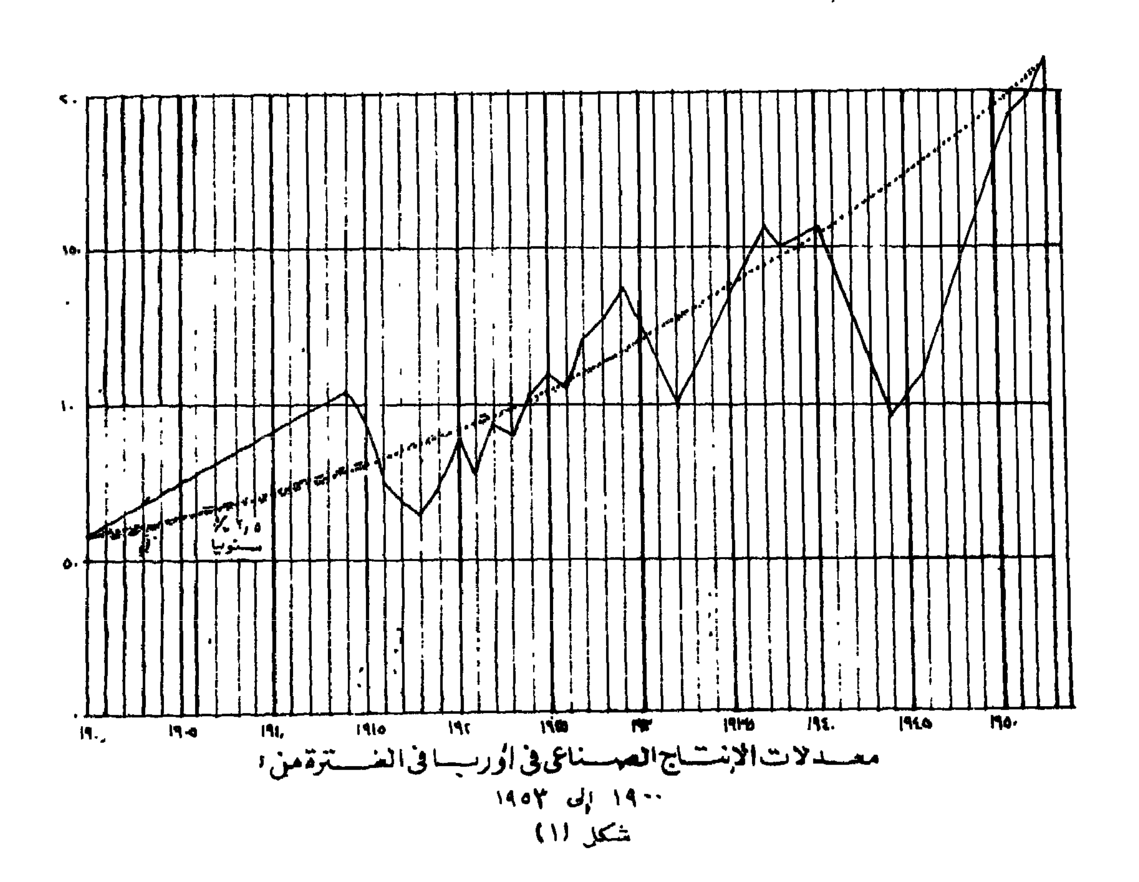
انظر شكل (١) ، وقد بلغ متوسط الزيادة السنوية فى فترات النمو ٤ر٤ ٪

قبل الحرب العالمية الاولى و ٦ر٦ ٪ فى العشرينات من هذا القرن و ٧ر٢ ٪ قبل الحرب العالمية الثانية و ٢ر١٠ ٪ من عام ١٩٤٦ الى عام ١٩٥٣ . وتقدر الفترة التى ازدهر فيها الانتاج الصناعى خلال هذه السنوات الثلاثة والخمسين بثمانية وثلاثين سنة بلغ معدل التقدم السنوى والنمو اثناءها ٥ر٦ ٪ فى المتوسط (انظر شكل ٢) ولولا تلك المعوقات التى تعرض لها ذلك النمو لزاد

الانتاج اكثر من عشرة اضعاف ما وصلت اليه هذهالسنوات الثمانية والثلاثين . ومع ذلك فانه يمكن القول ان النمو السريع خلال فترات التوسع يرجعجزئيا الى ان كل زيادة ملحوظة كانت تبدا من نقطة منخفضة جدا .

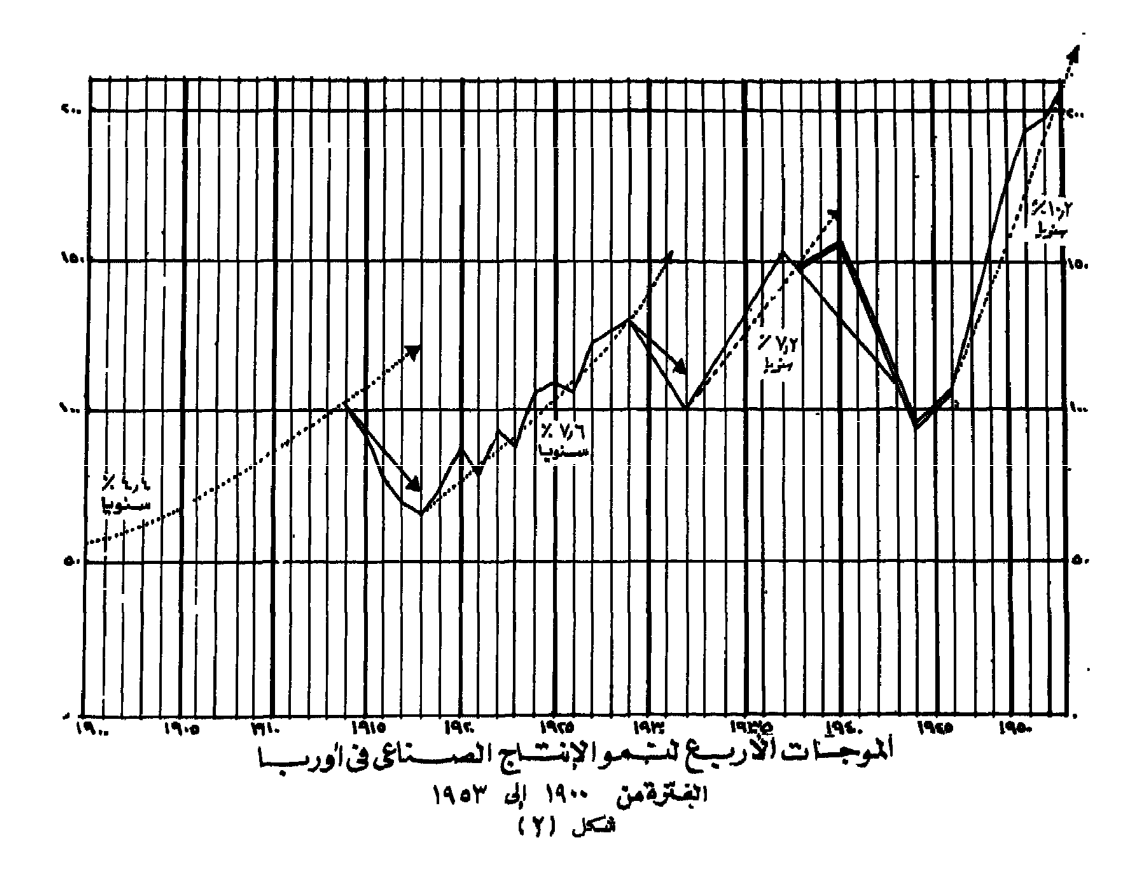
ولقد سار التقدم الصناعى فى الولايات‌المتحدة فى طريق مماثل ، ففى الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٥٣ تضاعف انتاج السلع الصناعية اكثر من‌ثمانى مرات (انظر شكل ٣) وكان معدل النمو السنوى ٤ر١٪ فى المتوسط .

ولكن التقدم الفعلى لم يكن مطردا تماما كماكان الحال فى اوروبا وانما تعرض لنكسات خلال وبعد الحرب العالمية الاولى مباشرة ، بالاضافة الى فترة الكساد فى الثلاثينات ، كذلك تعرض تقدمه ونموه المزدهر خلال الحرب العالمية الثانية الىنكسة اخرى فى عامى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ اعقبهاارتفاع مفاجىء آخر .

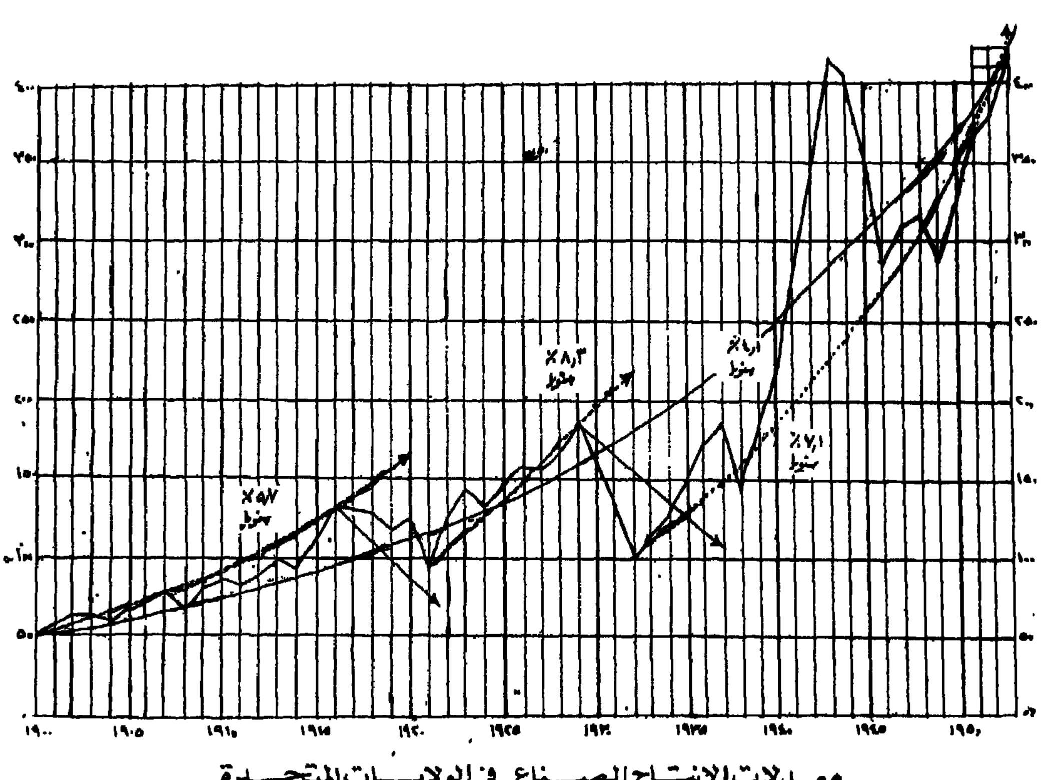


معدلات الإنتاج الصناعى فى أوربا فى الفترة من : ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣

شكل (١)



الموجات الأربع لنمو الإنتاج الصناعي في أوربا
الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣
شكل (٢)



معدلات الإنتاج الصناعى فى الولايات المتحدة
فى الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣
شكل (٣)

وباستثناء بعض التقلبات الطفيفة فان الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة ارتفع من ١٩٠٠ الى ١٩١٦ ـ ١٩١٨ بمعدل سنوى بلغ فى المتوسط ٧ر٥٪ ، وخلال العشرينات ٣ر٨٪ اما الفترة من ١٩٣٢ الى ١٩٤٣ فقد ارتفع بنسبة ٤ر٨٪ وفى الفترة من ١٩٤٦ الى ١٩٥٣ ارتفع بمعدل ٧ر٥٪ . وقد شهدت الصناعة الامريكية خلال السنوات الثلاث والخمسين الاولى من هذا القرن ٤٣ سنة من التوسع والنمو وعشر سنوات من الانكماش والتقلص ، وقد بلغ معدل النمو فى سنوات الاتساع والتقدم نحوا من ١ر٧٪ سنويا واذا استبعدنا التقلبات بسبب الحرب العالمية الثانية واعتبرنا الفترة (٣٢ ، ١٩٣٣) فترة واحدة كماهو موضح فى شكل (٣) فان معدل النمو فى هذه الفترة يبلغ ١ر٧٪ تماما وهو نفس معدل النمو لجميع سنوات التوسع الثلاثة والاربعين .

وهكذا كانت انماط النمو الصناعي ، والحاجة الى المواد الخام الصناعية على جانبي شمال المحيط الاطلسى بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٥٣ . وانه من الصعب ان نجد مثالا واحدا فى أى من المنطقتين كان النمو الصناعى فى زمن السلم يتوقف او يتراجع نتيجة لنقص المواد الخام ، فلم يكن يحدث ذلك الا فى وقت الحرب حين كان الاقتصاد العالمى يتحطم تماما وكان نقص المواد الاستراتيجية Strategic Materials يتحكم فى نمو الانتاج الصناعى وتوسعه فى بعض الدول .

من المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى النصف الثانى من هذا القرن سوف يتم بطريقة اكثر مرونة، ولكن ليس ثمة ما يشير الى ان نمطه العام سوف يختلف عما كان عليه .

ان افتراضنا لنمو حاجة العالم من المواد الخام يفترض بالتالى نمو الانتاج بمعدل يقل فى متوسطه عن معدل نمو الانتاج فى الولايات المتحدة، ولكنه يفوق بقليل معدل نمو الانتاج فى اوروبا خلال النصف الاخير المضطرب من هذا القرن . ان ندرة الموارد الطبيعية لن تكون عقبة يستحيل تذليلها بالنسبة لمثل هذا النمط من التنمية الاقتصادية .

خاتمة :

فى ضوء تجربة الماضى وتنبؤات المستقبل يمكن فيما يبدو ان نستخلص النتائج التالية :

١ ـ اننا لا نستطيع ان نعرف ما سيكون عليه حجم سكان العالم بعد نصف قرن من الآن ، او حجم احتياجاتهم من الطعام والانتاج الصناعى، أو الوسائل التى سوف يستطيعون بها اشباع تلك الحاجات .

٢ ـ ان كل ما نستطيع ان نتنبأ به هو ان مطالب العالم من الغذاء والمواد الخام الاخرى سوف تفوق بكثير النمو السكانى ، فاذا اخذنا العالم ككل فسوف نجد انه باستثناء اقاليم معينة، فان التناقض لن يكون بين النمو السريع للسكان وندرة الموارد، ولكنه بين زيادة الطلب زيادة مطردة من ناحية والتوسع غير الثابت وغير المطرد للانتاج من ناحية أخرى ، فالوسائل الفنية التى فى متناول الجنس البشرى لها قدرة وفعالية عالية ، كما ان منظور النمو فى المستقبل يتجاوز حدود كوكبنا . وعلى حد قول م . ك . بينت M. K. Bennett فان الحروب والقومية الاقتصادية التى تهدف الى تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وليست التكنولوجيا وتضخم السكان او الموارد الطبيعية المحدودة هى العقبات التى يحتمل ان تقف فى وجه التقدم الاقتصادى . وبقول آخر أعم فان التناقض يقوم بين عبقرية الانسان فى الامور الفنية وعجزه عن تنظيم حياته السياسية بطريقة تمكنه من ان يستمتع بثمار انجازاته التكنولوجية . ان السباق ليس بين النمو السكانى والموارد الطبيعية ، ولكنه بين التكنولوجيا والسياسة بالمعنى الارسطو طالى لهذا الاصطلاح .

آفاق المعرفة

طبيعة الانسان

زكريا فهمي

طبيعة الانسان المزدوجة :

ان انتماء الانسان الى المملكة الحيوانية يجعله مرتبطا ، من ناحية سلالته التطورية ، ارتباطا مباشرا بالكائنات الحية الاخرى ، وغير مباشر بالمادة اللا حية . ولكن حياة الانسان كما نعرفها اليوم بعيدة عن أصولها المنبثقة من عالمى الاحياء وغير الاحياء ، الى درجة انها تثير مشكلات لا توجد فى بقية الخليقة . فعلى حين ان الانسان حيوان ، فمن الواضح انه حيوان غير عادى تنفرد حياته بميزات لا نظير لها . وعلينا فى هذا المقال ان نضع نصب اعيننا دائما هذين الجانبين المتناقضين من طبيعة الانسان ، أولاهما :

صفاته الحيوانية ، وانسانية حياته .

ان تعرفنا على الانسان عندما نصادفه ، سواء فى الوثائق القديمة او الاماكن النائية ، ليس مشكلة . ومع ذلك فان كل معرفتنا الحالية لا تمكننا من ان نحدد على وجه الدقة تلك الخصائص التي ادت بالانسان الى ان يكون مخلوقا فريدا لا نظير له . فكل ما لديه من صفات وراثية او تطورية توجد لها نظائر ، ولو بصورة مبسطة ، في الصور الادنى من الاحياء . صحيح ان قدرة الانسان على المشي منتصبا ، وتحرر طرفيه الاماميين من اجل استخدام اليدين ، وتقاطع مجالى بصره ،

وقدرته على الابصار بالعينين معا ، وكبر قشرة مخه ، وطول فترة طفولته ، كل هذه صفات بيولوجية هامة تميز الانسان . ولكن هذه الصفات ليست تجديدات بيولوجية خاصة بالنوع البشرى وحده ، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كل القردة.

ومن جهة اخرى ، فان صنع الادوات ، والتنظيم الاجتماعي ، والاتصال بالافراد الاخرين المنتمين الى الجماعة ، واكتساب السلوك المكتسب بالتعلم ونقله الى الآخرين — كل هذه مهارات لم يكن من الممكن بدونها ان يظل النوع الانساني باقيا ، ومع ذلك فهي توجد ايضا ، بقدر معين ، في انواع مختلفة من الحيوانات الادنى . بل ان صفات عقلية معقدة مثل القدرة على تكوين تصورات ، والغيرية ، تظهر في صورة بدائية بين الحيوانات العليا . وصحيح ان الانسان لا يمكن ان يصل الى التطور الكامل الا عن طريق الارتباط بأناس آخرين ، ولكن الحاجة الى الاتصال الفعال والانضمام الى الجماعة توجد ايضا في صورة غريزية بين الحيوانات العليا ، وهي ، في هذه الحيوانات ، تكاد تكون اولية بنفس القدر الذى تكون عليه الدوافع البيولوجية الاخرى.

ومجمل القول ان ما يتميز به الانسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات . فهو يختلف اساسا عن جميع انواع الحيوانات الاخرى بفضل منجزاته المتراكمة عبر الوف الاجيال . ومن هذه الزاوية نجد ان الفيلسوف الاسباني أورتيجا اى جاسيه Ortega y Gasset كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ليس للانسان طبيعة .. بل تاريخ فقط » ، ولكن هذا القول لا يعدو ، لسوء الحظ ، ان يكون ترديدا لنفس المشكلة بالفاظ اخرى ، اذ اننا سنظل بعد ذلك نود معرفة تلك الخصائص التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي اتاحت للانسان ان يكون له تاريخ .

ان حياة الانسان هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية التي صنعت التاريخ . وفضلا عن ذلك فان تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطورى وتجاربه البيولوجية الخاصة. كما أن العوامل البيئية التي تؤثر في الصفات البيولوجية للافراد الذين يعيشون في ظلها تؤثر تأثيرا عميقا في تاريخ كل جماعة اجتماعية. فالانسان ، من ناحية ، يبدو مجموعة شديدة التعقيد من المواد العضوية التي تتشابه في تركيبها وخواصها الاساسية مع المواد الموجودة في جميع الكائنات الحية الاخرى ، بل في المادة غير الحية . ولهذا السبب ، يمكن دراسة جسم الانسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها وآلياتها لقوانين الفيزياء والكيمياء . ولكن الانسان ، من ناحية اخرى ، يتمثل على صورة كائن عضوى معقد ، يتجاوب مع بيئته على نحو فريد لا يمكن تفسيره بسهولة بواسطة الظواهر الملاحظة في المادة اللاحية ، او في بقية الانواع المنتمية الى عالم الاحياء . ذلك لان ما يتحكم في استجابات الانسان ليس هو التأثيرات المباشرة للمثيرات او المنبهات الخارجية على بنيانه الجسدى ، بقدر ما هو التفسير الرمزى الخاص الذى يفسر به كل شخص هذه المثيرات او المنبهات . صحيح أن النماذج والرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشرى مستمدة من العالم الخارجي ، ولكنها تكتسب في النهاية حياة ذاتية مستقلة الى حد كبير عن اصلها الفعلي .

وهكذا فان طبيعة الانسان تشتمل على جانبين مختلفين الى حد كبير ، ولكن كلا منهما مكمل للاخر . فمعظم خصائص آلة الجسم مشاع بين جميع الافراد المنتمين الى نوع

« **الانسان العاقـل** » Homo Sapiens وتكـاد تطابق خصائص القردة العليا ، اى انه يمكـن دراستها بنجاح بواسطة المناهـج التقليديـة الخاصة بالعلوم الطبيعية . ولكن كل شخص يتميز ، فى نفس الوقت ، بخصائص مستمدة من تجاربه ونشاطاته الخاصة ، وهي سمات ينفرد بها عن جميع الاشخاص الاخرين . هذه الخصائص لا تخضع بسهولة للتحليل العلمي ، لان العلم لا يتعامل على نحو فعال مع الحوادث الفريدة . صحيح انه يمكن صياغة قوانين علمية عامة خاصة بنوع الانسان العاقـل ، ولكن هذه القوانين لا تكون كافية على الاطلاق لتفسير تفرد كل فرد مـن افـراد البشر ، او لتفسير منجزاته المنقطعة النظير .

وكما سنؤكد مرارا وتكرارا ، فـان مـن المستحيل تماما تحـديد او وصف الصـفات البيولوجية التي تميز الانسان العاقل عـن الحيوانات الاخرى ، وتميز كل شخص عـن جميـع الاشخـاص الآخـرين . ذلـك لان الاختلافات الفردية والجماعية دقيقة للغاية ، وتتضمن انماطاً معقدة لا تركيبات او وظائف موحدة . وفضلا عن ذلك ، فان ايراد قائمة بهذه الاختلافات لا يمكن ان يعطي صورة كاملة للحقيقة . ذلك لان الجنس البشرى يختفي باطراد في عملية التحليل ولا يمكن فهمه الا ككل . وهذا ينطبق على الفرد مثلما ينطبق على الجنس البشرى سواء بسواء .

ولقد حقق العلماء تقدما مؤكدا نحو تحديد العوامل البيئية التي ادت فى الماضي الى تمييز الجنس البشرى ، على نحو مطرد ، عن عالم الحيوان ، والتي تسهم اليوم فى تفرد كل كائن بشرىعلى حدة . **ولتوضيح قوة هذه العوامل، سنبحث فى الصفحات التالية كيف تشكلت طبيعـة الانسـان بفعـل البيئـة الطبيعيـة والاجتماعية** . ان الادلة الانثروبولوجية تجعل من المرجح ان اسلاف نوع « الانسان العاقل » وكذلك طرائقهم فى الحياة ، قد تطوروا فى آن واحد اثناء العصور الجيولوجية عن طريق سلسلة طويلة ومعقدة من عمليات تبادل التاثير (التغذية المرتدة Feedback) . وبالمثل فان كل كائن بشرى يكتسب في الوقت الحاضر جزءا كبيرا من شخصيته عن طريق استجاباته للبيئة الكلية ، وخاصة اثناء السنوات الاولى التي تتشكل فيها حياته . ومن هنا ، فـان طبيعة الانسان لا يمكن وصفها وصفا كاملا من خلال صفات سكونية ثابتة ، بـل يمكـن فهمها على احسن وجه بوصفها مظهرا لردود افعال على مؤثرات تعرض لها الانسان اثنـاء ماضيه التطورى ، وخلال تجاربه السابقة .

وعندما نستخدم كلمة التطور بالنسبة الى الانماط الحية فانها يمكن ان تشير الى ظواهر شديدة الاختلاف ، مثـل : النمو الجسمي والعقلي لكل شخص على حـدة ، والتحـول الداروني للانواع البيولوجيـة ، والتغيرات المطردة للبناءات الاجتماعية والاقتصادية . فى جميع هـذه الحالات يدل التطـور على دور العوامل البيئية فى تشكيل النظام البيولوجي او الاجتماعي على المدى البعيد ، نتيجة للتعلم المكتسب من التجربة عادة . على أن عملية التغير هـذه لا تحدث الا عـن طريق مجموعة مختلفة من الآليـات التى لا يجمع بينها الا القليل من السمات المشتركة .

وحتى لو بحثنـا المشكلة مـن وجهة نظر بيولوجية صرفة ، فان الاختلافات التي تظهر فى الكائنات العضوية الحية تندرج تحت **فئتين متميزتين : الطفرات الوراثية** ، التي تؤثر فى جوهـر المـادة الوراثيـة الموجـودة في الكروموسومات ، **والتغيرات الظاهرية** ، التي لا تغير التركيب الوراثي بل تنشأ من استجابات الكائن العضوى كله للعوامل البيئية . وبمقتضى الصياغة التقليدية للنظريةالداروينية الجديدة، فان الطفرات الوراثية وانتخاب أو انتقاء البيئة

لها تفسر التغيرات المطردة التي تتعرض لها الانواع البيولوجية ، كما تفسر ظهور انواع جديده ، اما التغيرات الظاهرية فانها لا تؤثر الا فى الكائن العضوى الفرد . على انه اخذ يتضح ان التفاعل بين الكائن العضوى والبيئة اشد تعقيدا بكثير مما تدل عليه هذه الصياغة. وقد اشار الى ذلك عالم الوراثة وادينجتون C. H. Waddington بقوله : « ان انماط السلوك تتحد بالظروف الخارجية من اجل تحديد طبيعة البيئة المؤثرة » .

ومن الحقائق الثابتة ان البيئة لا يمكن ان تقوم بدور العامل المنتخب (الانتقائي) ، وبالتالي لا تتحكم في التغيرات التطورية ، الا اذا اختار الحيوان ان يبقى فيها ويؤدى وظائفه لفترة تكفي لتكاثره . وبصفة عامة ، فان الحيوان يختار بيئة ما لانه يمكنه ان يتجاوب معها عن طريق تكيفات ظاهرية ناجحة . هذا العرض المبالغ فى تبسيطه لمشكلة على جانب كبير من التعقيد يكفي للاشارة الى أن النظام التطورى يضم مفهومين : فهو لا يشتمل فقط على الطفرات والضغوط الانتقائية التي تتضمنها الداروينية الجديدة ، بل يشتمل ايضا على العمليات التي تقوم عن طريقها الحيوانات ، وخاصة الانسان ، باختيار وتغيير بيئة بعينها من جميع الامكانات البيئية المتاحة لها .

هذا الرأى الحديث الخاص بالتطور البيولوجي يبدو من بعض الجوانب انه قائم على فرض « لامارك » الذى لم يعد مقبولا ، والقائل بان اى شكل مستمر من اشكال النشاط يحدث فى النهاية تغييرا جسميا او عقليا مقابلا ، يمكن ان ينتقل من الوالد الى ذريته . ومما لا شك فيه ان هذا التفسير غير صحيح ، وان التطور البيولوجي يحدث دائما بواسطة عوامل وراثية وانتخابية . ولكن النقطة التي ينبغي ان نؤكدها هنا هي ان جميع الظواهر التطورية تتضمن عمليات تأثير متبادل (تغذية مرتدة) Feedback بين الكائن العضوى ، وبيئته ، واساليبه فى الحياة . **ولعله من المفيد ان نوضح هذا المفهوم بمثلين ماخوذين من عالم الاحياء غير البشرية .**

أ ــ ان شكل بعض الزهور ملائم تماما للحشرات التي تتغذى عليها والتي تكون ، تبعا لذلك ، بمثابة ملقحات لها . هذه الدرجة العالية من التلاؤم بين الزهرة والحشرة الملقحة اقتضت بالتأكيد فترات طويلة من التطور استجاب خلالها النبات للمثير الذى أثارته اعضاء التغذية الخاصة بالحشرة . فزهرة البرسيم مثلا ، « يبدو » انها طورت صفاتها التشريحية عن طريق « استجابتها » للنحلة الطنانة ، وبالمثل فان زهرة الكرم يبدو انها تطورت نتيجة استجابتها للطائر الطنان . على ان دراسة حفريات النبات والحيوان تشير الى ان التلاؤمات المتبادلة بين الزهور والحشرات او الطيور تنبع من أصول أبعد واشد تعقيدا من ذلك . فالرأى الحديث هو ان الزهور ، وزوارها من الحشرات او الطيور ، قد تطورت فى آن واحد من صور بدائية . وفى المراحل الأولى من تطورها ، كانت قد اصبحت مترابطة بصلات غير قوية قبل أن تصل الى حالتها الراهنة من التطور بوقت طويل. وهكذا فان الحشرات والطيور ربما تكون قد قامت ، اثناء عملية تطوير انماطها السلوكية ، وعاداتها الغذائية واعضاء التغذية الخاصة بها ، بتحديد صفات الزهور التي تتغذى عليها وتلقحها . اى أن التلاؤمات ربما تكون قد تطورت عن طريق سلسلة من عمليات التأثير المتبادل (التغذية المرتدة) بين النباتات والحشرات او الطيور الملقحة ، على نحو اشبه بالأرجوحة المتوازنة عند منتصفها .

ب - ويقدم السلوك الاجتماعي **لقردة الشمبانزى والغوريلا** دليلا آخر على تأثير **الآليات السيبرنطيقية في التطور** . ففي البيئة الطبيعية ، بيئة الغابات المستقرة ، التي تعيش فيها قردة الشمبانزى ، لا تنتظم هذه القردة في أسر ، او مجموعات من الزوجات لقرد واحد ، او غيرها من انماط الانظمة الاجتماعية المستقرة . بل تتحرك فرادى عبر مساحات شاسعة ، في جماعات كثيرة العدد ولكن دون ان يقودها قادة ، او تربطها بعضها ببعض صلات دائمة . وعلى النقيض من ذلك ، فان الغوريلا تعيش في جماعات صغيرة دائمة يبقى افراد كل جماعة منها دائما على اتصال بعضها ببعض ، ويقودها عادة ذكر كبير فضي الظهر . ويعتقد الانثروبولوجي « فيرنون رينولدز Vernon Reynolds » الذى قام بملاحظة قردة الشمبانزى والغوريلا في الغابات الافريقية ، بان اختلافات النظام الاجتماعي بين هذين النوعين يمكن ارجاعها الى عاداتها الغذائية . وعلى حد تعبيره فان قردة الشمبانزى تكون « اسعد ما تكون عندما تلتهم الفواكه لمدة ساعات في كل مرة وهي على ارتفاع عال فوق قمم الأشجار » . ونظرا الى انها تعيش اساسا على الفواكه الكبيرة ، فانها لا بد ان تتفرق فوق مساحات كبيرة حتى تجد ما يكفي لتأكله ، ومن هنا كان نظامها الاجتماعي المشتت غير المتماسك . اما قردة الغوريلا فهي ، على النقيض من قردة الشمبانزى ، آكلة للعشب لا للفاكهة ، اي ان مصادرها الرئيسية للغذاء هي السوق اللبابية ، والاوراق والجذور واللحاء ، اما الفواكه فانها بالنسبة اليها ليست اكثر من اغذية اضافية . ونظرا الى انها محاطة دائما بغذاء وفير في بيئتها المدارية الخصبة ، فانها يمكن ان تتغذى اينما ذهبت دون ان تتحرك بعيدا ، ويمكن ان تحتفظ بنظام اجتماعي مستقر . وفي النهاية اصبحت أنماط السلوكية المميزة لقردة الشمبانزى والغوريللا ، والعوامل المحددة لنظامها الاجتماعي ، جزءا لا يتجزأ من التكوين الوراثي الخاص بكل نوع من هذين النوعين .

لقد كان **لامارك** يعتقد ان سلوك الكائن العضوى يحدد الى حد كبير الحالة البيئية التي يتطور فيها والتي تتكيف معها ذريته . ومن هنا ، فان النظرية القائلة بأن العادات والاذواق الغذائية كان لها أثر فعال في تحديد النظام الاجتماعي لقردة الشمبانزى والغوريللا ، هذه النظرية تذكرنا بافتراضات لامارك . وكما أوضح وادينجتون فان هذا التفسير شبه « اللاماركي » لوراثيات الجماعة ليس الا امتدادا سيبرنطيقيا للمذهب الداروينيالجديد القائل بان التغيرات التطورية تحدث بواسطة الطفرات والانتخاب . هذا المفهوم السيبرنطيقي يبدو متمشيا مع كثير من الحقائق الخاصة بتطور الانسان . **وكما سنرى الان ، فان من المرجح ان البيئات التي عاش فيها اسلاف الانسان اثناء العصر الحجرى القديم حددت اوجه النشاط التي مارسها هؤلاء الاسلاف ، وهذا بدوره ، حدد في النهاية الجبلة الوراثية التي تميز الجنس البشري في الوقت الحاضر .**

● ● ●

ماضي الانسان التطورى :

ان اي ملاحظ ، مهما بلغت سطحيته ، يمكنه ان يدرك ان الانسان يمت بصلة الى الحيوانات الاخرى ، وخاصة القردة العليا ، ولكن العلماء يختلفون في تحديدهم الدقيق لطبيعة هذه العلاقة . فمعظم البيولوجيين يؤثر فيهم ، بطبيعة الحال ، الاستمرار والتسلسل الواضح في عالم الاحياء باسره ، ويركزون اهتمامهم على جوانب الانسان التي

تكشف انه نتاج اتجاه تطورى متصل . وهم يعتقدون ان الانسان والقردة العليا قد تطوروا من سلف مشترك فى الماضي البعيد ، ولذلك فانهم يبدون اهتماما باوجه الشبه فى التركيب التشريحي ، والخصائص الفسيولوجية ، وانماط السلوك الناتجة عن هذا النسب المشترك . وعلى النقيض من ذلك ، فان علماء الاجتماع وعلماء الانسانيات يركزون اهتمامهم على الجوانب الاجتماعية الثقافية من حياة الانسان ، وهي الجوانب التي فصلت الانسان عن بقية المخلوقات بل عن القردة العليا ذاتها. **فمميزات الانسان الهامة ، فى نظر هؤلاء العلماء هي تلك الصفات والنشاطات التي تجعله مختلفا عن الحيوانات ، لا من حيث الدرجة فقط ، بل من حيث النوع أساسا .**

وعندما يقول البيولوجيون ان التطور قد تجاوز ذاته في عملية انتاج الانسان ، فانهم يعترفون بصعوبة المفاهيم التي يستخدمونها فى هذا الصدد . ذلك لان اية محاولة لاثبات الطريقة التي يمكن ان تكون الصفات المميزة للانسان ، كاستخدام الرموز واللغة او امتلاك شعور واخلاق ، قد نشات بها من تحول تطورى لصفات بيولوجية صرفة ، تقابل دائما بالرفض القاطع . وهكذا اضطر الانثروبولوجيون لكي يفسروا الانقطاع الواضح بين الانسان والحيوانات ، ان يضعوا ، فى العشرينات من هذا القرن « نظرية النقطة الفاصلة » . وبمقتضى هذه النظرية ـ التي اصبحت الان لا تحظى بتأييد ـ فان حادثة مفاجئة في النشوء النوعي للرئيسيات (١) هي التي اعطت البشر الأوائل القدرات اللازمة لتكوين ثقافة . وقد كان الانثروبولوجي الامريكي « الفرد كروبر Alfred Kroebor يعلم تلامذته انه حدثت طفرة فاصلة ، اثرت على الأرجح فى جزء محدود من قشرة المخ ووهبت احد افراد الانسان القرد القدرة على ايجاد تعميمات من حقائق منفصلة وابتداع رموز ، ومن ثم جعلته اكثر فعالية فى التعلم من التجربة وفى توصيل معرفته الى افراد جماعته . وبمقتضى هذا الفرض فان الثقافة بدات بنشاطات انسان قرد أنعم عليه بمواهب جديدة . وما ان بدات هذه الثقافة حتى استمرت ، نظريا ، فى النمو باطراد كقوة مستقلة عن التطور العضوى .

وهناك عدة ادلة تشير الى ان نظرية النقطة الفاصلة غير صحيحة او ناقصة الى حد كبير على الاقل . فقد اسفر البحث عن بقايا الانسان الحفرية عن دليل من اقوى الادلة الداحضة لهذه النظرية . ذلك لان اكتشاف عدد من الاشكال الحفرية التي تؤلف سلسلة متصلة يجعل من المستحيل وضع حد فاصل بين اللاانسان والانسان على اساس تشريحي . ولما كانت اجسام البشر قد تطورت تدريجيا من شكل لا انساني شبيه بالقرد الى شكل الانسان الحديث ، فان من الارجح ان عقل الانسان قد تطور بالتدريج ايضا ، لا عن طريق طفرة مفاجئة . وفضلا عن ذلك ، فان نظرية النقطة الفاصلة الخاصة بظهور الثقافة كانت تقوم على افتراض يبدو معقولا للوهلة الأولى ولكنه مناقض للحقائق المعروفة . فالواقع أن الافتراض القائل بان الجوانب الاجتماعية لحياة الانسان بدات « بالانسان العاقل » ، وهو النوع الذى ننتمي اليه ، يناقض كل الادلة الحديثة التي تشير الى ان هذه الجوانب كانت موجودة فى صورة بدائية فى الاسلاف الذين مهدوا لظهور الانسان .

(١) الرئيسيات Primates هي اعلى رتبة من رتب الثدييات ، وتضم الليمورات lemurs والنسانيس monkeys والقردة العليا apes والانسان .

وقد كان الانثروبولوجيون يعتقدون ، حتى وقت قريب ، ان الانســان البدائي جسميا وثقافيا هو الذى اختـرع الاسلحة والادوات الأولى ، وارسى قواعـد الاشـكال الأوليـة البسيطة للتنظيم الأسرى والاجتماعي . هـذا الانسان السابق للانسان الحديث كان يفترض انه يشبهنا اساسا من الناحيتين التشريحية والعقلية . ولكن الإدلة الانثروبولوجية الحديثة تشير بقوة الى ان كثيرا من الصفات التي كـان ينظر اليها على انها مميزة للانسان انما ترجع الى تاريخ سابق لتاريخ « الانسان العاقل » ، بعدة مئات الألوف مـن السنين . ويبدو ان السلوك البشرى ظهر تدريجيا من طرق حياة الاســلاف الذين مهدوا لظهور الانســان . والواقع ان هذه المخلوقات المبكرة تختلف عنا ليس فقط في العقل ، والسلوك ، والنظـام الاجتماعي ، بل ايضـا فى التركيب ، وهــذا الاختلاف كبير الى درجـة اننا ما كنا لنجرؤ على ادعاء انهم بشر مثلنا لو انهم كانوا موجودين اليوم . وقد كان مخ أسلاف الانسان هـذا بصفة خاصة اصغر كثيرا من مخنا .

وينبغي ان نعتـرف بان اى قول يتعلـق بظهور الانسان انما هو قول تخميني علـى احسن الاحوال . ذلـك لأن البقايـا الحفرية الخاصة بطلائع الانسان العاقـل نادرة وغير كاملة الى درجة لا بد معها ، اذا كنا نتوقع ربط هذه البقايا فى سلسلة نسـب متصلة ، مـن احلال الخيال فى كثير من الاحيان محل المعرفة الفعلية . على أن هناك حقيقة واحدة مؤكدة على الاقل . تلك هي ان الانسان لم ينشأ من احد القردة العليا الموجودة اليوم ، بل هو ، على احسن الفروض ، إخد ابناء عمومتهـا الأبعدين . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فـان خط التطور الذى نشأ منه الانسان انشق من خط القرد الأول منذ وقت بعيد يرجع الى العصر الميوسيني (الأوسط) . ولسوء الحظ ، فقد اعقبت ذلك العصر فترة طويلة خالية تماما من الحفريات التي يمكن تحديد زمانها بدقة . ونظرا الـى انه لا يوجـد حتى الان تعريف بيولوجي محدد للانسان ، فان من المستحيل على أساس المعايير البيولوجيـة وحدهـا ، تحديد تاريخ لظهوره ، حتى لو كـان هـذا التحديد تقريبيا . والواقع ان الملجأ الوحيـد المتاح امامنا هو التعرف على الصفات الشبيهة بصفات الانسان فى بقايا ما قبل التاريخ .

لقد كان يعيش في شرق افريقيا الوسطى وجنوب افريقيا ، منذ نحو مليوني عام اثناء العصر البلستوسيني (الأجـد) ، نوع مـن الرئيسيات العليا ، انقرض الان ، يطلق عليه اسم «القرد الجنوبي» Australopithecus هذا الحيوان الرئيسي كان يمتلك عددا مـن السمات توحي بالطابع البشرى . ويرى علماء الانثروبولوجيا ان « القرد الجنوبي » كـان شبيها بالانســان الى درجـة تكفي لتصنيفه بوصفه فرعـا قديمـا مـن فصـيلة البشر Hominidae لا بوصفه عضوا فى فصيلة القردة Pongidae . ويبدو انه كانت توجد فى نفس الوقت عدة انواع من انواع القـرد الجنوبي ، كانت تختلف مـن ناحيـة الحجم وبعض السمات القليلة الاهمية ، ولكنها كانت تشترك كلها في عدد من الصـفات المميزة . فتركيب عظامها الحوضية يدل على أنه كـان يمكنها جميعا ان تمشي منتصبة القامة . كما ان انيابها يظهر بها ذلك الاختزال المميز لانياب الانسان ، الامر الذى يشـير الى ان هـذه الانياب لم تكن تستخدم في التقطيع والتمزيق على نفس النطاق الواسع الذى كانت تستخدم به فى الصور التطورية للقردة الأقدم عهـدا . وربما كان التغير فى تركيب الاسنان مصحوبا بتغير فى العادات المعيشية ، وخاصة استخدام

الادوات . فقد وجدت في احدى طبقات « اولدوفاى Olduvai » الشهيرة فى شرق افريقيا بالقرب من بقايا حفرية للقرد الجنوبي أدوات ركيكة الصنع يقدر عمرها بمليون وثلاثة ارباع المليون من السنين . على ان احتواء هذه الطبقة ايضا على بقايا شكل آخر معاصر للقرد الجنوبي ، انما يلقي الى حد ما ظلالا من الغموض على مغزى هذا الكشف. ولما كان هذا الشكل الآخر اشبه الى حد ما من الناحية الجسدية بالانسان الحديث ، فانه يعرف باسم « الانسان البارع » Homo habilis ، والواقع ان عددا كبيرا من الانثروبولوجيين يشكون فى ان القرد الجنوبي كان حقا سلفا مباشرا للانسان ، وينظرون اليه على انه خط جانبي للتطور اختفي في نهاية الامر . **وربما كان « الانسان البارع » قد تطور تدريجيا الى « الانسان المنتصب Homo erectus ثم الى « الانسان العاقل »** . **ولكن هذا ، ايضا ، موضع شك .**

والواقع ان عبارات : « القرد الجنوبي » او « الانسان البارع » او « الانسان المنتصب » مضللة الى حد ما ، لأنها تدل ضمنا على انواع محددة انحدر منها « الانسان العاقل » فى خط مباشر . على ان الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي انه كان يوجد اثناء العصر البلستوسيني عدد كبير من الرئيسيات العليا ، كل منها شبيه بالانسان الى درجة تكفي لان يكون سلفا ممكنا « للانسان العاقل » فهذه الرئيسيات جميعا كان لديها ، على ما يبدو ، بعض الصفات المميزة للانسان : كالوقفة المنتصبة ، والمشي على قدمين ، وامكانية استخدام اليدين فى معالجة الاشياء . والنقطة التي ينبغي تأكيدها هنا هي ان انواع الانسان القرد كانت لديها ، على الأرجح ، القدرة على صنع واستخدام ادوات حجرية بدائية منذ وقت بعيد يرجع الى مليوني عام .

وهناك هوة سحيقة بين البقايا الحفرية التي وجدت فى موقع « أولدوفاى » بشرق افريقيا (الانواع المختلفة من « القرد الجنوبي » و « الانسان البارع ») ، وبين حفريات الانواع المختلفة التي يطلق عليها اجمالا اسم « الانسان المنتصب » ، والتي ينظر اليها بصفة عامة على انها اسلاف مباشرة للانسان ، وان لم يكن ذلك رأيا يتفق عليه الجميع . ويبدو الاختلاف بينها واضحا بصورة خاصة فيما يتعلق بالمخ . فسعة تجويف مخ القردة الجنوبية كانت لا تزال فى الحدود الخاصة بالقردة العادية ، ويبدو ، فضلا عن ذلك ، أن المناطق الجدارية والجدارية الصدغية لأمخاخها كانت ضعيفة النمو . ولهذا الاكتشاف اهمية خاصة اذا عرفنا ان هذه المناطق هي التي تضطلع بعملية ابتداع الرموز . والواقع ان القدرة على وضع الرموز هي اكثر الصفات تمييزا للانسان ، لانها قامت بالدور الاكبر في تطوير ثقافاته .

وقد كانت عدة سلالات من « الانسان المنتصب » تعيش اثناء العصر البلستوسيني الاوسط ، منذ مليون عام تقريبا . وقد اطلق على بقاياها الحفرية ، التي وجدت فى اجزاء مختلفة من آسيا وربما فى اوروبا ايضا ، اسماء مختلفة مثل : « الانسان القرد » (انسان جاوه القرد) Pithecanthropus و « انسان الصين » (انسان بكين) Sinanthropus و « انسان الاطلسي » Atlanthropus . وكانت أمخاخها آكبر، واسنانها اصغر باستمرار من امخاخ واسنان « القرد الجنوبي » . بل الأهم من ذلك ان اقدم دليل على استخدام النار والسيطرة عليها ، وهو على الارجح اول عمل تكنولوجي رائع انجزه الانسان ، وجد مصاحبا لبقايا « الانسان المنتصب » في الصين (انسان بكين)

وعلى الرغم من انه لا يوجد دليل حفرى يوضح الانتقال بين « الانسان المنتصب » و « الانسان العاقل » ، فان معظم دارسي الانسان القديم يعتقدون ان سلسلة النسب كانت مباشرة ، حتى دون معرفة الخطوات التي أدت من الانسان المنتصب الى الانسان الحقيقي .

وقد أمكن التعرف ، لأول مرة ، على الانسان العاقل فى العصر الحجرى القديم فى صورة السلالات « النياندرثالية » Neanderthal المختلفة . فمنذ مائة الف عام ، كان بشر نياندرثال موزعين على جزء كبير من أوروبا الغربيه ، وانتشروا قطعا حتى فسطين وتركستان . وكانوا ، فى المتوسط ، اصغر الى حد ما من الانسان الحديث ، كما كانوا يختلفون عنه فى عدد قليل آخر من الصفات غير الهامة . فقد كانت جباههم منخفضة ، وعظامهم الجبهية متراجعة ، وحواجبهم كثيفة وبارزة . وعلى الرغم من شكل جماجمهم ،فقد كانت سعة هذه الجماجم كبيرة جدا بالنسبة الى حجم اجسامهم ، اذ كانت تتراوح بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ سم مكعب . ولا يعرف الا القليل عن طريقة حياتهم ، اللهم الا انهم كانوا يدفنون موتاهم ، وهذا دليل على صورة ما من صور الاهتمام بالأمور القصوى ، الذى هو بلا شك اصدق صفة بشرية واكثرها غموضا على الاطلاق .

والواقع ان سلالة الانسان العاقل المعروفة باسم « الكرومانيونية » Cro-Magnon وهي مماثلة بيولوجيا للانسان الحديث ، عاشت في نفس الوقت الذى عاشت فيه السلالات النياندرثالية . ولأسباب غير معروفة تماما ، قامت هذه السلالة اما بالتخلص من تلك السلالات ، واما باحتوائها عن طريق التزاوج المختلط . وهكذا فان الانسان ، بصفاته التشريحية وملكاته العقلية الحالية ، اصبح وطيد الاركان منذ نحو مائة الف عام ، ومن ذلك الوقت فصاعدا يمكن التحدث عن الثقافات البشرية الحقيقية . ولقد وجدت في اجزاء مختلفة من اماكن العالم التي جرت عليها عملية التطور التي بلغت اوجها بظهور «الانسان العاقل» انواع مختلفة من الادوات وكثير من المقابر، والتحف والمصنوعات الفنية.

وعلى حين انه لا يزال امامنا ان نتعلم الكثير فيما يتعلق بالمراحل النهائية لعملية التطور التي بلغت اقصى مداها بظهور الانسان العاقل، فقد اصبح فى وسعنا ، خلال العقود الزمنية القليلة الماضية ، ان نصدر حكما عاما على جانب كبير من الاهمية . ذلك الحكم العام هو ان فصيلة البشر اخذت تتخلص من حيوانيتها، وتتخذ الطابع الانساني ابتداء من القرد الجنوبي على وجه الاحتمال ، ومن الانسان المنتصب على وجه اليقين تقريبا . ومن هنا فان هذا التحول بدأ قبل وقت طويل من وصول الانسان العاقل الى المظهر المورفولوجي المميز للانسان الحالي ، وخاصة فيما يتعلق بحجم المخ . ومما لا شك فيه ان الانسان ظل يتطور جسديا اثناء نفس الفترة التي كان يطور فيها اساليب الحياة ، التي يمكن ان تؤدى الى ظهور ثقافات انسانية . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان تطوره الجسدى كان قد تم بحلول الوقت الذى كانت فيه جماعات الانسان العاقل ، التي عاشت فى أواخر العصر الحجرى القديم قد وطدت الثقافة الكرومانيونية فى أوروبا منذ نحو ٣٥٫٠٠٠ عام .

وتقول الاساطير ان الانسان الكرومانيوني كان في صورة « سوبرمان » ، اطول واجمل بنيانا ، واكرم محتدا من اى انسان يعيش فى الوقت الحاضر . والواقع ان من الصحيح أن عددا كبيرا من الهياكل العظمية التي اخرجت من المقابر ، والتي تخص الانسان الكرومانيوني

تشير الى أن طول هذا الانسان فى الحالة الحية كان اكثر من ستة اقدام ، ولكن هذه القامة الفارهة لم تكن القاعدة . وربما لم يكن الرجال الطوال اكثر شيوعا بينهم منهم بيننا . والامر المؤكد هو ان الثقافة الكرومانيونية كانت على درجة عالية من التطور . فقد كان الناس في ذلك العهد يدفنون موتاهم ، فى وضع جاثم احيانا ، ويزينونهم بالاخضبة والحلى المختلفة . وتضم بعض مدافنهم اشياء مستوردة من اماكن بعيدة ، مما يدل على انه كانت توجد تجارة وطيدة حتى فى ذلك العهد القديم .

وقد اعلن تقرير روسي فى عام ١٩٦٥ عن اكتشاف هيكل عظمي بالقرب من موسكو عمره ٣٥٫٠٠٠ عام ، وكان هذا الهيكل مرتديا سروالا وقميصا من الفرو ، ومزينا بخرز وسوار من عاج الماموث (فيل قديم بائد) ، وكانت اليدان مستقرتين معا عند الخصر ، كما كانت المقبرة مكتظة بانواع مختلفة من الادوات . فمما لا شك فيه ، اذن ، ان الانسان الكرومانيوني كان منشغلا بالمستقبل ، وانه اكتسب احدى الصفات المميزة للانسان الحديث والضرورية لنمو الحضارة . والواقع ان كثيرا من الصور الملونة والرسومات والنقوش ، **والتماثيل المنحوتة** الموجودة فى اجزاء كثيرة من اوروبا الجنوبية والمعروفة عامة باسم فن الكهوف تنسب عادة الى الانسان الكرومانيوني . واذا كانت هذه النسبة صحيحة ، فان هذه الاعمال الفنية تثبت أن قدرات هذا الانسان الفنية بلغت مستوى رفيعا ، كما تشير بقوة الى انه شارك في طقوس دينية معقدة ، وهذا دليل آخر على قلقه على المستقبل وانشغاله به .

وتبين الحفريات انه حدثت اثناء المراحل الاخيرة للتطور الذى اوجد الانسان العاقل ، تغيرات على جانب كبير من السرعة فى حجم المنطقة الجدارية والجدارية الصدغية للمخ ، وهي تغيرات حدثت فى وقت واحد معاستخدام الاسلحة وغيرها من الادوات على نطاق اوسع . ومن المرجح الى حد كبير انه حدثت في نفس الوقت زيادة فى تعقيد طرق الحياة ، والنظام الاجتماعي ووسائل الاتصال ، ولكن ليس من الممكن اثبات ذلك على نحو قاطع . **ومجمل القول ان فى وسعنا افتراض ان تطور اليد ، وزيادة حجم المخ وتعقيده ، وتنوع استخدام الادوات ، وظهور اللغة وانتشار الثقافة البدائية ، كلها حدثت فى نفس الوقت واثرت بعضها فى بعض .**

ولما كان عدد كبير من التغيرات في طبيعة الانسان وطرق حياته قد حدث فى وقت واحد ، وكان مرتبطا بعلاقات متبادلة ، فان من الجدير بالاهتمام ان نمعن الفكر فى العمليات الآلية التي ادت الى هذه العلاقات المتبادلة .

ان **عملية الولادة** ، ربما تكون قد قامت بدور على اكبر جانب من الاهمية في التفاعل المعقد بين التطور الجسدى والثقافي . فقد ادى وضع الانسان القائم الذى اكتسبه بحكم العادة الى زيادة صعوبة عملية الولادة عن طريق تغيير تركيب الحوض . وفضلا عن ذلك فان اللغة والثقافة اوجدتا ضغطا انتقائيا ساعد على زيادة تعقيد المخ وزيادة حجم الراس تبعا لذلك ، مما جعل الولادة اصعب . واغلب الظن انه نتج عن ذلك اتجاه نحو طرد الجنين قبل اكتمال نموه الى حد ما ، وهذا بدوره ادى الى فترة اطول من الطفولة التي لا حول لها ولا قوة . والواقع ان الولادة فى مرحلة مبكرة من النمو ليست وقفا على الانسان . فالكيسيات Marsupials تولد اقل نضجا من جميع الثدييات التي تحمل صغارا احياء . كذلك فان فترة الحمل فى الانسان اطول منها فى الرئيسيات الاخرى . ومع ذلك فان الولادة المبكرة نسبيا كانت ذات اهمية خاصة فيما يتعلق بالتطور

الاجتماعي للجنس البشري ، لانها ادت الى تعريض الطفل للتأثير الاجتماعي الذى تمارسه عليه امه وعشيرته اثناء الفترة التي يكون فيها ، على وجه التحديد ، قابلا للتشكل الى اقصى حد . وفى هذه الظروف الملائمة ، تتاح للاطفال فرصة مثلى لمعرفة انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، ويكون بوسعهم استيعاب التراث الثقافي غير الموروث الخاص بمجتمعهم ، ثم نقله فيما بعد . كذلك فان الحاجة الى فترة اطول لرعاية الاطفال ربما تكون قد ادت الى ارتباط اطول بين الاب والام ، وبذلك تكون قد اسهمت بطريقة غير مباشرة في نمو البناء الأسرى والاجتماعي وتطوره .

كذلك يمكننا ان نورد مثلا آخر لسمةثقافية كانت لها نتائج تشريحية ، هي **استخدام الأدوات** . فمن المعقول ان نتصور ان اول مخلوق من اسلاف الانسان التقط حجرا واستخدمه كسلاح او اداة ربما يكون قد بدأ عهدا جديدا فى التطور ، اذ ربما تكون قد نشأت من هذه البداية الأولية القدرة المتزايدة على استخدام الاسلحة والادوات وصنعها فى نهاية الأمر ، مما اكسب الانسان ميزة انتقائية . وعلى هذا الاساس يجوز ان يكون المخ واللغة قد تطورا كرد فعل لاختراع واستخدام الاسلحة والادوات ، اى ان هذه الانواع الاخيرة من النشاط ربما كانت قد تحكمت في تشكيل المخ واللغة معا . كذلك ادى الضغط الانتقائي الى تهيئة الطريقة المناسبة لتوجيه عملية ادماج المهارات الجسدية والعقلية فى الجبلة الوراثية .

كذلك ربما تكون عمليات رد فعل (تغذية مرتدة) تطورية مشابهة قد ادت الى تطور البناء الاسرىواساليب ممارسةالصيدالجماعي قبل حدوث تغيرات جسدية وتنظيم انماط رد الفعل . فعندما بدأ الانسان القديم فى اضافة صيد الحيوانات الكبيرة الى صيد الحيوانات الصغيرة ، اقتضت زيادة حجم وتعقيد الانشطة التي كانت تمارسها الجماعة فى التخطيط للصيد وممارسته صفات جديدة خاصة بالقيادة ، ومهارات جديدة خاصة بالاتصال . وهكذا اوجدت هذه الاحتياجات الاجتماعية ضغطا انتقائيا لتطوير قدرات عقلية جديدة . كذلك قامت ، ربما بعد ذلك بوقت قصير ، صور بدائية من الفن والدين ، وحدث تراكم منظم للتجربة والمعرفة ، وهو طليعة العلم ، وكان لهذا كله دوره فى تطوير العمليات العصبية وتكاملها . وبالتدريج ، انتخبت انفع الصفات وادمجت في الجبلة الوراثية . وبازدياد حجم المخ ظهرت انماط جديدة من ردود الفعل تشكلت بحيث تلائم طرق الحياة ، ومن الناحية المقابلة تطورت طرق الحياة بدورها عندما اصبح المخ ووظائفه اكثر تلاؤما معها وعندما ازداد تعقيده . وفى مرحلة متاخرة من تطور الانسان ، بدأت الآليات الاجتماعية تلحق بالآليات الوراثية فى تحويل حياة الانسان وتغييرها . وكما سنرى فيما بعد ، فان هذا النمط اللاماركي للتطور ربما كان أهم الآن من التطور الوراثي الداروينى فى تطوير المجتمعات البشرية .

ومن هنا ، فان الوظائف « العليا » للمخ البشري ربما تكون قد نشأت من تحولات تركيبية ووظائفية مطردة اسفرت عن نظام سمح بتكيف الانسان الفسيولوجي والسلوكي مع ثقافته . وهذا التكيف لا يمكن ، بالضرورة ، ان يكون كاملا ، لأن الثقافة تتغير باستمرار . على ان الامر الذى يكاد يكون مؤكدا هو ان العناصر المختلفة لثقافة الانسان ضرورية الآن ليس فقط لبقائه ، بل ايضا لاظهار قدراته الكامنة . والواقع ان البشرية ظهرت فى عملية خلق الثقافة ذاتها ، وأصبحت معتمدة على العالم الجديد الذى اوجدته هذه العملية ، ومنذ ذلك الوقت ، اصبح عالم الثقافة يؤلف البيئة الطبيعية لحياة الانسان .

لقد كان نوع « الانسان العاقل » ، منذ خمسين الف سنة ، منتشرا فى معظم ارجاء المناطق دون المدارية للقارتين الاوروبية والاسيوية ، بل لقد توغل شمالا فى الاجزاء المعتدلة من اوروبا وشرقي آسيا . وقد أدت التكيفات التشريحية والفسيولوجية، والثقافية بصفة خاصة ، الى تمكين الانسان ، لأول مرة ، من الوجود فى مناطق ذات شتاء قارس . . والارجح أن سلالات الانسان الحديث كما نعرفها اليوم ببنياتها والوانها وسحناتها المميزة ، انما تمثل تكيفات متأخرة وثانوية لنوع « الانسان العاقل » عندما استعمر العالم فى نهاية العصر الجليدى .

ومن المؤكد ان مخ الانسان الحديث وعملياته الذهنية الأساسية تشكلا فى وقت مبكر اثناء العصر الجليدى ، بحيث استمدت المؤثرات التى شكلتها من التفاعل بين المراحل الاخيرة لتطوره البيولوجي ، والمراحل الأولى لتطوره الثقافى . هذه المؤثرات تكون اذن الأساس العام الذى ظهر منه التركيب الوراثي الأساسى للجنس البشرى وتقاليده الثقافية . اما التكيفات الثانوية التي اوجدت السلالات البشرية المختلفة فانها لم تحدث الا بعد اتمام عمليات التشكيل الأساسية الخاصة بالتطور التشريحي ، والعصبي والثقافي .

واذا كان هذا الفرض صحيحا ، فانه يفسر ذلك التجانس البيولوجي والنفساني العجيب السائد بين البشر بالرغم من الفجوات البيئية والاجتماعية التى فصلت سلالات الانسان منذ العصور الحجرية القديمة . كما انه يفسر السبب فى أن الطفل المنتمي الى جماعة متخلفة ثقافيا لا يلبث ، اذا ما احتضنته فى بداية حياته جماعة اكثر تقدما من الناحية الثقافية ، ان يتطبع بالصفات السلوكية المميزة للمجتمع الذى احتضنه .

ولعلنا نتذكر ان من المبادىء التي كانت تقوم عليها فكرة سلسلة الوجود الكبرى انه لا يمكن أن تشغل صورتان مختلفتان من صور الحياة نفس المكان فى السلسلة . ولما كان البشر يمكن تقسيمهم الى عدة سلالات على اساس صفات خارجية واضحة ، فانه يبدو من الضرورى أن نخصص لهذه السلالات اماكن مختلفة فى السلسلة ، ومن ثم نضعها فى مراتب تتدرج من الأدنى الى الأسمى ، كما حدث بالنسبة الى الحيوانات . هذا التصنيف للسلالات البشرية سلم به مقدما معظم بيولوجيي القرن الثامن عشر ، بما فيهم « لينايوس Linnaeus » المصنف العظيم ، وما زال عدد كبير من الناس يسلمون به على نطاق الحوادث المفجعة المرتبطة بمشكلة التفرقة العنصرية فى جميع ارجاء العالم . ولكن المفهوم الأنثروبولوجي للسلالات العنصرية ، وهو مفهوم قائم على تمييزات وراثية وبيوكيميائية ، يكون اساسا مشروعا للبحث الانثروبولوجي .

• • •

العوامل البيولوجية والنفسية الاجتماعية المؤثرة في تطور الانسان :

كلما ازداد الحيوان تطورا ، قلت امكانية التنبؤ بانماط سلوكه واستجاباته لمثيرات البيئة . ومن السهل نسبيا تفسير الصعوبة المتزايدة فى قابلية التنبؤ فى انواع تصل حتى مرتبة الثدييات الدنيا ، لأن ظهور آليات عصبية جديدة تصحبه عادة حرية اكبر . ولكن من الصعب ان نهتدى في تشريح المخ الى سبب تفسر الحرية الكبيرة التي تتجلى فى الثدييات العليا ، وبخاصة فى الانسان . ومن هنا فان بحث الآليات التي حقق عن طريقها اسلاف الانسان فى التطور مزيدا من الاستقلال عن القوى الخارجية باطراد قد يكون اتجاها نافعا فى بحث التعريف البيولوجي لنوع « الانسان العاقل » .

ولو امكن الاعتماد على التفسير الحالي للاكتشافات الانثروبولوجية (وهو أمر ما زال غير مضمون على الاطلاق) ، فان الانسان يكون قد اتم تطوره التشريحي منذ نحو خمسين الف سنة ، اى أن جسم الانسان ومخه ظلا اساسا، من ناحية التركيب والحجم ، على ما كانا عليه منذ ذلك الحين . وعلى النقيض من ذلك ، فان ظروف حياة الانسان قد تغيرت تغيرا عميقا خلال تلك الفترة ، وتواصل تغيرها بمعدل متزايد السرعة . ومن هنا فانه لا بد ، لتفسير التاريخ البيولوجي للجنس البشرى ، من التوفيق بين ظاهرتين متباينتين تبدوان متناقضتين لأول وهلة . فمن ناحية ، نجد أن التطور العضوى لنوع « الانسان العاقل » وهو تطور يتم عن طريق عمليات وراثية ، قد وصل الى حالة توقف تقريبا . ومن ناحية اخرى نجد ان التطور الاجتماعي مستمر ، على نحو يكاد يكون مستقلا عن التغيرات التي تحدث في الجبلة الوراثية .

والواقع ان استقرار التكوين الوراثي لنوع « الانسان العاقل » ظاهرة لها من الاهمية ما جعل الانثروبولوجيين يلجاون الى عدد هائل من التخمينات لتفسيرها . ولكنهم يتفقون جميعا على ان الآليات الاجتماعية قد حلت الآن ، نتيجة تطور المخ ، محل الآليات الوراثية بوصفها اهم مظاهر حياة الانسان . كما انهم يعترفون جميعا بمدى ضآلة الفرصة المتاحة حاليا لمزيد من التطور العضوى .

وترجع نظرية من اوسع النظريات انتشارا توقف التغيرات العضوية الى وقت متاخر فى العصر الحجرى القديم ، وهو الوقت الذى اصبح فيه الانسان صيادا. وتقوم هذه النظرية على افتراض معقول ، هو ان الرجال الذين كانوا يتصفون باكبر قدر من اليقظة والتنبه اصبحوا قواد جماعات الصيد . هؤلاء الرجال حققوا سيادتهم على الجماعة بفضل قدرتهم على اتخاذ مواقف عدوانية حاسمة ، وقد ترتب على ذلك انه اصبح في امكانهم الاتصال بالنساء بسهولة اكبر ، وهذا نمط ملاحظ بين الرئيسيات التي تعيش في ظروف طبيعية وكذلك بين بعض الجماعات البشرية البدائية .

ومن المهم ان نلاحظ فى هذا الصدد انه على حين ان الافراد الذين يقودون مجموعات الرئيسيات التي تعيش فى بيئاتها الطبيعية يتميزون عادة بانواع معينة من الصفات « العقلية » ، فانه ليس من الضرورى ان يكونوا اضخم الافراد او اقواهم من الناحية الجسدية . ونظرا الى ان ما ينطبق اليوم على الرئيسيات كان ينطبق على الارجح على الانسان القديم ، فانه يمكن الافتراض بأن الصفات العقلية المرتبطة بالزعامة اكتسبت اهمية متزايدة بمرور الوقت ومنحت اصحابها ميزة انتقائية فى عملية المنافسة التناسلية . وربما تكون ممارسة الزواج بعدد من الزوجات قد أدت الى تسهيل عملية الادماج الوراثي لهذه الصفات فى القبيلة ، وربما يكون هذا قد ادى بدوره الى زيادة سرعة تطور المخ بدرجة أكبر .

وتواصل النظرية تقديم حججها ، فتقول : ان زيادة القدرات العقلية في الجماعة ادت فى النهاية الى زيادة تعقيد البناء الأجتماعي ، والى نتيجة ثانوية هي حلول الزواج بزوجة واحدة ، تدريجيا محل الزواج بعدد من الزوجات. وقد ادى حدوث هذا التغير الاجتماعي بطبيعة الحال ، الى خفض معدل التطور الوراثي . كما ان المؤسسات الأجتماعية نفسها اصبحت تقوم بدور فى آليات النشاط القبلي اهم من الدور الذى تقوم به صفات كل زعيم على حدة. ونتيجة لذلك ، اصبحت زعامة اصحاب المواهب العقلية اقل وضوحا وقل ، تبعا لذلك ، تأثيرهم فى التكاثر الانتقائي .

ويزعم بعض الانثروبولوجيين ان عملية تعدد الزوجات ، وانتخاب الأمخاخ الاكبر حجما اخذت تفتر منذ وقت مبكر يرجع الى المرحلة النياندرتالية . ويقولون ان الرجال ذوى الامخاخ الكبيرة لم يعودوا ، منذ ذلك الوقت ، يتفوقون تناسليا على اقرانهم ذوى الامخاخ الاصغر . ولكن هناك انثروبولوجيين آخرين يخالفون هذا الراى ، ويشيرون الى استمرار انتشار تعدد الزوجات وارتفاع خصوبة الزعماء فى بعض الجماعات البشرية المعاصرة . وقد ذكر تقرير نشر منذ وقت قريب ان زعيما واحدا لقبيلة هندية تعيش فى احراش البرازيل كان ابا لربع الأطفال المائة فى الجيل التالي . والواقع ان اختلاف الراى بين المتخصصين فى هذا الموضوع وغيره من الموضوعات المتعلقة به يوضح مدى التخبط الذى لا يزال يلازمنا فى بحثنا عن تلك العوامل الانتخابية التي عملت في الماضي على ايصال حجم مخ الانسان الحديث وذكائه الى مستواهما الحالي .

وعلى الرغم من ان التخمينات الخاصة بمنشأ الانسان ومنشأ طرق حياته لا يمكن دعمها بأدلة قاطعة فانه ليس امام الانثروبولوجيين من خيار الا التخمين فى محاولة تفسير كيفية حلول الآليات الاجتماعية تدريجيا محل الآليات البيولوجية بوصفها العامل الرئيسي للتغير في حياة الانسان . ولعلنا نلاحظ ان اهتمامنا هنا منصب على حياة الانسان لا على الانسان نفسه . وذلك لأن التغيرات فى ظروف الحياة يمكن ان تؤدى بسرعة ، بل انها تؤدى بالفعل ، الى حدوث تغيرات تشريحية وفسيولوجية ، بل يمكن ان تغير التركيب الوراثي لجماعة ما فى مدى اجيال قليلة . ويشهد على ذلك الاختفاء المطرد لجينة الخلايا المنجلية (٢) بين الزنوج الذين يعيشون فى امريكا الشمالية ، وانتشار جينة البورفيريا (٣) Porphyria بين البيض فى جنوب افريقيا . **والنقطة التي نضعها تحت البحث هنا هي ان العوامل الاجتماعية الثقافية اهم الآن بكثير من العوامل الوراثية فى التاثير على المجتمعات البشرية** . ولقد كانت هذه العوامل الثقافية في ذهن « **هربرت سبنسر** » عندما استخدم عبارة « **التطور فوق العضوى** » Superorganic evolution للاشارة الى التغيرات المطردة فى الحكومات او البنوك وفي جميع المؤسسات الاجتماعية بصفة اعم .

وقد اجرى سير **جوليان هكسلي** احد احفاد « توماس هـ . هكسلي » ، داعية الداروينية فى القرن التاسع عشر ، مقارنات عديدة بين دور كل من العوامل البيولوجية والعوامل النفسية الاجتماعية فى حياة الانسان . وفيما يلي فقرات تتعلق بهذا الموضوع مقتبسة من محاضرة القاها سير جوليان عام ١٩٦٠ فى هيئة الاذاعة البريطانية ، تناقش ظهور الحياة والعقل بوصفهما مظهرين خاصين لعملية تطور كونية اعم :

« **اننا نعتقد الآن عن ثقة ان عالم الواقع**

---

(٢) تتميز خلايا الدم الحمراء فى بعض جماعات الزنوج بصفات خاصة تجعلها تبدو فى صورة مناجل او اهلة عند معالجتها بطرق خاصة ورؤيتها تحت المجهر . ولذلك تعرف باسم « الخلايا المنجلية » Sickle cells ويؤدى وجود هذه الخلايا الى اصابة حامليها بنوع من الانيميا يطلق عليه اسم انيميا الخلايا المنجلية ، ولكنها تقيهم الاصابة بالملاريا .

(٣) مرض وراثي يتجلى فى الظروف العادية فى صورة اعراض عصبية خفيفة وانسكابات دموية بسيطة تحدث بقعا ارجوانية تحت الجلد . ولكن المصاب بهذا المرض يمكن ان يتعرض لردود فعل عنيفة قد تفضي الى الموت وذلك اذا تعاطى بعض العقاقير الحديثة : كالسلفا والباربتيورات .

برمته عملية تطور هائلة واحدة . هذه العملية تحدث جدة وتنوعا متزايدين ، وانماطا من التكون العضوى ارقى باستمرار ، وفى اماكن قليلة اوجدت الحياة ، وفي عدد قليل من اماكن الحياة هذه ، اوجدت العقل والوعي .

« هذه العملية التي تحدث على نطاق الكون باسره تنقسم الى ثلاث مراحل او اقسام ، كل منها له طريقته الخاصة في العمل ، ومعدله الخاص فى التغير ونوعه الخاص من النتائج . وفى معظم ارجاء الكون ، تكون هذه العملية فى المرحلة اللاحية او اللاعضوية . اما فى الارض (وفى بعض كواكب الشموس الاخرى بلا شك) فانها فى المرحلة العضوية أو البيولوجية . هذه المرحلة تعمل عن طريق الانتخاب الطبيعي وادت الى ايجاد مجموعة شديدة التنوع من الحيوانات والنباتات ، بعضها بلغ درجة مذهلة من التنظيم العضوى (مثل اجسامنا او مستعمرة النمل) كما ادت الى ظهور العقل .

« واخيرا دخل الانسان (وربما عدد قليل من الكائنات العضوية الاخرى في اماكن اخرى) المرحلة الانسانية ، او ما يمكن ان نسميه بالمرحلة النفسيه الاجتماعية ، وهي مرحلة تقوم على تراكم المعرفة وتنظيم التجربة . هذه المرحلة تعمل اساسا عن طريق اختيار واع للافكار والاهداف وتحدث تغييرا سريعا للغاية . ويكون التطور فى هذه المرحلة ثقافيا اساسا ، لا وراثيا ، اى انه لا يعود يتركز فقط على البقاء ، بل يوجه بصورة متزايدة نحو تحقيق الذات ورفع مستوى الانجاز » .

والواقع ان عبارة « أن عالم الواقع برمته عملية تطور هائلة واحدة » كما جاءت على لسان هكسلي ، تتفق الى حد كبير مع فكرة الخالق التطورى المتدرج من المادة الى الانسان وصولا الى الله ، وهي فكرة صاغها الأب اليسوعي « تيار شاردان Teilhard de Chardin منذ عشرين عاما ، وشرحها فى كتابه « ظاهرة الانسان The Phenomonen of the Man فلا غرابة اذن ان تكون المقدمة التي كتبها سير جوليان هكسلي لكتاب « تيار » مقدمة مفعمة بالحرارة والحماس . وقد اكد فى هذه المقدمة قدرة الانسان الاجتماعي على التخلص ، فى حدود ، من قبضة قوى الانتخاب الطبيعي ، ومن ثم اكتساب القدرة على التحكم فى تطوره الخاص . وقد عبر هكسلي عن آراء مشابهة اثناء الاحتفالات التي اقيمت فى عام ١٩٥٩ احياء للذكرى المئوية لنشر كتاب داروين « اصل الانواع » : ـ

« ان اكتساب الانسان آلية ثانية ، أسمى وأعلى من آلية الكروموسومات والجينات ، من اجل ضمان الاستمرار والتغير التطورى معا ، وهي آلة تقوم على قدرته على التفكير التصورى والتكلم بلغة رمزية ، مكنه من اجتياز الحاجز الذى وضعته القيود البيولوجية ، ودخول ميادين الوجود النفسي الاجتماعي ، وهي ميادين بكر لم تطرق من قبل .. والواقع ان التطور فى المرحلة النفسية الاجتماعية ثقافة فى المحل الاول : اعني انه يتجلى غالبا فى صورة تغيرات فى الثقافات الانسانية ، لا فى الاجسام البشرية او المركبات الوراثية البشرية المعقدة . (لا يخفى بالطبع انني استخدم الثقافة بمعناها الانثروبولوجي والاجتماعي الواسع لتشمل الفن واللغة ، والدين والنظام الاجتماعي ، وكذلك الثقافة المادية) » .

وعلى حين ان معظم البيولوجيين يوافقون على الاتجاه العام لآراء سير جوليان هكسلي ، فان بعضهم يتساءل عن الحكمة فى استخدام نفس الكلمة ، وهي التطور ، للدلالة على نوعى التغيرات : تلك التي تحدثها العمليات الوراثية ، وتلك التي تحدثها العمليات الاجتماعية . ذلك لأن المادة المتكاثرة ذاتيا

(التطور البيولوجي) والعقل المتكاثر ذاتيا (التطور الثقافي) يتطوران عن طريق عمليات تبلغ من الاختلاف حدا يبدو معه أن كلا منهما يستحق تسمية خاصة به . وعندما يستخدم البيولوجيون كلمة التطور دون تمييزها بصفة اخرى فانها لا تشير ، بمقتضى الاستخدام العلمي الحالي ، الا الى عملية وراثية داروينية تنطوي على تغيرات مطردة للجبلة الوراثية التي تتضمنها الجينات . وعلى النقيض من ذلك ، فان التطور الثقافي يدل على كل الحقائق والاوهام ، والقواعد والطقوس ، والمعرفة والفهم الذى يحكم الحياة الاجتماعية . ويتم تراكم جميع جوانب تجربة الانسان الشاملة هذه وكذلك تعديلها ونقلها ، بتوسط آليات اجتماعية تزداد استقلالا باطراد عن جبلته الوراثية .

ولكن على الرغم من كل ما يمكن ان يقوله الملتزمون بحرفية اللفظ ، **فان عبارتي التطور النفسي الاجتماعي ((والتطور الثقافي)) اصبحتا الآن جزءا من اللغة العلمية وان كانتا تشيران الى آليات متميزة عن الآليات الفاعلة فى التطور العضوى** . ومما يزيد المشكلة تعقيدا ، ان هناك قدرا من الاعتماد المتبادل بين التطور البيولوجي والتطور النفسي الاجتماعي ، اذ ان هاتين الآليتين المنفصلتين المحدثتين للتغير ترتبطان بواسطة عمليات تأثير متبادل (تغذية مرتدة) . فعندما تقوم المجتمعات البشرية بتغيير بيئتها وطرق حياتها عن طريق آليات ثقافية ، فانها تخلق في نفس الوقت ظروفا جديدة تهيىء ميزة انتخابية لبعض الصفات البيولوجية المميزة للبشر . ذلك لانه على الرغم من ان التطور النفسي الاجتماعي يحدث الى حد كبير من خلال آليات لا ماركية غير وراثية ، فانه يكاد يسفر حتما عن شيء من التطور الدارويني الوراثي .

والواقع ان تأثير القوى الثقافية في اوجه نشاط الانسان من الوضوح بحيث جعل علماء الاجتماع يميلون الى الاعتقاد بأن الانسان قد افلت من قبضة القوى البيولوجية .. ولكن الحقيقة ، كما سوف نرى فيما بعد ، هي ان القوى البيولوجية لا تزال تؤثر بعمق فى معظم جوانب حياة الانسان الفردية والاجتماعية . وفضلا عن ذلك ، فان بعض الاختلافات بين الاشخاص الموهوبين والاشخاص العاديين تقوم ، قطعا ، على أساس وراثي . وينبغى ان نتذكر ان افكار وافعال عدد قليل من الاشخاص غير العاديين هي التي حققت أعظم التقدم فى تاريخ البشرية ، أعني ان طاقاتهم الهائلة هي التي وجهت جمهرة الناس . والواقع ان التاريخ هو ، جزئيا على الاقل ، حصيلة قوى حركتها الجبلة الوراثية المتميزة الخاصة بعدد قليل من المجددين المبتدعين .

ان الاختلافات النظرية بين القوى البيولوجية والقوى النفسية الاجتماعية المحدثة للتغيرات فى حياة الانسان تؤدى الى نتائج عملية كبيرة . فالتغيرات التي تحدثها الآليات الوراثية تتكشف عادة ببطء ، ولكنها تكون دائمة ، وتكاد تبدو فى كثير من الاحيان غير قابلة للارتداد . وعلى النقيض من ذلك ، فان التغيرات التي تحدثها الآليات النفسية الاجتماعية تطابق نمط التطور اللاماركي : اعني ان المعرفة والمهارات التي يكتسبها جيل ما تنتقل مباشرة الى الجيل التالي ، ولكنها لا تدوم الا طالما ظلت الظروف ملائمة لنقلها المباشر ، اى ان ما يكتسب عن طريقها فى جيل يمكن ان يفقد تماما فى الجيل التالي . **والواقع ان التاريخ والتجربة اليومية يوضحان ، على نحو مرير ، ان الدوافع البدائية التي كانت تحرك انسان العصر الحجرى القديم يمكن ، في كثير من ظروف الشدة ، ان تخترق بسهولة قشرة الحضارة ، ويرجع ذلك ، على وجه التحديد ، الى ان الحياة المتحضرة نشات اساسا من تغيرات نفسية اجتماعية ، لا من تطور عضوى .**

• • •

الماضي التجريبي والاجتماعي :

جميع البشر لهم ، اساسا ، نفس التركيب التشريحي ، ويؤدون وظائفهم من خلال نفس الانشطة الكيمائية ، وتتجلى فيهم نفس المظاهر الفسيولوجية ، وتدفعهم نفس الدوافع البيولوجية . ومع ذلك فانه لا يوجد كائنان بشريان متشابهان . ومن هنا فان معرفة الصفات التي يشترك فيها البشر جميعا لا تكفي لتفسير الطريقة التي تظهر بها لكل شخص خصائصه المميزة ، وتؤدى الى سلوكه على النحو الذى يسلكه .

وفيما عدا الحالة الاستثنائية الخاصة بالتوائم المتماثلين التي يتم فيها انجاب اكثر من طفل واحد ، فان الافراد يختلفون فى تركيبهم الوراثي . ولا يقل عن ذلك فى الاهمية أن الصفات المميزة لكل كائن بشرى على حدة تتشكل باستمرار ، وتتغير بواسطة العوامل البيئية . هذه العوامل تختلف دائما باختلاف الزمن ، وتختلف من مكان الى آخر ، ولا تكون ابدا واحدة ، بالنسبة الى اى شخصين مختلفين . بل ان التوائم المتماثلين انفسهم لا يجمع بينهم شبه كبير عند البلوغ اذا ما نشىء كل منهم فى بيئة مختلفة .

وقد دعمت دراسات حديثة الفكرة التي توصل اليها القدماء ، والقائلة بأن عددا كبيرا من صفات الشخص البالغ ينتج بفعل « مؤثرات مبكرة » اى بفعل العوامل البيئية التي تؤثر فى الشخص وهو لم يزل بعد فى حالة تطور ونمو . بل ان هذه المؤثرات التي تشكل الانسان يمكن ان تحدث داخل الرحم ذاته . فعلى الرغم من ان « **توائم ديون** Dionne » **الخمسة** كانوا متماثلين بصفة عامة ، وكانوا يعاملون نفس المعاملة بعد الولادة فانه كان يمكن تمييزهم كأفراد منذ البداية الأولى لحياتهم ، ويرجع ذلك على الارجح الى أن اوضاعهم اثناء حياتهم داخل الرحم اثرت فى نموهم على نحو متميز . والواقع ان العوامل التي تؤثر قبل الولادة وفى المراحل الأولى بعد الولادة يمكن ان تؤثر في كل صفة تقريبا ، ابتداء من الاحتياجات الغذائية والمظهر المورفولوجي حتى القدرة على التعلم والاتجاهات العاطفية . وفضلا عن ذلك فان نتائج المؤثرات المبكرة تصبح متأصلة فى التركيب البيولوجي الى درجة انها تستمر فى كثير من الاحيان ، وربما دائما ، طوال فترة الحياة كلها .

وقد كان للدراسات التشريحية المقارنة التي اجريت على أعضاء مختلفة فى اوقات مختلفة بعد الحمل وبعد الولادة فضل كبير فى تفسير التأثيرات العميقة، الدائمة والغريبة فى كثير من الاحيان ، التي تمارسها العوامل البيئية فى الكائن العضوى المتطور . فاثناء الشهرين الأولين من الحياة الجنينية ، تتعرض البيضة المخصبة لاكثر تغيراتها حسما ، اذ تتمايز خلاياها فى انسجة متخصصة كالعضل او الاعصاب (التنسّج Histogenesis) ويتمايز الكل المتجانس اصلا في مناطق متخصصة كالرأس او الذراعين (التمنطق regionalization وفي نفس الوقت تتشكل كل منطقة فى شكل محدد (التشكل Morphogenesis) وعلى الرغم من ان عملية التشكل تستمر حتى البلوغ فان التغيرات الرئيسية تتم خلال الشهور الثلاثة الاولى من الحياة داخل الرحم . وفى ذلك الوقت ، يكون الجنين قد اتخذ مظهرا طفوليا يمكن التعرف عليه .

هذا العرض المبسط للتمايز اثناء التطور الجنيني يساعد فى معرفة السبب الذى من اجله يؤدى نقص التغذية ، والتعرض للمواد السامة ، وغيرها من الصعوبات الاخرى التي تتعرض لها الام اثناء المراحل الاولى من الحمل ، الى عيوب ولادية وصور اخرى من صور الخروج عن الحالة السوية ، لا تظهر الا فى وقت لاحق من الحياة . والواقع ان التشوهات المبكرة التي تصيب الجنين نادرا

ما يمكن اصلاحها اثناء المراحل التالية من النمو .

ولما كانت الانسجة المختلفة ومناطق الجسم المختلفة تنمو بمعدلات مختلفة طوال مرحلة التشكيل ، سواء قبل الولادة او بعدها ، فان هذا يفسر التغيرات التي تحدث فى شكل الجسم مع اطراد النمو ، كما انه يكشف عن سبب اختلاف تجاوب الاعضاء المختلفة مع المؤثرات البيئية باختلاف عمرها . ومن الطبيعي ان يكون لتطور المخ اهمية خاصة فى هذا الصدد ، وذلك لما له من علاقة مباشرة بمشكلات التعلم والسلوك .

فالمخ يكون ، في وقت مبكر من الحياة الجنينية ، اقرب الى حجمه البالغ ، على أساس الوزن الاجمالي ، من اى عضو آخر من أعضاء الجسم ، ربما باستثناء العين . فعند الولادة يكون المخ قد وصل الى حوالي ٢٥٪ من وزنه عند البلوغ ، وفى سن ستة شهور الى ٥٠٪ تقريبا ، وفي الخامسة الى ٩٠٪ وفى العاشرة الى ٩٥٪ وعلى هذا الاساس فان المخ ينمو فى وقت اقصر واسرع من أعضاء الجسم الاخرى . وفضلا عن ذلك فان اجزاء المخ المختلفة لا تتطور فى آن واحد ولا تنمو بنفس المعدل . ومن الامور التي لها قدر بالغ من الاهمية ، ان قشرة المخ لا تكون قد نمت ، بحلول وقت الولادة ، الا بمقدار ضئيل جدا . وعلى الرغم من أن انسجة القشرة المخية ووظائفها تنمو وتتطور باطراد ، فان مناطق كثيرة منها تظل غير مكتملة النمو الى حد كبير فى سن الثانية ، بل ان بعضها يبقى غير مكتمل النمو حتى المراهقة . واثناء فترة النمو كلها ، يزداد عدد تفرعات الخلايا المخية كما يزداد احتمال تأثير هذه الخلايا بعضها فى بعض عن طريق اتصالها ، وهذه ظاهرة تعرف باسم « التواصل Connectivity » . وعندما نعرف ان جزءا كبيرا من التعلم وتطور الشخصية يحدث ، على وجه التحديد ، في الوقت الذى تتوطد فيه هذه الاتصالات ، فاننا نستطيع ان ندرك ما للتواصل من اهمية خاصة .

واثناء نمو المخ من صورته الجنينية الأولى الى صورته وقدرته فى سن الثانية ، يكون تطور وظيفته مرتبطا ارتباطا وثيقا بمدى اكتمال تركيبه ، واغلب الظن أن هذا الارتباط يستمر طوال الحياة . وقد كشفت تجارب اجريت على الفئران عن انها لا تستطيع اكتساب بعض انماط السلوك الا عندما يبلغ تواصل خلايا قشرتها المخية مستوى معينا ، بصرف النظر عن العمر الزمني لهذه الفئران . وهناك اسباب وجيهة تدعو الى الاعتقاد بان القدرات العقلية الاعلى تظهر ، في الانسان ايضا ، عندما يتم اكتمال نمو بعض الانسجة او التجمعات الخلوية فى جميع ارجاء القشرة . ويرى بعض علماء الاعصاب ان التنبيه يمكن ان يؤثر فى نضج المخ او زيادة تعقيده العضوى ، وان استخدام خلية ما يمكن فعلا ان يزيد قدرتها على التواصل . وهناك ملاحظة تدعم هذا الرأى وهي ان الاسابيع القليلة الاولى من حياة الكائن البشرى يقضى معظمها فى تنظيم الادراكات الحسية ، وخاصة أحاسيس اللمس والبصر .

فاذا كانت آليات ادراك المنبهات والاستجابة لها تتولد جزئيا على الاقل ، من منبهات قديمة ، وهو أمر محتمل ، فان هذا الاحتمال يثير مشكلات محيرة فيما يتعلق بالتفاعلات الطبيعية الكيمائية المحددة التي تنطوى عليها هذه الآليات . وقد افترضت عدة تفاعلات من هذا النوع لتفسير تغيرات المخ التي تؤدى الى التعلم والذاكرة ، ولكن هذه الافتراضات ، على أحسن الاحتمالات ، تخمينية الى حد كبير ، وليس فى متناول يدنا حتى الآن اسلوب فني يتيح معرفة مزاياها النسبية . ومع ذلك

فان من المعروف ان هنـاك تغـيرات طبيعية كيمائية محـددة ترتبط بالتعلم ، والتذكـر وغيرها من العمليات العقلية ، وقد اقتـرب الوقت الذى سوف تصبح فيه آليات التفكير جزءا من البيولوجيا الآلية ، مثلها فى ذلك مثل آليات التنفس او الانقباض العضلي ، وعندما تصل المعرفة الى هذه المرحلة فقد يترتب عليها خطر بالغ هو ان يترتب عليها ظهور تكنولوجيا طبية بيوكيمائية تسهل التحكم في الفكر من اجل اغراض سياسية وغيرها .

ويمكن ان يستفيد رجـال التربيـة فائدة كبرى لو انهم عرفوا ما اذا كان نقص الحوافز المنبهة يؤخـر او يعـوق التنظيم العصبي ، وكذلك لو عرفوا كيف تتأثر تجمعات الخلايا العصبية بفعل المؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الانسان فى فترات مختلفـة مـن حياته والحالة المثلى بالطبع هي ان تتحكم معرفـة خصائص النمـو المميزة للجهـاز العصبي في طريقة التعليم والاوقـات التي يتم فيها تعلم الاشياء المختلفة . ولكن معرفـة المخ لاتزال لسوء الحظ ، بعيدة كل البعد عن أن تقـدم الينا توجيها على نحو فعال فى وضع البرامج التعليمية .

وهناك من ناحية اخرى ادلة قاطعة تثبت ان النمو العصبي تؤثر فيه الحالة الغذائية ، وعمليات العدوى ، وغيرها من العوامل البيئية المؤثرة فى الصحة والمرض . ومن هنـا فان بعضا من اكبر مشكلات تطور الانسـان يدور حول الظروف الفسيولوجية الخاصة بالتنشئة وكذلك حول البيئة الاجتماعية ، بما فيها كل المؤثرات المبكرة والتجارب التعليمية ذلك لان التاثيرات التي تمارسها هذه الظروف والبيئة فى تطور المخ فى فترات الحياة المختلفة هى التى تحـدد أهميتها بالنسبة الى نمـو الانسـان وسلوكه .

ومن الطبيعي ان تنزع المؤثرات البيئيـة السائدة فى منطقة جغرافية او جماعة اجتماعية ما الى تكوين صفات كثيرة مشتركة بين كـل افراد الجماعة . ولهذا السبب فان «امرسون» كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ان الناس يشبهون معاصريهم اكثـر حتى مـن والديهم » . كذلك تؤثر المؤثرات البيئية في كل شخص بطريقة خاصة حتى عندما تبدو طرق الحياة متجانسة فى بيئة تخضع لمعايـير موحدة . ذلك لان ما ينفرد به الشخص مـن تكوين وراثي منقطع النظير يعمل على ايجاد اختلافات في استجابتـه للمؤثرات البيئية ، ومن ثم على تفرده مـن حيث النمـو العقلي والجسـدى . والواقع ان كـل شخص منا يعيش ، ان جاز هذاالتعبير ، فى عالمه الخاص الذى ينفرد به .

ويمكن القول ، بصفة عامة ، ان المؤثرات البيئية تشكل الشخصية عـن طريق آليتين مختلفتين . فهي تتحكم ، من ناحية ، فى بعض انماط الاستجابة التي تؤثر فى جميع مظاهر السلوك . وبالفعل نجد لدى الفسيولوجيين، وعلماء النفس ، وعلمـاء الامراض العقلية ، والكتاب ، اوصافا شديدة التنوع ، صاغها كل منهم على طريقتـه الخاصـة ، لاسـتجابات مكتسبة ، تتدرج من سيلان لعاب الكلاب عند سـماعها صـوت الجرس الـى التأثـيرات الباثولوجيـة (المرضية) الخاصـة بالعقـد الفرويدية ، او تذكر اشياء اثارها فى الماضي غمس قطعة من الكعك فى فنجان شاى .

اما النوع الثاني من الآليات ، ففيه تسهم المؤثرات البيئيـة في تشكيل الشخصية عـن طريق اعاقـة اكتسـاب خبـرات جديـدة . فالمفروض ان اسـتمرار نمـو الشخص ذهنيا يقتضي ان يظـل متقبلا لمنبهـات جديـدة ، وحوادث جديدة ، ومواقف جديدة ، غير ان القدرة على ادراك العالم الخارجي باحساس متجدد تقل ، فى الواقع ، بصفة عامة ، مـع تحكم التجارب والخبرات المتكررة في العقـل والحواس .

وهكذا ، فان البشر يدركون العالم ، ويستجيبون له ، لا من خلال المجال الكامل لامكاناتهم الوراثية ، بل فقط من خلال مناطق هذا المجال التي لم تعقها عمليات محبطة والتي ظلت عاملة بفضل المؤثرات البيئية ، وخاصة المبكرة . وتشير كلمة « امكانات » هنا الى النطاق الكامل لجبلة الشخص الوراثية ، سواء كانت الصفات التي تتحكم فيها هذه الجبلة جسدية أم عقلية . فتجارب الحياة هي التي تقوم بتحديد اى اجزاء هذه الجبلة يتجلى فى صورة صفات فعالة .

وفى مراحل الحياة التي يكتمل فيها النمو ، تؤدى الاتجاهات التقليدية التي جرى عليها العرف ، فى كثير من الاحيان ، الى اعاقة القدرة على تقبل التجارب والخبرات الجديدة ، وهذه نتيجة حتمية للمؤثرات المبكرة . فالطفل بطبيعته ، محب للعب والتجربة . وهو متشوق لاختيار وتجربة ما حوله ، ولا يعوقه عرف او تقاليد او صراعات داخلية متضاربة . اما الشخص البالغ ، فانه على النقيض من ذلك ، يركز جهوده على اهداف واعية محدودة ، مضيقا بذلك مجال قابليته لتلقي المؤثرات البيئية . فهو يتغافل ، بطريقة انتقائية ، عن المؤثرات التي يفترض انها ليست ذات فائدة عملية ، وينمي ، عن قصد ، ادراكا يصل الى اهدافه مباشرة . وعلى الرغم من أن هذا المسلك جائز في توجيه دفة السير فى طريق محدد فعلا ، فانه لا يصلح لاستكشاف طرق جديدة ، اذ انه ينزع دائما الى تضييق مجال الحياة .

والواقع ان اتجاه شخصية الانسان الى « التجمد » بتقدم العمر يوحي بشيء من التصلب الوظيفي للقدرة الكامنة على ادخال تغيرات مستمرة على الانطباعات المختزنة في المخ ، وكان هناك قيودا شديدة مفروضة على ما يمكن طبعه فى ذهن الشخص خلال فترة حياته . والواقع ان من اضخم مشكلات البيلوجيا هو معرفة ما اذا كانت تأثيرات المؤثرات المبكرة غير قابلة للانعكاس حقا ، كما يبدو ظاهرا فى التجربة العادية ، او انه يمكن محوها جزئيا ، كما توحي بذلك بضعة تجارب .

فقد كشفت دراسات فسيولوجية كهربية عن ان نشاط العمليات العصبية فى المخ مستمر ، اى ان تأثير المنبهات ليس اثارة انسجة عصبية خاملة بقدر ما هو اعطاء شكل للنشاط المستمر بالفعل . ومن المعروف ايضا ان العزلة الطويلة الامد وغيرها من صور الحرمان الحسي تؤدى ، في كثير من الاحيان ، الى انهيار الشخصية على نحو مؤقت يمتد تأثيره بدرجات متفاوتة . هذان الاكتشافان معا يشيران الى انه قد يمكن الاهتداء الى طرق للحيلولة دون « تجمد الشخصية » او لتأخير هذا « التجمد » بحيث لا يعيش جسم الانسان فترة اطول من مرونة ملكاته العقلية . ومن المحزن ان الدليل العملي الوحيد على ان العقل يمكن تشكيله من جديد ، يأتينا من حالات غسيل المخ او حمل الناس على الاعتراف بالذنب السياسي ، وكذلك من بعض صور التحول فى العقيدة الدينية ــ وهذه الصورة الاخيرة أدعى الى الامل بطبيعة الحال .

ان فقدان البراءة اثناء الطفولة أمر حتمي ، وهو بالفعل شرط ضرورى للنمو العقلي والعاطفي . ومن هنا فان المهم في الواقع هو نوع التجربة التي تفقد عن طريقها البراءة ، فهذا هو الذى يحدد ، بدرجة كبيرة ، خصائص الشخصية البالغة . وهذه الخصائص تنظم ، بدورها ، مدى النمو التالي واتجاهه .

وتزودنا العمليات البيولوجية والسيكولوجية التي يحركها التعامل بين البشر بامثلة اخرى للتاثير الدائم العميق الذي يمارسه الماضي على

الانسان الحديث . فنظرا الى ان الانسان تطور كحيوان اجتماعي ، فانه لا يمكن ان ينمو جسديا وعقليا على نحو سليم ، بل لا يمكن ان يبقى سويا لفترة طويلة ، ما لم يرتبط ارتباطا وثيقا بغيره من البشر . وعلى العكس من ذلك ، فان ازدحام الاتصالات الاجتماعية والافراط فيها قد يؤديان الى اثارة بعض انشطة الانسان الهورمونية ، على نحو مبالغ فيه ، الامر الذى يترتب عليه نتائج غير مستحبة . وبالرغم من ان طبيعة وشدة المثيرات الاجتماعية التي يمكن ان يتعرض لها الشخص دون خطر عليه لها حدود معلومة ، فان هذه الحدود تختلف تبعا لتاريخ هذا الشخص وتاريخ جماعته . والواقع ان استجابات الانسان لبيئته الاجتماعية لا تحكمها ، من الناحيتين الكيفية والكمية ، جبلته الوراثية وتجاربه المبكرة فقط ، بل تحكمها ايضا التقاليد والقيم التي جرى عليها العرف بين الجماعات التي نشأ وعمل فيها . ومن هنا ، فان ماضي الانسان الاجتماعي يتحكم ، حتما ، فى طبيعته . فالانسان يسلم عادة بتقاليد جماعته على أساس انها تنطوى على الحقيقة والحق ، بل انه حتى عندما يثور على هذه التقاليد ، فان التقاليد الجديدة التي يحاول ابتداعها تضم دائما كثيرا من الاساليب القديمة وتجعله يظل معتمدا على ماضيه الاجتماعي .

●●●

تفرّد الانسان :

لقد اكتسبت الانواع الحيوانية المختلفة ، اثناء تطورها ، درجة عالية من التخصص التشريحي ، والفسيولوجي ، والسلوكي ، واصبحت نتيجة لذلك مرتبطة ببيئات معينة وملتزمة بطرق حياة خاصة . **وعلى النقيض من ذلك ، فقد ظل الانسان اعظم كائن غير متخصص فى عالم الاحياء . فمواهبه الطبيعية أقل ، فى كثير من النواحي ، من مواهب الانواع الحيوانية الاخرى التي تعيش فى الوقت الحاضر** . فبصره لا يصل الى منطقة الضوء فوق البنفسجي كما يصل بصر النحل ، وسمعه على النقيض من سمع الكلاب والقطط وبعض الحشرات ، لا يمتد الى المجالات الصوتية العليا ، وحاسة الشم عنده ادنى بشكل واضح من حاسة الشم عند الكلاب وغيرها من الثدييات . وباختصار فان كثيرا من انواع الحيوان تفوق الانسان فى صفات مثل السرعة ، والقوة البدنية ، ورهافة الاعضاء الحسية ، ودقة الاستجابات ، ومقاومة الضغوط . **ولكنه ربما كان يسبقها جميعا في قابليته للتكيف ، وذلك على وجه التحديد،لانه يبدى قدرا ضئيلا من التخصص البيولوجي .** وتشير كل الاحتمالات الى ان قابلية التكيف هذه هي التي يرجع اليها الفضل فى تمكين الانسان من الاشتغال بعدد لا حصر له من الاعمال المختلفة ، والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة .

وقد كان كبر حجم المخ الانساني ، وخاصة نمو قشرته المخية ، هو العامل الاساسي الذى مكنه من استغلال امكاناته البيولوجية المتنوعة. والواقع ان مقارنة انواع الحيوانات وضمنها اللافقاريات ، تشير الى أن الاداء السلوكى لهذه الحيوانات له صلة وثيقة بالحجم المطلق لامخاخها . وعلى حين ان زيادة حجم المخ كانت سمة بارزة فى تطور البشر ، فان العلاقة بين حجم المخ الفعلي ، وبين مستوى الاداء العقلي ليست واضحة بأية حال فى الانسان الحديث . صحيح ان بعضا من اصغر أحجام الامخاخ (أقل من ١٣٠٠سم٣) قد سجلت لسكان استراليا الاضليين وغيرهم من الشعوب

البدائية ، ولكن مدى تفاوت السعة الجمجمية واسع للغاية ، وليست له الا علاقة بسيطة بالقدرة العقلية ، ان كان له بها علاقة على الاطلاق . والارجح ان الاهم من حجم المخ الاجمالي فى تفوق الانسان العقلي على الحيوانات هو الزيادة التي حدثت فى مناطق مخه العليا التي تطورت منذ عهد قريب . ذلك لان هذه المناطق ترتبط ، على نحو أوثق ، بتطور الثقافة .

ان المخ ، فى جميع الحيوانات العليا ، هو العضو الرئيسي للوعي . وله قدرة مذهلة على احداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة ، والمختلفة في كثير من الاحيان ، فى انماط منظمة ، وهى انماط وتجارب يفطن الكائن العضوى الى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز . والواقع ان عملية ايجاد تكامل تدريجي مطرد بين مراكز « النشاط العقلي » من اروع سمات التطور ، وهي عملية يبدو انها وصلت الى ذروتها في الانسان . صحيح ان بعض مناطق قشرة مخ الانسان تتخصص ، الى حد ما ، فى تمثل المعلومات الحسية المستمدة من أعضاء خاصة ، ومع ذلك، وبالرغم من أن مسالك المعلومات ومناطق التمثل المختلفة مستقلة نسبيا ، فان كل شخص يسلم بان له عقلا واحدا لا عدة عقول ، وان هذا العقل هو ، فى النهاية ، مقر جميع انواع التجربة والخبرة .

وأيا ما كانت الآليات النهائية التي تتضمنها عمليات المخ ، فان اهم اختلاف عقلي بين الانسان والحيوانات هو ان قدرة الانسان على تكوين تصورات ، تصل الى مدى أبعد كثيرا . وربما كانت براعة الانسان القديمة فى التصوير ذات اهمية فى هذا الصدد ، فقد ادى التصوير الى الكتابة ، وهي انجاز مكنه من نقل وتخليد انطباعات عالمه الداخلي .

ولقد رأينا من قبل ان الحيوانات تكشف عن وجود عدة مستويات من السلوك التكيفي الاولي : كالتلاؤم البسيط ، والتعلم عن طريق التجربة والخطأ ، والتعلم الواعي المسمى بالتعلم عن طريق الاستبصار ، والذى لا يقوم ، فيما يبدو ، على أساس التجربة والخطأ . كل هذه الصور المختلفة من التعلم تحدث طبيعيا فى الانسان . ولكن الانسان يستطيع ، فضلا عن ذلك ان يستعين بعمليات تعلميه اخرى ، اما غير موجودة فى الحيوانات واما ضئيلة النمو فيها الى درجة لا يمكن معها التعرف عليها . فهو يستطيع تحويل المعلومات الواقعية الى أفكار وكلمات مجرده ، ثم يقوم بعد ذلك بتدبر هذه الافكار والكلمات ، عقليا ، لاستحداث انماط جديدة من السلوك . كما انه يستطيع وضع رموز مجردة واستخدامها عقليا في حالة وجود الموضوعات والادراكات الحسية الأصلية . وقد ساعدته هذه القدرة على التصور في اكتساب نوع المعرفة والسلوك التكيفي الذى احتاج اليه للسيطرة على بيئته.

وقد ادت قدرة الانسان على مد افكاره الى المستقبل البعيد ، وهي صفة من أهم صفاته ، الى اعطائه القوة الدافعة اللازمه للبحث عن مزيد من المعرفة وبذل جهود جديدة لايجاد انماط للتعلم تؤدى الى تحقيق هدف بعيد . والواقع ان العقل البشرى لا يكاد يقنع ابدا بالاحوال القائمة ، ويتطلع دائما الى انجاز اعمال اعظم ، او الوصول الى فهم وادراك اكبر . هذه القدرة على السعي والاجتهاد ، على الرغم من كونها قدرة غير واضحة المعالم ، تكون الحد الفاصل بين الانسان والحيوان .

ان بعض العوامل الاجتماعية التي تتحكم في القدرة التعليمية ، وهي عوامل معترف بها بين الرئيسيات العليا ، تبلغ ذروة تطورها فى

الانسان . ومن بين العوامل التي تزيد من دور التعلم فيما يحققه الانسان من منجزات اجتماعية ، الاتجاه البيولوجي الى حمل صغير واحد فقط ، أو عدد قليل جدا من الصغار وطول فترة النمو التي يكون فيها الانسان معتمدا على غيره . ففترة نمو ما بعد الولادة تزداد من سنتين في الليمورات (٤) ، الى سبع سنوات في النسانيس ، الى احدى عشرة سنة في القردة الكبيرة ، الى عشرين سنة تقريبا في الانسان الحديث . هذا الاتجاه يكون مصحوبا باعتماد اكبر على انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، وهي انماط مخالفة للانماط التلقائية . واذا كان من عيوب انماط السلوك المكتسبة بالتعلم انها تتطلب عادة فترة طويلة من التدرب والتلمذة ، فانها تتصف بميزة هي انها اكثر مرونة واكثر قابلية للتكيف .

واغلب الظن ان عملية التنشئة تبلغ اقصى درجة من التعقيد في نوع « الانسان العاقل » . ويرجع ذلك الى ان الجزء الاكبر من نمو مخ الانسان يتم بعد الولادة . فعلى حين أن النسبة بين وزني مخ البالغ ومخ الوليد في الرئيسيات غير البشرية تبلغ حوالي ٥ر١ : ١ ، فانها تبلغ في الانسان حوالي ٤ : ١ . بل ان الاعجب من ذلك هو أن نمو وتكاثر التفرعات والتشابكات العصبية يحدث باعداد لا حصر لها بعد الولادة ، عندما يكون الطفل معرضا لتقلبات البيئة . **ومن هنا لا نكون قد جانبنا الصواب اذا افترضنا ان تركيب المخ البشرى تحدده الى درجة كبيرة تجارب الحياة التي يتعرض لها الانسان بعد الولادة .**

وقد تحقق التكيف ، في عالم الحيوان باسره ، اثناء مجرى التطور ، عن طريق عملية توافق رائعة بين تراكيب الكائن العضوى وانماط سلوكه الانعكاسية وبين تفاصيل بيئته . بل ان الكائنات العضوية الدنيا لا بد ايضا ان تتعلم شيئا عن بيئتها وطرق حياتها — فالحشرة يجب ان تتعلم شيئا عن ورقتها ، والطائر عن تغريده — ولكن سلوك الحيوان ، على وجه العموم ، فطرى وتلقائي الى حد كبير . على أن هذا الكمال يكتسب على حساب تضييق مجال الامكانات التكيفية ، وفضلا عن ذلك فان الحيوانات تتعرض لخطر شديد ، هو عدم التكيف ، اذا ما تغيرت البيئة .

كذلك احتفظ الانسان بعدد من التلقائيات السلوكية كبقايا موروثة ترتد الى ماضيه البعيد ، ولكنه يعتمد اساسا على السلوك المكتسب بالتعلم . وعلى حين ان مجال الامكانات الناتجة عن هذا السلوك اوسع في الانسان منه في اى حيوان آخر ، فان نوعية الرعاية التي يتلقاها اثناء المراحل المبكرة من حياته تؤثر تأثيرا عميقا في تحقق هذه الامكانات . فاذا كانت رعاية الطفل هزيلة وضئيلة ، فانه قد لا يحقق ، عندما يصل الى مرحلة البلوغ الا صورة مشوهة لامكاناته ، سواء من حيث البنيان الجسدى او النمو العقلي .

وقد ظل الاعتقاد سائدا ، منذ زمن بعيد ، بأن اللغة تؤلف اهم صفة تميز ، على نحو مطلق ، بين الانسان والحيوان ، كما ان التجارب ايدت هذا الرأى الشائع المعقول . فقد ثبت ان من المستحيل تعليم التكلم حتى لقردة الشمبانزى ذاتها ، على الرغم مما بذل في ذلك من جهود مضنية . **على انه ليس من**

---

(٤) الليمور او الصعبور او قرد مدغشقر lemur ينتمي الى رتبة الرئيسيات ، ويتميز بخطم كخطم الثعلب وعينين ضخمتين . ويتغذى على الحشرات والفواكه والطيور الصغيرة والبيض والسحالي .

السهل تحديد مدلول كلمة اللغة على وجه الدقة . فالنحل يمكن ان يوصل بدقة متناهية الى غيره من النحل موقع مصادر الغذاء البعيدة . والرئيسيات يمكنها تحذير زملائها من الاخطار ، ويمكنها ، على ما يبدو ، حث هؤلاء الزملاء على انتهاج سبل معينة للعمل . وقد يكون الاختلاف الاساسي هو ان طريقة الاتصال بين الحيوانات لا تتضمن تعاملا مع الماضي السحيق او المستقبل البعيد ، اى انها لا تمتد الى الافكار المجردة . فهي لا تشير ، على قدر ما يمكننا ان نحكم ، الا الى الحاضر في الزمان والمكان ، والملموس .

ويتوقف امتلاك اللغة على القدرة على القيام بمجموعة مختلفة من الافعال الرمزية (وهي الاصوات ، والاشارات ، والكتابة) . هذه القدرة تطورت في الانسان مع الزيادة الهائلة التي حدثت فى قدرته التصورية نتيجة لازدياد مخه حجما وتعقيدا . ولكن هذا التفسير لا يتجاوز كثيرا ، لسوء الحظ ، قولنا ان الانسان لديه قشرة مخيه اكثر تطورا من قشرة الحيوانات الاخرى ، ولديه ايضا القدرة على الكلام . وتكفي هنا الاشارة الى أن لغة الانسان قد لا تكون فريدة فى أية سمة خاصة . وربما كان تفردها يقوم على ترابط وتكامل عدة سمات توجد على حدة فى انواع مختلفة من الحيوانات .

ويتطلب الكلام ، من الناحية الوظيفية ، نشاط عدة مناطق من المخ لاحداث توافق بين المعلومات الواردة والمعلومات المختزنة ، وتحقيق تحكم حركي فى الانشطة العضلية اللازمة للكلام . ونظرا الى أن اكثر من منطقة من مناطق المخ تشترك فى عملية الكلام ، فان القدرة على الكلام لا يمكن الاستدلال عليها ـ على النقيض من الاعتقاد الذى كان سائدا فى الماضي ـ من كبر منطقة من هذه المناطق كما ينعكس في شكل الجمجمة الداخلي . ومن هنا ، فان دراسة البقايا الحفرية لا تبشر بأمل كبير في اكتشافات مرحلة التطور التي اصبح فيها الكلام ، بصورة قاطعة ، جزءا من جبلة الانسان .

وعلى أية حال ، فان القدرة على الكلام اضفت على الانسان ميزات لا شك فيها ، وعلى الرغم من ان المجتمعات يمكن ان توجد بلا كلام ، فان الكلام يجعل جميع الوظائف الاجتماعية اكثر فعالية وتنوعا بشكل كبير . **ويعتقد كثير من الانثروبولوجيين ان عملية الانتخاب التي أدت الى الكلام فرضها فى الواقع على اسلاف الانسان اعتمادهم المتزايد على الانشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم الى نقل المعلومات لصنع واستخدام الادوات الى الافراد الاخرين فى جماعتهم** . فقد اعتمد التقدم فى صنع الادوات واستخدامها على تطور اللغة اللازمة للاتصال ، واصبحت اللغة، بدورها ، الاداة الحاسمة فى تطور الحضارة .

وتزداد أهمية نظام الرموز المستخدم فى لغة الانسان كلما بعد الموقف الذى يواجهه الانسان عن التجربة الحسية او الحركية المباشرة . فبعض انواع التفكير المتعلق بالنظام الاجتماعي، كالاخلاق او المنطق ، مثلا ، لا يكاد من الممكن ممارسته دون لغة رمزية . وقد قيل ان الانسان لا يستطيع ان يفكر ، فى معظم انواع المشكلات ، الا فيما يستطيع قوله،وان مقولات لغته تزوده بمقولات ادراكه الحسي،وذاكرته ، ومجازه ، وخياله . وعلى حين ان هذا القول مبالغ فيه على الارجح ، فان مما لا شك فيه ان القدرة على الكلام كانت احد العوامل الحاسمة في تشكيل سلوك الانسان الاجتماعي والثقافي . وفضلا عن ذلك ، فان استخدام

الانسان لنظام رموز مقنن اتاح له المشاركة في قيم تعتمد على الذاكرة ، والفكر ، والشعور ، وهي قيم كان يمكن لولا هـذا النظام ان تظل خصوصية . ان الثقافة الانسانية لا يكاد يمكن تصورها ، فى الواقع ، دون لغة .

لقد كان الانثروبولوجيون يميلون ، منذ جيل مضى ، الى تعريف الانسان بأنه حيوان رئيسي يمشي منتصبا وله طرفان اماميان ويدان طليقتان . وتدل كلمات **بنجامين فرانكلين** السديدة : « ان الانسان حيوان صانع للادوات » على أن علماء ذلك الوقت كانوا يعرفون ايضا ان صفات الانسان تتضمن ما هو اكثر من خصائصه الجسدية . على ان من المعترف به فى الوقت الحاضر ان صنع الادوات ليس صفة مميزة ، لأن عدة انواع من الحيوان تمتلكها . كذلك لا يمكن تعريف الانسان بقولنا انه يختلف عن الحيوانات لأنه يعرف كيف يصمم ويستخدم الادوات لغرض معروف لديه مقدما . والواقع ان اى مقياس واحد للقدرة نحاول بواسطته تمييز الانسان عن الحيوانات ـ سواء أكان القدرة على الاتصال ، او التعلم من التجربة ، او التعاون ، او حتى التصور وربما التجريد ـ يثبت بالدليل وجود قدرة مماثلة له فى الحيوانات الاخرى .

ومع ذلك ، فمن الواضح ان الانسان يختلف عن الحيوانات الاخرى . ومن سوء الحظ ان القول الوحيد الذى يمكن تقريره موضوعيا فى الوقت الحاضر (ولنلاحظ ان هـذا لا يثبت صحة هذا الراى حتما) هو ان جزءا كبيرا من طابع الانسان الفريد مستمد من مجموعة من الصفات موجودة كلها فى انواع الحيوانات الأخرى ، ولكن فى حالة غير متطورة فقط في كثير من الاحيان . **واليك قائمة بصفات مميزة موجودة الى حد ما في الحيوانات العليا ولكنها اساسية لرفعة شان الانسان :** درجة اعلى من قابلية التغير ، وضع منتصب ، يدان يمكن العمل بهما ، قشرة مخية معقدة ، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعلم ، مهارة فى استخدام واختراع الادوات ، كلام رمزى ووسائل اتصال اخرى ، وقدرة على التفكير التصورى والابداع الفني .

وهناك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفا على الانسان وحده ، وتمثل حدا فاصلا بين الانسان والرئيسيات العليا ، هذه السمات هي : مقاسمة الطعام مع افراد الأسرة ، والبناء الأسرى المستمر على درجة عالية من التنظيم ، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء . وعلى الرغم من ان كثيرا من الناس تنقصهم ، بدرجة كبيرة ، واحدة او اخرى من هذه السمات ، بل ان الجنس البشرى يمكنه ان يذهب الى ابعد من هـذا ويدعي أن من صفاته الخصوصية قبول القيم الاخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات ، ووعي يسمو على الذهن المحض ، وضمير يقهر المخاوف ، واهتمام بالماضي السحيق ، وقلق على المستقبل البعيد .

وربما كان **مفهوم الاخلاق** اصعب فى تحليله وتعريفه من القدرة على استخدام اللغة الرمزية . ولكن من المؤكد انه يتضمن علاقات مشاركة مع الاخرين ، وهي اتجاهات معقدة حاول مارتن بوبر Martin Buber وصفها فى الكلمات التالية :

« ان أعمق نمو للنفس لا يتحقق ، كما يطيب للناس ان يفترضوا اليوم ، فى علاقة الانسان بنفسه ، بل فى العلاقات بين الواحد والآخر ، اى بين الناس ، اى ، في المقام الاول ، فى تبادل الاعتراف بالوجود ـ اعني في الاعتراف بوجود نفس اخرى ، وفى معرفة ان المرء يوجد

فى ذاته الخاصة بواسطة الآخر ــ مع تبادل القبول ، والايجاب ، والتاييد » .

ان حدوث المراحل الاخيرة من التطور البيولوجي للانسان فى آن واحد ، مع المراحل الأولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد ان الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة . فليس هناك شيء يمكن تسميته بطبيعة الانسان البيولوجية الصرفة ، ولو ان هذه الطبيعة كانت موجودة لما أمكن الانتفاع بها من الوجهة العملية . فالادوات ، والصيد والزراعة ، والبناء الأسرى والاجتماعي ، بل الدين ، والفن ، والعلم ، كلها قامت بدور فى التشكيل الوراثي للانسان على النحو الذى نعرفه اليوم . ونظرا الى أن الانسان يتطور مع ثقافته ، فانه يحتاج الى ثقافة انسانية من اجل بقائه وتأكيد ذاته بنفس القدر الذى يحتاج به الى الطعام والماء . ومن هنا ، ينبغي الا ينظر الى انماط الثقافة على انها مظاهر خارجية لطبيعة الانسان . وكما قال « كلايد كلكهون » Clyde Kluckhohn فان انماط الثقافة تؤلف خططا وتصميمات ترسم معالم حياة الانسان .

صحيح ان الانسان حيوان ، ولكنه حيوان لديه قدرة هائلة على دمج جميع احساساته وادراكاته فى نماذج ذات مغزى . وهو حيوان متأمل ومفسر ، ومتشوق الى معرفة ما هو اكثر مما تقع عليه العين في المعطيات المجردة الخاصة بالتجربة . وعن طريق الجمع بين ردود افعاله العقلية وبين الوقائع الغفل لتجربته الحسية ، يمكنه التعامل مع بيئته المادية والاجتماعية . وجوهر نشاطه العقلي هو تكوين الرموز واستخدامها كبدائل للحقائق التي تدركها حواسه . وهو يستخدم ذكاءه من اجل ادماج تجارب حياته في ثقافاته وبذلك ينقل هذه التجارب من جيل الى جيل عن طريق عمليات اجتماعية أسرع واكثر فعالية من العمليات الوراثية . وهو يستطيع ايجاد انواع جديدة من انظمة الخبرة والتجربة التي تكون احجار بناء التطور النفسي الاجتماعي ، كالمفاهيم العلمية والانظمة القانونية والقواعد الاخلاقية والاعمال الفنية .

وبفضل فكرة الذات ، والتأمل الواعي ، وادراك ان البشر فانون ، اكتسب الانسان شعورا بالتاريخ ، وقلقا على المستقبل . هذا القلق دفع الانسان الى تنمية احساس بالقيم يطبقه على انشطته . ويتجلى نظام قيمه فى صياغته لأهداف واعية على امل امكان ترجمتها الى افعال . وربما كان أعظم مظاهر تفرد الانسان هو اعتقاده بأنه يمكنه التخطيط للمستقبل ، بل « ينبغي » عليه فعلا ان يكدح من اجل مستقبل يتجاوز نطاق فترة حياته الخاصة .

• • •

الانسان يصنع نفسه :

لم يطرأ على الانسان ، من الناحية البيولوجية ، سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة . فالادوات التي صنعها اثناء هذه العصور لا تزال تناسب ايدينا ، والدوافع القديمة التي شكلت ، لأول مرة ، انشطته القبلية لا تزال تمارس عملها فينا ، والرسومات والمنحوتات الخاصة بفن الكهف وكذلك الاعمال الفنية التي ترمز الى معتقدات ما قبل التاريخ لا تزال تثير عواطفنا . ولكن ، على حين ان نوع « الانسان العاقل » ظل فى نفس الصورة أساسا من الناحية الوراثية ، فان مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود ، بل ان مفهوم التقدم ذاته يتضمن أن احداث حياة الانسان الاجتماعية



لا تتكرر ابدا بنفس الصـورة . وعلى حين ان دوام طبيعة الانسان يكمن فى التركيب الكيمائي لجبلته الوراثية التي تتحكم فى المواد البيولوجية التي يتكون منها جسمه ومخه ، فان التغير فى حياة الانسان يأتي من الاستجابات الخلاقـة التي يبديها هو ومجتمعاته ازاء تحديات البيئة الكليـة . فلكي يعيش الانسـان لا بد له من الاستجابة ، ومن ثم تنشيط العمليات المؤدية الى التكيف والتطور الخلاق .

ان الدوافع المميزة للانسان ، كالحاجة الى اللعب ، هي صفات شائعة في الحياة الحيوانية ، كما ان الانمـاط المختلفة لنشـاطه وتنظيمـه الاجتماعي — بما فيها الصور المرضية المشوهة لهذه الانماط — تميز المجتمعات الحيوانيـة الطبيعية والاصـطناعية على حـد سـواء . ويستطيع دارسو السلوك الجنسي للانسان ان يجدوا نماذج لهذا السلوك في الزواج المنفرد عند الجيبون (٥) ، وكذلك فى مشـاعر الابوة المتسامحة عند الغوريللا ، وفى الخبث الـذى تبديه مجموعة الاناث المنتمية الى ذكر واحد عند البابون (٦) ، وفى الهدنة المسلحة بين ذكور الشمبانزى واناثه ، وكذلك فى تعدد الزوجات الودى بين نسانيس العالم الجديد (٧) والفوضى الجنسية السائدة بين النسانيس الريصية (٨) .

وتلجأ الحيوانات عادة الى كثير من المظاهر السلوكية التي تمثل النمط الشائع فى الانسان اذ تعبر عن مواقفها ورغباتها من خلال اصوات واوضاع ومشاهد رمزية . وتبني ذكور طيور العرائش الاسترالية مخادع مزخرفة باتقان ، وهي اعشاش غرام لا تستخدم فى وضع البيض بل تصمم خصيصا من اجـل اغـواء الاناث والزواج بهن ، ولذلك فان اقل الذكور وسامة يبنون اكثر المخادع اتقانا وازهاها لونا ، وهذا يمكن ان يكون بمثابة صورة من صور التظاهر الغرض منها رفع شأن ريشهم غير الجميل . وقد اوضح كروبوتكين Kropotkin في كتابه « العون المتبادل ، عامل من عوامل التطور » ، ان الضرورات البيولوجية تؤدى في كثـير من الاحيان الى حـدوث اتجاهات اجتماعيـة بين الحيوانات ، وهي اتجاهات تشـبه السـلوك البشرى الغيرى . وهكذا فان الانسان حيثما نظر فانه يجد ، فى مكان ما فى عالم الاحيـاء نماذج تجريبية تحاكي اى مظهر من مظاهر حياة الانسـان تقريبا .

ولكن بالرغم من ان النماذج ادوات نافعـة وضرورية فى التحليل العلمي لمشكلات معينة ، فانها لا يمكن ان تقدم معرفة كاملة بالانسان . ذلك لأن النماذج ، التي لا تمثل الطبيعة تمثيلا حقيقيا على الاطلاق ، لا تضيء سـوى جانب محدود من جـوانب هـذه الطبيعـة . هذه المحدودية ليست خاصة بدراسة الانسـان او غيره من الكائنات العضوية الحية ، بل تنطبق ايضا على عالم اللا احياء . وقد عبر الفيزيائي

---

(٥) الجيبون gibbon هو اصغر القردة الشـبيهة بالانسان التي تضم ايضا الغوريللا والشمبانزى والاورانج اوتان .

(٦) قرد كبير يعيش على الاشجار ، وينتمي الى قردة العالم القديم ، اذ يعيش فى افريقيا وجنوبي آسيا .

(٧) اى نسانيس الامريكيتين .

(٨) نسناس صغير يشيع فى الهند ، وجد فى دمه عامل ثبت وجوده فى دماء ٨٥٪ من البشر ، ولذلك اطلق على هذا العامل اسم العامل الريصي rhesus factor وهـو هام فى عمليات نقل الدم .

« يوجين ب . ويجنر » Euhene p. Wigner عن هذه الفكرة بعبارات ذات دلالة عميقة ، وذلك بمناسبة قبوله جائزة نوبل للفيزياء في عام ١٩٦٣ اذ قال :

« .. ان الفيزياء لا تسعى الى تفسير الطبيعة . بل ان النجاح الكبير الذى حققته الفيزياء انما يرجع في الواقع الى حصر اهدافها في نطاق محدود : فهي لا تسعى الا الى تفسير اوجه الانتظام في سلوك الاشياء . هذا التخلي عن الهدف الاشمل ، وتحديد النطاق الذى يمكن السعي من اجل ايجاد تفسير له ، يبدو لنا ضرورة واضحة ..

وتعرف اوجه الانتظام السائدة في الظواهر التي تحاول العلوم الفيزيائية كشفها باسم قوانين الطبيعة . وهذا الاسم مناسب في الواقع الى حد كبير . فكما ان القوانين الوضعية تنظم الافعال والسلوك في ظروف معينة ولكنها لا تحاول تنظيم كل انواع الافعال والسلوك ، فان قوانين الفيزياء ايضا لا تحدد سلوك موضوعات اهتمامها الا في ظروف معينة محددة المعالم على نحو دقيق ، ولكنها تترك ، فيما عدا ذلك ، مجالا فسيحا للحرية » .

وعلى الرغم من ان للحرية على النحو الذى استخدمه هذا الفيزيائي عندما اشار الى الجسيمات الاولية معنى يختلف اختلافا كبيرا عن معناها عندما تستخدم في شئون الانسان ، فان التشبيه ، وان كان شكليا فقط ، يساعدني إيضاح السبب الذى لا يمكن من اجله ان تقدم المعلومات البيولوجية الواردة في الصفحات السابقة صورة كاملة للانسان الحي ، الذى يحاول عالم الانسانيات فهمه ويسعى الفنان الى التعبير عنه . صحيح ان البيولوجيا الكيميائية يمكن ان تصف المواد التي يتكون منها الانسان ، ولكنها لا تفسر كيف يصبح كل شخص على ما هو عليه عن طريق سلسلة متصلة من الحوادث والقرارات الشخصية .

وسوف نقدم فيما يلي بضع ملاحظات تتعلق بالفنون التشكيلية القصد منها توضيح الطريقة التي تكشف بها قدرة الانسان على الاختيار والبت عن وجود حدود لا تتعداها المعرفة البيولوجية في قدرتها على ايضاح طبيعة الانسان . فالصور الملونة ، والتماثيل ، والنقوش ، وغيرها من الاعمال الفنية التي عثر عليها في كهوف العصر الحجرى القديم لا تدع مجالا للشك في ان ملكة التعبير الفني قديمة جدا . ولم يظهر على هذه الملكة ، لا في رهافة الحس ولا في براعة التصوير تحسن ملحوظ على مر السنين العشرين الف الماضية . ومن هنا فان المنطق يقنعنا بأن القدرة على الاحساس والتصوير تمثل جوانب فسيولوجية عميقة في طبيعة الانسان .

واغلب الظن ان الملكة الجمالية ، على النحو الذى توجد به في الانسان ، تنبع من صفات بيولوجية شبيهة بالصفات التي تجعل الحيوانات تقوم بحركات او تبني اعشاشا تنطوى على ايقاع وتوافق اصيل . والواقع ان كل انشطة الحيوان والانسان لا بد ان يؤثر فيها توالي الدورات الفطرى الذى يحكم العمليات الفسيولوجية، وكذلك النظام السائد في انماط الكون . فبعض الالوان تتنافر بالنسبة الى بصرنا ، وبعض العناصر الموجودة في تصميم معين تبدو لنا غير متناسبة ، وذلك عندما تتعارض التجربة المكتسبة منها مع مجموعة ما من العلاقات الكامنة في اعضائنا ، او مع الايقاعات التي ندركها ، شعوريا او لا شعوريا ، في العالم الخارجي ، وعلى النقيض من ذلك فاننا نستاء من الطريقة التي يبدو لنا

بها منظر ، او ملمس او صوت بعض الاشياء وذلك ما لم تكن اعضاؤنا وحواسنا مكونة بحيث تتوافق مع النسب والايقاعات الخاصة بهذه الاشياء . وليس من المهم هنا ان يكون للرضا الذى نحصل عليه عندما تتفاعل حواسنا او اعضاؤنا مع بعض الانماط والمثيرات أساس وراثي صرف ، او أن يكون نتاجا لمؤثرات تكيفية تعرض لها المرء فى باكورة حياته ، ولكن المهم هو ان الشعور بالجمال يمكن ان ينبع ويزدهر بفضل ملكات فطرية بيولوجية الاصل، وهي ملكات لا يبدو انه طرأ عليها تغير هام منذ العصور الحجرية القديمة .

ولا يعني هذا كله ان القدرة على الادراك والتمثل تكفي بذاتها لأن يخلق الانسان اعمالا فنية ، ذلك لأن الخلق الفني يتضمن عوامل خارجة عن نطاق العلوم البيولوجية . فعلى حين أن البشر يستجيبون لبيئتهم من خلال صفاتهم البيولوجية ، فان استجابتهم هذه لا تكون سلبية ، كما لو كانوا وسائط آلية تقع بين شقي رحى المنبه والاستجابة . بل ان استجابة الفنان ليست آلية او مدفوعة بالرغبة فى مواجهة البيئة مواجهة عملية ، وانما هي تؤلف ، على الأصح ، سلوكا تعبيريا ، اعني ان الفنان يستخدم بيئته من اجل تحقيق ذاته واحيانا للتفوق على نفسه .

وهكذا فان عملية الابداع الفني تقدم لنا توضيحا مناسبا لدوْر الاختيار البشرى فى تحديد مسارات العمل الفردية . فالانسان ، الذى تستثيره حاجاته ودوافعه وحوافزه الفطرية ، يستطيع ان يختار من بين الامكانات المتعددة المتاحة للتعامل مع الطبيعة الخارجية. والواقع ان جميع مظاهر حياة الانسان تهيىء فرصا مشابهة للتدخل الفعال من جانب الانسان ، وهو المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاختيار ، والاستبعاد ، والجمع والبت فى الامور عن وعي ، ومن ثم يستطيع التحرك نحو هدف مختار يتجاوز نطاق ما هو حاضر مباشرة فى الزمان والمكان .

ومع ازدياد المعرفة الخاصة بطبيعة الانسان البيولوجية دقة واحكاما ، تتفتح فرص للتدبر الواعي في مستقبل الانسان . والواقع ان الانسان يصبح ما يفعله ، وذلك بطريقة تدعو الى الدهشة ، ولكنها فى الوقت نفسه حقيقية تماما . فعن طريق عمليات التغذية المرتدة المعقدة التي تحكم جميع مظاهر الحياة ، تقوم طبيعة الانسان البيولوجية بايجاد ثقافته ، وتتغير بدورها ، بواسطة هذه الثقافة . ان الانسان قد اصبح على ما هو عليه اليوم لأنه ظل يقوم باعمال ثقافية وعقلية طوال الألوف القليلة الماضية من السنين . وسوف يتوقف نوع المخلوق الذى سيصبحه على نوع الانشطة التي يختار الاهتمام بها فى حياته . وهو الآن يسير مسرعا فى طريق اكتساب المعرفة التقنية التي سوف تمكنه من التحكم فى عملياته الفسيولوجية والعقلية . بل انه قد يعرف فى النهاية كيف يتحكم فى تركيبه الوراثي .

ان قوة الفعل التي ولدها التقدم العلمي الحديث ضخمة الى درجة ان المناقشات التقليدية التي تدور حول المثل العليا للحياة الصالحة اصبحت تنطوى الآن على معنى عملي لم يكن له اى وجود من قبل . وتتوقف الطرق التي يواجه بها البشر اخطار العالم الحديث ، ويستغلون فرصه ، على ما لديهم من معرفة علمية وتكنولوجية ، ولكنها لا تقتصر على ذلك، بل تتوقف ايضا على المعتقدات التي يؤمنون بها ، والاهداف التي يختارونها . والواقع ان

مستقبل البشرية يتوقف على قدرة الانســان على اتخاذ قرارات مبنية على معايير اخلاقية وجمالية .

اننا ـ نحن البشر ـ ســوف نتســاق بلا هدف نحو حالة لا يمكننا فيها الاحتفاظ بتلك القيم التي تجعلنا فريدين بين المخلوقات الحية، وذلك ما لم نقرر اهدافا جديرة بمقام الانسان، ونتخذ موقفا فى الوقت الحاسم. وهذا مصداق لقول « بــول تيليتش Paul Tillich » لا يصبح الانسان انسانا حقــا الا في لحظة اتخاذ قرار حاسم . هذا النوع من الحرية هو المعيار النهائي للانسانية ، وهو ارفع المعايير شانا .

* * *

رينيه ويج
فيلسوف الجمال

د. ثروت عكاشة

أن « رينيه ويج » فيلسوف انسان ، آمن بأن الانسان يقوم ـ خلال فن التصوير ـ بحوار قيم مع العالم المرئي أو المنظور ، وأنه بتحليل هذا الحوار يمكن الوصول الى فلسفة للفن ، وانتهى بهذا الى أنه لايمكن الفصل بين الفن وبين الجنس البشرى ، بل انه ليرجح أن الانسان قد وصل الى ذروة الفن وقت أن لم يكن مدركا لماهية محددة للفن .

ولا تنحصر أعمال « رينيه ويج » فى ميدان الفن التشكيلي فحسب ، بل هى تتعداه الى الفلسفة ، فهو يكتب لرواد الثقافة ، ولهذا نجد كتبه وآثاره شاقة عسيرة تتطلب جهدا ذهنيا كبيرا ، غير أنها في الوقت نفسه توسع أفق الانسان الذى يجد فى فن التصوير والتطلع الى اللوحات الفنية راحته وأنيسه . على أن « رينيه ويج » وهو يقدم أعماله في هذا الاطار لايتعالى عن الناس ، ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق هؤلاء الرواد .

وتقوم فلسفة « رينيه ويج » على أن وظيفة الفن الرئيسية هى خلق الوسيط بين الكون

والانسان ، فالفن يهيء مكان اللقاء بين الواقع المادى الملموس والواقع الروحى المحسوس ، سواء عن طريق الفن الزخرفى المحض الذى يحاكى الطبيعة ، أو عن طريق الفن الابداعى الخلاق الذى يسعى الى تفسير الطبيعة .

و « **رينيه ويج** » **صاحب نظرة تكاملية ، ينظر الى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات ، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية ، تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزئياته الدقيقة** . واذ كان خطر التخصص المبالغ فيه يهدد عصرنا ، لذا فان « رينيه ويج » دون انكار منه لاهمية البحوث الفرعية الضرورية يطمع فى أن تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة الى « الكل » .

واذا كانت لرينيه ويج القدرة على أن يحرك النشوة فى فكر قرائه فانه يعرف كيف يثير التباهم ، ويسبح بهم خارج حدود موضوعه الأصلى عبر الأفكار الفلسفية والعلمية ، وتاريخ الأدب التى تغنى معارفهم وتزيدهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها .

واذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى أولى الخطوات فى هذا الميدان ، والناقد ينتقدها ان مدحا وان ذما ، فان مؤرخ الفن يأتى في نزاهة تامة وحياد مطلق كي يضفى الأهمية التاريخية على العمل الفنى ، كما يحلل تأثير الأساتذة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله . ومهما كانت العقبات التى تصادف مؤرخ الفن فى محاولاته فهو لابد وان يلتقى « بالروح » . وهنا يجب ان تتوافر فى هذا المؤرخ ، كى يؤدى مهمته على اتم وجه ، صفات عالم النفس الذى تمكن من فهم الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الأعضاء والأحلام والحب والتصوف ، وجولات واسعة حول الزمان والمكان ، كى يحدد الدوافع النفسية التى ادت بالفنان الى ان يرسم مارسمه او ينحت مانحته، وبهذا يساعد المتأمل المفتون على أن يكتشف ، بينما هو يتطلع الى العمل الفنى ، الحالة الوجدانية التى كان يعانيها الفنان وهو ينحت لنا عمله الفنى ، وبهذا ايضا تسرى فى الموسيقى والشعر والرقص هذه الوثبة الخلاقة التى يدعونا اليها **برجسون** والتى ترقى بنا الى القمم ، وتحيطنا بالتأمل الأليف الذى يفتح للفكر والقلب ابواب «المعبد» ،«معبد الجمال».

وهذا هو مافعله مؤرخ الفن الفيلسوف « رينيه ويج » *

اما رينيه ويج الانسان فيكفى ان أؤكد انه الى جانب علمه الغزير المتدفق ، وقدراته الابداعية المبتكرة ، واحساسه المرهف بكل همسة جمال ، وادراكه العميق للروح التى تملى على الفنان مايقدم ، انه الى جانب هذا انسان سخى فى صفات الانسان فيه ، فالذين يعرفونه عن قرب يعرفون انه لم يتغير منذ بدأ يصعد سلم المجد الى أن بلغ ذروته ، وانما اخذ فى تواضعه وبساطته ونزاهته يزداد قربا

---

* اهم مؤلفات رينيه ويج

Dialogue avec le visible	(Flammarion)
L'art et L'âme	(Flammarion)
L'art et L'Homme	(Larousse)
Delacroix	(Thomas and Hundson)
Musée du Louvre	(Nouvelles éditions Françaises)
Formes et Forces	(Flammarion)

الى قلوب عارفيه . وان سحر حديثه ليس هو وحده مصدر نجاحه ، وانما لأنه فى نفس الوقت يقدم دائما اجابات لتلك التساؤلات العميقة التى يثيرها عصرنا الحالى . ففى هذا العصر ـ عصر الانسان الموجه والآلة الموجهة والصاروخ الموجه ـ في هذا العصر الذى يواجه فيه الانسان بالتحدي تصبح ضرورة التمييز بين « الكم » وهى سمة الطابع الآلى ، وبين « الكيف » وهى سمة الطابع الانسانى ؛ حتميه اكثر من اى وقت مضى . واذا كان **پرودون** قد قال فى القرن الثامن عشر **« الفن هو الحرية نفسها »** فان رينيه ويج قد أضاف الى الفكر ثراء جديدا في القرن العشرين بقوله **« الفن والأخلاق معا هما آخر معقل تحتمى فيه القيم البشرية فلا يقهرها قط قانون الحتمية »** .
ولهذا السبب انتهى الى أن الفن هو أثمن المقتنيات ، لأنه ينقذ ارادتنا فى سبيل الحياة بل ينقذ الحياة نفسها ، ذلك لأنه يستخدم تلك الطاقة الجبارة التى تجعل الحياة فى ذاتها جديرة بأن نحياها . فالفن اليوم لايبدو وسط ضخامة التاريخ واحة عامرة بالسكينة والظلال ، ومسلاة لطيفة ، وشريطا جميلا تتزين به الحياة ، بل أضحى نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد هدفه محاكاة الطبيعة على نهج **زيوكسيس** الاغريقى الذى امتلأ سعادة ونشوة وهو يرقب الطير تنقر فى عناد عناقيد العنب التى رسمها فى لوحته .

ولست أجد خير ما أختم به تقديمى لهذه الشخصية المتدفقة بالعلم والذكاء والمواهب وشفافية الروح من بعض ماخاطبه به **الأستاذ پول ليون** يوم ان تقلد سيف اكاديمية الخالدين فى باريس : « لقد انطلقت كلماتك المجنحة مبشرا يجوب العالم ، لاتعترضك حدود ، وتستقبلك عواصم العالم القديم والجديد بنفس الترحاب . ليس حديثك هو الرائع وحده بل شخصك كله . فأنت تتمتع بموهبة تسحر بها الناس حولك ، وحديثك عطاء سماوى يتقبله الانسان كالايمان دون مناقشة . يصفق لك الناس قبل أن تتحرك شفتاك بحديث . أما خصومك ـ ان كان لك خصوم ـ فيطلقون على ماندعوه نحن سحرا ، براعة ، ذلك أن سحرك يخفى على العقول السوقية . لقد منحك الله هذه الصفات السحرية ، فأنت تضىء النفوس وتغرس الحقائق التى تبث المواهب وتؤجج الحياة كلها ، ومع ذلك فان تحليقك وسط السحب لم يجعلك تبتعد عن الأرض » .

● ● ●

سيبقى الدور الجوهرى الذى يلعبه الفن على ما كان عليه دائما ، احد وسائل الانسان للتعبير عن نفسه ، وهذا هو الموضوع الذى ينبرى له رينيه ويج وهو يعرض نظريته في الفن كتعبير عن الروح وكنشاط خلاق يفصح الفنان من خلاله عما يختلج بصدره . فمضى يحلل وسائل الفنان فى نقل مشاعره عن طريق « الخط » الى عناصر قدرته على الأيحاء لليد ، وينتقل الى تحليل « الكتلة والفراغ » وكيف كشفا عن فكر الانسان عن الطبيعة المحيطة به ، ثم يتطرق الى « الضوء » الذى يكشف ويؤكد ويحجب ويضلل ، ومنه الى « اللون » وقوة تعبيره وقدرته على تحريك نفوسنا والترابطات والتداعيات المتعلقة به وقدرته على استحضار الذكريات ، حتى ينتهى الى « موضوعات التصوير » . وبعد هذا يجول رينيه ويج بين الثروات الجمالية المتنوعة ، متجنبا التعميم ، ولذا قدم حالات بعينها فبين لنا الى أى مدى يكون الفن تعبيرا دقيقا عميقا عن حضارة ما منبثقا من الفكر المتطور الذى يسودها محتويا مثلها ، والى

اى مدى يعكس التحولات التى تصيب مجتمعا ما وطريقة معيشته .

• • •

١ ــ الرسم واليد

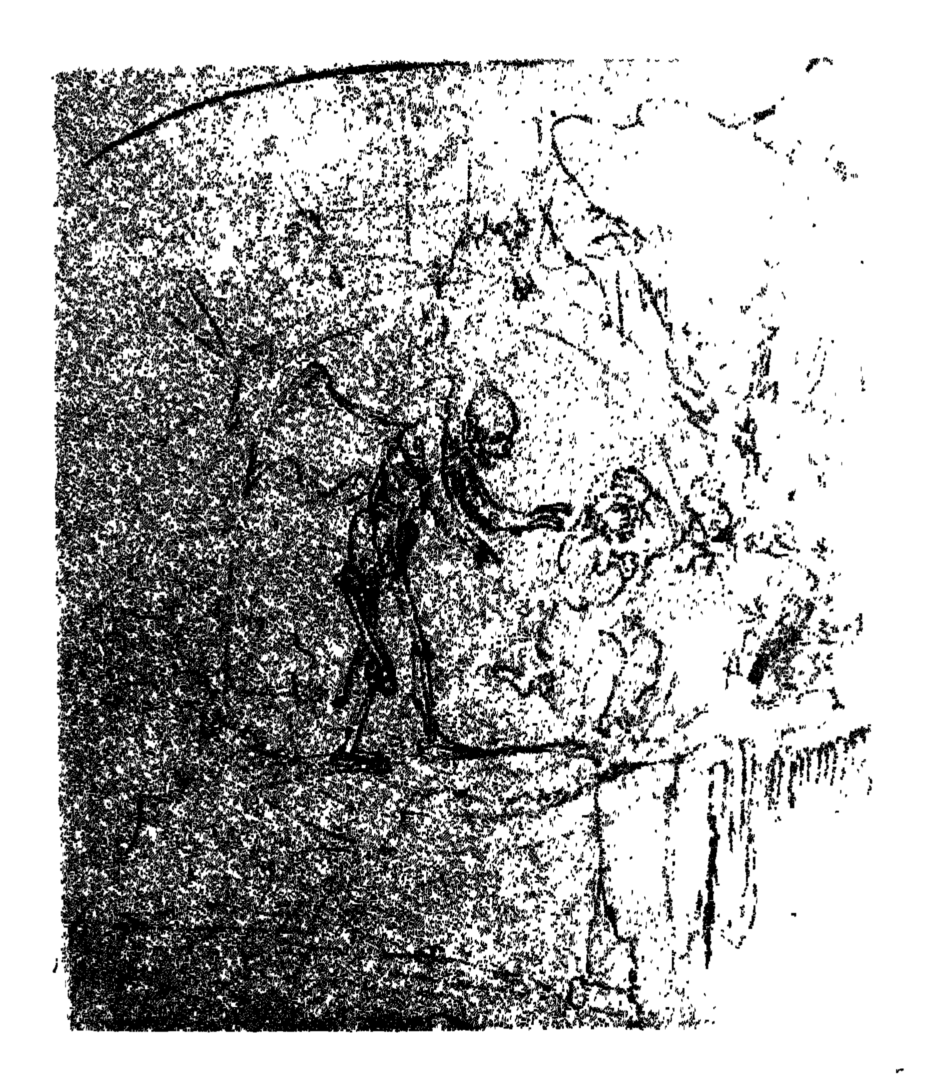
حينما يقف المرء أمام عمل فني يصور مشهدا من المشاهد يحس في أعماقه بمعان كأنما يهمس بها اليه الفنان الخالق ، ذلك أن العمل الفنى ليس عرضا لأحد مشاهد الطبيعة فحسب ، بل هو كذلك وسيلة تعبير ينقل بها الفنان الى المشاهد خلجات فكره ونبضات حسه . فهو يعبر أحيانا فى احدى اللوحات عن تصوف روحى تعجز عنه الكلمات ، ويسترسل أحيانا فى الوصف اما بأسلوب روائى جذاب أو خال من الاثارة ، وما أكثر ماتنبض مشاعره الغامضة فى لوحاته فتوحى بالحركة وتفيض بالابهام . ويملك الفنان أسلوبا يتخطى به الأسلوب الشعرى والنثرى معا متحدثا الى النفس بصور ورموز لم تعتدها العين ، يستقيها من أغوار النفس ليعبر عن حالة شاردة بين اليقظة والحلم . فالتصوير صورة مستترة للمصور الذى رسمها على حد قول **بيكاسو** . واذا كان التصوير وسيلة الفنان الأولى فى ايصال فكره الى الآخرين وتقديم صورة مجملة للمستقبل القائم فى أعماقه ، فانها الوسيلة التى تبرز فيها آثار تكوينه العصبى والعضلى لأن الرسم في حقيقته هو أثر حركة اليد على اللوحة ، وهى حركة يتميز بها كل انسان عن الآخر . ويستشهد رينيه ويج فى كتابه « الفن والروح » على هذا بلصوص الخزائن الذين يفتحونها عن طريق شعلة الاكسجين ، فمع ان وسيلتهم واحدة الا ان الفحص الجنائى قد اثبت ان كل لص يتميز بخط خاص به في طريقة تسليط الشعلة على أقفال الخزانة بما ساعد الشرطة فى أكثر الأحيان على معرفة اللص واستعانه بالخط الذى اتبعه ، كما يستعان به على معرفة اللصوص الآخرين ببصمات أصابعهم . واذا كانت الحال كذلك بالنسبة للصوص الخزائن فمن باب أولى أن يكون الفنان متميزا عن غيره بميزات تخصه أيا كان مذهبه في التصوير .

قد يلجأ الفنان الى تسجيل مايراه من أشكال ومشاهد طبيعية ، وعليه حينئذ أن يكبح جماع عواطفه وانفعالاته ، وأن يلتزم بتقديم شبه كبير بين صورته وبين ما تصوره حتى تتلاشى شخصيته في صورته ، تلاشى شخصية الممثل فى دور البطل الذى يؤديه ، ويبعد بذلك عن المؤلف المبدع فى خلق شخصياته وصبغها بسماته الذاتية .

ولكنه حين يلجأ الى الايحاء يتخلى عن المظاهر الحقيقية للأشياء الى حيث يبرز نبضات الحياة العنيفة المستخفية وراءها ، وهو لا يسجل حينئذ الطبيعة بل يضفى عليها روحه . وكانت خطوط **رمبرانت** ، أشهر المصورين الايحائيين ، تجرى على اللوحة وكأنها تلاحق انطباعا معينا قبل أن يغيب ، ففى لوحته التى تصور الشيطان وهو يعرض على المسيح ملكوت العالم (**لوحة ١**) تتحول الخطوط الوجيزة الصارمة الى اشارات موحية بمعان غير مرئية .

على أن مدى سرعة يد الفنان حين تجمع بين تسجيل نبضاته الانفعالية والعضلية المتمثلة في حركة اليد تخلق ايقاعا يحمل الانطباع الى حس المشاهد ، ويبدو من وراء النموذج المصور وكأنه صرخة يطلقها الفنان محمّلة بالعديد من الايحاءات التى لم يكن يقصدها حين بدأ يرسم لوحته .

وقد يلجأ الفنان الى التكوين الهندسى مستغلا ذكاءه وقدرته على التجريد فى تحويل الأشكال الطبيعية الى مجموعة من الرموز



لوحة ١ رمبرانت : الشيطان يعرض ملكوت العالم على المسيح

ان كل خط فى الرسم مشحون بالايحاء اكثر مما هو مشحون بالتمثيل ١٦٥٦م

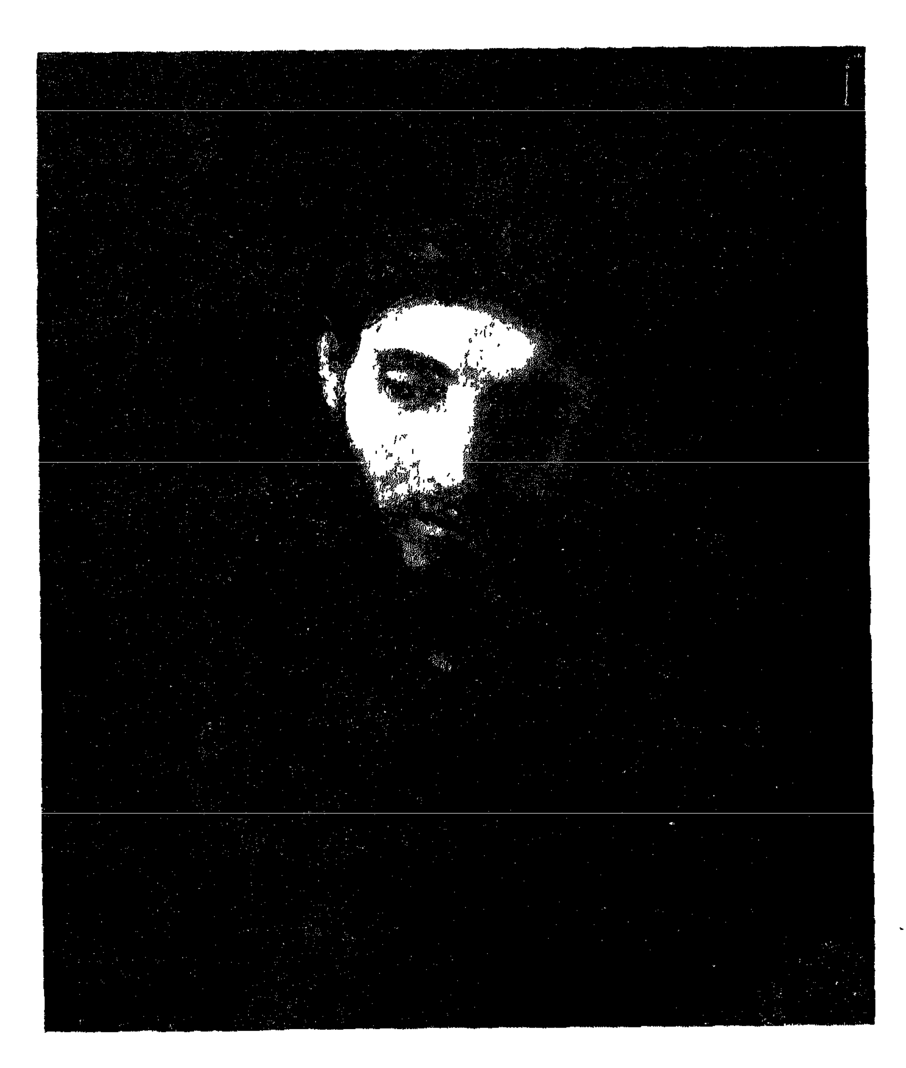
الذهنيــة المتجســدة عــن طريق المنحنيــات والتعرجات والانكسارات المنتمية الى الدائرة أو شبه الدائــرة أو الشكل البيضــاوى والتي سماها هوجرت (فى القرن الثامن عشر) بخط الجمال الأساسى . وليس التكوين الهندسى فى الرسم الا محاولة للنفاذ الى جوهر الأشياء الغامضة المتغيرة فى الطبيعة ، واخضاع الطبيعة للذهن بدلا من الانفعال بها على غرار ما يحدث مع الفنان التسجيلى أو الايحائى . ولكن كيف يحدث اللقاء بين الفنان والعالم ، بين ذاتــه وموضوعاته ؟ .

هناك فنان يقبل على موضوعاتــه فى حب واضح مثل رمبرانت فى تصويره لوجه المسيح **(لوحة ٢) فلم يعد التعبير هنا مبنيًا على الحكايات** المتواترة عن المسيح ، بل ينبثق كالنور ويشع كحــرارة الحب ولهيبة . فالمسيــح بالنسبة للفنان هو مشكلة النفس ، هو مشكلة حيــاته « الجوانية » الذاتية . ومثــل **دى لا كروا** فى لوحاته الزاخرة بالألوان الحارة العاطفية ، وقد خلف لنا الفن الرومانسى لوحات تفيض بمحبة تسمو احيانا الى مستوى التصوُّف .

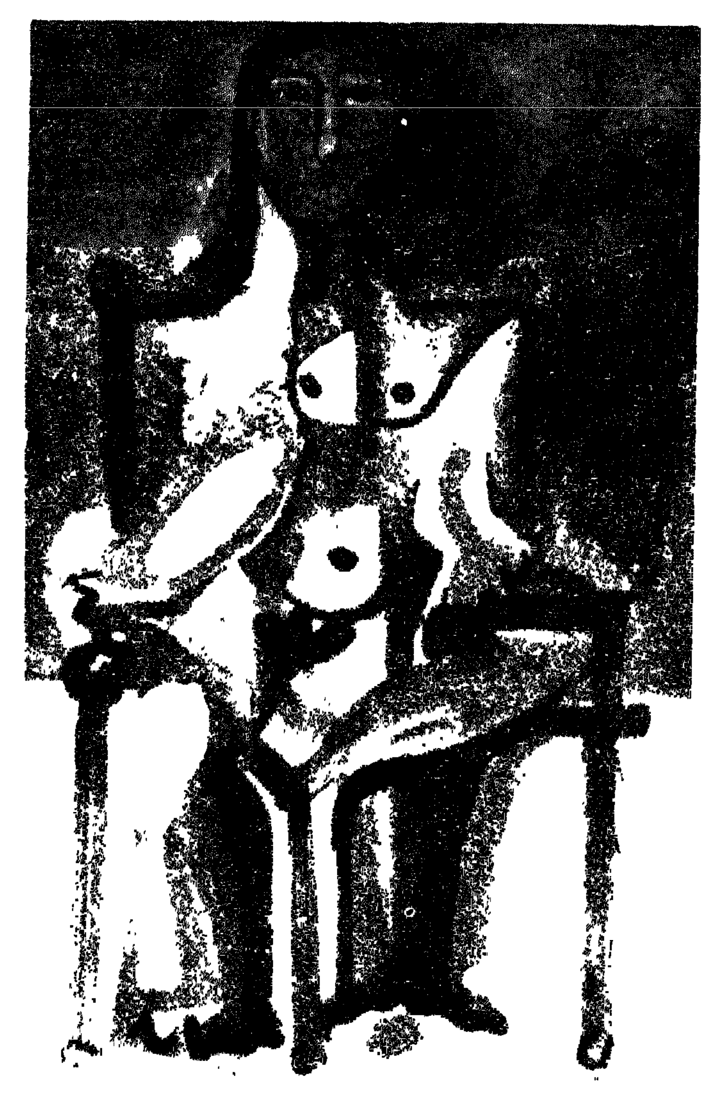
وهناك فنــان يتناول موضوعاتــه فى اثرة تدفعه الى التشبث بأحد التفاصيل مثل **آنجر** الذى يحرص على تسجيل مايراه فى دقة بالغة . وهناك فنان يقبل على موضوعاته بروح عدوانية مثل **بيكاسو** الذى يخضــع المرئيــات لمطالبــه الذاتية ، يحطــم بناءهــا الخارجــى ثم يعيد صيــاغتها وفق الهاماته وأهوائــه الخاصــة **(لوحة ٣)** .

ومنذ القرن الثانى عشر ظهرت في فرنسا ، التى كانت تسودها حينئذ الرقة المتالقــة فى عالم الدين والادب ، فكرة رسم خطوط منحنية متداخلة على غرار زخارف التوريقات ، وان زخرفت بحساسية أرهف ، ثم انتشر هذا النهج فى أغلب انحاء أوروباء خــلال عصر النهضة ، مرتبطا بالحركة الفنية والادبية التى ازدهرت فى بلاط الملوك والنبلاء ، والتى انحسر معهــا التصوير الكلاسيكى الواقعى داخل مجتمعات التجــار الصغــار البرجــوازيين الهولنــديين والفلمنكيين من أمثال **رمبرانت** .

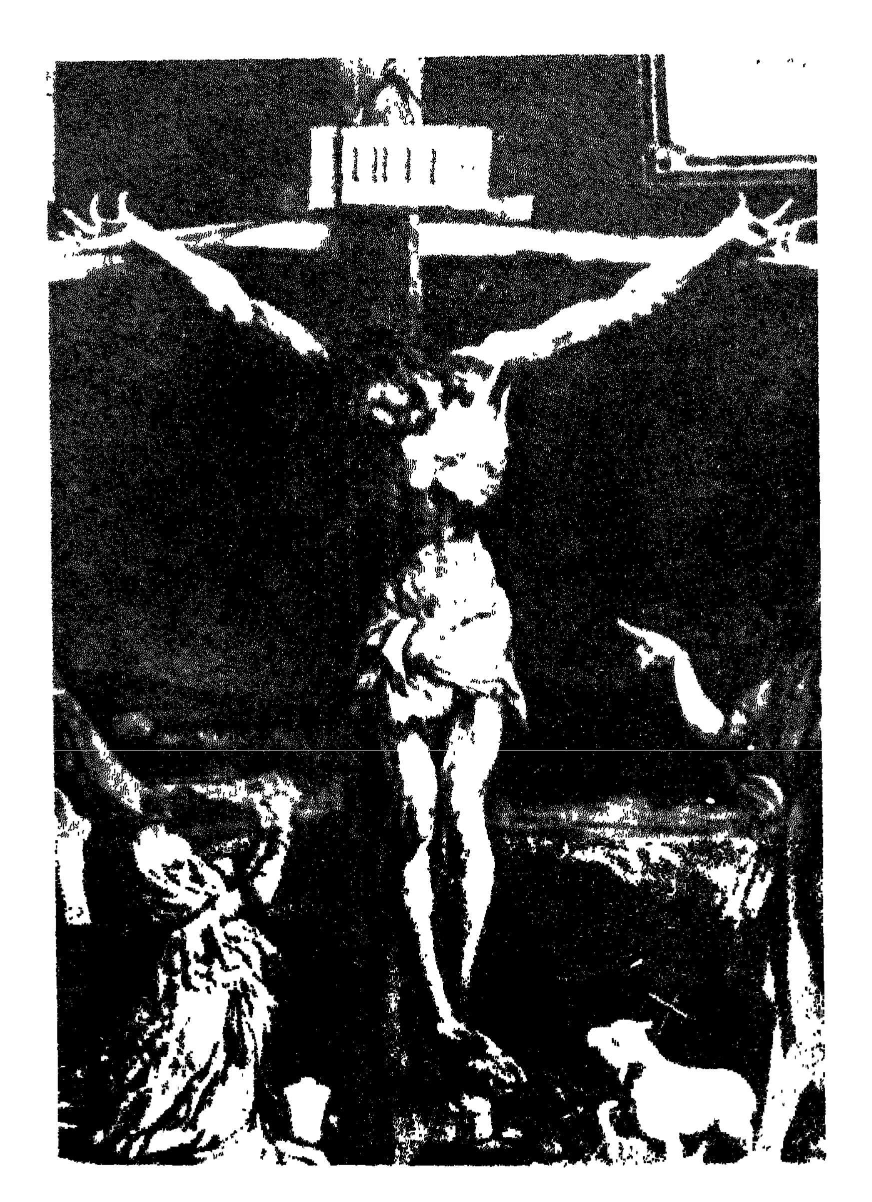
وظلت واقعية الفن الفلمنكى واقعية جادة بعيدة عن الزخرف، بينما اتسمت واقعية الفن الجرمانى بالمغــالاة التى انطــوت عــلى بعض التشــويهات والحركات العنيفة التى تترجــم عديدا من المشاعر المختلطة . وقد ارتبطت هذه الواقعية بالحضارة الالمانية التى بدات متخلفة عــن حضـــارة جاراتهــا والتــى أعتمــدت على استخـــدام المعــادن أكثــر مما اعتمدت علــى الزراعـــة الموحيـــــة بالسكينـــة والتناسب والهندسة ، فلم يعرف الانســـان الجرمانى هدوء النفس ولا نشاط الذهن اللذين يسودان المجتمعات الزراعية المستقرة ، وانما كان يحس بالاخطار تتهدده ، والقلق يعشش فى نفسه ، وظروف الطبيعة القاسية تترصده، وقد استولت عليه بعد انهيار حضارة العصور الوسطى الدولية ، فكرة الشيطان والموت اللذين يهددان امنه وحياتــه حتــى نحس الخــوف والوحشية فى اعماله الفنية . واننا لنستشعر في لوحة صلب المسيح **لجرونيفالد** صرخة العذاب والتوجع المنطلقة فى أفق يخنقه الضباب* المعتم ، على حين لا نحس في اللوحات اللاتينية لصلب المسيح غير الدعة والهدوء واشراقة السماء ، وان كانت الحربان العالميتان وقلق العصر قــد اصابت الروح الفرنسية بالانقباض حتى رسم الفنان **برنار بوفيه** صورة حديثه لصلب المسيح يذكرنا ما فيها من عذاب جسدى بصورة الفنان الالمانى جرونيفالد السابقة . (لوحة ٤) .



لوحة ٢ رمبرانت : وجه المسيح يعكس حياته الجوانية الذاتيه



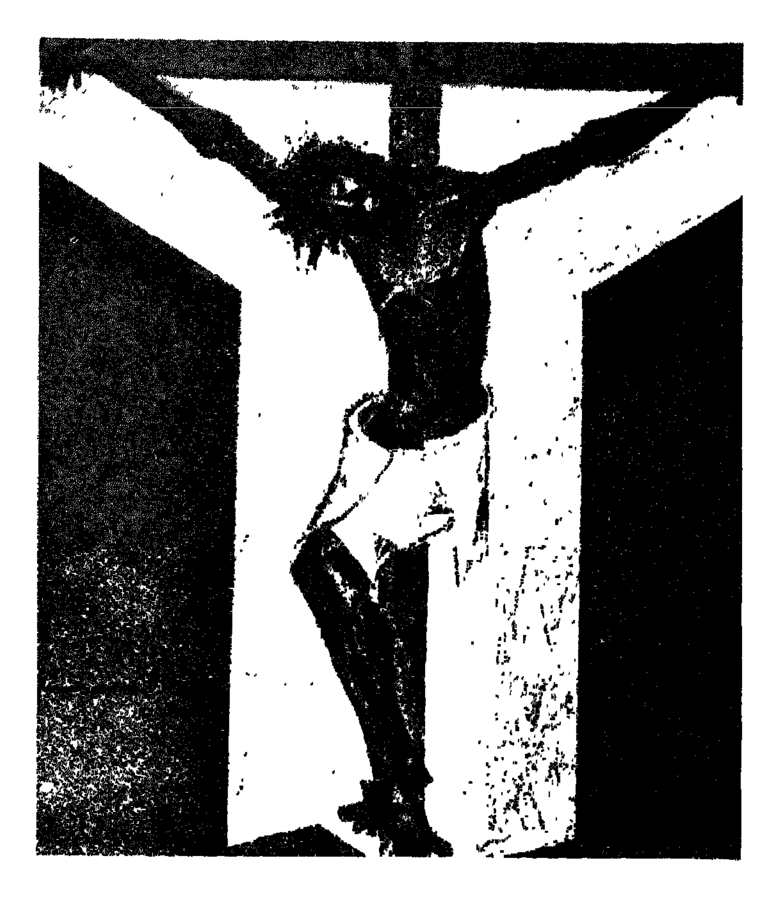
لوحة ٣ بيكاسو : امرأة



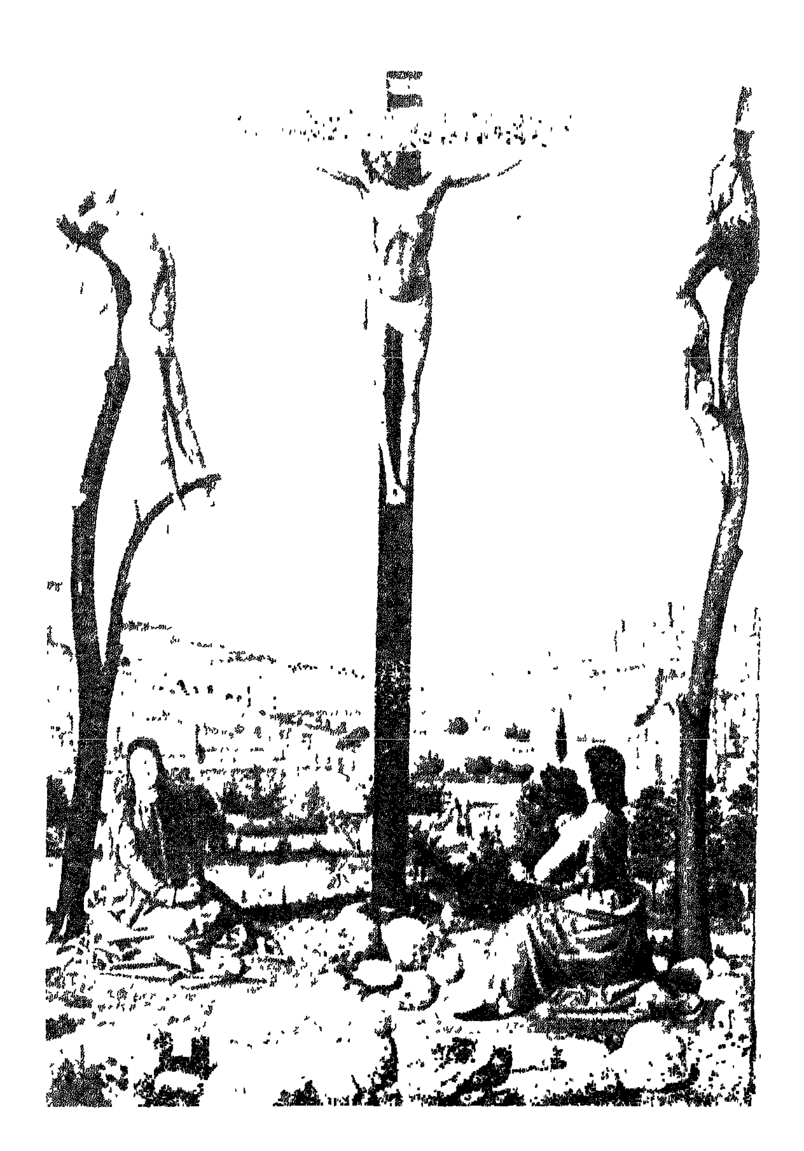
لوحة ٤ ، ب ، ج ، د تكشف التفسيرات المختلفة لموضوع واحد عن مدى تباين المكونات النفسية للمصورين
٤ أ ـ صلب المسيح من مخطوطة فرنسيه من اواخر القرن ١٤ (بباريس)



٤ ب ـ جرونيفالد : صلب المسيح (بكولمار)



٤ ج ـ انطونيللو دامسينا : صلب المسيح (بامستردام)



٤ د ـ برناربوفيه : صلب المسيح ١٩٤٦ م

غير أن التصوير اذا كان يعبر عن العصر الذى ينتمى اليه ، فانه يعبر كذلك عن كيفية مواجهة الفرد للعالم الذى يحيط به ولمصيره على الارض ، كما يعبر عن رد فعل الضغوط الاجتماعية المختلفة فى نفس الفرد ، ونستطيع ان نتبين ذلك فى اللوحات التى رسمها الفنان **فان جوخ** ما بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٩٠ ، فقد رسم فى لوحته الاولى « حديقة بيت القس فى الشتاء » السماء الفسيحة المشرقة التى تتميز بالاشياء واضحة تحتها ، وتكشف فى الافق عن ابراج كنيسة تعبر عن تصوف الفنان وانشغال فكره بقضية اللانهائية ، حتى اذا انتقلنا الى اللوحة الثانية وجدنا خطوطها المفتتة تكشف عن عجلة في تسجيل خواطر تكاد تفلت من بين يديه ، وعن شبح الجنون يكاد يقترب منه ، ثم نحس الجنون وقد سيطر عليه فى لوحته التى تصور حقل القمح وقد بدا القمح أشبه ما يكون بامواج بحر متلاطمة او بلهب نار متقدة . ثم يصبح الجنون هو طابع خطوطه التى استحالت بدائية غليظة تشيع الخوف الممزق من النار (لوحة ٥) وهكذا نستطيع ان نتكشف اخلاق الفنان من خطوطه كما نتبين اخلاق الكاتب من طريقة كتابة حروفه وكلماته .

● ● ●

ـ الشكل والذكاء :

ولكن كيف يستخدم الفنان ذكاءه لتحويل المنظر المرئى الى رموز رسومه ؟

لا شك ان نظرة الانسان البدائى الى ظواهر العالم المحيطة به والغريبة عليه لم تختلف كثيرا عن نظرة الطفل الوليد ، وكان على الفنان البدائى ، العصر الحجرى القديم ان يحاول جهده تمييز الاشياء أحدها عن الاخر ، فكان يحدد الاطار الخارجى للاشياء بخطوط بسيطة ، ثم يحاول الربط بين الاشياء التى يصورها ، وكانت فائدة تحديد الاطار الخارجي للحيوان تسهيل اصابة الصيادين له .

ومع ميلاد العصر الحجرى الحديث ولدت الهندسة ، اذ انتقل مركز الثقل فى علاقات الانسان من علاقته بحيوانات الصيد الى علاقته بزملائه من البشر ، واخذ الانسان ينظر الى العالم نظرة هندسية مع ظهور الحضارة الزراعية فى مصر وما بين النهرين حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م ، فقد اجتذبت الرقعة المنزوعة اهتمام الانسان فجعل يقسمها تقسيما منتظما يسر زراعتها وتوزيعها الى ملكيات صغيرة . واثر هذا الشكل فى حس الفنانين فاخذوا يخضعون لوحاتهم لنظام هندسى تتجمع فيه الاشكال فى مجالات محددة . وقد لعبت الجدران الحجرية دورا هاما فى تحديد الاشكال التى تنقش عليها ، فظهر قانون « المواجهة » الذى يقضى باخضاع الشكل للمادة التى تنقش عليها على مستوى واحد دون عمق أو تجسيد ، ثم ظهرت فكرة التماثل وفرض نموذج موحد محدود هو تمييز الاجزاء أو الاشكال المختلفة حتى لا يختلط احدها بالآخر .

واخذت الحياة تظهر في لوحات الحضارات الزراعية فى ايقاع وتكرار استقاهما فنانو مصر القدماء من تتابع مواسم الزراعة وفصول السنة وايقاع النمو الملحوظ في النبات . ونستطيع ان نلمح عناية الفنان المصرى القديم فى تسجيل حركة النمو فى فنونه المختلفة ، فنجده يعنى بابراز نمو الريش فى أجنحة الطيور التى يصورها ، واظهار طيات الملابس التى يرسمها ، ويشيد المعابد من مكعبات يتضمن كبيرها صغيرها ، بينما خلا الفن العراقى المعاصر للفن المصرى من هذا الاحساس بالنمو مكتفيا بتكرار الوحدات المتماثلة على النحو الذى نراه فى الاختام الاسطوانية .



لوحة ١٥ فان جوخ : منظر لاكروا من مونتماجور (بامستردام) . تنقيط بلاقصبات



لوحة ٥ ب ڤان جوخ : حديقة القس في الشتاء (بامستردام) . تهشيرات دقيقة صارمة متكسرة



لوحة ٥ ج فان جوخ : منزل وسط البحر (بامستردام)، يمضي الخط المستمر في منحنيات ملتوية ولكنها قلقة مشوشة .

لوحه ٥ د فان جوخ : حقل القمح مع أشجار (بامستردام). تطور الخط الى منحنيات مكررة خفاقة مسعوره .



وقد بقيت القواعد الهندسية التى اهتدت اليها الحضارات الزراعية ثابتة فى المجالات الفنية حتى اليوم ، وما تزال الحضارة الغربية تستخدمها دون أن تضيف اليها خلال الزمن الطويل غير تقريبها من الشكل البصرى الواقعى الى حد محاكاته ، واذا كان التصوير قد قام في الأصل على تمثيل الأشكال في بعدين اثنين ، بينما قام النحت على تمثيلها في ثلاثة ابعاد ، فقد استطاع التصوير بواسطة خداع العين ان يعطى الايحاء بتمثيل الابعاد الثلاثة غير ان قواعد المنظور قد فرضت سلطة الهندسة ومبادئها الصارمة .

غير ان الفنان الزراعى قد حصر همه فى تجسيد الشكل المتحرك فى احدى لحظات حركته ، ولم يستطع التعبير عن الشكل خلال حركته الا بعد اكتشاف المعادن واستخدامها ، وقد عاصر ذلك ظهور روح المغامرة والشغف بالابحار والكشف عن مجالات جديدة واسعة ، عبر المحيطات والصحراوات ورأينا أثر ذلك فى فنون قبائل سهول آسيا الوسطى ، وفى سفن الفايكنج التى تعتمد فى تكوينها على المنحنيات الانسيابية التى تتيح لها الحركة والانطلاق في يسر وسط المعوقات .

واذا كان اكتشاف المعدن قد ترك آثاره في الفنون القديمة ، فقد لعب كذلك اكتشاف البخار فى القرن الثامن عشر واكتشاف الكهرباء فى القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من اكتشاف طاقات متعددة حتى الطاقة الذرية دورا فى تغيير نفسية البشر وفنونهم . وقد سجل الفن الحديث ترجمة رائعة لحركة الطاقات الجديدة التى اكتشفها الانسان وسخرها لخدمته . وكان فن العمارة هو أول الفنون التى خضعت للاكتشافات الجديدة لاستخدام الطاقة . ويمثل برج ايفل المقام عام ١٨٨٤ ثورة على قوانين العمارة التقليدية ، وقد شيده **ايفيل** بقضبان حديدية لم يستخدمها أحد فى العمارة من قبل . ومن ناحية أخرى أوحى بانشائه هذا بفكرة الارتفاع الرأسي الذى أتاحه استخدام الحديد . وتعد العمارة الطليعية الحديثة خروجا على صفة الافقية التى تتميز بها العمارة الكلاسيكية .

وقد خرج فن النحت بدوره على قواعد التشكيل التقليدية بمحاولة التعبير عن الحركة المجردة ، واستخدام الأشكال الهندسية البحتة استخداما متطرفا بعيدا عن جميع قواعد الهندسة المألوفة بحيث تبرز لنا فى النهاية نماذج لصور ذهنية غير موجودة في العالم المرئى.

●●●

٣ ـ الضوء والحياة :

يدرك الانسان معنى النور لحظة انبثاق النهار من الليل ، وقد عرف الوعي البشرى منذ ظهور الحياة الفرق بين الأبيض والأسود ، بين الحياة والموت ، بين الخير والشر . وقد لعب التباين بين الضوء والظلمة دورا أساسيا فى الفنون البدائية ، فقد كانت وظيفة الضوء هي أن يميز بين الكتل المرئية التي تحددها خطوط سوداء ، ثم تطورت وظيفة الضوء مع مرور الأيام واصبح عليه ان يميز بين أجزاء الشيء الواحد بتدرجه عليها تدرجا يحرك فينا الاحساس بالنتوءات والمنحنيات الموجودة في جسد معقد كالجسم البشرى ، ثم اكتسب بعد ذلك وظيفة ثالثة هي ابراز الفروق بين القيم اللونية المختلفة ، وهو ما أتاح للفنان أن يميز بين درجات اللون . وقد استخدم **ليوناردو دافنشي** الضوء استخداما ثوريا حين ابتكر طريقته المعروفة باسم « الظل المدخن « سفوماتو » التي تجعل الشكل المصور يتراءى للمشاهد وكأنه مغلف بالغمام (لوحة ٦) .



لوحة ٦ ليوناردو دافنشي ، صورة شخصية لامراة (باشعةاكس) منحف اللوفر يضفى التجسيم على التصوير الايهام بالشكل البارز. وجاء أسلوب الجلاء والصمه الدى اسكره ليوناردو حلا بارعا للمشكلةفبدلا من تأكيد الشكل يذيبهفى الوسط المحيط به ، وأدت الدقيقة المحسوبة بين النوروالظلمة الى حيوية لم يعهدهاالناس من قبل .



وظهرت فى أواخر عصر النهضة محاولات للتحرر من الاشكال المألوفة التي خضعت للقواعد الجمالية التي وضعها فنانو عصر النهضة بعد تجاربهم الطويلة منذ عهد **جوتو** حتى عهد **رفائيل** ، فنحت **ميكلا نجلو** تماثيل بشرية تتلوى فى عسر وكأنها تصارع للخلاص من قوانين الاتزان الكلاسيكي والجمال الهادىء . وكانت محاولة **مكلا نجلو** شبيهة بازمة المؤمنين المعذبة ابان عهد الاصلاح الديني .

ولم يكن تطرف ليوناردو دافينشي فى فرض الضوء على أشكاله الا محاولة واضحة للهروب من سلطان الشكل . وتعد هذه المحاولة ثورة فى تاريخ الفنون التشكيلية ، فقد كان أول من اتاح للضوء ان يحل محل تحديد الشكل المصور ، فلم تتوار خطوطه خلف الضوء ، بل لقد كان نفسه هو الذى يوحى بالشكل المستخفي وراءه كذلك يمثل الاهتمام بالتنوعات المختلفة التي يمكن ابرازها بتغيير درجة الضوء المحاولة الهامة فى العصر الحديث لتسجيل الحياة بكل ما تنطوى عليه من تغير وغموض واكتشافات متتالية .

واذا كان ليوناردو هو أول من فهم امكانيات الاسهام الخلاق للجلاء والعتمة فى الفن فان **جورجيوني** قد خطا في اثره خطوة جديدة حين استغل « العتمة » التي يختلط فيها كل شيء ولونها وجعلها تتسق مع ثراء روحه الداخلي ، حتى لم يعد من الممكن تمييز عناصر اللوحة الا بواسطة الحس .

وقد أدى اكتشاف قيمة الضوء فى فنون التصوير الى ادراك اختلاف ضوء النهار من ساعة لأخرى وتنوعه الى حد يصعب معه احصاؤه . ويمكن أن نقول ان تاريخ فن التصوير منذ عصر **ڤان آيك** حتى عصر الانطباعيين فى القرن التاسع عشر هو تاريخ أساتذة الاضاءة فى التصوير . وقد فرض الضوء مشكلة الظل والضوء فى كل شكل منذ عهد فان آيك . واذا كنا نجد الضوء يحدد الأجساد فى بعض اللوحات فاننا نجده يخدم غرضا آخر يضفى على الأشياء طابعا مختلفا عن الطابع العادى ، اذ يبرز الامكانيات الخيالية العجيبة الكامنة فى الأشياء حين تتصارع فيها الظلمة مع الضوء . وقد استطاع **بلليني** ابراز وحدة المسيح فى أقسى لحظات عمره حين صوره على جبل الزيتون الذى تكتنفه ظلمة الليل ، بينما تحبو أشعة الفجر الوليد من خلف الوديان (لوحة ٧) .

وكانت الأشياء تصور فى البداية فى وسط يغمره ضوء خالص لايبرز لها معه ظل، ثم أخذت الظلال تظهر مع ظهور فكرة استغلال الضوء وتأثيراته فى فن التصوير الاوروبى ، ويغلب على الظن أن **كونراد ڤيتس** كان من أوائل الفنانين الذين ادركوا أهمية الظل في تجسيد الأشكال ، كما شغل الصراع بين الظل والضوء **كاراڤاجيو** ، وقد أبرز أحد تلاميذه الضوء فى لوحته « الكونسير » وكأنه ينتزع الشكل من الظلمات انتزاعا دراميا عنيفا (لوحة ٨) .

ثم أخذت الاشكال تتفتت منذ أوائل عصر النهضة ، وصورت أسقف الكنائس والقصور على شكل سماء مضيئة لا نهائية ، حتى ازدهرت المدرسة الانطباعية فى القرن التاسع عشر وساد الضوء الى حد زالت فيه معالم الأشياء وعناصرها ، ولم تعد الصورة تتشكل الا من تكوينات ضوئية مختلفة . غير ان هذا التطرف في سيادة الضوء على الشكل قد ادى الى رد فعل صارخ يتمثل فى التكعيبية التى تبدى اهتماما كاملا بالأشكال ، وتحيلها الى صور ذهنية هندسية .



لوحه ٧ جيوفانى بلليني : عذاب المسيح فى الحديقـة .ناشونال جاليرى بلندن



لوحة ٨ ماتيا بريتى : الكونسير ١٦٣٠ ـ ١٦٤٠

أجلى كارافاجيو وتلاميذه الصراع بين الشكل والضوء ، فلم يعد الضوء يستخدم لتجسيم الشكل واسباغ الدقة عليه بل لكي يتحطم الشكل بعنف مما قد يحدث تأثيرا مذهلا أحيانا

واذا كان الفنان قد نجح فى ابراز الأشكال فى الصورة بفضل انتصار العقل البشرى والمنطق وتنظيم المرئي ، فقد كان استخدامه للضوء انتصارا لنفس الفنان التى استطاعت ان تبث أسرارها وانفعالها بقوى العالم المحيط وطاقاته خلال العمل الفني . وهكذا أصبح الضوء هو روح الأشكال المصورة وهمسة النفس البشرية فى العمل الفني ، واستطعنا أن نحس به رغم انه شيء غير مادى وغير قابل للوزن ، فهو يرمز الى ما ليس مرئيا فى العالم. وقديما كان افلاطون يرى ان الخير قمة الواقع وانه يعكس النور فى عالم الحس ، كما يعكس الحقيقة والذكاء فى عالم الفكر . وقد اعطى اكثر الفلاسفة شاعرية مغزى للضوء يسموبه فوق عالم المادة ، بل ان منهم من جعله سمة المطلق الالهي الذى يهبط في نفوسنا على شكل الحقيقة والخير والجمال .

وقد عد أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م) تلميذ افلاطون الضوء مصدر جمال الأشياء، وانتقلت نظرته الى الضوء باعتباره سمة الروح الى العصور الوسطى ، فقد كان له اكبر الأثر على الفكر المسيحي منذ القرن الثالث الميلادى رغم انتمائه الى العصر القديم . واضفى المصورون المسيحيون الأوائل على الضوء صفات الهية وجعلوه رمزا للموضوعات المقدسة ، وحمّلوا اللون الذهبي الغالب على الفسيفساء البيزنطية هذه المهمة التي اسندوها كذلك الى الزجاج الملون بنوافذ الكنائس لقدرته على تحليل الضوء ، كما عده بعض علماء اللاهوت رمزا العذراء حين نزل عليها الروح القدس لتحمل بالمسيح .

واخذ الضوء فيما بعد العصور الوسطى يعبر عن نفس الفنان اكثر مما يعبر عن النور الالهي . ونستطيع أن نقرن فن كل من كبار المصورين منذ عصر النهضة بأحدى مراحل الضوء بالنهار خلال تغييراته المتعددة : فضوء بوتشيللى مثلا ضوء فجرى ، وضوءروبنز ضوء ما بعد الظهيرة وضوء جورجيونى هو ضوء الغروب . وهكذا كان كل مصور كبير يرتبط بضوء ساعة معينة من بداية النهار الى الليل . ويعد تصوير دلاكروا فى سقف بهو أبوللو بقصر اللوفر مثلا بارزا للصراع بين الليل والنهار ، فقد اشار فى تصوير ابوللو وهو يقهر الافعوان بيثون الى النور وهو يتغلب على الظلام تغلب لله الروح على الشيطان أمير الظلمات .

• • •

٤ - اللون وروح الانسان

كان اكتشاف فن التصوير لامكانيات الضوء ايذانا بالتعرف الى امكانيات الألوان التي ليست الا للضوء المحيط بنا . ولم يكن الفنان يستخدم الألوان فى البداية الا على انها عنصر زخرفة للشكل ، فكان يستخدم الألوان لمجرد التفرقة بين الأشكال المختلفة ، وظلت هذه النظرة قائمة طوال الفترة التى كان الشكل فيها سائدا فى الصورة . وقد استخدم الفنان الفرنسى جوجان هذه النظرة حين اراد التحرر من ولع الانطباعيين بأمكانيات الضوء الكثيرة ، فاخذ يصور لوحته فى مجموعات من المساحات اللونية المتداخلة .

غير أن اللون لم يقف عند حد تجميله للشكل فى المساحات اللونية المتداخلة ، بل اخذ يرتبط بالضوء ارتباطا يذوب معه فيه ويتحدبه حتى يصبحان معا وحدة لا تتجزا ، ياخذ اللون من الضوء اشراقه ويصبغه بالوانه . ونستطيع أن نتبين الفرق الواضح بين الفسيفساء الرومانية التى تتألف من مكعبات ملونة تشكل صورة محددة السمات ، وبين

الفسيفساء البيزنطية التي يتداخل فيها اللون الذهبي مع الألوان الأخرى فيكسبها رونقا جديدا. وقد حدث ذلك أيضا في الزجاج الملون لنوافذ الكنائس القوطية حيث تمتزج الأضواء والألوان فتسبغ على الشكل المصور دلالات جديدة ، مضيفة بعدا جديدا للابعاد السابقة وهو بُعد الشدّة ، ذلك أن الأضواء المختلفة تحدث في سقوطها على اللون تنوعا في شدّته ، وهو ما أدى الى تكاثر الألوان وتزايدها . ولم تكن الوان الصور الجدارية المصرية القديمة لتزيد في بدايتها عن سبعة الوان ، بلغت عشرة الوان في عهد ازدهار الدولة الوسطى ، منها لونان أخضران ولونان أزرقان وثلاثة الوان حمراء . وقد لعب اكتشاف الزيت كوسيلة للتصوير دورا عظيما في تطوير هذا الفن في العصر الحديث ، وذلك أن الزيت لا يقف عند حد تلونه ، بل ان سمك الطبقة التي يضيفها الفنان الى لوحته يمكن ان تمثل اعماقا وشفافيات اضافية ، وهو ما أتاح للفنانين تصوير الألوان الدقيقة التي تتضمنها الأشياء أو تسبح في الأجواء المحيطة بها . وقد قال كردتشو احد علماء الفن في أوائل القرن السابع : « تتألق الالوان وتتغير مع تنوع الأضواء التي تتسلط عليها كضوء الشمس أو ضوء اللهيب وما اليها . بل ان الظلال نفسها تصطبغ بالالوان المضاءة في الأشياء المصورة » .

ومعنى هذا ان الالوان في العالم المرئي ليست ثابته ولكنها عرضة للتغير والتألق ، وأن بعضها ينعكس على بعض بطرق لا حصر لها . وقد جعلت الحركة الانطباعية من اللون تجسيدا للطاقة الضوئية ، وحققت اكبر انتصار بتحريره من كل قيد سوى التعبير عن الاهتزازات اللونية ، وضحت من اجله بالشكل الذى كان اللون في البداية عبدا خاضعا له . وقد ترتب على ذلك ثورة في الفن كان أهم آثارها ابراز فكرة جديدة في التصوير هي فكرة الكيف بدلا من الكم ، فقد أخذ الضوء يفرض نفسه على العيون ويشدها ويحرك احساس الانسان بالاختلافات الضوئية واللونية حتى يشعر بشدة الألوان المختلفة ، وهو ما لم يكن يعيه من قبل .

ولقد أمكن تحليل درجة الضوء زيادة أو نقصانا ، أما حين أصبح الضوء ملونا فقد تغيرت طريقة القياس لأن كل لون يختلف عن الآخر ويؤثر تأثيرا متميزا على جهاز الانسان العصبي . وهكذا فان الألوان لا تختلف كالضوء في درجتها وانما في طبيعتها ، ثم أن لكل لون اسما ، غير أن أسم أحد الألوان لا يكتسب قيمته الحقيقية الا اذا كان ذكره كافيا لكي يستعيد الذهن ذكرى تجربة عاشها في الواقع وشهد خلالها هذا اللون على وجه التحديد وعرف وصفه المميز ، وهي تجربة ذاتية لا يمكن نقلها لانسان آخر ، في حين أنه يمكن تصور اى شكل بعد تحديد معالمه الهندسية ، بل يمكن تحديده بدقة بالاستعانة بالحساب ، أما اللون فيتطلب جهدا من الحس لادراكه ، فهو يُحس ولايفهم .

واذا كانت المساحة والمادة تعودان الى عالم الكم وتخضعان لمقاييسه ، فان الحياة الجسدية الممتدة عبر الزمن ترتبط بتجربة « الشدّة » ودرجاتها ، وهي تجربة ذات طبيعة « كمية » رغم خضوعها للتقدير الحسي ، على حين تنفذ الحياة الانفعالية الى عالم أكثر تنوعا وانفساحا وهو عالم « الكيف » أى الطبيعة الذاتية المحددة لكل انفعال ، والتي لا يمكن تداخلها في انفعال آخر . ان تجربة الاحساس « بالكيف » هي تجربة « جوانية » ذاتية لا يمكن أن يحس بها الا من عايش التجربة بنفسه ، والعمل الفني هو محاولة « برانية » **موضوعة لابراز هذه** التجربة الذاتية الجوانية التي لولا العمل

الفنى لبقيت كامنة فى الاعماق ، ولا يستمد اى شكل فنى جماله من نسب عددية أو هندسية، بل من احساس الفنان « الكيفـي » وانفعاله الفـريد به ، وكذلك بما يضعـه فيه حسّه « الكيفي » الذى لا يمكن ان يتضمنه الشكل بذاته وبتحديده المجـرد .

وقد اختلف الفنانون فى طريقة استخدام الألوان بين خاضع لتقاليد شكلية ومسـتهدف لتآلف الألوان ، وان ظلوا مرتبطين بمفهـوم مساحة الصورة غير مهتمين بقضية الشدة ، يجمعون مختلف العناصر فى تكوينات متآلفة مع اتخاذ التباين أساس العلاقات بين المساحات الملونة فى الصورة ، على نحو ما فعل **جوجان وماتيس** الذى نحس ان بين فنه وبين الفنون الزخرفية كالفن الاسلامي علاقة وثيقة ، لأن الزخرف بطبيعته هو تجميل للمساحة واداة فى خدمتها .

على أن هناك مجموعة من الفنانين الـذين يستغلون الألوان استغلالا مختلفا عن ذلـك لأنهم يعدونها بمثابة أصداء لنغمات كامنـة فى النفس . وهكذا يدرك العقل الأشياء الواضحة بينما تحس النفس بالأشـياء غير الواضحة ، وهم لا يضعون الألوان متجاورة على غـرار الفسيفساء الملونة ، وانما يحاولون ابـراز الامكانيات اللانهائية لمزج الألوان بعضها ببعض وشحنها بذبذبات تتآلف مع ذبذبات النفس مشكلة ما يسمونه بالجـو الفني ، وهكـذا يصبح اللون لغة وجدانية تتحدث الى نفوس المشاهدين . واذا كانت لكل لون دلالة خاصة تتفق مع حالة نفسية معينة عند المشاهد فان دلالات الألوان المختلفة حين تتآلف فى مجموعات متعانقة تكتسب أبعادا فسيحة تنفذ بها الـى اغوار النفس البشرية . وقد مال كـل فنان عظيم الى مجموعة من الألوان اتخذ منها لغته الصامته التي يعبر بها عمافى نفسه . واستغل فنانو فجر النهضة الايطالية في القرن الخامس عشر مثل **بوتيتشيللى وفرا انجليكو** الألـوان المشتقة من الأزرق والوردى للتعبير عـن موضوعات تدور حول فصل الربيع ، ونراها تشيع حيوية وشبابا بزهورها وورودها، وعشق **تتسيانو** الألوان النحاسية والذهبية والحمراء والـزرقاء الشـديدة الزرقة ، كما اختـار **رمبرانت** اللون الذهبي والأحمر اللهبى والظلال العسلية والألوان القاتمة . على أن هـؤلاء جميعا لم يعبروا باللون عـن الشكل وانمـا حملوه أصواتهم الجوانية التي تنتقل الى اعماق المشاهد انتقال الموجات الصـوتية .

ثم ان الكشف عن هذه الطاقات الكامنة فى الألوان لم يتم الا بخطى وئيدة وطويلة ، وقد اخذ سلطان اللون على النفس البشرية ينمو مع نمو وعى الانسان بطبيعته واحتياجاته . وكانت دلالة اللون فى العصور الوسطى مرتبطة بالضوء أقل مما هى مرتبطة بالشكل . وقد أعطى فنانو العصور الوسطى الألوان دلالات خاصـة قبل معرفة طبيعتها التعبيرية التلقائية وجعلوهـا بمثابة رموز . غير أن الألوان ما لبثت أن تحررت من هذه الرمزية واصبحت ذات قوة تعبيرية ودلالة شعورية جديدة ، ثم اكتسب التصوير الزيتي حرية جديدة فى القـرن التاسـع عشر فاستطاع كما قال الفنان الفرنسى الكبير **دلاكروا** « أن يعبر عما يؤثر فى النفس بواسطة الأشياء التى لا تؤثر الا فى الحواس » ، ولا شـك أن اللون هو اهم ما يؤثر في الحواس .

وقد وجد فنانـو ما بعد عصر النهضـة فى الطيف اللوني وفي الامكانيات اللانهائية للتاليف بين عناصره وسيلة للتعبير عن ادق الفوارق بين الأمزجة النفسية ، وكأنما يمسك الفنان بيده وترا موسيقيا يتحكم فيه على هواه . غير أنه

كان من الضرورى الكشف عن تفسير سليم لقدرة **الالوان على التعبير** عن حالات النفس ثم الخروج من ذلك بنظرية فنية متكاملة . وهذا هو ما فعله **دلاكروا** الفنان والمفكر معا . وقد اصبح دلاكروا بفضل منهجه الفني رائدا للحركة الانطباعية والرمزية ورائد فن **جوجان** ايضا ، وكان يعد اللون رسالة خاصةفى الكشف عن التجربة المعاشة فى أعمال الفنان ثم فى تحويلها الى شيء مدرك محسوس . ذلك ان الفن ليس سمة لما هو معروف مرئى بل سمة للخفى المجهول . انه لغة تختلف عن اللغة العادية التى تخاطب أفكارنا وآراءنا لأنه يحمل تجارب الحياة الى حسنا قبل أن يتدخل العقل فى تنظيمها أو صياغتها . ويستطيع العمل الفني أن يثير فينا مشاعر لا تستطيع الكلمة المجردة ان تعبر عنها الا تعبيرا مبهما . ثم ان الفن التصويرى لا يؤثر بواسطة الشكل كما يؤثر فن العمارة أو فن النحت ، وانما يؤثر تأثيرا ابعد مدى لانه يجمع بين البيئة والجو والضوء والألوان المختلفة في تكوين جديد يمكن مقارنته بالتكوين الموسيقى . بل لقد تحدث دلاكروا عن « موسيقى اللون المصورة » وقلده فى ذلك الكثيرون من المصورين من بعده . ثم ان الفضل يعود اليه فى اعتباره الفن تعبيرا عن خفايا نفس الفنان دون وعى منه بذلك ، وقد فتح الفنانون من بعده أعينهم على هذه الحقيقة فأخذوا ينصتون الى الأصوات الخفية الصارخة فى اعماقهم ليعبروا عنها برموز ملونة من العالم المرئى .

• • •

٥ ــ الصورة والاحلام .

اتخذ كثير من فنانى غرب أوروبا منذ عصر النهضة من الأحلام موضوعات صورهم ، فتجدهم قد شكلوا تكوينات ذهنية معقولة فى ذاتها وان كان منطق الأحلام هو الذى يربط بينها واخرى خرافية مخيفة تعذب النفس بوحوشها وشياطينها . على أن هناك اختلافا تاما بين صور الفن وصور الأحلامرغم انبثاقهما منمصدر واحد ، ذلك أنالحالم سلبىيستسلم لتيار رؤاه الذهنيةالمتدفقة بلا هدف أو رباط ، فى حين أن الفنان ايجابى يؤلف بين صوره ويخضعها لقواعده وصياغته الذاتية المبتكرة .

ثم ان وظيفة الفنان هى ان يستلهم اعماقه ويخرج ما فيها ويصوغه صياغة فنية تجعله جديرا باهتمام الآخرين قادرا على اثارة مشاعر أكبر عدد ممكن من المشاهدين . وقد يكون هذا هو اساس طبيعة العمل الفنى المركبة : يغوص الفنان فى بادىء الأمر في أعمق أغوار نفسه متخطيا حواجز الفكر المنطقى المستنير ليصل الى الوحى الكامن فى اللاشعور الذى لا يلبث ان يطفو على السطح ، ثم يستخدم قواه الذهنية الواعية لتشكيل العناصر الجمالية . وقد تلعب الذاكرة دورا هاما في تكييف ما نظمه الذهن الواعى ، فتمد الخلق الفنى حينئذ بعنصر جديد هو الخيال بمعناه المحدود بتشكيل الصور الذهنية. فالخيال منبع الأحلام والابداع الفنى معا ، وهو يعين على اختيار الموضوع فنى ويحقق التوازن بين العالمين الداخلى والخارجي . على أن هناك نوعين من الخيال سلبى وايجابى ، وليست للخيال السلبي قدرة فنية خلاقة ، ذلك لأن دوره فى الخلق الفنى لا يتعدى دورهفى الأحلام فهو يبرز خفايا النفس، تلك الصور التى اثرت أكبر تأثير فى الذاكرة ؛ وكأنه ينتقى ما يريده الفنان من الصور التى تسترجعها الذاكرة من الماضى . وكان فنانو العصور الوسطى يوحدون بين الأنماط الفنية مما يعوق انطلاقة الخيال المبدع التى لعبت في العصر الحديث دورا يفوق الدور الذى تلعبه

المؤثرات البيئية فى تكييف الخيال الفنى . وعلى عكس الخيال السلبى الذى يعمل بطريقة شبه لا ارادية ، يعمل الخيال الايجابى عملا واعيا يستخدم فيه الذكاء والارادة ويلتزم عناصر الجمال . وليست اللغة الحيوانية لأحلامنا واللغة الانسانية لفننا الا رغباتنا التى يتشكل منها نسيج حياتنا وتعبر عن نفسها فى الصور والرؤى الذهنية .

غير ان هناك فارقا بين انعكاسات رغباتنا وبين الصور المعبرة عنها شبيها بالفارق بين عمل العبقرى المبدع وبين نقل تلميذه الأمين عنه . فاذا كانت لصورة العبقرى الأصيلة دلالة فان الصورة المنقولة لا تتضمن الا ظلا من دلالة الأولى . وفي فن العبقرى خيال ايجابى يتيح له التعبير بلغة صامتة متميزة نابعة من رغبته التى تعكس حالته النفسية الخاصة ، كما يحلم رائد الصحراء الظامىء المحروم بينابيع الماء المثلج . ونحن نحس هذه اللغة الصامتة الخاصة فى أعمال كبار الفنانين من امثال روبنس ورينوار الذين يعبران عن تدلههما بجسد المراة (لوحة ٩) بل لقد أعلن **رينوار** صراحة : « **انني اضاجع المراة بفرشاتي** » .

وقد اكتشف التحليل النفسي فى الأحلام لغة خاصة بالخيال فى لغة الرموز . والرمز بطبيعته خادع عصيّ الفهم ، فقد يتخذ موقفين متباينين : قد يكون مباشرا يكشف عن الشيء الغامض بطبيعته ، وقد يعمل على اخفاء المشاعر التى تحاول الظهور فنكبتها أو نتجاهلها . هذه الامكانية المزدوجة جعلت من الرمز لغة قادرة على التعبير عن مشاعرنا وعن اخفائها كذلك . ولم يكن الانسان البدائى قادرا على التعبير عن مشاعره الخفية الا برموز ماخوذة من العالم المرئى . وقد نسق فيما بعد بين هذه الرموز المرئية ، وشكل منها أسطورة خافية أسند فيها كل حدث لارادة كائن حى قد يخفى عليه ، وكان يعتقد أن كائنا شبيها بالانسان يكمن داخل النار ، وان ثمة ارادة تختفى وراء ظواهر الطبيعة المختلفة . وذلك هو النهج الذى يتبعه الخيال مع الأحلام فهو يكشف عن خفايا النفس ويجسّدها في شيء من العالم المرئي . وكذلك يفعل الشاعر والفنان حين يواجهان ما يعجزان عن التعبير عنه فيلجآن الى الرموز لأنها البديل الوحيد للمجهول والمعلوم معا .

فى اعماق الفنان غريزة خاصة هى غريزة ابتكار الرموز التى يستطيع عن طريقها وبواسطة عملية اختيار ارادية خلق عالم مكون من عناصر الكون نفسها غير أنها تتآلف وتفهم حسب الدلالات التى يسبغها الفنان على الأشياء . وقد تحددت لعناصر الكون الرئيسية الأربعة (الماء والنار والهواء والأرض) دلالات رمزية فى عالم الفن : فالهواء شفاف مضيء رقيق لا تكاد تدركه الحواس وان أحس المرء به ، والماء مليء بالألغاز غامض متحرك ، وفي النار رونق وضوء وحركة عنيفة ، والأرض ثقيلة جادة .

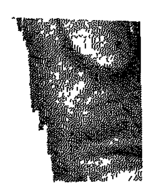
وقد تميز بعض الفنانين بغلبة احد هذه الرموز على صورهم حتى سموا باسم هذا الرمز او ذاك ، فأطلق على « **كورو** » اسم فنان الهواء ، وسمى **ترنر** بفنان الماء ، وقيل عن **فان جوخ** انه فنان النار ، اما **كوربيه** فهو فنان الارض .

وقد برز فنانان فى معركة التحرير التى أدت الى ازدهار الفن فى العصر الحديث هما **انسور وشاجال** :

وقد ورث **جيمس انسور** الفنان البلجيكى الذى عاش في أواخر القرن التاسع عشر ذلك الولع بتصوير القبح والفزع في عالم مجنون لا يخضع



لوحة ٩ روبنز : حفل باكخوس بضم اريا دنى عروس الاله باكخوس



لمنطق الحياة : فوجوهه أقنعة وجماجم ، وخطوطه تتفتت ويدب فيها الفناء ، واشخاصه تتحول الى حشرات مخيفة ومضحكة معا ، ولوحاته كلها نهب للموت والضحك . على ان فنه هذا ليس وليد الصدفة والاعتباط ، بل وليد خيال تتحكم فيه ارادة صارمة ، ترى الاشياء جميلة والانسان قبيحا . وتتضمن كل اوحة من لوحاته تطبيقا فلسفيا يتناول البشر والعالم الذى يعيش فيه اشخاصه ، والذى يقدمه فى صورة مدمرة تتمزق معها الاواصر بين الناس ، وكأنه لا يرى الجمال الا حين يختفى الانسان (لوحة ١٠) .

اما **شاجال** الذى يرجع اليه اغلب الفضل فى تحرير الصورة الفنية فتزخر لوحاته بمشاهد صباه في الاحياء اليهوية فى روسيا ، وبكل ما كان فيها من عاطفة وحنين الى الماضى الذى مضى ولن يعود ، وقد سجلها فى أوضاع لا تخضع لقانون الجاذبية و لاالقواعد المنظور مما جعلها تبدو وكأنها معلقة فى الهواء لا تتحرك الحركات المألوفة ، ولا تتخذ الاوضاع المتعارف عليها ، فهى تحمل دون شك أثرا كبيرا من عالم الاحلام حيث يسبح الانسان فى الفضاء، وحيث تميل الدور على جوانبها دون ان تسقط ، فالزمن في رأيه ـ نهر بلا ضفاف ـ وقد كتب فى ترجمته الذاتية كلمة تعد مفتاح فنه فقال : **« يبدو لى ان الفن حالة نفسية قبل ان يكون شيئا آخر »** . **(لوحة ١١)** .

•••

٤ ـ الفن والفكر :

يتلخص التباين بين الشرق والغرب فى ميادين الفكر والفن فى نظرة كل منهما الى جوهر الفكر البشرى المتبلور ، في التمييز بين العالم الداخلى والعالم الخارجى ، فيهتم الغرب بتحديد هذين العالمين تحديدا ثابتا دائما ، فهو يفصل بينهما ويحاول تمييز كل منهما بعناصره الثابتة ، فاذا نظر الى الحياة الذهنية أو الحسّية بحث أولا عن الذات البشرية التى يعدها مركزا لكل شيء ، واذا نظر الى العالم الخارجي ركز اهتمامه على المادة المحسوسة التي تملأ الفراغ، ثم يسعى بعد ذلك للكشف عن قوانين بناء كل من هذين العالمين ، وهى قوانين العقل والمنطق التى تسود العالم الداخلي ، وقوانين الشكل والتشكل التى يقوم عليها العالم الخارجي ، وهكذا يقيم تعارضا بين العالمين حيث تقف **النفس** البشرية مسلحة بالفكر فى مواجهة العالم المادى ، تتأمل الكون كله بحواسها وتتعرف عليه بفكرها حتى تخضعه لأصول منطقها فى وعى وفهم دقيقين . ومع ذلك يرى الغرب قيام روابط كثيرة بين العالمين من خلال هذه المواجهة بينهما ، كتلك الروابط التى تجمع بين صديقين يتنافسان فى حلبة المصارعة وفق مجموعة من المقاييس المحدودة . ويضع الغرب معيارا يحدد الفواصل بين العالمين فهو يسلم بأن العالم الخارجى قابل للتفسير وأنه يخضع للقواعد التى يشكلها الانسان في ذهنه ، كما يخلق نوعا من التواطؤ بين ثبات المادة المحددة بحسب اشكالها وبين ثبات القواعد العقلية فى ذهن كل انسان. وهو بهذا لا يعترف بالنوعين الرئيسيين من أنواع القلق الذى يمزق البشر ، وهما الشعور بالضياع اللانهائي والشعور بالارتماء على سطح مجرى الزمن المضطرب الصاخب ، الأمر الذى يطمئن البشر على وضعهم ويمنحهم قدرة على الثبات فى مواجهة أعاصير الحياة .

اما الشرق فلا يضع مثل هذه الفواصل المميزة بين الانسان والعالم ، ولا يسلم بوجود مسافة بين الانسان وبين ما يتأمله فى محاولته للمعرفة ، بل يقيّم معرفة الانسان بالعالم على فكرة الاتحاد والالتصاق والحب ، حتى قال الفيلسوف الهندى « كبير » في القرن الخامس



لوحة ١٠. السور : تبدو والهياكل العظمية ، يختفي الواقع عند السور وراء القمة جوفاء ارهبها الجماجم



لوحة ١١ مارك شاجال : الكونسير ، مع مسرى الزمن ترحم ذكريات الماضي والحاضر نفس الفنان وترقص على انغام موسيقى الفن

عشر : « لقد جعل الخالق من العالم الداخلي والعالم الخارجي وحدة لا تتجزأ » . وليس هذا هو موقف « كبير » وحده بل انه موقف الفلاسفة ورجال الدين جميعا في الهند ، فهم لا يؤمنون بوجود الحياة في أعماق النفس وفي الطبيعة الخارجية خلف ستار المظاهر المادية الخادع . وقد نادى بوذا في القرن الساس قبل الميلاد بالغاء الفوارق بين الخارجي والداخلي لأن الشكل يفقد معناه بالنسبة لذلك الذى اختفى وجمد ولم يعد من الممكن الامساك به ، كما انه لا يؤمن بوجود « الانا » بل بوجود « الأتمان » أى الذات غير المحددة ، ويعد الحياة سرابا ولا يؤمن الا بحقيقة وحيدة هى « السمسرا » أى محيط الحياة المتموج .

ويتجاهل الفن الشرقى الأشكال المحددة والتعبير عن الذات ، ولا يسعى الفنان الشرقي وراء الابتكار والأصالة ، وانما يمضى طيعا على نهج القواعد المتوارثة لأنه يعد نفسه وسيلة اتصال بين الانسان والحياة الكونية غير العاقلة. وهكذا يحدد هدفه في ايضاح لين الحياة وايقاعها اللانهائي . ومع أن فلسفة الهند الفنية هى فلسفة الشرق عامة ، الا أن هناك فروقا تتميز بها الفنون الشرقية الاخرى ، وتزداد هذه الفروق حدة في الصين واليابان ، حيث نجد فنهما يقترب في مفهومه من الفن الغربى لاهتمامه المتزايد بالحياة اليومية .

ومضى الغرب في طريق مختلف عن طريق الشرق ، فلم يشغل نفسه بالأفكار الغيبية المتصلة بالحياة الكونية ، وجعلت الحضارة الاغريقية من الانسان أساسا للحقيقة ومقياسا لها ، بل لقد قال بروتا جوراس « الانسان مقياس كل شيء » .

كان احساس الانسان بالواقع عند الاغريق ادراكا دقيقا له ، وكان فكره وقواعد منطقه صورة لقوانين الطبيعة والبناء الكونى ، وشكل جسده وتناسبه نموذجا مصغرا للعالم المحيط به ، بل لقد اتخذ الفن الاغريقى من الجسد الانسانى موضوعه الرئيسي ومعياره لقياس أى بناء . كذلك اصبحت المظاهر التى حاول الشرق اختراقها للنفاذ الى سر الوجود هى اساس الواقع عند الاغريق ما دامت خاضعة لقوانين العقل البشرى الذى عدّوه منبع الحقيقة كلها . وقام الفكر الاغريقى على قاعدة كبرى هى « الموضوعية والتجريد » ، فكان الانسان الاغريقى يأخذ الواقع أساسا للفكرة ، وينظر الى الانسان لكى يصل الى تصور الاله، ويتأمل الطبيعة ليخلق الجمال الفنى النموذجى ، وهكذا تختلط في الفكر الاغريقى المثالية والواقعية ، الحواس والعقل . ويستخلص الفنان الجمال من الطبيعة ــ على أنه المادة الرئيسية في تجربته الفنية ــ ثم يبرزه بجهده الفكرى . وقد لعب الفكر دورا هاما في عالم الجمال عند الاغريق حتى أنهم حاولوا رد نظرياتهم الجمالية الى أفكار رياضية بحتة على غرار ما فعل فيثاجوراس حين قال ان العدد هو جوهر الأشياء . ذلك أن الاغريق ركزوا اهتماماتهم فيما يمكن تحديده ، وخاصة ما يمكن تحديده بالأعداد ، بينما لم تستطع روما بعد انتصارها على اليونان غير ابراز النزعة الطبيعية والمدرسية على حساب المثالية المجردة التى تجلت في الحضارة اليونانية وخاصة في عمارتها القائمة على العلاقات والنسب بين الخطوط المستقيمة ، وهكذا ادخلت روما المنحنيات في عمارتها والالوان في فنها التصويرى .

على أن العبقرية اليونانية التى ضربت روما قاعدتها القومية قد انتشرت على شواطىء البحر المتوسط واخذت تمتزج بالتأثيرات

الوافدة من الشرق وتأثيرات البرابرة، واكسبت الفن اليوناني المهزوم وسيلة جديدة للتعبير في ظل الامبراطورية الرومانية ، هى وسيلة الرمز الذى اصبح أقوى أثرا من الكلمة والفكـرة . كذلك تعانقت التأثيرات الدينية فظهرت نزعات صوفية شرقية ، ودخلـت عقيـدة **ايـزيس وأوزيريس** معابد روما ، وبالمثل عقيدة « مترا » الفارسية . وكان زحـف « المسـيحية » من الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط بداية ثورة فى التصوير ، اذ اتجه الفنان من العالم البشرى المرئي الـى العالم الالهي اللامادى ، وظهـر فن مسيحى يستخدم الرمز والايحاء ويتجنب التسجيل والمحاكاة ، كما تشكل فكر مسيحي اخذ عن افلاطون نظريته عن التباين بين العالم الخارجي وبين العالم المثالى المطلق حيث يكمن الجمال الخالص العصى على الوصف . وظهرت افلاطونية حديثـة فى الاسـكندرية على يـد « افلوطين » فى القرن الثالث ، استطاعت ان تخطو بالعالم من الفكر القديم الى فكر العصور الوسطى . وفى ظل هذه الأفلاطونية الحديثـة نما الفن المسيحى متجاهلا أهمية مظاهر الأشياء وتكوينها المنطقى ، متخذا من الصورة وسـيلة لنفاذ النفس الى العالم الالهى ، وهذا هو ما يفسر أسـلوب الفن البيزنطى الخـاص الذى تجاهل الواقعية الى التجريد ، والعقلانية الى الايحاء، وقواعد محاكاة الطبيعة المنطقية كقواعد المنظور، الى ما يثير النفس من الوان وأضواء .

وظل الفن طوال العصور الوسـطى متأثرا بهذا اللقاء بين العناصر المتنافرة من الحضارات المختلفة التى قامت فى حوض البحر المتوسط ، والتى لم تفقد الحضـارة اليونانية اللاتينيـة تأثيرها فيها رغم قيام الامبراطورية الرومانيـة المقدسة . وحافظ الفن على جوهره الروحاني رغم استعانته بثراء المادة وروعتهـا فى التعبير عن جوهره ، كما حافظ على تراث العصـور القديمة المتمثل فى الميل الى الأشكال الهندسية، والى التناسب والانسجام الشكلى الذى يعكس الحقيقة الالهية والذى جعل القديس أوغسطين يفضل العمارة والموسيقى على الفنون التشكيلية التي يبعد تجردها من النسب، الانسان عن التأمل فى المادة لذاتها . وتتجلى ثنائية موقف العصور الوسطى من الحقبة المادية فى الطرازين المثاليين لهذه العصور وهما طراز الرومانسك والطراز القوطى . فلقد اتخذ طـراز الرومانسـك من الفكر ومن مفاهيمه التى يفرضها على الحيـاة الواقعية نقطة بدايته ، بينما قام الطراز القوطى على الخضوع لايحاءات الحيـاة الواقعيـة ثم تكييف انطباعاته بذكائـه وحساسيته حتى يخرجها فى اطار ساحر جذاب . وكان الانتقال من الرومانسـك الى القـوطى مواكبا لتحول العصور الوسطى من نظريات القديس أوغسطين المتأثر بفلسـفة افلاطـون الى نظريات توما الاكوينى المتأثر بفلسفة ارسطو ، وكـان بين الفلسـفتين تباين فى فهم حقائق الوجود والكون . كان افلاطون يعد العالم المادى هو اللاوجود ، ويرى انه ليس الا انعكاسا لنمـاذج صـافية مجردة سماها « المثل » ، وهى التى فسرها افلوطين في القرن الثالث بأن لا شـكل لها ولا لـون وأن الوجـود الحقيقى كامن فيهـا لا فى انعكاساتها على الأرض . وذلك هـو السر فى غلبـة الطابع التجريدى في الفن المسـيحى فى قرونه الأولى وخاصة الفن البيزنطى .

على أن العالم المرئى اذا كان بالنسبة لفلاسفة العصور الوسطى رمزا لله فقد كان فى الوقت نفسه عائقا لانه كان يشد الانسان الى البحث عن منبع الحقيقة من خلاله ، وهكذا كانت المادة مجرد وسيلة لادراك ما وراء المـادة . وحينما اكتملت الترجمات اللاتينية خلال القرن الثانى عشر عن الدراسات العربية لابن سـينا وابن رشد لأفكار ارسطو التى كانت تدرس بجامعة

طليطلة بالأندلس انتقلت الى جامعة باريس عام ١٢١٥ بعد أن كانت هذه الجامعة تحرم دراسة الميتافيزيقا وطبيعتها ، واخذت افكار أرسطو تسود وتنتزع مكان الصدارة من افكار أفلاطون .

ولعب فلاسفة الفرنسيسكان الدور الهام فى تمهيد الطريق لسيادة فلسفة ارسطو التى تقود الانسان الى عالم الحقائق المجسدة وتعطى اهتمامها للعالم المادى حتى فسر القديس فرنسيس الأسيزى الحب الالهى بأنه الانطلاق الى الله عبر العالم المادى ، كما احب الخليقة بوصفها اثر الخالق . وكذلك اتجه الفنانون الايطاليون من تشيمابوى الى جوتو الى الواقعية بدلا من التجريدية البيزنطية . كما رأى القديس بوناڤونتورا المحبة الالهية فى المخلوقات سواء كانت كائنات حية أو جمادا ، وهو ما يعد خطوة نحو علم الطبيعة وفق مذهب ارسطو الذى يعد المخلوقات اشياء حقيقية ذات قيمة ذاتية .

وفرض ألبير الأكبر وتلميذه توما الأكوينى النظرية الأرسطية شيئا فشيئا ، وكان عماد تدريسهما للفلسفة المنهج الاستقرائي المعتمد على الخبرة المحسوسة بدلا من المنهج الاستنباطي المأخوذ عن حقائق مسلم بها ، ومن ثم كان الاهتمام بالطبيعة اكثر من الاهتمام بالافكار . ويمكننا ان نحدد انعكاس الفلسفة الارسطية في الفن في تغير موقف الفنان من الحقيقة ، وانتقاله من معالجة الطبيعة معالجة ذهنية تجريدية هندسية الى اتخاذ الطبيعة كما هى موضوعا لفنه فزخرف بها كنائسه كما نحت تماثيل واقعية ، واخضع العمارة لقوانين المادة وخاصة قانون الجاذبية الذى يعود اليه الفضل فى ابتكار اشكال وطرز جديدة رائعة . كذلك حاول الفنان القوطى فى لوحاته الدينية خلال القرن الخامس عشر اثارة المشاعر عن طريق الايهام بالواقعية بدلا من تحريك الفكر بالرموز والمصطلحات ، وقد كان الاهتمام بالايهام بداية الأصالة الغربية في الفن وهى التى ظهرت حين استطاع **ڤان آيك** تطوير التصوير بألوان الزيت الىحد محاكاة الطبيعة. وقد بقيت هذه الواقعية قاعدة الفن الغربى العامة حتى أواخر القرن التاسع عشر حين ظهر التصوير الفوتوغرافى الذى ادى الى رد فعل ضد الواقعية فى الفنون التصويرية غير الآلية .

على أنه قد ظهرت مع بداية عصر النهضة نظريات جمالية اخرى كردود فعل لواقعية العصور الوسطى : فظهر فى ايطاليا صراع بين الواقعية وبين العودة الى الفلسفة اليونانية القائمة على وجوب تحكم الفكر والمنطق فيما هو محسوس ، كما ظهرت كذلك النزعة الموضوعية العلمية المتمثلة فى ليوناردو دافنشى والتى ادت الى نمو روح العلم والى الكشوف العلمية ، والتى برزتفي الفن الى جانبظهورها فى الفلسفة ، وتمثلت فى الاهتمام بما توحى به الحواس بوصفها المصدر الوحيد للمعرفة في شتى الميادين الفنية .

وبقيت الحياة الفكرية فى أوروبا اسيرة التناقض بين الفلسفة الافلاطونية القائلة بأن الحقيقة كامنة فى العقل والروح وبين الفلسفة الأرسطية القائلة بأنها كامنة فى الحواس . وقد اتجه الفن الحديث اتجاها افلاطونيا لردّه الحقيقة الى مجرد رمز ومضمون روحى معين على نحو ما نراه فى فن جوجان . **ونجد عصورا افلاطونية يسود فيها التطلع الى القواعد العامة وانكار وجود الاستثناءات ، وترتبط بنظم اجتماعية استبدادية تطوىالفرد داخلالجماعة صاحبة السيادة ، كما تميل الىالصيغالذهنية القديمة حيث يخضع العقل لمبادىء ثابتة**

مقررة . ونجد عصورا ارسطوية تزدهر فيها الميول الشخصية والتعبيرات عن التراث . فعلى حين كان فن الرومانسك في العصور الوسطى افلاطونيا اوغسطينيا ، كان عصر النهضة فى ايطاليا ارسطويا يلتمس الوحى من المصادر المباشرة فى الكون ، ويقوم على الملاحظة ومعرفة الحقيقة بطريقة ايجابية يعمل فيها الفكر من اجل اكتشاف قوانين الطبيعة كقواعد التطور التى ترمى الى فهم تكوين الاشكال وتنظيمها من وراء مظهرها المجرد ، والتى ساعدت على خلق مفهوم فنى جديد هو المفهوم الجمالى الناتج عن التنسيق الفنى .

وقد برزت في عصر النهضة اهمية الانسان واهمية فكره وتجاربه الحسية بعد أن كان الله هو مصدر كل شيء فى العصور الوسطى . فقامت فنون شمالى أوروبا علىتجارب الانسان الحسية كما قامت فنون ايطاليا على عظمة فكره . واعلن الفيلسوف **فيتشينو** ان السماء فى متناول البشرية مهما علت ، وأن الانسان يفرض مشيئته حيث كان . انه يحاول أن يكون موضع الثناء والحمد وأن يخلد مثل **الاله .**

وكان هذا الاهتمام بالانسان وهو ليد نزعة ارسطو اساس نمو الفكر البروتستانتى القائم على الاعتماد على الضمير الذاتى فى العبادة . وقد وجد التعبير الذاتى متنفسا فى الفن كما وجده في الدين وخاصة فى البلاد البروتستانتية الشمالية ، ودعمهرمبرانت وڤيرمير فى هولندا. ولا شك أن الاتجاه البروتستانتى الى التعبير الذاتى كان يحمل في داخله بذرة الحركة الرومانتيكية التى ظهرت فى العصر الحديث . على أن الكنيسةقد احستخطر البروتستانتية فقامت لتواجه التحدى بمجامعها المقدسة التى عقدتها فيما بين عام ١٥٤٥ وعام ١٥٦٣ وهى المجامع التى عرفت فيما بعد باسم مجالس ترنته ثم بولونيا ، كما انشات ما عرف باسم الحركة المضادة للاصلاح الديني . وكان الآباء اليسوعيون هم رأس الرمح فى حركة المقاومة الكاثوليكية ، وقد نظموا حركة معاداة للبروتستانتية حتى فى المحيط الفنى ، وجابهوا واقعية الفن البروتستانتى وفرديته بالقوة الجماعية للفن ، وحددوا حرية الفنان بقوانين لا تقبل المناقشة ، وسخروا الفن لاثارة عواطف الجماهير وتحريك اعجابهم بالزخرفة الباهرة التى يحس الانسان أمامها بالضآلة والتىتنبض بالحياة وتألق الاحساس . وقد قال مولينوس اليسوعى « ان الكنيسة هى صورة السماء على الأرض فكيف لا نزينها بأثمن ما نملك من وسائل ؟ » . وازدهر على اثر ذلك فن الباروك بالتواءاته الغريبة وزخارفه المبالغ فيها ، وألوانه المليئة بالحرارة والتوهجواشكاله الصارخة العنيفة ، وقد أضاف الكاردينال باليوتى عام ١٥٩٤ : « أن الكنيسة تود أن تلهب أرواح أبنائها » ، ولم يكن ذلك بتحريك الأحاسيس وحدها بل والانفعالات أيضا ، فقدمت المشاهد الحانية والمهيبةوالمؤثرةمصورة الحماسة المشتعلة والم الشهيد المعذب. وهكذا يذهب المثل الاعلى لعصر النهضة مدفوعا بواسطة السيل الجارف الذى يتدفق بالعلم الذى أحسّ به المصور كاراتشى ، وبعظمة الباروك وحسيته ، وهو الذى علا بتماثيل **برنينى** فى القرن السابع عشر ، والهب فن التصوير فى فينسيا علىايدي **تييولو** ومنافسين من وسط أوروبا ، وكذلك بالسذاجة الواقعية التى طورها **كارافاجيو** حتى جعلها تؤثر تأثير الصدمة العنيفة كرد فعل للمبالغات الخيالية . وتعد لوحة روبنس أعظم لوحة تصور هذه الاهتزازة التى أهملت رقة التعبير الفردى من أجل ابراز الحركة الصاخبة (لوحة ٩) .

واذا كان الصراع الدينى قد ادى الى تبلور مواقف معادية في ايطاليا كما رأينا فقد ابتعث الحماسة الدينية فى كل من أسبانيا وفرنسا . وقد تأثرت اسبانيا وهى قلعة الكاثوليكية التى لم تنجح البروتستانتية في اقتحامها بالتيار الصوفى الذى حمله الحلاج من العراق فى القرن العاشر والذى اتى به المسلمون من أمثال **ابى مدين** فى اشبيلية **وابن عربى** فى مرسيه . وظهر قديسون يمثلون هذا التيار الصوفى كالقديسة **تيريز ويوحنا الصليبى** كما مثله بين الفنانين المصوران **زورباران ، والجريكو** .

وبرز فى فرنسا تياران متميزان فى أوائل القرن السابع عشر يتجه أحدهما نحو الايمان القريب من البروتستانتية ويمثله المصور **فيليب دى شامبين** ، ويميل الآخر الى العذوبة والهدوء على نحو ما نراه في لوحات المصور **لوسوير** .

وظهر فى فرنسا الفنان **بوسان** معاصر **ديكارت** فأبدع النزعة التشكيلية التى ترمى الى امتاع النفس بتنسيق الخطوط والألوان ، ولجأ الى التعبير الذى يربط بين نفس الفنان والمشاهد لفنه ، وهو الذى يرجع اليه الفضل فى ظهور الفن الكلاسيكى .

ثم كان القرن الثامن عشر هو القرن الذى تجاهل المبادىء الذهنية وفضل الاعتماد على الحواس ، لأنه كان يهدف الى الامتاع واثارة الخيال ، وتطورت الناحية الحسية الى شهوانية نحو ما نرى فى أعمال ڤاتو وبوشيه وفراجونار . وقد اتجه الفن خلال هذا القرن نحو الخطوط الحركية والانحناءات والتموجات والهروب من التماثل الهندسى ، وظهرت حركة الباروك المفرطة المعقلة والركوكو القائمة على تقليد أشكال الأصداف والمحارات فى فنى العمارة وصناعة الأثاث .

ومع اطلالة القرن التاسع عشر اخذ تأثير الفلسفة الألمانية يستحوذ على الفكر الأوروبى بأسره . وقد لعبت فرنسا في ذلك دورا هاما اذ حملت مبادىء الرومانتيكية الألمانية ومهدت الطريق لانتشارها مع اهتمامها بالخواص الفردية والانفعالات الداخلية وديناميكية الحياة بدلا من التعميمات المجردة التى نادت بها الفلسفة الألمانية في بادىء الامر . وقد امتدت فلسفة « النور » « آوفكلارونج » الفرنسية الى المانيا كذلك، كما اعانت الاتجاهات الجديدة فى العلوم والفلسفة على البحث والاكتشاف وهما جوهر الرومانتيكية ، وتطورت مبادىء علم حساب التفاضل والتكامل الذى يهتم بالتتابع وبما هو لا نهائى من حيث الصفر أو الكبر ، كما اخذت فكرة اللاوعى والذرات الروحية تلعب دورها فى تكييف الوعى العام والذوق الفنى فى أوروبا .

وكان دلاكروا من أهم مفكرى الفنانين فى القرن التاسع عشر . وقد كتب بحثا طويلا عام ١٨٥٧ أثبت فيه تغير معايير الجمال تبعا لتغير الحضارة ، كما كشف عن النسبية فى الطبيعة الفردية لكل فنان ، ورأى أن الفنان بطبيعته انسان فريد متميز حتى يمكن أن نقول أن فرديته وشخصيته المتميزة هما سر عبقريته حين يقدم لنا وجها جديدا أو فريداً للأشياء التى يصورها .

على أن الفن الفرنسى الذى هجر تقاليده الى الرومانتيكية لم يلبث ان عاد سيرته الأولى فى ملاحظة ظواهر الحياة ملاحظة دقيقة لا تعوقها المبادىء الجمالية والمثالية المختلفة حتى جاء **جوستاف كوربيه** وقال : « أن التصوير محاكاة للأشياء المرئية وان أساس الواقعية انكارها ... » ومن يومها ولدت النزعة الطبيعية في الفن .

كما جاءت صيحة اندريه جيد في كتابه « اللاأخلاقى » : « ان مايميز بينى وبين الآخرين هو ما استطيع أن اقوله وحدى دون أن يقوله غيرى أو يسبقنى اليه » فكانت هذه الصيحة شعارا للفن الحديث فى القرن العشرين الذى يقوم على الأصالة والجدة ومعاداة الأفكار التى سبق معرفتها . غير أن الواقع المادى والقوانين العقلية قد وقفت فى وجه هذا الاتجاه الجديد ، وأصبح امام الفن طريقان : فأما أن يكون اداة للامتاع واما أن يكون تعبيرا عن الذات ، وهما الطريقان اللذان تقاسما المدارس الحديثة . وقد حمل فن الامتاع التقلبات المختلفة التى ظهرت فى فن جوجان والتكعيبية، ثم فن سيزان بتكويناته القوية الى الحركة التجريدية . بينما أفسح فن التعبير عن الذات المجال للكشف عن أعماق حياة الفنان الروحية، وقد مثله فان جوخ والحركة الوحشية الفرنسية وفن ادوار مونش والحركة التعبيرية الالمانية والسريالية التى تستلهم العقل الباطن الذى حسر سيجموند فرويد عنه الستار فى أوائل هذا القرن .

وفى النصف الثانى من القرن العشرين يجد الفنان نفسه مضطرا للاختيار بين اتجاهين احدهما اتجاه الشعبية فى الفن ، وهو في حقيقته امتداد للواقعية البرجوازية منذ قرن كامل ، لان ماديته ليست الا انعكاسا دوجماتيكيا لها . والاتجاه الثانى هو الفن المجدد تماما غير انه يستعيض عن نضجه بابتكارات استفزازية . وتقف أوروبا الهرمة بين الاتجاهين مثقلة بماضيها وبمستقبلها حين تتلاءم مع الاوضاع الجديدة ، موزعة بين اهتمامها بالمحافظة على تراثها وبين رغبتها فى الانطلاق نحو المغامرة الخلاقة ، ويعكس الفن الوليد الغامض هذا الانقسام فى البشرية . ويبدو أن الثقافة لم تتحرر بعد من تقاليدها الجامدة لتختار بين ثقة الجماعة التي يتهددها خطر العمى وبين قلق الفرد الذى يصبح فى يسر عامل نفى وتحلل . ولن يكون الحل فى اختيار احد الاتجاهين المتعارضين اللذين يحمل كل منهما وعودا ومخاطر بل فى محاولة لم تبذل بعد للتوفيق بينهما .

عدّ فاسارى ليوناردو دافنشى ورافائيل وميكلانجلو أعظم فنانى عصر النهضة ، فقد تمثلت في رافائيل جميع التيارات التى سادت عصره، وحمل فن ميلانجلو الارهاصة باتجاهات المستقبل ، فى حين كان ليوناردو قمة للروح العلمية التى كانت قد اخذت تنمو قبل ظهوره، كما كان أول عبقرى حقق الكثير من التجارب العلمية التى خامرت العقول منذ اكثر من قرنين ، وكانت نظريته الفكرية تتويجا للجهود التي بذلت في أواخر العصور الوسطى فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر . ومع هذا لم يجد فن ليوناردو ترحيبا كبيرا من معاصريه الذين لم ينظروا اليه الا على انه مهندس ، والذين قامت فلسفتهم على المذهب الانسانى الذى كان فى حقيقته تجديدا للمثل الافلاطونية واحياء لفلسفة أفلاطون بينما انتمى ليوناردو الى المدارس الفكرية الارسطية التى أزدهرت فى أواخر العصور الوسطى ، عاكفا على البحث التجريبي الخاص بالطبيعة كما هى فى الواقع (لوحة ١٢) .

ونستطيع ان نتبين الصراع بين ليوناردو ومعاصريه فى كتاباته العديدة حين كتب يقول :

« سيتهمنى اعدائى بالقصور عن التعبير لأن ثقافتي ليست أدبية ، مهملين ان أعمالي نتيجة خبرتي لا نتيجة قراءاتى ، والخبرة استاذ كل كاتب ، وقد اتخذتها استاذا لى . . . واذا كنت لا اشير الى كتاب آخرين كما يفعل غيرى فان هذا يكسب كتاباتى قوة خاصة ، اذ اننى أعتبر الخبرة أستاذ أساتذتهم » .

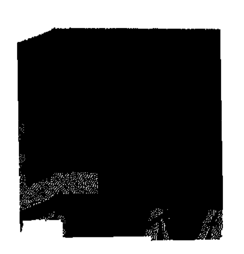


لوحة ١٢ ليوناردو دافنشي
١٢ أ سرطان البحر





١٢ ب الزنبقة





١٢ ج ليوناردو يتأمل اكثر الاسرار مراوغة : طبيعة السوائل وحركة المياه

كذلك هاجم أعداء العلم والسفسطائيين الذين يعنى بهم النظريين قائلا :

« انكم تخطئون أنتم والسفسطائيون ، وتجرون آخرين معكم الى الخطأ حين تحتقرون العلوم وخاصة الرياضه التى تشمل الحقيقة.

وبقى الصراع قائما بين العلم والادب بعد ليوناردو حتى اليوم مميزا للحضارة الاوروبية، فلم يحدث مثل هذا الانشقاق فى حضارة غيرها ، وبقيت اوروبا تعيش فى ظل تقليد مزدوج : تقليد الآداب وليده النهضة او ما نسميه بالانسانيات ، وتقليد العلوم التى تتضمن مفاهيم الدقة والموضوعية والنظام الذى يخضع لضابط خارجى عن الذهن . والمهم فى هذا كله هو ملاحظة ان ليوناردو رائد التجارب العلمية كان وليد العصور الوسطى المتأخرة وليس وليد عصر النهضة .

وتؤكد مذكرات ليوناردو أنه كان يهتم بقراءة مؤلفات القدامى الذين كتبوا في العلوم والتاريخ الطبيعى . واثرت تلك القراءات فى فنه خاصة فى صوره التى رسمها بالقلم الرصاص ، والتى حاول فيها تقديم صورة دقيقة للواقع فى رسمه للبشر والحيوانات والنباتات . اما قراءاته الايطالية فكانت موزعة بين كتب الأخلاق والجبر والرياضة والجراحة والطب والزراعة والموسيقىوالرحلات والسحر وما يدور حول رمزية الأحجار . ولم يكن يعطى اهمية لأفلاطون وقد علق على بحث كتبه « ڤتشينو » عن علم اللاهوت الأفلاطونى فقال فى سخرية : « اننى أترك للرهبان الذين يعرفون أسرار الكون والوحى والالهام مهمة الفصل فيما قاله عن تعريف النفس » .

كان ليوناردو معارضا للوحى او الهوس الذى يعد عنصرا مهما فى الفكر الافلاطونى، وقد وصف نفسه في كتابه « الموسوعة الأطلسية » بأنه تلميذ التجربة ، كما هاجم فيه آراء افلاطون فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم. بينما عد ارسطو امام الفلاسفة لاهتمامه الكبير بالعالم المادى ، وكثيرا ما اقتبس من آرائه في الاخلاق والطبيعة ، واغترف من كتبه عن الأرض والسماء والأرصاد الجوية ، كما اعترف بفضل ابن سينا فى تقديم ارسطو الى العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر الميلادى .

واذا كان ارسطو قد قال : « ان الأفكار العامة وليدة التجارب وحدها » ، وعلق على ذلك توماس الأكوينى بقوله : « ان الافكار العامة ليست الا تجريدا للأشياء المحسوسة ، وان على النفس أن تشتق كل معارفها من العالم الحسى وخاصة العالم الحسى المعقول ، وهو ما يؤكد استحالة معرفة الاله معرفة مباشرة وفقا لهذه النظرية » ، فانا نجد ان ليوناردو قد كتب فى احدى مذكراته ما يثبت قبوله هذا الرأى حين قال : « ان الامور الدهنية التى لا تنبع من الحس أمور باطلة ويستحيل ان تتولد عنها اية حقيقة » .

وقد دفع الاهتمام بالفن ليوناردو الى الاهتمام بالمحسوسات وخاصة بما يدركه بحاسة البصر وبينما كان الأفلاطونيون فى عصره يؤمنون بأن الاشعة تنبثق من العين وتقع على الاشياء ، حذا هو حذو ارسطو وقال بأن العكس هو الصحيح ، وابدى اعجابه بالتقاء الاشكال والألوان واجزاء العالم كله فى العين التى تشبه فى رايه الهرم الذى تستقبل قمته اشعة كل شيء ، وكان يرى ان الجو مشحون بالاهرامات المكونة من المستطيلات التي تتجمع فى العين من كل تلك الاشياء المضيئة .

● ● ●

٥ ـ الفن والمجتمع :

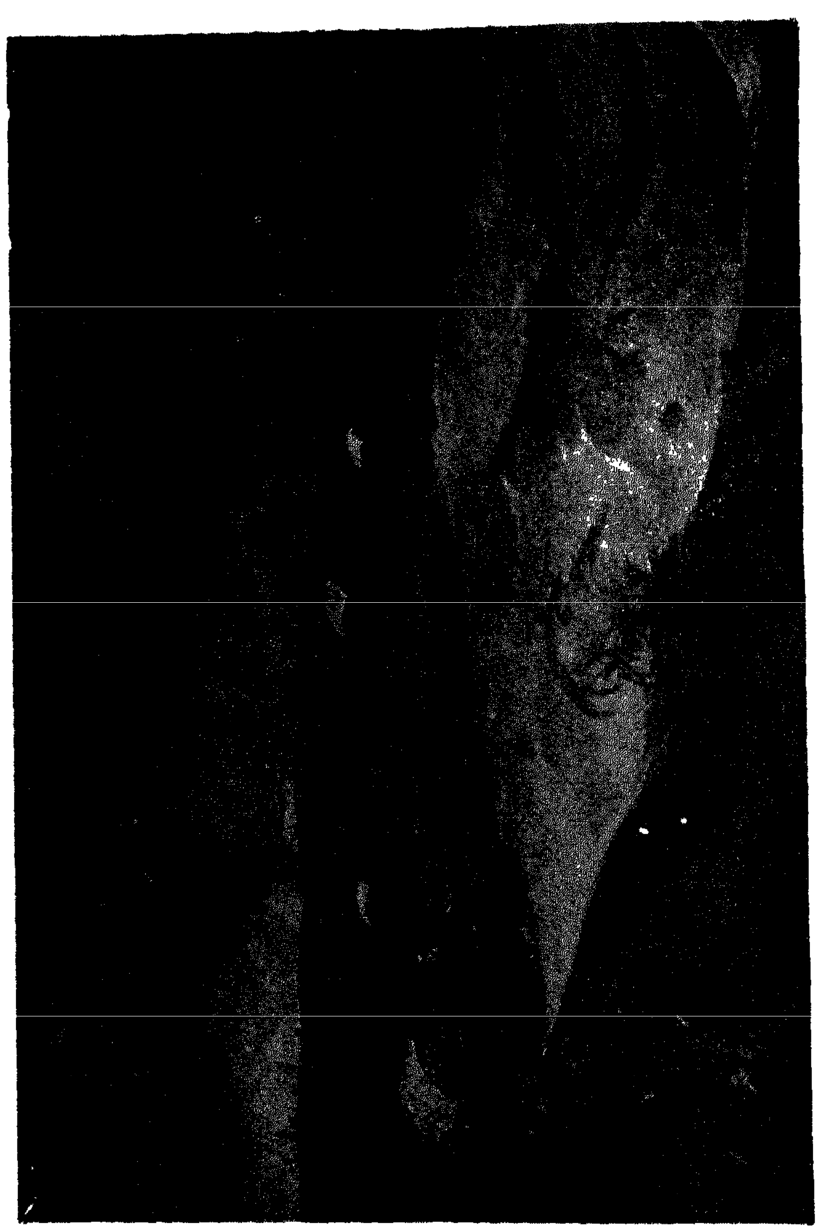
تعد الأعمال الفنية سجلا صادقا لعادات المجتمع وتحولاته التى تترك أثرها الجلىّ في أساليب الفكر والتذوق ، ثم أن فهمنا للواقع الاجتماعى يحدد تفسيرنا لمظاهر هذا الواقع .

وقد حدث لمجتمعات العصور الوسطى ألتى كانت تسودها الأرستقراطية بنظام فروسيتها أن استسلمت لسيادة طبقة جديدة هى طبقة البرجوازية التى أخذت تطالب بواقعية جديدة تتلاءم مع أذواقها واهوائها واساليب حياتها ، وغدا الفن الفلمنكى أوضح تعبير عن هذه الحضارة الجديدة بعد تبلورها فى بلاد الفلاندر .

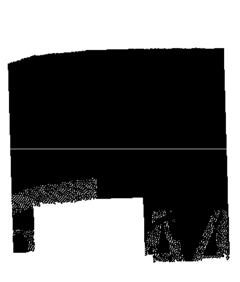
والواقع ان كل حضارة ظهرت منذ فجر التاريخ تميزت بحقيقة خاصة ، وكانت الحقيقة فى الحضارة الهندية القديمة هى الوهم وزيف العالم ، وكانت الحقيقة عند البدائيين هى وجود قوى سحرية تحرك العالم ، وكانت الحقيقة فى الفن الكلاسيكى الذى ازدهر على شواطىء البحر المتوسط هى القناع الذى يخفى وراءه حقيقة لا تراها العين ولكنها أصفى من القناع الذى يسترها ، وهى الحقيقة التى سماها أفلاطون « المثل » والتى أطلق عليها فيثاجوراس « العدد » باعتبارها مبدأ لا يفسر ولكنه يسجل على شكل ارقام ، وهو ما يفسر بحث الفن القديم عما وراء المظهر الخارجى ، عن النموذج الخالد والنسب الكاملة . ورأت العصور الوسطى الحقيقة فى روح العالم التىٰ تختفى وراء العالم المرئى وهى الله ، وليست واقعية الفن القوطى الا مجموعة رموز ومفاتيح لماهية الله . وقد شهد فن القرن الخامس عشر اتجاها جديدا فى الواقعية انتقل معه الواقع من عالم الأفكار المجردة الى عالم الحواس أو على حد قول ديكارت : « يستطيع المرء أن يجد فلسفة علمية تؤهلنا لنكون سادة الطبيعة والمسيطرين عليها بدلا من تلك الفلسفة النظرية الخالصة القائمة على الحدس والتى تدرس في المدارس » . ثم جاءت المدرسة الفلمنكية بالمذهب الوضعى البرجوازي بعد هزيمة الاقطاع المبكرة فى بلادها فخمدت روح التصوف والتأمل النظرى التى كانت تميز العصور الوسطى ، وظهرت الواقعية متضامنة مع البرجوازية فى هولندا فى منتصف القرن الخامس عشر ثم شملت أوروبا كلها خلال القرن التاسع عشر وانتصرت الأفكار المادية ، وارتبط الفن بالعلوم والفلسفة وهو الارتباط الذى بقى حتى عصرنا الحديث والذى نجده واضحا فى ظهور الانطباعية فى الفن ، القائمة على تفتيت المادة واحالتها الى جزئيات فى نفس الوقت الذى وصل فيه علم الطبيعة الى تحليل المادة الى ذرات ، كما نشأ الفن التجريدى الذى لا يعترف بمظاهر الأشياء ويعتمد على تكوينات الفنان الذهنية ، مع ظهور نظرية علمية تدعى أن بناء الكون رياضى خالص وأن الأرقام هى الحقيقة الوحيدة .

على أن أية حركة فنية لم تكن تنقطع تماما عما قبلها رغم اختلافها عنها في جوهرها . ولا شك ان الفن الفلمنكى رغم واقعيته واختلافه عن الفن القائم على الايمان بالحياة الروحية والقيم الدينية كان ينطوى على شعور روحى نلمسه واضحا فى اعمال بعض الفنانين الهولنديين من القرن السابع عشر من أمثال **رمبرانت وفيرمير ورويزدايل** .

ان ميزة الفن الفلمنكى هى أنه ادخل فى تطور الفنون عنصرا جديدا هو تحريك احساس المشاهد بالعالم المادى عن طريق حواسه ، فالفنان الفلمنكى يجعلنا نشعر حتى بالضوء والجو وكأنها أشياء محسوسة ذات كيان يمكن رؤيته (لوحة ١٣) .



لوحة ١٣ بروبجل : العاصفة . حجب الولع بالحركة والحياة في الفلاندرز التنظيم الصارم للاشكال ، ذلك التنظيم الأثير لدى الايطاليين . فقد التقط الفنان كل ما هو محصور في تيارات كاسحة من الطاقة .



انتقلت الواقعية من الاقاليم الفلمنكية الى البرتغال خلال زيارة الفنان المبدع **جان فان آيك** الذى هز قدومه الفنانين البرتغاليين، ومع حركة التبادل الفنى الواسعة التى كانت قائمة بين الفلمنكيين والبرتغال . غير ان البرتغال قد خطت خطوة أبعد نحو اكتشاف الروح الحديثة ومنحت الفن الغربى حس الفرد وقلقه . والواقع ان واقعية القرن الخامس عشر لم تكن الا خطوة نحو الفردية التى كان تطورها من أهداف الغرب .

ويمكننا القول بأن الفضل فى ظهور الفردية فى الفن البرتغالى انما يرجع الى الفنان **نونوجونسالفيس** الذى تميز برسم وجوه بشرية ينطوى كل منها على سر نفس تعبر عن التجاعيد والعيون المحدقة فى الآفاق البعيدة ، وكانت البيئة البرتغالية باعثة هذا الاهتمام بالتعبير عن النفس ، فقد كان الشعب البرتغالى المطل على محيط لامتناهى يشعر فى اعماق نفسه بالوحدة التى يحسها الملاح المحصور بين الماء والسماء، وما اشبه الحياة المرتبطة بالبحر الفسيح بحياة البدو في الصحراء فى تحريكها للانطواء والتأمل فى مسائل الحياة والخلود . وقد نجح الفن البرتغالى فى التعبير عن الفردية تعبيرا يميز كل انسان عن الآخر . بل كان اهتمام الفنان البرتغالى بفردية موضوعه سببا فى محاولته اضفاء البروز والكثافة على لوحاته الى حد يوهم المشاهد معه بأنها واقعية . وقد نجح فى التغلب على سطحية الصورة باكسابها عمقا عن طريق التشكيل والتجسيم اللذين كانا يبدوان فى النحت أكثر مما يشاهدان فى التصوير، وقد انتشرت هذه الصور الشبيهة بالتماثيل فى أوروبا كلها، على ان اهم ما انجزه **جونسالفيس** هو كشفه عن أسرار الانسان ، فقد صور العيون وكأنها منافذ تطل على احلام الافراد الداخلية ، وهى ميزة تميزه عن فن العصور الوسطى التى لم يكن يتميز فيها وجه عن آخر ، وقد حرك جونسالفيس الحزن أمام الموت فى نفوس أبناء عصره حتى انبعث فى كل أعمال الفن البرتغالى من بعده ، واصبح هذا الحزن الذى يبرز وحدة الانسان أمام قدره ، السمة المميزة للثقافة البرتغالية كلها . ونلمح فى صورة للمسيح « هاهو ذا الرجل » من أعمال مدرسة جونسالفيس عن حسرة الانسان وحيرته أمام فناء العالم (لوحة ١٤) .

وبقى التيار الكلاسيكى فى القرن السابع عشر محصورا فى فرنسا ـ الملك وحاشيته لتوافق السلطة المركزية مع ما فى الكلاسيكية من احترام للنسب وللنظام . ولم يندثر تيار الباروك الذى ازدهر في القرن السادس عشر كرد فعل لحركة الاصلاح البروتستانتية والقائم على التطرف والمغالاة فى تجسيد الانفعالات الحارة، وانما بقى فى الريف الفرنسى بعيدا عن سطوة الحكم المركزى والأرستقراطية التى هجرت الريف لتقيم فى فرساى حول قصر الملك القوى لويس الرابع عشر ، وكانت تولوز أهم مراكز الباروك الفرنسى بفضل الفنان انطوان ريفالز رائد مدرسة الباروك الفرنسية فى القرن الثامن عشر ومؤسس اكاديمية تولوز التى تخرج منها آنجر وقد جمع هذا الفنان بين عنف الباروك ووحدة التباين التقليدية عند الكارافيجيين ، بين نقاء الخطوط وتنافر الذوق ، بين التناسق والغرابة ، بين هدوء التشكيل وصخب العواطف البشرية .

● ● ●

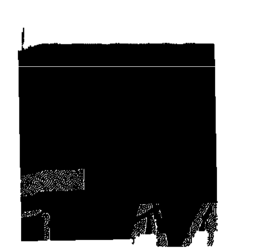
٦ ـ الفن والقومية :

اتجهت أغلب المدارس الفنية الايطالية التى كانت ترمى الى تحديد مفهوم الجمال تحديدا دقيقا ، واخضاعه لنظم وقواعد نحو فلورنسا وروما وبولونيا ، وهى المدن التى ترعرعت فيها النزعة الكلاسيكية فى القرن السابع عشر ثم



لوحة ١٤ نونو جونزالفيس

١٤ أ الفرسان . كل منهم مشغول بنفسه ومصيره وتتجه عيناه نحو اللانهاية





١٤ ب ها هو ذا الرجل في القرن ١٥

الكلاسيكية المحدثة في القرن التاسع عشر ، بينما اتجهت المدارس التى تبغى التخلص من قبضة النظام الجمالية التقليدية نحو البندقية مهد الحركات الثورية الايطالية التى يلهم جوها الشاعرى التجديد والابتكار . وقد تركت البندقية اثرا واضحا على المصورين الفرنسيين الرومانتيكيين مثل **دلاكروا** الذى تلقى الهامه الأول من لوحات **تتسيانو وفيرونيزى** الموجودة بمتحف اللوفر ، بل لقد كانت البندقية احد المراكز الرئيسية لحركات التجديد الفنية التى انتشرت فى أوروبا الغربية بأسرها. وقد تميزت عن جميع مدن ايطاليا، فعلى حين كانت الموانىء الايطالية مفتوحة للتاثيرات الخارجية حتى تاثرت نابولى بالتصوير الأسبانى ، وتاثرت جنوا بفن **روبنز وفان آيك** ، وعلى حين كانت روما تصمد للتيارات البيزنطية والجرمانية من أجل تدعيم شخصيتها ، كانت البندقية مركزا هاما يربط بين الشرق والغرب ويصل المانيا بأيطاليا . لقد تأثرت بعظمة الفنون البيزنطية وبواقعية فنون الشمال الحسية ، كما اثرت بدورها فى الحركة الفنية الأوروبية.

على أن فن البندقية كان فنا حسيا يرد كل شيء للادراك البصرى للمادة ، على غرار ما كان يحاوله الفنانون الفلمنكيون فى الشمال ، ولعل تشابه البيئة فى كل من هذين المركزين هو الذى خلق هذا التقارب بين الفن الفلمنكى وفن البندقية . وكانت الطبقة السائدة هنا وهناك هى طبقة التجار وأصحاب السفن ، ولم يجمع السلطة في أى من البلدين حاكم واحد ، وكان فنان البندقية يصور المادة لذاتها ولما تثيره من لذة حسية في نفس المشاهد والفنان ، على عكس فنان بيزنطه الذى كان مولعا بالمادة لما تسبغه من دلالة على الموضوعات العامة أو الدينية التى ليست لها صفة الفردية .

وقد لعب جورجيونى دورا هاما في ابراز الحياة الكامنة فى الأشياء على حساب شكلها المجرد باستغلال الضوء وتنوعاته خلال ساعات النهار ، كما أضاف **بلليني** عنصر الاثارة للصورة بولعه بما رآه فى الشرق خلال زيارته للسلطان التركى محمد الثاني عام ١٤٧٩ من امور مثيرة للدهشة والاعجاب وخاصة النسيج . ويمكن وصف التصوير فى البندقية بأنه فن مثير تحول الى فن حساس ، ذلك أن كل احساس يتحول عادة الى انفعال ، وكل انفعال يساعد على ايجاد حالة روحية معينة ، ويمكننا القول بعبارة فنية أن الرسم يتحول الى اللون ، والشكل يتحول الى الجو المحيط به ، والذهنى الخالص يتحول الى العاطفى الخالص ، وبينما كان الفنان الايطالى عامة ينظر الى فنه على انه فرع من فروع العمارة بما يتضمنه من قواعد ونسب ، كان فنان البندقية ينظر اليه على انه موسيقى يهدف الى اثارة حالات نفسية معينة .

ويرجع الفضل فى التحول من التشكيل الى الموسيقى الى ثلاثة من أحسن فنانى البندقية وهم **تتسيانو وفيرونيزى وتنتوريتو** ، وكانوا لا يؤمنون بمحاكاة الواقع بل بخلق عالم جديد قائم بذاته داخل اطار الصورة يمتع العين بأضوائه وألوانه ، ويثير الاعجاب بصرف النظر عن حقيقة الموضوع الذى يصوره . وهكذا كان هدف فن البندقية الرئيسى هو اثارة الحالات النفسية المختلفة عن طريق الصورة ، وهى الحالات النفسية التى حاولت الرومانتيكية أن تثيرها فيما بعد من حزن صبياني تحركه شدة الشهوة الى شعور عميق بسرعة تقلبات الزمن.

فاذا انتقلنا الى فرنسا وجدنا التصوير الفرنسي يهدف الى اجادة تصوير الشخصيات وتصوير الطبيعة . وقد وجد الذوق الفرنسي فيهما وسيلة للتعبير عما يكمن فى النفس ، وان

تركز اهتمام الفن الفرنسي خلال تاريخه الطويل على الصورة الانسانية دون اهتمام بتمثيل الطبيعة في خلفية الصورة ، على غرار الشعوب الشمالية التى عشقت هى الأخرى الصورة الانسانية .

وقد اختلفت صور الأشخاص فى الفن الفرنسي باختلاف العصور ، وان توزعت المدارس الفرنسية بين الوقار والابتسام تغلب احداها هذا وتغلب الأخرى ذلك ، وان تواكبا معا فى كل وجه بشرى حتى يمكن القول بأن الوجه الفرنسي يعبر عن وقار مبتسم . وقد غلب على الصورة الانسانية فى العصور الوسطى تعبير عن حماسة شبه دينية ، بينما اتسمت في عصر النهضة بطابع الترفيه الممتزج بالشهوة ، ثم اخذت تعبر فى القرن السابع عشر عن التوتر النفسي الشديد ، وعبرت فى القرن الثامن عشر عن لذة الحياة ومتعتها ، حتى اذا جاء عصر الثورة وبداية عصر الامبراطورية اخذت الصورة تعبر عن التطلعات القومية التي تبرز فى ملامح الحزم والعزم والتفكير العميق المتمثلة في وجوه الرجال والتى تبدو فى ملامح الكياسة والرقة والشاعرية التى تكسو وجوه النساء . لقد حفلت صور هذه الفترة بالتعبير عن طبيعة النفس الفرنسية وعن فطرته وولعه بالتفكير فى أسباب وجوده وفى اهداف حياته وفى أساليب الوصول الى هذه الأهداف ، وعن احساسه بالمسئولية عن توجيه حياته ، وعما يميزه من كبرياء ممتزجة بالمنطق وميل الى اخضاع سلوكه لقواعد عامة .

والواقع أن كل شعب يمثل نموذجا بشريا خاصا ، فالأسباني شديد التصوف لا يقبل المساومة ولا انصاف الحلول ، والألمانى محارب خاضع للسلطة ، والانجليزى تاجر وفلاح ، أما الفرنسي فانه من قديم الزمان فلاح وجندى فى نفس الوقت ، يخضع لنظام تقبّله عن اقتناع واختيار حر . غير أنه قد أضيف الى هذا النموذج التقليدى نموذج فرنسي جديد يمثل ساكن المدن من الطبقات المتوسطة . على أن الفرنسي شديد الاهتمام بالمرأة وجمالها حتى اننا نرى الذوق الرفيع بارزا فى صور المرأة الفرنسية كما نحس أنها رمز للحلم وللوحى الفنى .

وقد لعب وضع فرنسا الجغرافي بين هولندا وايطاليا دورا فى تأرجحها بين تقاليد الشمال والجنوب ، وان غلب على فنانيها استلهام الشمال في تصوير الوجوه البشرية والتأثر بالواقعية الفلمنكية والهولندية . وقد استوحى عاشقو العرى ومصورو الانسان باعتباره جزءا من الطبيعة فنون ايطاليا وتقاليدها .

وظهر التباين واضحا فى مدارس فرنسا الشمالية والجنوبية ، وارتبط ازدهار تصوير الوجه فى أوائل القرن السابع عشر بظهور طائفة من الفلاسفة الريفيين المولعين بالانطواء والبحث فيما وراء الطبيعة ، كما ارتبط تدهوره بارتقاء لويس الرابع عشر عرش فرنسا وهو المؤمن بالدكتاتورية والسلطة المركزية دون الاهتمام بمشاكل النفس ، حتى كثرت بسمات الرضا على اوجه لا يتميز احدها على الآخر بميزة شخصية أو فردية .

والواقع أن تصوير الأشخاص في فرنسا يعكس حياة الشعب النفسية ، فلم يكن يعرض من الانسان غير مظهره الخارجي فى العصور الوسطى وكأنه جسد بلا روح ، ثم أخذ يظهر اهتماما بالحركة والقلق . ولعل سر هذا الاهتمام مرده الى نظرة **هنرى برجسون** الفيلسوف الفرنسى الى أن تاريخ الأفكار الفنية أو العلمية هو تاريخ الانتصار على العناصر المتحركة فى الطبيعة . وقد حاولت العصور

الوسطى فى بدايتها اخضاع كل شيء لحقيقة ثابتة هى الايمان الديني المتمثل فى كنيسة ذات نظام دقيق وفي شريعة لا تقبل الجدل ، غير أن نهضة القرن السادس عشر قد تفجرت عن نزعتين تهدفان الى تخليص الفرد من هذا الجو الثابت ، فأحلت النزعة البروتستانتية حرية الارادة محل الايمان الأعمى ، وخلّصت النزعة الانسانية الفن من النظر اليه على أنه قربان للآلهه وجعلته وسيلة لارضاء أسمى ما فى النفس البشرية .

واهتم القرن الثامن عشر بتصوير الانسان فى بيئته العادية وعلى طبيعته دون اسباغ هالة خاصة عليه ، ودون اثارة المشاعر نحوه ، وقد تحررت صورةالانسان من كل ما يحدّ حركته، بينما حاول القرن التاسع عشر التعبير عن مكنونات النفس عبر نظرات العيون خاصة . وكانت عصور التغير والقلق الاجتماعى دائما هى العصور الذهبية لصورة الوجه البشرى ، كما حدث في عصر الأسرة الثامنة عشرة فى الدولة المصرية القديمة حين تدهورت ديانة **آمون** التقليدية ، وحلت محلها عقيدة أخناتن ، وكما حدث فى أواخر عهد الدولة الرومانية حين تعددت العقائد وتنافست ، وكما حدث فى فرنسا فى القرن السادس عشر عند انطفاء ايمان العصور الوسطى ، ثم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع ظهور الحركات الثورية المتنوعة .

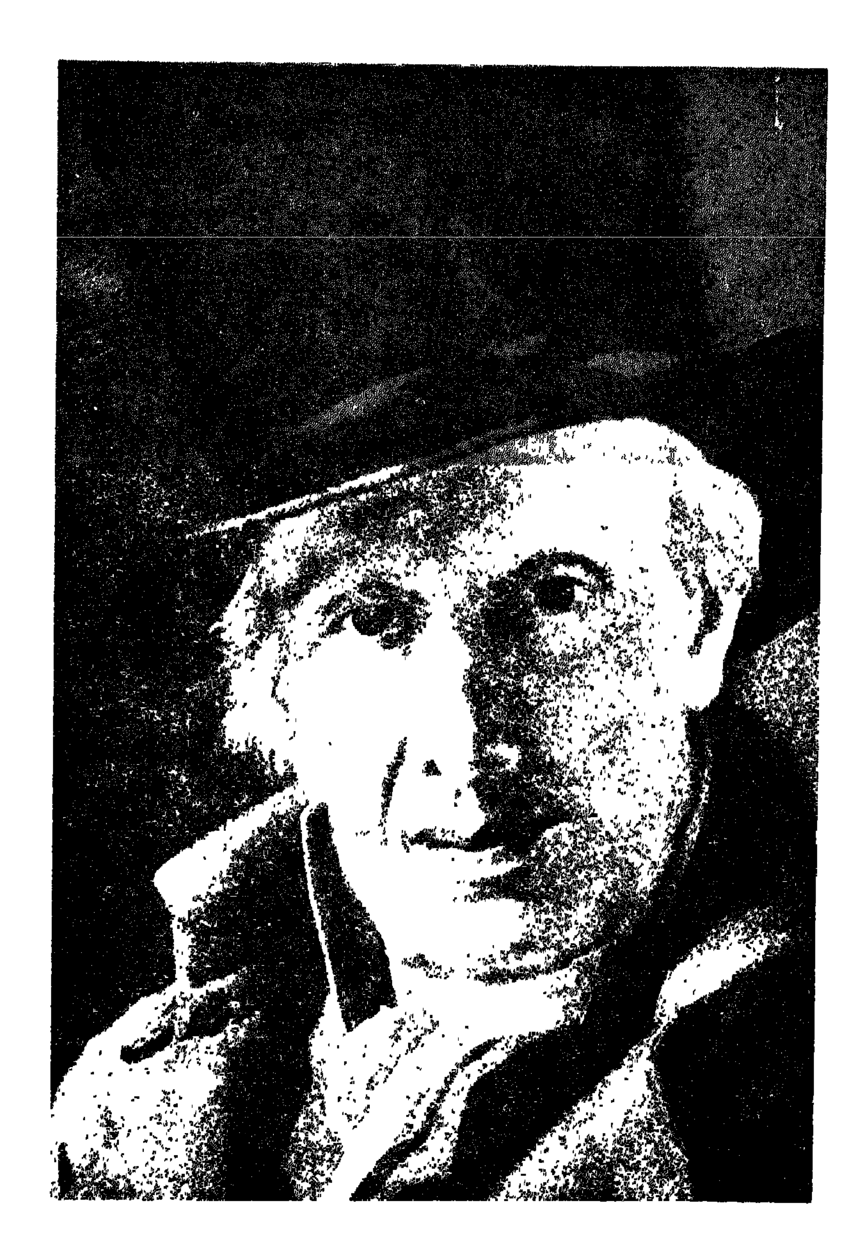
وكان اهتمام القرن التاسع عشر بكشف مكنونات النفس ايذانا بخروج فن التصوير عن قواعده التقليدية ، فقد أخذ الفنان يضحى بالتشكيل التقليدى للوجه البشرى من أجل الكشف عن الانفعالات الداخلية والقلق النفسي (لوحة ١٥) .

●●●

٧ ـ الفن والفرد :

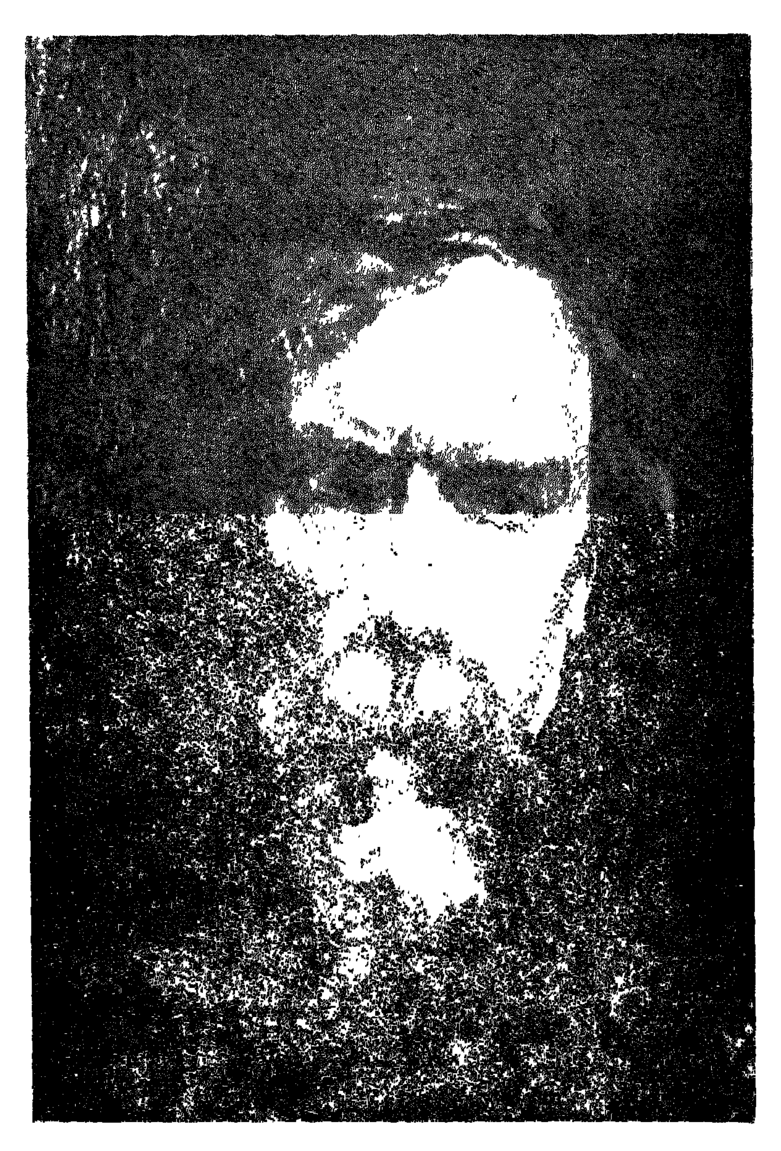
تألقت النزعة الانسانية فى عصر النهضة فأخرجت الانسان من عالم الغيبيات والدينيات الى عالم الطبيعة الذى يعيش به ، وتحول الحوار الداخلى بينه وبين الاله الخفى الى حوار بينه وبين الطبيعة ،وأخذ الفنان يسجل مظاهر العالم مصورا الانسان على أنه جزء من هذه الطبيعة ، وازداد الشعور بعالمية الانسان وعظمته معا . قال **روبنس** اشهر فنانى هذه النزعة الانسانية : « اننى اعد العالم بأسره وطنا لي » ولم يجر باحثا وراء الطبيعة ، ولم يعن بمشاكل الانسان النفسية وانما اهتم بالمعنى العميق الكامن فى الطبيعة . كان روبنس شديد الميل الى انجاز اعمال كبيرة تصور جوانب الحياة المختلفة بدلا من الأعمال الصغيرة التى تشبع الفضول أو التأمل الداخلى ، فقد دفعه شعوره الغامر بحياة العالم كله الى تجاهل التحديد الدقيق ، فجمع بين كائنات العالم المختلفة وأضوائه العديدة فى مجال واحد (لوحة ١٦) ولهذا لم يخضع تكويناته الفنية للقوانين التقليدية عن التماثل وثبات الأشكال ، وانما كانت تظهر في أشكال غير مألوفة تكثر فيها الانحناءات والالتواءات وكأنما تدفعها تيارات فى حركة مستمرة .

على ان روبنس قد أعطى اهتمامه الأكبر لجسد الانسان فصوره مليئا بالحيوية والحرارة ، ولم يكن يحدد خطوطه الخارجية حتى يعبر بذلك عما يشيعه من حركة وحياة . ومع مرور الأيام أخذ روبنس يمنح اهتمامه للجانب الروحى للانسان ومضى يصور الجسد البشرى ليضيف الى تعبيره عن بهجة الحياة رهبته من الموت ، وعناءه فى سعيه من أجل لقمة العيش ، وحين أوشكت حياة روبنس على الانتهاء أخذت نظرته تمتد الى الغاز الكون والى العالم الأخروى .



لوحة ١٥

١٥ ا داڤيد : رجل ذو قبعة . احتلت الشخصية المكانة الاولى
فى القرن التاسع عشر



١٥ ب كاربو : صورة شخصية للفنان . احرقت لهب الرومانسية الملامح العضوية فكشف عن قلق الانسان الداخلي



١٥ ج كاربير : الفونس دوريه . غدا الأسي الشخصي فى نهاية
القرن التاسع عشر لونا من الانهاك يتجلى فى التقنة



١٥ د مونيه : صورة شخصية للفنان . مع المدرسة الانطباعية
تتلاشى الشخصية والحياة الباطنة ، مهتمة بالامانة البصرية



لوحة ١٦ روبنز : عيد جميع القديسين الى احساس روبنز بعالميه الانسان يعود الفضل فى تخطيه حدود الشكل الحتمية والايحاء بالانصهار التام بين الناس والاشياء والضوءوالفراغ مما اسفر عن عالم متواءم نابض مضطرم كالمحيط

ولعل الفنان الفرنسي الكبير **بوسان** لم يكن رائد الكلاسيكية الجامدة فحسب حسبما روت كتب تاريخ الفنون وانما كان الى جانب ذلك عبقريا فريدا كما اوحت بذلك تعليقات **دلاكروا** . كان بوسان فلاحا فرنسيا يهيم كغيره بكل ما هو محسوس فعكف على تصويره فى لوحاته متجنبا المعانى المجردة التى تعد عماد النزعة الكلاسيكية . وهكذا لم تكن عبقريته ذهنية تعليمية ، وانما كان عبقريا في احساسه بالحياة فى عمومها وفى حبه الريفى للطبيعة والذى جعله يبرزها فى لوحاته على انها موضوعه الرئيسي لا على انها خلفية لموضوعاته ، كما كان بوسان مولعا بجسد المراة لذاته ولما يحركه من اعجاب وشهوة لا بوصفه قناعا لمعنى تجريدى .

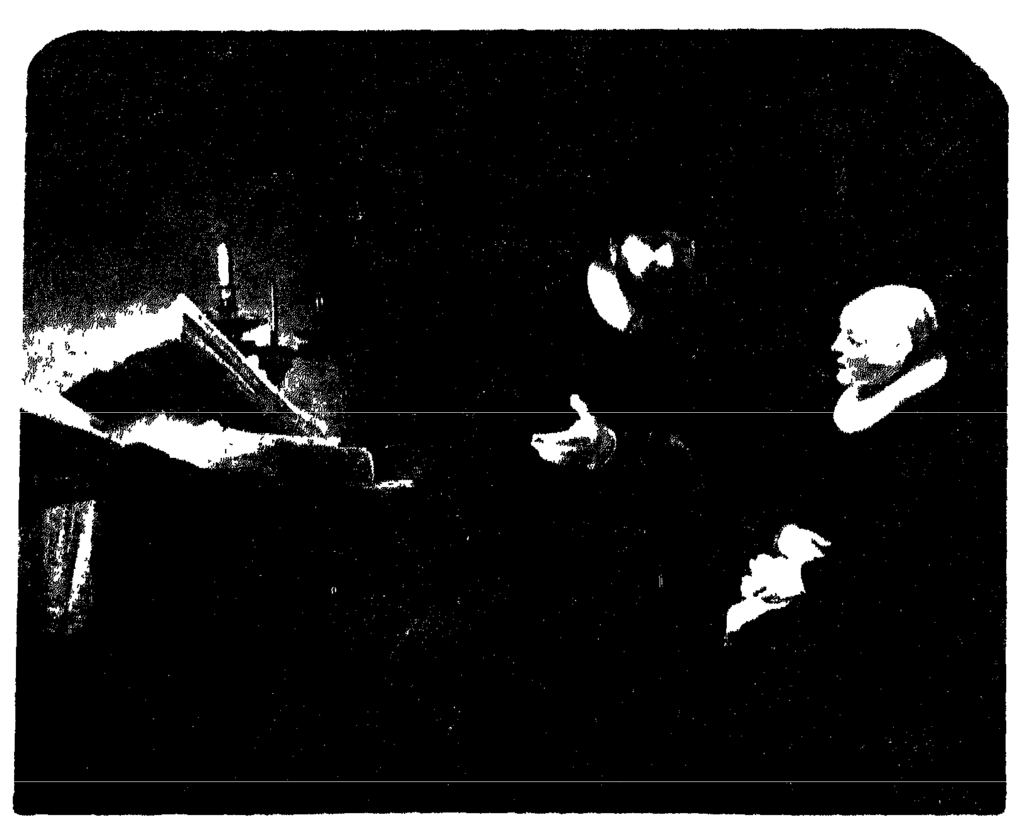
ويمكن تحديد عبقرية بوسان في ولعه بالحياة وبالعقل معا . وقد كان تطور العلاقة بين هذين العاملين هو الذى يحكم تطوره الفنى ، واذا كانت حماسته للحياة قد غلبت على عمله الفني فى سنوات نضجه الأولى فيبدو انه اخذ يخضع لفكره فى منتصف عمره . على انه قد اهتم فى احدى فترات حياته بتلوين الوجه البشرى بطريقة تجعله اقرب الى النحت منه الى التصوير .

ونستطيع أن نلخص حساسية بوسان في اتجاهين مهمين : هما ولعه بألوان النبات والتربة فى الطبيعة ، ثم توفيقه بين روح الانسان وروح الطبيعة ، محاولا تطبيق قواعد الحياة النفسية الانسانية على عالم الطبيعة بحيث يبرزه فى اتساق جميل ونظام معقول . وقد أدى تفكير بوسان هذا الى اهماله الشخصيات التي يصورها ضمن لوحاته وتركيز اهتمامه ـ على غرار فاتو ـ بالتشكيل العام للوحته والتوفيق بين عناصر اللوحة الانسانية وغير الانسانية .

وقد لعبت مدارس بولونيا وروما دورا فى تشكيل ثقافته الفنية ، كما امدته مدارس البندقية بالحساسية الكامنة في فنه ، وقد يكون له فى تصوير المشاهد الخلوية اسلوب يحمل الذوق الروماني . وتتجلى عبقرية بوسان فى تنسيقه بين حسه وتفكيره لا يجعل احدهما يغلب الآخر ويخفيه ، ولهذا يجب أن نفهم كلاسيكية بوسان على انها تنسيق واع لكل ما يكمن فى النفس من غرائز واحاسيس وافكار معا .

اما **رمبرانت** فقد لعب ظهور البروتستانتية دورا في تشكيل عبقريته . ولما كانت البروتستانتية عبادة فردية على عكس العبادة الكاثوليكية الجماعية ، تعمل على ابراز الجوانب الذاتية للفرد وتعطى أهمية كبرى لمسئوليته الشخصية أمام الله ، فقد وجه رمبرانت اهتمامه للجوانب الفردية وأخرج العديد من الصور الشخصية التى حاول فيها التعبير عن الحالات النفسية لشخصياته . بل انه وجه اهتماما كبيرا بصورته هو ، وكأنما كان يبحث عن ذاته خلال تسجيله للتعبيرات المختلفة التى تتتابع على وجهه . وقد برع فى تصوير وجهه الى حد التعبير بمجرد نظرة خاطفة أو لفتة بسيطة عن انفعالات روحه المختلفة ، وكذلك حرص فى تصويره للآخرين على اختيار حركة مميزة تكشف سر شخصياتهم (لوحة ١٧) .

على أنه اهتم خاصة بأسرار النفس فى لحظات العزلة والوحدة التي يتأمل الانسان فيها سر الوجود وعلاقة الانسان بالله ، وهو ما تشهد به صوره المجملة التى يلخص فيها الشكل الخارجي بخطوط سريعة ، مركزا اهتمامه في نظرة التأمل المنبعثة من العيون (لوحة ١٨) ، بل ان اغلب لوحاته تجسد احساس الانسان بالعزلة فى هذه الحياة ومواقفه المختلفة حيال



لوحة ١٧ رمبرانت : الواعظ انسلو وزوجته



لوحة ١٨ رمبرانت : امرأة قرب النافذة

هذه العزلة . وقد ذهب رمبرانت فى كشفه عن العزلة الانسانية الى الكشف عن المحبة التي تربط بين الناس بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الله لأن المحبة وسيلة التغلب على العزلة ، معبرا عن هذه المحبة فى لوحاته التى صور فيها المسيح .

وقد برز فنان آخر في تصوير العزلة هو « ڤاتو » الذى اعتزل العاصمة الفرنسية خلال حكم لويس الرابع عشر . وقد أفرغ مرضه المبكر بالسل مزيجا من الحزن والأناقة فى أغلب لوحاته حتى تميز فنه بهما . وكان فنه فى بداية حياته فنا قصصيا يتصف بواقعية وعمق احساس بحياة الريف الذى يعيش فيه والمثقل بآثار الحروب ، ثم سيطر احساسه بقصر الحياة وآلامها على فنه فأخذ يشيع فى لوحاته حزنا مستعذبا خلال جو من اللهو الذى يهيمن عليه الظلام . وقد برز احساسه بالحزن والفناء الذين يهددان كل ما يفعله الانسان حتى في تصويره للمواقف المرحة أو الحفلات المتأنقة فى بلاط لويس الرابع عشر ، حتى يوحى جوها العام بالحزن الذى لا يظهر فى الوجوه الشخصية (لوحة ١٩) .

كانت نهاية العصور الوسطى نهاية لروح التضامن الجماعى وازدهاراً للروح الفردية التي غيرت من شكل الفن الذى كان فى العصور الوسطى نوعا من الحرف التى تخضع لنظام مرتبط بذوق العصر الجماعى وحولته الى عمل فنان مبدع متميز . وقد وضع الفنان الفرنسى **دلاكروا** والشاعر الفرنسي **بودلير** فلسفة لهذا الاتجاه الجديد حين جعل من وظيفة المصور مواجهة العالم المرئي واستغلال عناصر الطبيعة للتعبير عن ذاتيته الفردية ، وقد اتخذ بودلير من الطبيعة قاموسا له ، فهى معجم المرئيات ومخزن الصور التى يختار منها الفنان ما ينسقه في تشكيل جديد خلاق يعبر به عما يختلج فى نفسه من أهواء وميول . ولم يعد الواقع هدفا يبغى الفنان الوصول اليه بل نقطة بداية ينطلق منها ، كما أصبح العمل الفني على حد تعبير دلاكروا جسرا موصلا بين النفوس ، أو بين نفس الفنان ونفوس مشاهدى فنه ، ونجد فى (اللوحة ٢٠) ، تنسيقا جديدا لعناصر من الواقع تعبر عن انفعال نفسي هو شعور الانسان العظيم بالوحدة ، وهو معنى لا يمكن ادراكه من رؤية عناصر الواقع منفردة .

وهكذا لم يعد الفن نتاج القدرة على محاكاة الواقع بل القدرة على الايحاء بانفعالات ومشاعر نفسية شبيهة بقدرة الموسيقى على التأثير فى السامع . بل ان دلاكروا نفسه قد اقترح مرة عزف سيمفونية خلال عرض صوره حتى يزداد تأثيرها نفاذا الى نفس المشاهد ، كما أعلن بودلير في احدى قصائده عن وجود تجاوب بين العطور والالوان والأصوات .

وقد شغلت الالوان مكانا ملحوظا فى فن دلاكروا لشدة تأثيرها على النفس بينما وجهت المدارس الفنية الكلاسيكية السابقة عليه اهتمامها بالخطوط والاشكال باعتبارهما ترجمة ذهنية للواقع المرئى ، فأسبغ دلاكروا بألوانه صبغة شاعرية خلاقة على اعماله الفنية . وكان يقول : « من أبدع فنا أبدع شعرا » والمح الفيلسوف لا ينتزج فى القرن الثامن عشر الى انطواء كل فن حقيقى على غرض شاعرى حين قال : « تكمن فى العمل الفنى قدرة على انتاج شيء يشبه اعمال الاله في صورة مصغرة » .

على ان الفنانين الرومانتيكيين المحيطين ببودلير ودلاكروا قد انغمسوا فى تعاطى المخدرات الجديدة التى اكتشفت فى أوائل القرن التاسع عشر والتى تفوق الخمر فى



لوحة ١٩ فانو : واجب لكل مرحلة من مراحل العمر



لوحة ٢. ديلاكراو : تاسو فى بيت المجانين . سخرية المجا نين بالشاعر واستوحاد العبقرى

تأثيرها ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى « تعدد ذواتهم » فقد كانت الفردية هى هدف الرومانسيين الأول. وبقدر ماكانت الكلاسيكية تحاول أن تتطلع الى مركز اتزان النفس في الانسان وهو عقله الواعى ، كانت الرومانتيكية تهدف الى التهرب من هذا المركز ودفع الانسان خارج دائرة نفسه بحثا عن المجهول والغريب والخارق للعادة ، ولهذا امتلأت صور الرومانتيكيين بالضخامة والحركة والرعب لأن هذه العناصر تخرج الانسان من مركز اتزانه الطبيعى . على ان المخدرات لايمكن ان تكون خالقة لقدرة على عمل شيء بل هى خالقة لوهم على اداء هذا الشيء ، وكذلك ظن الرومانتيكيون ان المخدرات تمنحهم القدرة على اختراق غلاف الغموض الذى يحيط بالحياة فقد كانوا يتطلعون الى الذوبان فى العالم .

• • •

٨ ـ الفن واللامعقول

يحس انسان القرن العشرين انه قد اقصى من مركز العالم كما طرد جده آدم من الفردوس . غير ان مركز العالم هنا لا يعنى مركزه الجغرافي الذى انكر وجوده جاليليو وانما مركزه المعنوى ، فقد كان الانسان يظن ان اشعاعة فكره هى التى تضىء الظلمات ، فاذا بالأرض تستحيل تحت قدميه الى بحر مظلم عميق ، واذا هو يحس احساس الغريق الذى تتلاعب به الامواج : حياته شبيهة بقطعة من الخشب يتشبث بها وسط الموج . وقد انعكس هذا الشعور بالفوضى وعدم الاطمئنان على الفن الذى جاهد ليتجاوز حدود العقل وحدود المألوف بحثا عن رموز جديدة فى عالم مجهول تجعل لحياته معنى . وقد قال العالم **فيهلنز :**

« نحن ضحايا دوامة يفقد فيها الأحياء ذاتيتهم دون أن تختفى مادتهم . اننا نحس اننا نسبح فى فراغ ، يفلت الواقع المادى من ايدينا ، ويتفتت كل شيء دون ان نوقف تحلله او ان نمسك بطرف منه . ان الكائن يتهاوى او يتفتت ونحن معه نختفى » .

ويتساءل رينيه ويج في النهاية بعد هذه النظرة الى الحياة المعاصرة ان كنا نعيش فى عصر افلاس تام ، أم فى عهد ميلاد جديد ، فيقول :

« حاول الانسان منذ فجر التاريخ اعطاء العالم معنى خاصا ، فجعل للطبيعه وجها بشريا مغايرا لوجوه البشر ، وملأ عالم الغيب بآلهة واشباح شبيهة به فلم يحس بالوحدة وسط عالم الآلهة المتعددة . فاذا ظهر عصر الاله الواحد صورة الانسان على هواه خلال العصور المتتابعة : فجعله فى العصور الوسطى مجموع الألغاز التى تهدد كيان البشر ، ونسب اليه ارادة لايملك الانسان حيالها الا الخضوع ، وصوره في القرن السابع عشر قريبا من البشر حين جعله تجسيدا للعقل الالهى الأعظم الذى لاتختلف قواعده كثيرا عن قواعد عقولنا ، ثم ذوب فى القرن الثامن عشر فكرة الاله فى فكرة الكائن الأعظم والخالق الذى انشا العالم دون ان يهتم كثيرا بما يجرى فيه . وخلال الثورة الفرنسية تحول الاله الى مجرد قضية منطقية من قضايا المنطق ، ثم اخذ العالم مكان الله وانكر وجوده وجعل الكمال فى مستقبل البشرية لا في ماضيها . وانتشرت فكرة التقدم التى اعطت الأهمية الكبرى لعقل الانسان وقدرته . غير انه كلما حقق العلم انتصارا جديدا تزايد قلق الانسان على مصيره فى العصر الحديث ، واحس بالظلمة تحيط به وشعر بتفاهته وقصور علمه ، وازداد حيرة وتخبطا بين الايمان

بالله او الكفر به وكأنما عاد من حيث بدأ ، وذلك ان النظريات العلمية الكثيرة عن نشأة الكون وتشكيل المادة قد أظهرت قصور العقل البشرى عن ادراك العالم ادراكا كاملا ومطلقا ، فمازال فى استطاعة الانسان أن يكتشف ويقدر ولكنه لايملك أن يعلل او يفسر .

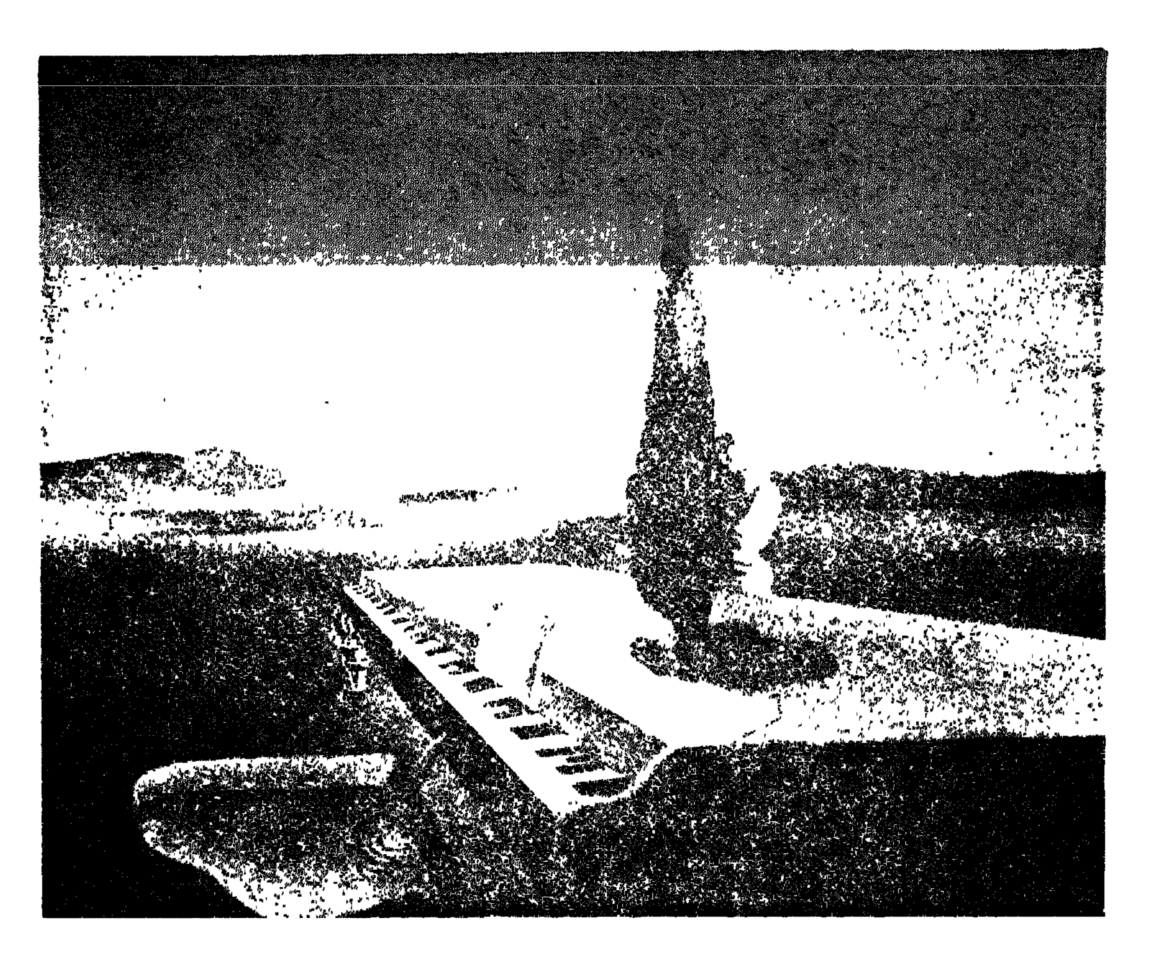
وقد بدأت فنون القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تسخر من محاكاة الواقع ، وكانت الحركة التكعيبية أول محاولة جريئة صور فنانوها الواقع وكأنه يلوح من خلال مرآة محطمة ، كما ترك فنانو الحركة السيريالية أيديهم تهيم على لوحاتهم دون ضابط أو منطق (**لوحة ٢١**) ساخرين من الواقع بتكوين اللوحة من عناصر واقعية لاتجتمع عادة في الواقع ومن ثم تأخذ شكل الأحلام وتخرج الى دائرة اللامعقول كأن يضعوا وسط الصحراء معزفا تنبثق منه شجيرة ويتدفق منه ماء يشكل تحته غديرا (**لوحة ٢٢**) ، ثم تأتى الحركة التعبيرية التجريدية مستهدفة الخروج عن منطق مألوف وتشكيل واقع جديد على اللوحة لاينتمى الى واقع معروف .

ويمكن تلخيص ثورة القرن العشرين فى عجزها عن تقديم تعليل منطقى واع لأعمال البشر . وقد لوحظ اليوم ان اللامعقول الذى صور فى بادىء أمره شبه ثورة نفسية تجاه تحلل الحضارات والنظم الفكرية المعروفة قد أصبح منتجعا يحس الانسان الى جانبه بالراحة والمتعة ، ولا نزاع فى أنها متعه مريضة تحمل خطرا داهما على عقل البشر ، غير أنه مما يبعث على بعض الاطمئنان أن بوادر عدم الاستسلام للامعقول قد أخذت تنمو فى بعض الاتجاهات التجريدية الجديدة في الفن المعاصر .

لقد أخذ الفن الحديث يعكس الأزمة النفسية العميقة التى يمر بها الغرب فى هذا القرن ، وتكشف الاتجاهات الفنية الحديثة عن رغبة كبيرة فى الهروب الى آفاق غريبة أو بدائية ظهرت في الولع بالفن الزنجى القديم مع بداية القرن العشرين . وليس الاتجاه الى الفنون البدائية الا ظاهرة من ظواهر عودة العقل الواعى الى العقل الباطن برموزه وأحلامه الفريزية . فأخذ الوجه الانسانى النبيل يختفى شيئا فشيئا من الفن المعاصر لتحل محله صورة الحيوان المتوحش الذى يرمز فى الخيال البشرى الى الحضارة القديمة . ومن الطبيعى أن يهرب العقل الانسانى الى التفكير فيها كلما حاصرته ازمات الحياة المعاصرة . وهذا هو مايفسرلنا الى حد بعيد انتشار الأفلام المخيفة التى تجمع بين اكتشافات العلم الحديثة وظهور الوحوش التاريخية القديمة .

على أن الحيوان الوحشى يلعب دورا آخر فى الخيال البشرى لأنه يرمز كذلك للشيطان الذى يسيطر على كثير من شئون الحياة ، وهكذا يخشى العقل الباطن الحيوان ويتلمسه فى آن واحد . وقد عاش الانسان فى أواخر العصور الوسطى تجربة مماثلةلتجربتنا الحالية حين أحس القلق أمام عصر جديد يجهل ملامحه فأخذت مخاوفه تتركز في الشيطان الذى يبدو فى صورة حيوان خرافى (لوحه ٢٣) .

وحقيقة الامر ان الانسان دائم البحث عن تفسير لوجوده في هذا العالم منذ القى به فيه ، وقد وجد مايهدىء من روعه ويكسبه بعض الاتزان خلال بعض العصور ، فقديما أمدته الحضارة الاغريقية بقوانين تنظم العالم على غرار القواعد التى تنظم الفكر الانسانى ، فاختفى القلق من حياة الانسان وأحس بنفسه سيدأ للكون وأصبح الموضوع الرئيسى فى الأعمال الفنية التى لم تهتم بحيوان سوى



لوحة ٢٢ سلفادور دالى : مصدر الاصوات السريالية تضرب بالعقلانية عرض الحائط . فبينا تحتفظ اجزاء الواقع بمظهرها المألوف للعين يجيء ترتيبها عابثا اذ يتوسل العقل باللاشعور



لوحة ٢٣ فى حالات الشك وعدم الاستقرار يستحضر الخيال الحيوان الشرير ويمثل به الشيطان ذو الالف وجه يعبر كل منها عن تهديدات سوداء

٢٣ أ أورس جراف : الشيطان
يتبع راهبا



٢٣ ب ليونور فيني : فيلاجريا

بالجواد خادم الانسان ، حتى اذا أشاعت الغزوات البرية القلق فى العصور الوسطى ظهرت صور الحيوانات المخيفة فى الأعمال الفنية وبرز التنين والأفعوان معبرين عن قلق الانسان وخوفه . واذا كان الايمان بالله هو المعبر الوحيد للانسان الى الطمأنينه ، فقد تزايدت فى عصرنا هذا مخاوف الانسان وأخذ يرمز لها في أعماله الفنية بحيوانات رهيبة من حشرات قاتله غير مألوفة ، بل لقد فقد الانسان نفسه وجهه المألوف وارتدى قناع حيوان مخيف ، كما صورت الآلهه المجردة من الحس والتفكير هى الأخرى فى صورة ذلك الحيوان نفسه .

لقد تزايدت مخاوف الانسان مع الفتوحات العظمية فى الحضارة الحديثة لتزايد ادراكه لجهله ، وامتلاء العالم من حوله بالألغاز ، ولم يعد يرى نفسه سيدا للكون بعد تحريره لقوى مجهولة أصبحت تهدده بالدمار فامتلأت نفسه يأسا وسيطر على عاله حزن عميق (لوحة ٢٤) .

وقد اشتد ولع العصر الحاضر بالتعبير عن أزمته النفسية بأوهام رمزية تشف عن خوارق مخيفة بعد تزايد ميل الانسان الى الاتجاه نحو اللاشعور ، فقد أصبحت الخوارق التى تتألف من أشياء مألوفة رمزا لقلق الانسان المعاصر كما كان الشيطان في القرن الخامس عشر رمزا لهذا القلق وقد ظهر أثر ذلك فى الفنون بتقديم أشياء غير محددة الشكل تتضمن عناصر موحية ، فالموت الذى يهدد الانسان يعنى فى حقيقته القضاء على كل الاشكال . غير أن الغلبه فى النهاية لأبد ان تكون لعناصر الحياة الكامنة فى الأشياء التى يستوحيها الفنان وهو يشكل خوارقه الغريبة (لوحة ٢٥) .

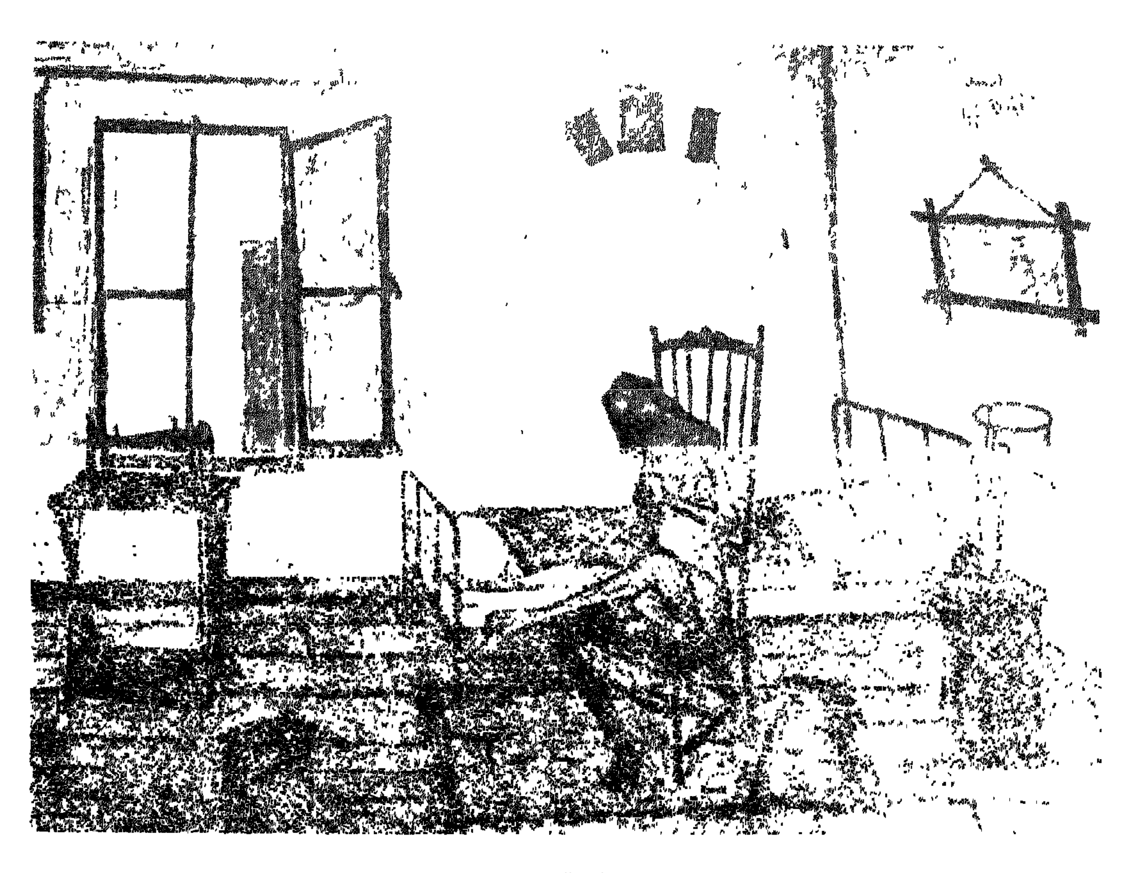
ان النفس البشرية تنطوى على نور آخر غير ضوء النهار يراه الانسان خلاله كلما اغمض عينيه وتأمل ذاته . وقد عرف **الجريكو** هذا النور وحاول تصويره في لوحاته مجردا من ملابساته المادية مشعا من اعماق النفس مضيئا ماحولها ، والمح **دلاتور** أيضا الى هذا النور الجديد فى صورة فتاة مغمضة العينين حاملة مشعلا مضيئا (لوحة ٢٦) ، واشار اليه **رمبرانت** كذلك فى صورته الشهيرة للملك شاؤول وهو يصغى الى عزف داوود على قيثارته (لوحة ٢٧) .

والحق ان الانسان يحيا بين ضوئين ، ضوء النهار الذى يرى فيه حقائق الحواس والذكاء، وضوء الليل المنبعث من أعماقة والذى يرى فيه حقائق النفس وهما ضوء الواقع وضوء التصوف .

واذا كان الانسان يجد في المجال المضىء كل شئ مرئيا ومعقولا بمجرد فتح عينيه وارهاف حواسه فهو يدرك بذكائه ماتنقله الحواس بمعنى انه يفهمه ، ووسط هذا العالم المليء بالمرئيات يحلم انسان الغرب بسيادته هذا العالم بذكائه وأعماله ومعارفه العلمية ، فان هذا الحلم ضرب من الأوهام لأن هذا الضوء لا يوضح سوى ظاهر الأشياء دون أن يصل الى كشف باطنها وجوهرها وقلبها .

●●●

لقد جاء عيسى برسالة المحبة التى تخفف من قصور هذا الضوء لأن المحبة تدفع المرء الى محاولة التوغل فى أعماق الأشياء والفنان فيما حوله وهو ما يصل به الى عالم الروح والى اضواء التأمل فى الليل ، وهكذا يدع الانسان عالم الوضوح والنور الى عالم ليل النفوس عابرا الليالى الثلاث التى تكلم عنها القديس

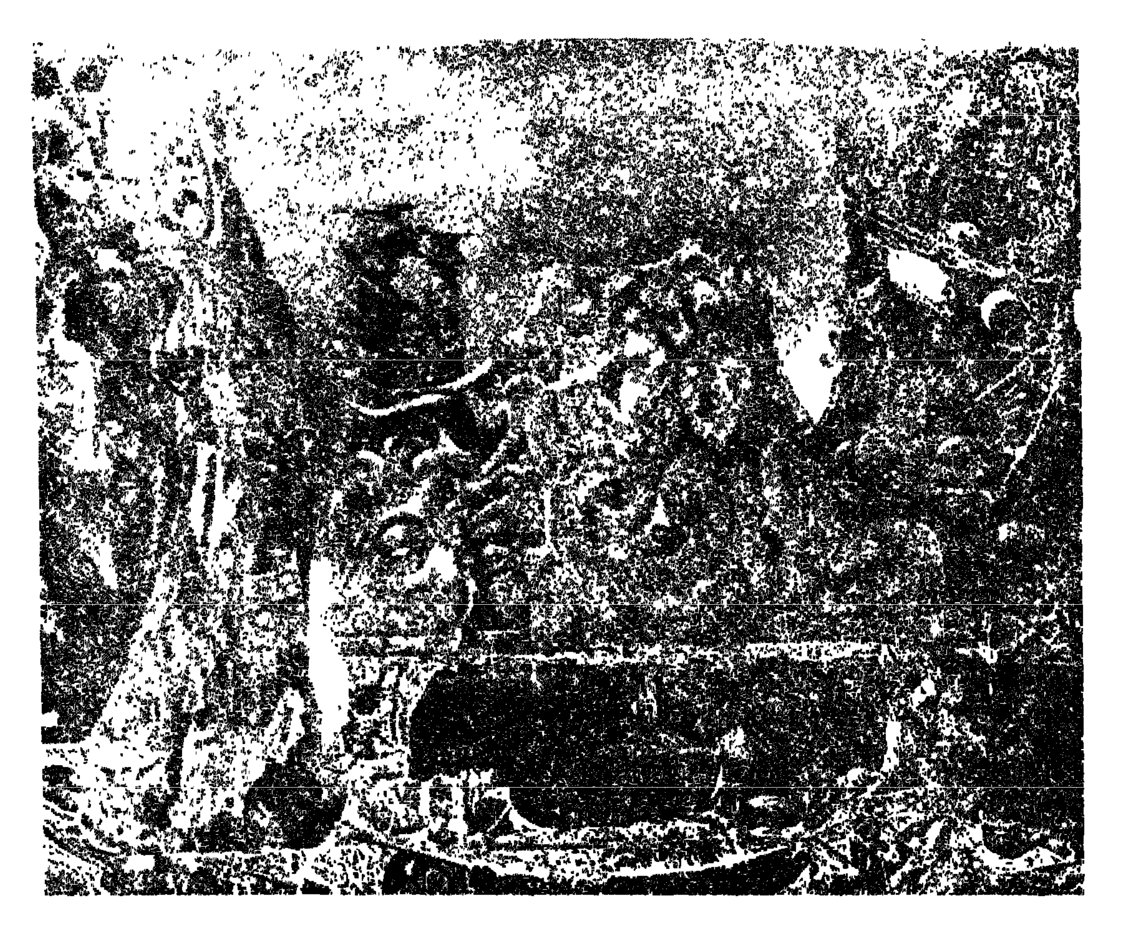


لوحة ٢٤

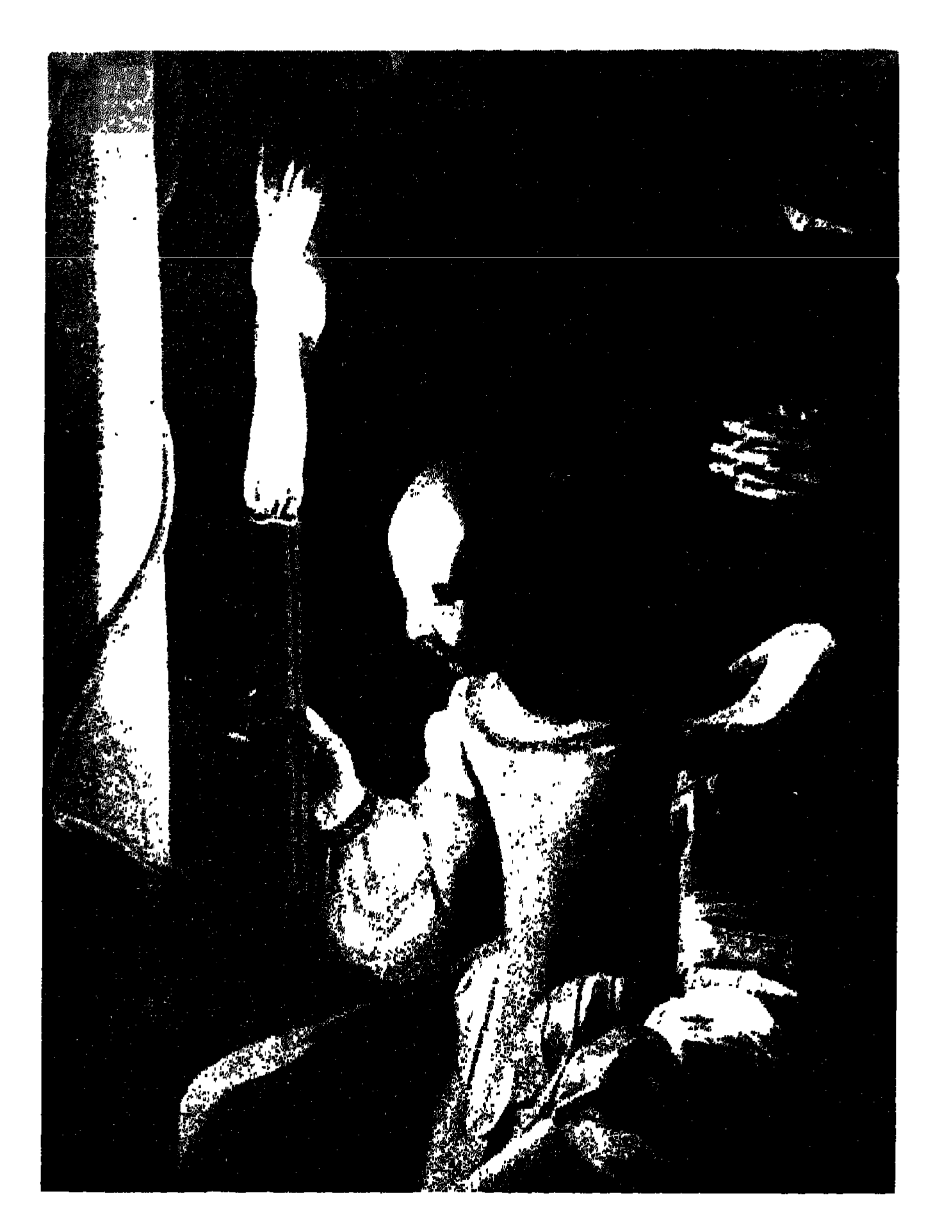
٢٤ أ برنار بوفيه : الحجره



٢٤ ب جورج توكر : نفق المترو ، الآلة تسحق الانسان وتبدو المرأة فزعة تحاول أن تحمى جنينها من الوجوه الجـامدة اللامبالية ، ويملأ التماثل البارد الموحد المحيط بها نفسها بالقشعريرة والخوف والرهبة



لوحة ٢٥ ماكس ارنست : عين الصمت . غدت ممالك الحيوان والنبات والجماد غير متمايزة فى عالم فيه كل شيء ماض اما الى الفناء او الولادة ... خطوة واحدة فحسب ويغدو كل ما تبقى سرابا



لوحة ٢٦ جورج ديلاتور : القديس سباستيان (تفصيل) اذا كان الضوء المنبثق من الظلال فدحطم الاشكال فى فن كارافاجيو واتباعه فان الضوء يؤكد الاشكال في فن ديلاتور بتبسيط التجسيم . فالضوء هنا يعبر عن الحدة الروحية الكامنة وراء العيون المسبلة



لوحة ٢٧ رمبرانت : داوود وشاؤول . تبدو موسيقى داوودفجأة الصمت المبهم الذى لف شاؤول فارتفع حجاب الليـل وبدأت عيناه تخترقان ستر الظلام

يوحنا الصليبي على انها المراحل نحو الاتحاد بالله وهي : ليـل الحواس الـذي تغلق فيه النوافذ على العالم الخارجي ، ثم ليل الذكاء الذي يترك فيه المرء عالم الملاحـة والادراك ، وأخيرا ليل النفس الذي يحس الانسان فيـه بقلق وهو يغوص في الكهف النفس الشبيه بقبور الموتى ، والذي يولد في نهايته نور جديد غير نور الزمان والمكان هو نور اللانهاية والحقائق المطلقة .

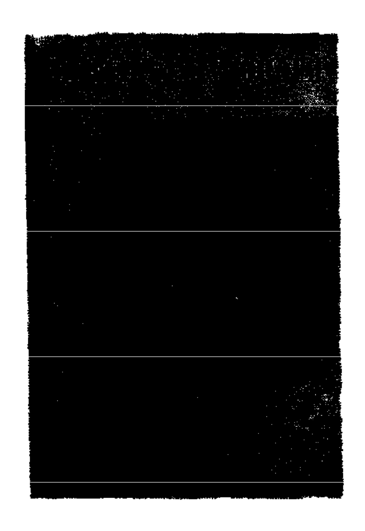
وقد كتب الحلاج الصوفي الذي صلب لجراة افكـاره في بغـداد ملتقى الثقافـة الشرقيـة والافريقية قبل عام ١٠٠٠ يقول : « ان الفجر الـذي أهيم به يشرق في قلـب الليـل المتوهج ولن يغـرب أبـدا » . وكـانت أفكار الحلاج هذه هي النبع الذي تدفق حتى بلغ في القرن الحادي عشر غرب أوروبا وأسبانيا تحت لواء الاسلام ، ولعله هو الذي نشر الخصوبـة في الأرض التي ازدهر فيها تصوف القديس يوحنا الصليبي والقديسة تريز ، فقد تألق أبو مدين وابن عربي في مدينة اشبيلية ، كما تألق بعـد ذلك ابن عطاء الله في الاسكندرية واخيرا ابن عباء في مدينة فاس وهو الذي لخص فلسفـة هؤلاء جميعا في القرن الرابع عشر حين قـال : « يملك الليل ميزات لا توجد في النهار » . وقد لمع في تصوير الضوء النفسي الغـريب الذي يتألق في الليل كاراڤاجيو الذي يعد من أهـم مصوري عصر مقاومة الاصلاح الديني ، وكذلك چورج دلاتور ، وكانا لا يعدان الليل رمزا للشر بل وسيلـة للتأمل والوجـد ، ولعلهما كـانا يصوران في لوحاتهما ما سماه القديس يوحنـا الصليبي « الليلة المظلمة لنار العشق التي لا يشرق فيها نور غير لهيب القلب المتقد » .

● ● ●

تعيش مملكة الانسان على ضوء النهار، بينما لا تبدأ المملكة الالهية الا مع ظلمات الليل حيث يسطع نور تصوفي لم يسجله سوى القليل من العباقرة مثل الفنان العظيم رمبرانت .

★ ★ ★





سيرة فرجينيا وولف (١)

عرض وتحليل الدكتور طه محمود طه

مقدمة :

يقول كارلايل : « لا توجد فى العالم ملحمة شعرية الا وكانت فى جوهرها سيرة ، حياة انسان . » ولهذا تختلف كتابة السير عن التاريخ اختلافا كبيرا ، كما يجب الفصل بينهما تماما ، فى الغايات والوسائل . على كاتب السيرة ان يتوخى الحرص فى معالجة الشخصية المبدعة . فحياة الفنان شجرة قد تموت اذا اقتلعناها لنتأمل جذورها . وفى الكتابة عن حياة الفنان ، الى اى حد نذهب ؟ هل نركز اهتمامنا على تكوينه الجسدى ـ وزنه وسنه وامراضه (٢) أم على فصيلة دمه ؟

---

(١) Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 1 Virginia Stephen 1882 to 1912, London, 1973, the Hogarth Press.

Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 2 Mrs. Woolf 1912 to 1941, London, 1973, The Hogarth Press.

(٢) Dr. Bett, W. R. : The Infirmities of Genius, London, 1952, Medical Viewpoints Series.

يعرض هذا الكتاب راى الطبيب فى الانتاج الادبى لخمسةعشر اديبا منهم كارلايل وشيلى ووالت ويتمان وادجار الان پو وبودلير وبلزاك وبايرون ويبين ما للمرض والعلل الجسديةمن آثار فى تكوين الفكر وفى خلق العبقرية .

من اى زاوية ننظر اليه ؟ شجرة العائلة ، أمه وابيه ، الاماكن التى زارها ، المنازل التى عاش فيها، تكوينه الذهنى ، الحضارة التى امتصها، الكتب التى قراها ، يوم أن حملته أمه (٢) وكيف وفى أية لحظة ؟ لكل هذه الاسباب مجتمعة وغيرها ، تظل حياة الفنان المبدع سرا غامضا مهما حاولنا سبر أغوارها . ويقول **يونج** ، وكأنه يحذرنا من التمادى فى هذا التنقيب في حياة الفنان : « ان كل انسان مبدع هو في الحقيقة شخصان أو مجموعة من الاضداد ، ففى جانب من شخصيته نراه انسانا أو فردا له حياته الخاصة ، وفى جانب آخر نراه مجهولا ، مجرد عملية خلق وابداع . »

لم يحاول المؤلف أن يسبر غور نفسية ڤيرچينيا ولف ، ولم يستطع ان يعالج حياتها من زوايا معينة تعكس لنا طريقة المزج بين « **احداث الحياة المادية** » وبين « **عملية تكوين العمل الادبى** » . ويمكننا أن نقول بأن العمل الادبي وتر فى مثلث منفرج الزاوية أحد أضلاعه يمثل حياة الأديب المادية والآخر حياته الفنية. والعمل الأدبى محصلة القوتين ، ولكون المثلث منفرج الزاوية لايمكن ، علميا ، لأحد الاضلاع أن يصبح صفرا . فتجارب الحياة تصقل الفنان وتؤثر فى أعماله بشكل ملحوظ حتى ولو حبس نفسه في برج عاجي يعزله عن العالم من حوله . واذا نجح كاتب السيرة فى ابراز هذه المعادلة الصعبة أعطى حوادث التاريخ بعدا نفسيا ينفذ الى اعماق العمل الادبى ويفجره أمام القارىء . فالفنان انسان حر ومقيد فى آن واحد ، وعلى كاتب السيرة أن يقيّم فى كل مرحلة من مراحل حياة الأديب ذلك التفاعل بين البيئة والمجتمع من جانب ، وحياة الفنان وقدراته الخلاقة من جانب آخر.

نجد مؤلفنا مشغولا طول الوقت بقصاصات من الورق والمذكرات واليوميات والتسجيلات، نجده يرقب خطواتها وتحركاتها وسكناتها كالمخبر أو كرجل البوليس ، تضيع وقته ووقت القارىء في تفاصيل لامغزى لها ــ كشراء فستان أو حضور حفل أو الانتقال من منزل الى آخر او استقبال زوار . وهذه اللحظات المتفرقة فى حياة الفرد لاتظهر اهميتها الا بعد فترة طويلة ، فهى ذرات تشبه الواحدة منها الالكترون . ومراقبة ورصد الكترون واحد من المستحيل علميا ولكن العالم (كاتب السيرة) يستطيع أن يراقب سلوك «مجموعة» منها ليستطيع التنبؤ بمسارها . فذرات الحياة اليومية متشابهة يصعب ، كما فى علم الفيزياء ، أن نفرق بين واحدة واخرى . فلا فرق بين تناول الافطار او الغذاء أو العشاء فى اى يوم من أيام الاسبوع ، أو الخروج للتسوق او للرياضة او ركوب قطار او طائرة. ولكن عندما تبدأ هذه الذرات (وتهتم فيرجنيا وولف بها اهتماما بالغا فى قصصها) فى التراكم وفى التشكل في قوالب ، تتخذ لنفسها انماطا مميزة وتتلاحم لتأخذ مسارا معينا ، بعد أن كانت مجرد لحظات متفرقة . ومن هنا تبرز سمات الشخصية الفنية وتتحدد ملامحها الرئيسية . ثم تدور هذه الذرات او اللحظات فى مدارات معينة حول بؤرة أو نواة هى جوهر الذات الفنية ، التى سرعان ماندرك أن هذه الذرات المدارية ماهى الا اشعاعات تخرج من النواة ذاتها ــ جوهر الفنان ــ بعد أن كانت فى بادىء الامر تأتى من الخارج لتلتصق

(٣) ذهب لورنس ستيرن الى هذا المدى فى قصته« تريسترام شاندى » ويعتبر المجدد الاول فى فنون القصة الحديثة (١٧١٣ ــ ١٧٦٨) .

بالنواة . وفى مجال هذه القوة النووية يتفاعل الفنان والانسان . وهذا هو ما فشل فيه الكاتب كما سنبين ، وكما يبوح بنفسه لنا فى الجزء الثانى وفى صفحة ١٠٩ حين يقول :

« في الفترة بين يونيو ١٩٢٥ وديسمبر ١٩٢٨ انتهت ڤيرچينيا من كتابة « الى الفنار » وجاءتها فكرة « الأمواج » ، وهما كتابان أجمع كثير من النقاد على انهما من انجازاتها العظيمة . وربما يكون هذا هو المكان المناسب الذى يجب عنده أن نحاول دراسة عقلها وهو يعمل حتى لو اضطررنا ، فى هذا التفحص والتدقيق ، الى التخلى عن أى ادعاء لحرصنا على منهج التسلسل الزمنى ونغامر ، بل ونخاطر ، بالولوج الى دائرة يصعب علينا بكل تأكيد ان نجد فيها طريقنا بسهولة . ولقد اشارت ڤيرچينيا الى مخاطر هذا الاتجاه بقولها : « ... ومع ذلك يدعي كاتبو السير أنهم يعرفون الناس » .

وياليته تعلم منها ، ويؤكد لنا أنه « لكى يلم كاتب السيرة بما يعتمل في نفس المؤلف فعليه ان يكون اما انها أو يكون المؤلف ذاته . » وعندما انكبت ڤيرچينيا وولف نفسها على كتابة سيرة صديقها الرسام **روجر فراى** لم تجد فى ذلك العمل لذة تذكر ، فقد كانت سيرته مجرد سرد منظم لوقائع حياته ، وقائع سهلة بسيطة لم تستطع ان تمارس فى سردها حريتها الادبية . وكان ذلك يضجرها .

كان من الصعب على المؤلف ان يدرك المعانى الخفية التى تكمن وراء هذه الحقائق البسيطة السهلة ، فقد كان اتجاه ڤيرچينيا وولف منذ البداية اتجاها « صوفيا » . لم تكن الحرب الأولى ولا الثانية اغنيتها المفضلة ، ولم تهتم بالسياسة أو الدين ، ولكنها حرصت على تذوق كل قطرة من قطرات الحياة يعادل فرحها بقالب من الزبد تتسلمه من صديقة لها اثناء الحرب ، أو بقطعة من السمك تقوم بقليها فى الزيت وكأن التجربة تجربة فنية كما يقول لنا صديقها فورستر .

مايهمنا فى هذه الترجمة هو تسجيل المؤلف لحالاتها النفسية المتعاقبة ومنها نرى انها كانت متصوفة تعشق الحياة بالوانها المختلفة . ونأخذ عليه انه لم يتعلم من ڤيرچينيا وولف طريقة رسم الشخوص من عدة زوايا فى آن واحد ، وانصاع بل واستسلم للسرد الخطى الزمنى ، فخرج التمثال في بعد يخلو من التجسيد . كان يجب عليه الا يرقب تحركات جسدها بل تنوع فكرها بصورة أعمق . كنا نود مثلا ان نراه يناقش اثر فلسفة **چورچ مور** الجمالية فى فكرها وفي مجموعة بلومزبيرى ، فهى فهرس الجزء الاول له سبع اشارات وفى الجزء الثانى اشارة واحدة . وبينما تحظى قصتها « مسز دالواى » بثلاث اشارات نرى ان علاقة ڤيرچينيا وولف الآثمة بشقيقها من زوجة أبيها تحظى بنصيب الاسد .

كان الباحثون ينتظرون ظهور هذه السيرة بفارغ الصبر . فحتى عام ١٩٧٢ لم يكن لدينا فى مكتبة ڤيرچينيا وولف سيرة يعتمد عليها . وكان الباحث يلجأ - للتعرف على خلفية اعمالها وحياتها - الى كتاب **آيلين بيبيت** « الفراشة والنجم » الذى صدر عام ١٩٥٥ وبه فقرات طويلة مقتبسة من الرسائل المتبادلة بين ڤيرچينيا وولف وڤيكتوريا ساكفيل ويست . وكان المصدر الثانى هو « اليوميات» الذى صدر عام ١٩٥٣ محتويا على مجموعة لابأس بها من مذكراتها ويومياتها وتقع فى ٢٨ جزءاً ، وتعتبر المصدر الثرى لتفهم فنها القصصي وطريقتها فى التفكير . والمصدر الثالث ترجمة **ليناود وولف** الذاتية ونشر

الجزء الاول منها ((**البذر**)) Sowing عام ١٩٦٠ ، والثانى ((**النمو**)) Growing عام ١٩٦١ ، والثالث ((**البداية من جديد**)) Beginning Again عام ١٩٦٤ ، ثم ((**انحدار على طول الطريق**)) Down Hill all the Way عام ١٩٦٧ ، واخيرا ((**العبرة بالترحال لا بالوصول**)) The Journey not the Arrival عام ١٩٦٩ . ويعتبر كتاب **كوينتين بيل** الاول ((**بلومزبيرى** Bloomsbury ١٩٦٨ افضل بكثير ، ولو انه قصير ، من كتابه الحالى .

الجزء الاول : ١٨٨٢ ــ ١٩١٢

يخيل لقارىء العمل الادبى احيانا ان الاديب يحاول ان ينقل له تجربة ذاتية معينة يدسها خلال ثنايا عمله الادبى. ويود القارىء والدارس معا لو انه كان على علاقة اوثق بالاديب الذى يقرأ له ، يود ان يعرف عن حياته شيئا ييسر له طريقه فيما غمض من جوانب اعماله ، ويعينه على تعرف طريقه فى متاهاته . وقراءة السير قد يكون نوعا من الفضول وحب الاستطلاع ويشهد على ذلك اهتمام القراء بصفحات الاجتماعيات في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . والمام القارىء بجوانب عديدة من حياة الكاتب شيء مستحب يعاونه على تكوين فكرة شاملة ، وان كان هذا المنحى في النقد الادبى والذى يعتمد على تفسير العمل الادبى فى ضوء حياة صاحبه احد المدارس النقدية القديمة . يريد القارىء ان يعرف سبب هذا الفتور الجنسي فى قصص فيرجينيا وولف ، وسبب انتحارها . يريد القارىء والباحث ان يكون على صلة بالمؤلف ، بزوجها، باختها ، بصديق حميم ، ليطلعنا على دخائل اموره . وذلك كله ، ربما ، لارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا اولا ، ولتوضيح الجوانب الغامضة فى العمل الادبي ثانيا .

يطل بنا الكاتب فى الجزء الاول على اسرة فيرجينيا وولف قبل مولدها باكثر من مائة عام. وتمتد جذور الاسرة الى منتصف القرن الثامن عشر فى مقاطعة ابردين باسكتلندة . لقد وضع الجد **ستيفن** ثقته فى خالقه حتى ليخيل للمرء ان بينه وبين الله عمار . نراه يطارح امراة الغرام ، وفى نفس الوقت ينجب من امراة اخرى طفلا . ويتزوج الاولى وتجد الثانية لنفسها زوجا ويصبح ابن السفاح فيما بعد قسيسا مبجلا .

من الصفحات الأولى ــ ومن صورة المؤلف على غلاف الكتاب ــ يظهر لنا جليا روح المؤلف التهكمية الساخرة المرحة وأسلوبه الذى لا يخلو من الاشارات والتلميحات الخفية . ينجب السيد ستيفن سبعة ابناء وبنتين . وحسب تقاليد العائلات في ذلك الوقت ينتشر الابناء على وجه الارض بحثا عن المغامرة والثروة . يتدرب أحد ابنائه على اعمال المحاماة ثم يشتغل بالتجارة ، واخيرا تتحطم سفينته بجوار ساحل دورسيت ، لكنه يتمكن من انقاذ نفسه ومن معه من البحارة ويتزوج سبيلا ميلنر . ولم يحالفه الحظ فى التجارة فاستقر به المقام فى السجن . لكنه لم ييأس ، بل دفعه هذا المأزق الى التقاط قلمه ليكتب دفاعا عن نفسه وعن قضيته ، وبهذا صار مثالا يحتذى به من افراد العائلة فيما بعد ، وكان اول من يكتب كتابا عن عائلة ستيفن . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث أن مر جيل من آل ستيفن دون أن يضيف الى انجازات العائلة الادبية .

استن' جيمس ستيفن لعائلته تقاليد معينة وهي مناقشة قضاياها كتابة ، وبسطها فى قاعة المحكمة . لم يكتف رب هذه الاسرة بذلك بل أثار اعتراضات على طريقة معاملة السجناء فى

السجن ذاته وكادت الامور ان تنتهي بثورة . فالسجن من أجل عدم الوفاء بالدين امرلايليق بآدميين ، ويتنافى مع الحقوق الانسانيةوالعدل والسياسة . وادرك فى النهاية ان مواهبه تناسب حرفة المحاماة لا التجارة . ولم يسمح له بممارسة المحاماة لانه كان يفتقر الى اصالة المحتد ، الى الثروة والجاه ، الى ضبط النفس . وتوفي وهو في سن السابعة والاربعين وترك ستة من الأولاد يهمنا منهمالثانيواسمه جيمس (١٨٧٩ – ١٨٥٩) .

والتحق جيمس بكلية ماريشال بأبردين ليدرس القانون ، واكتشف أنه لن يستطيع ان يشق طريقه بسهولة ، فقد كان عليه أن يدرس اللاتينية . ولم يقف مكتوف الأيدى ، والتقط قلمه ليكتب احتجاجا ، ونجح وهو فى سن السابعة عشرة أن يغير لوائح الكلية لكى تتفق وميوله ورغباته . واصبح فيما بعد عضوا بارزا فى البرلمان وفى المجتمع وحصل على لقب سير . وورث عن والده حبه للعمل وكان يجد متسعا من الوقت ليملى أكثر من ٣٠٠٠ كلمة قبل تناول افطاره لتنشر فى Edinburgh Review . كان عملاقا فى الانتاج الادبى وعملاقا فى تحصيله للمعرفة ولكنه كان تعيسا في حياته ، ولم تصل انجازاته الى مستوى مطامحه لأنه كان متشائما جدا وخجولا جدا . كان مقتنعا بقبح وجهه ولم يسمح اطلاقا بوضع مرآة في حجرته . كان يأمل ان يكون قسيسا او ناسكا ، وكان يحرم نفسه من ملذات الحياة ، ويقال انه دخن سيجارا فى يوم من الايام واعجب بمذاقه ونكهته الى درجة انه اقسم الا يدخن سيجارا مرة اخرى . وخطر بباله ان يلجأ الى السعوط كبديل وسرعان ما افرغ الصندوق من النافذة . وتسأل زوجته ابنها فيما بعد : « هل تذكر شيئا فعله والدك لأنه شيء سار ؟ » واجابها الابن بلباقة « نعم ، ذات مرة ، عندما تزوجك » .

قبل ان يفرغ المؤلف من سير جيمس ستيفن J. Stephen اراد أن يؤكد اهتمام العائلة بالفن واحترامها له ، ويقصد فن الكتابة ، اما الفنون الاخرى كالموسيقى والرسم فلم تحظ بقسط وافر من اهتمام العائلة ، وكان من بين اصدقائه جون ستيورت ميل . وانجب سير ستيفن اربعة أولاد وبنتا واحدة . وتوفى أحد الاولاد فى طفولته والآخر فى ريعان شبابه وعاش الآخرون وهم جيمس وكارولين وليزلى : والد فيرجينيا . ووقعت كارولين فى حب فتى ولكنه هجرها وسافر الى الهند ، ولم يسمع به احد فتحطم قلبها واقعدها المرض وهى فى سن الثانية والعشرين وفى النهاية التحقت بجمعية دينية (٤) .

كان لا بد أن يبرز الاخ الاكبر في حياتهوتوقع الجميع له مستقبلا باهرافى المحاماة بينما توقع الجميع للأخ الاصغر ، ليزلى ، بأن يكون قسيسا . واتجه جيمس الى لندن والمحاماة ثم الصحافة ، والتحق ليزلى بجامعة كمبردج ورسم قسيسا عام ١٨٥٩ كما كان متبعا فى ذلك الوقت لمن يصبح زميلا بالكلية . وفى عام ١٨٦٢ وكان فى سن الثلاثين نراه يخلع لباس الكهنوت ويتجه للحياة الدنيوية ويترك كمبردج ويذهب الى لندن معدما دون مستقبل واضح أمامه . وفى لندن يساعده اخوه فى الحصول على عمل الا وهو الاشراف على « قاموس السير الوطنية » ونعترف بفضله كمؤرخ وفيلسوف واديب ومحرر لمجلة كورنهيل . كان أسلوبه يتميز بالقوة والموضوعية وفي الوقت ذاته

---

(٤) اشارة الى بيتر والش ومسز دالواى فى « مسز دالواى » .

يتميز بالرقة والاخلاص وقوة التخيل ، أى انه كان أقرب الى الفنان الاديب منهالى الفيلسوف المؤرخ .

وتزوج من صفرىبناتالقصصي الفيكتورى المشهور ثاكرى صاحب « ســوق الغرور » Vanity Fair . ولا نعــرف الكثـــير عن زوجته هذه فقد كانت ترتبط باختها ارتباطا قويا الى ان اكتشف ليزلى انه عندما تزوجها اصبح وكانــه قد تزوج الاختــين . وتنافس الزوج والاخت في الســيطرة على الزوجــة . وانجب منها ابنته لورا عــام ١٨٧٠ وتوفيت الزوجة وهى تضع مولودها الثاني عام ١٨٧٥ .

فى مساء ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ، وقبل بضــع ساعات من وفاة الزوجة ، قامت أرملة شابة تدعى مسز هيربرت دوكــيرث بزيارة عائلــة ليزلى . كان لها من زوجها الســابق جــورج وستيلا وجيرالد . ونشأت بينها وبين ليزلى صداقة بعد وفاة زوجته انتهت بزواجه منها (جوليا) عام ١٨٧٨ . وكانت امراة شــجاعة اســتطاعت ان تعنى بأولادها الثلاثة وابنــة زوجها المجنونة لورا . كان ليزلى فى الخمسين وهى فى سن الاربعين وما زالت امراة مخصبة. واضافا فاينسا بعد عام واحد الى العائلة وفى العام التالي أنجبت ولدا (توبى) . وهنا صمما على الحد من النسل فقد كانت احوال العائلة غير مرضية . ولكن ادوات منع الحمل لم تكن متطورة وبعد عام ونصف وصــلت فيرجينيا ولحقها فى العام التالي ادريان (٥) .

فيرجينيا ستيفن :

لقد أدركت فرجينيا منذ البداية أن الدماء التى في عروقها تأتى من رافدين ، وان القدر قد شاء ان تكون سليلة أسرتين تختلفان في العادات والثقافة . وذهبت الى ابعد من ذلك كما يقول المؤلف :

« كانت تعتقد أن هذين الرافدين المتنافرين المتنافســين يتصــادمان ويتدفقان ويجــريان باضطراب دون تآلف وانسجام في دمائها » .

لقد كان عرق آل ســتيفن يتميز بســلوك أسرى معين ، فقد كان معظم أفراد الاسرة من أصحاب القلم يتمتعون بموهبة الكتابة ويجدون لذة فى التعبير عن انفسهم باللغة الانجليزية . ولكنهم كانوا يكتبون باسلوب تطغى عليه روح الحيثيات في القضايا ، وينظرون الى الادب على انه وسيلة للاقناع وليس غاية فى حد ذاتها . كانوا يهتمون بالحقائق الملموســة والوضــوح ولا يهمهم الحس والعاطفة أو جمال اغنية أو صورة . كان لآل ستيفن شجاعة خلقية وقوة بدنية وطاقة ذهنية . كانوا يخطــون امامهــا كالعمالقة ، شخصيات قويــة فى مقدورها أن تقترف أعمالا وحشية (٦) .

اما افــراد عائلة والدتهــا (آل باتيل) فلم يكونوا من المفكرين أو الكتاب او الادباء ، بل كانوا يتميزون بجمال الوجه ودقــة التقاطيع والاناقة والارستقراطية . ونرى هذا الجمال فى صور افراد العائلة وخاصة فى نسائها ، تلك النساء اللاتي افتتن بهن الرسامون . ويمكن ان نطلق علىهذينالرافدين « النثر والشعر »، « الادب والفن » ، المذكر والمؤنث ، « الرجالي والنسائي » .

يزخر الجزء الاول بتفاصيل كثيرة عن حياة فيرجينيــامولدها وطفولتها وصباهاوشبابها.

---

(٥) لمسز رامزاى فى « الى الفنار » اربعةاولاد وبنتان.

(٦) ترمز مسز رامزاى فى « الى الفنار » الى زوجها فىاماكن عديدة فى القصة « بمنقار نحاسى » Beak of Brass

فهي لم تتعلم الكلام الا في سن الثالثة ، وعندما انطلق لسانها بالكلام اصبحت الكلمات اسلحتها المفضلة . كانت حجـرة الاطفـال مكانا للحب والمنازعات في آن واحد . ونشأت بينها وبين اختها فانيسا علاقة خاصة بالرغم من التباين الواضح فى الشخصيتين ، ومنذ البداية اتفقتا على ان تصبح ڤيرچينيا كاتبة وفانيسا رسامة . كانت فانيسا تصر على ابراز العاطفة فى شكل منظور ، اما ڤيرچينيا فكانت ترى العاطفة على انها شيء يفوح عطره فى حوار بين شخصين .

لم يحرص الوالد على ان يقوم بمراسيم التعميد لأولاده . وقبل أن تبلغ السابعة من عمرها كانت والدتها تعلمها اللاتينيةوالفرنسية والتاريخ ، بينما اخذ الوالد على عاتقـه تعليم أولاده الرياضيات بالاضافة الى الرسم والرقص والموسيقى وحسن السلوك والمشي والجلوس . ونقرأ عن محاولاتها الأولى فى الكتابة ويلاحظ المؤلف قدرتها على خلق المواقف ووصفها ، كما يلاحظ ان خلق الحبكة هو موطن الضعف فى قصصها .

قضت ڤيرچينيا فترات سعيدة من حياتها فى مدينة سانت آيفز الساحلية وتدخل الفراشات والبحر والامواج وسمك البيلشارد حياتها في وقت مبكر (٧) . كانت هذه الفترة أسعد فترات حياتها ، ولكن سعادتها في هذا الفردوس لم تدم طويلا وسرعان ما اطلت اشباح الجنون والموت والفاجعة على حياتها . فقد اصيب ستيفن ، ابن عمها ، فى حادثة اثرت على قواه العقلية ففقد صوابه . واخذت تصرفاته تقلق بال الاسرة وتهدد حياتهم ، واخذ يطارح ستيلا الغرام ويلاحقها فى كل مكان . ثم تدهورت صحة والدها عام ١٨٨٨ ويصاب بأزمة حادة ويلازم الفراش عام ١٨٩١ ، وينصحه الاطباء بالتخلى عن الاشراف على (قاموس السير الوطنية) كان اكثر ما يشغل بال رب الاسرة حالتهم المالية . وحاولت الزوجة ان تخفف من اعبائه بتحمل مسئوليات كثيرة ، واعتلت صحتها وتوفيت عام ١٨٩٥ . وحزن الزوج على زوجته حزنا شديدا وكان فى سن الثالثة والستين ويحتاج للرعاية . وتسلمت ستيلا امور المنزل .

چورج وحياة ڤيرچينيا العاطفية :

بلغ أخوها (من أمها) السابعة والعشرين ، واخذت تصرفاته حيال ڤيرچينيا وستيلا كما يقول المؤلف ، تتحول من مجرد حنان وعاطفة نحو أختيه الى عاطفة مشبوبة يشوبها ميل جنسي . فكان يداعب أخته ڤيرچينيا وهى تستذكر دروسها وتنتقل المداعبة فيما بعد الى حجرة النوم . ويدخل كيوبيد حياتها فى غير صورته التقليدية وتتعرف على « الحب » بصورة تختلف عن الصورة الافلاطونية البريئة التى رسمتها فى ذهنها . واحست ڤيرچينيا ان چورج قد افسد حياتها العاطفية قبل ان تبدأ ، ولما كانت تخجل من هذه النواحي الجنسية والعاطفية آثرت الصمت واصبحت ترتعب منها واضطرت ، لكى تحمى وتحصن نفسها منها ، الى اتخاذ مواقف سلبية جامدة باردة حيالها (٨) . ولا يستطيع المؤلف أن يجزم بأن هذه الصدمة العاطفية هى التي ادت الى تلك الهزات النفسية العنيفة التي أصيبت بها ڤيرچينيا فيما بعد ، وربما عاود چورج وقاحته فى تاريخ لاحق بعد وفاة والدتها .

(٧) انظر اعمالها : « الامـواج » ١٩٣١ ، « موت الفراشة ومقالات اخرى » ١٩٤٢ .

(٨) يظهر هذا الاتجاه واضحا فى قصتيها « مسز دالواى » ، (الى الفنار) فى العلاقات الزوجية .

لقد بدات حياتها العاطفية بجرح غائر لم تستطع منه الشفاء ، كما انها لم ترغب طوال حياتها في الاعتراف بهذه الذكريات الاليمة او في تذكرها . ولكنها كانت تذكر وتتذكر ما يصاحب هذه الحالات النفسية من اعراض جسدية . ففى مذكراتها فى هذه الفترة لا تذكر ما تعرض له ذهنها من اضطراب وتشويش ، مع علمنا بانها كانت تسمع ما اطلقت عليه فيما بعد « تلك الاصوات المرعبة » ، بل تشير الى عوارض اخرى جسدية فيرتفع نبضها الى درجة لا تطاق ، وتصبح سريعة الغضب عصبية المزاج ، ثم سرعان ما يصيبها الاكتئاب والفتور . اصبحت تخشى الناس وتخافهم ويحمر وجهها خجلا اذا ما خاطبها احد ، وكانت لا تنظر الى غريب وجهه فى الطريق وتمشى منكسة الراس.

لم يكن فى وسع طبيب العائلة ، الدكتور سيتون Seton الا أن يمنعها من القراءة والدراسة . فاشار عليها باتباع نظام بسيط فى الحياة مع نزهات قصيرة خارج البيت اربع ساعات يوميا . كانت مهمة ستيلا ان تخرج معها فى هذه النزهات اما على الاقدام او تصاحبها الى الطابق العلوى فى الاوتوبيس (٩).

وتزوجت اختها ستيلا عام ١٨٩٧ من **جاك هيل** ، واستقر راى ڤيرچينيا واخواتها منذ ذلك اليوم على كتابة اليوميات . وواظبت ڤيرچينيا على الكتابة لفترة ستة اشهر . وفي هذه اليوميات نرى نواح متعددة من جوانب شخصيتها . فنراها تشمل الزيارات المختلفة لحديقة الحيوانات ومعارض الفنون والمسرح او لما عرف فيما بعد بالصور المتحركة او السينما في قاعة البرت .

شبح الموت يطاردها :

تصاب اختها العروس بالتهاب فى الغشاء البريتوني وتسجل ڤيرچينيا ذلك فى يومياتها بتاريخ ٢٩ ابريل ١٨٩٧ وتمر الازمة بسلام ويأمر الطبيب بخروج ستيلا فى نزهات قصيرة وكان على ڤيرچينيا ان تصاحبها . وخيل اليها ان الشوارع تعج بأشباح الموت في كل مكان . وتتعرض لحادثة فعلا فى ٢٥ فبراير ، وفى ٢٦ مارس تشاهد مركبة وهى تدهس سيدة على دراجة ، وفي ٨ مايو تشاهد حادثتين في بيكاديللى ، وفى ١٢ مايو يسقط حصان احدى هذه المركبات ميتا امامها ، وفى ١٣ مايو ترى اصطداما بين عربة يجرها حصان جامح وعربة نقل اخرى . ويتساءل المؤلف : هل حدث كل هذا فعلا ؟ لقد كانت صحتها بعد زواج ستيلا ومرضها فى تدهور مستمر . ويفحصها الطبيب مرة اخرى ويصف لها العلاج السابق . ويعتقد المؤلف انها كانت تبالغ فى وصف هذه الحوادث ولو أن حادثة السيدة التي دهستها العربة كانت قد وقعت فعلا .

وتتحسن حالتها فى نهاية العام ، وكانت ستيلا على وشك ان تضع مولودها الاول . ولكن ڤيرچينيا كانت تحس احساسا عميقا بأن نهاية ستيلا قد دنت وتدون فى يومياتها : « لقد عوفيت هذه البقرة واصبحت مرحة ، تنط من سريرها الخ ... الحمد لله ، ومع ذلك ـ » ومن « مع ذلك » هذه يدرك القارىء ان شيئا ما كان على وشك الحدوث ، ونجدها في أواخر شهر ابريل تشكو مما كانت تسميه « التململ » ، نوع من القلق والاضطراب النفسى . وتواسيها اختها ستيلا وتغادر

(٩) انظر تأملات مسز دالواى وهى فى الطابق العلوى من اوتوبيس فى مدينة لندن .

منزل ستيلا الى منزلها، وبعد أيام أبلغها جورج وفانيسا بأن ستيلا توفيت أثر عملية جراحية.

كانت وفاة ستيلا مأساة بحق . ونجد ڤيرچينيا تتجنب الرجال وتقع في حب مادج (من فرع عائلة والدتها) وتعترف فيما بعد بأنها المرأة الوحيدة التى احبتها (١٠) وكانت عاطفة ڤيرچينيا تختلف عن عاطفتها نحو جورج . ويكتنف الغموض تحركات الاسرةالتى تنتقل فيما بين عامى ١٨٩٧ — ١٩٠٤ الى منزل رقم ٢٢ هايد بارك جيت ، ويجمل المؤلف تفاصيل يوم عادى من أيام هذه الفترة على النحو التالي :

« يبدأ اليوم بجولة تقوم بها فانيسا على ظهر حصان أهداه لها جورج . يبدأ الافطار فى الثامنة والنصف صباحا ، فانيسا وجيرالد اولا ، ثم ليزلى وادريان ، وعادة ما يصل كلاهما متأخرين الى المدرسة . ثم تنزل فانيسا الى الدور الارضي لترتب مع صوفى وجبات ذلك اليوم . وتتوجه على دراجة فى رداء طويل وعلى راسها قبعة فضفاضة الى مدرسة السيدة « كوب »للفنون . وقد يقوم جيرالد بتوصيلها الى شرق المدينة بعربته وهو فى طريقه الى دار النشر التى اسسها عام ١٨٩٨ . وينزل چورج وڤيرچينيا فيما بعد وقد ارتدى چورج أبهى حلله استعدادا لحياة لندن . وربما يحكى لڤيرچينيا عن مغامراته فى الليلة السابقة وذلك قبل أن ينطلق الى عمله .. ويدخل ليزلى الى مكتبه ويظل فيه طوال ساعات الصباح بينما تصعد ڤيرچينيا الى الطابق العلوى ومعها ليديل وسكوت (١١) لتقرأ سوفوكليس ويوريبيديس ، أو تخط رسالة أو مقالاً . كان مقرها المفضل حجرة الاطفال في أعلى المنزل ، وكانت تزخر بمجموعة كبيرة من الكتب . وفيها كانت تستقبل اصدقاءها ومدرساتها . كانت للحجرة ستائر زرقاء وجدرانها بيضاء ، وكانت طريقتها في الكتابة تثير العجب . كانت تستعمل مكتبا ارتفاعه ثلاثة اقدام وست بوصات وله سطح مائل . وكان المكتب مرتفعا لا يسمح لها بالكتابة الا وهى واقفة . وحاولت أن تعلل لهذا الوضع الشاذ : لقد كانت فانيسا ترسم على لوحتها وهى واقفة لكى تستطيع أن تبتعد عن اللوحة من آن لاخر وتنظر اليها عن بعد . وقد دفع ذلك ڤيرچينيا الى الاحساس بأن عملها لن يكون على قدم المساواة مع ما تقوم اختها بانجازه الا اذا كتبت هى بهذه الطريقة — ولهذا كانت تقف ، ولسنوات عديدة ، فى هذا الوضع الشاذ الذى أتعبها » .

وفى عام ١٩٠٢ انعم على والدها بلقب سير واصيب بالسرطان وتوفي فى ٢٢ فبراير ١٩٠٤ .

السلوك فى السفر ، الانهيار العصبي الثاني ، محاولة الانتحار الأولى :

ترك أولاد سير ليزلى منزلهم ، منزل الحزن المظلم ، الى منزل آخر على ساحل بمبروك . وفى أول ابريل ١٩٠٤ سافرت ڤيرچينيا وفانيسا وتوبى وادريان الى فلوريس ، ومنها الى باريس ليلتقوا بكلايف بيل ويزوروا مرسم رودين Rodin * . وفي ٩ مايو تعود ڤيرچينيا واختها فانيسا الى انجلترا ، وفي ١٠ مايو يصيبها الانهيار العصبي الثاني ، فتنتقل الى مانور هاوس فى نوتنجهام للاستشفاء .

بدات ڤيرچينيا تشك فى اختها واتخذ حزنها على والدها طابعا هيستيريا ، وبدت المرضات،

(١٠) تظهر فى شخصية سالى فى قصتها « مسز دالواى » .

(١١) قاموس ليديل وسكوت (يونانى — انجليزى) .

وعددهن ثلاث ، وكأنهن شيطانات : كانت تسمع أصواتا غريبة تحثها على الاتيان باعمال حمقاء ، واعتقدت ان هذه التخيلات نتيجة للافراط فى الاكل فحرمت نفسها من الطعام . ونقلتها فيوليت ديكنسون الى منزلها فى بورنام وودز ، وهناك حاولت الانتحار بالالقاء بنفسها من نافذة ، ولحسن الحظ لم تكن النافذة عالية . كانت ترقد فى فراشها « **تستمع الى الطيور وهى تغني باليونانية ، وترى الملك ادوارد السابع مختفيا بين نبات الازاليه الصحراوى ويسب بلغة سوقية** » وظلت فيرجينيا « مجنونة » طوال هذا الصيف . ويعتقد المؤلف ان هذه المحاولة لم تكن الأولى فقد قالت لجاك هيل عند وفاة الملكة فيكوريا فى يناير ١٩٠١ : « **جاك ، هل تعتقد انني سانتحر ؟** » .

جماعة بلومز بيرى والهروب من الماضى :

كان انتقال العائلة الى منزلهم الجديد في رقم ٤٦ ميدان جوردون بمثابة هروب من الماضى بكل مآسيه . كان أخوهم جيرالد سعيدا بانفصاله عن أولاد « ستيفن » ، ولكن جورج لم يقبل فكرة ترك اختيه مع توبى وادريان ، واصر على السكن معهم وواصل تودده لفيرجينيا من جديد حتى تزوج من ليدى مارجريت .

واجتذب منزلهم في جوردون سكوير ـ مجموعة طيبة ومجموعة رديئة : مجموعة ديموقراطية ومجموعة ارستقراطية . ويمكننا ان نقول ان المجموعة الاولى كانت تتكون من هؤلاء الصامتين الهادئين الذين يبحثون عن الحقيقة ، يجلسون فى دائرة حول امامهم جورج مور وهم ساكسون سيدنى تيرنر وليونارد وولف وليتون ستراتش ، والمجموعة الاخرى وهى اكثر اهتماما بالامور الدنيوية ، واكثر ثرثرة وضجيجا أيام الخميس من كل اسبوع ، وتتكون من توبى كلايف بيل وديزموند ماكارثي .

كان ليونارد وولف أول الشبان الذين دعاهم توبى للعشاء ، وذلك قبل سفره الى سيلان فى ١٧ نوفمبر ١٩٠٤ ، وكان ذلك أول لقاء بين ليونارد وولف وفيرجينيا . ووصفه ليتون ستراتشى « بأنه يشبه سويفت وعلى استعداد لقتل زوجته ! » فقد كان ليونارد يحتقر الجنس البشرى ونراه يترك انجلترا ليعيش فى الادغال ويظل الغموض يكتنفه حتى عودته .

أما ليتون ستراتش فكان من الواضح أن اسمه سيلمع فى يوم من الايام ، بينما كان ديزموند ماكارثى على ثقة كبيرة بنفسه وسيما موهوبا . اما كلايف بيل فكان أغرب فرد فى هذه المجموعة ويهوى الرسم . وتبدأ فيرجينيا صلتها بمحرر الملحق الادبى للتايمز ، واستمرت تكتب فى هذا الملحق حتى وفاتها . فقد دعا رئيس التحرير والدها للاسهام بانتاجه فيها عند نشرها عام ١٩٠٢ ونراه يتصل بفرجينيا في مارس ١٩٠٤ . وتميزت جماعة بلومزبيرى بالتباعد والتعالى ، الى حد ما ، وكان معظم افرادها من العقلانيين واصحاب الافكار الجديدة الجريئة في الادب والرسم والفن .

وفى عام ١٩٠٥ قامت بزيارة قصيرة لاسبانيا مع أخيها ادريان وخلفت الرحلة انفعالات شتى فى نفسها تظهر فى قصتها « رحلة الى الخارج » The Voyage Out . وفى هذا العام عاودها الحنين الى سانت آيفز فعادت اليها ووصلوا فى المساء حتى تولاند هاوس وكأنهم اطفال قد عادوا بعد جولتهم فى ضواحيها . وفتحت فيرجينيا بوابة المنزل بجراة ، وصعدوا الدرج المؤدى الى الباب الرئيسى وشاهدوا الجرار الحجرية واحواض الزهور والشرفة والنوافذ

المضيئة (١٢) . وكان المنزل يبدو وكأنه في انتظارهم . ومكثوا في سانت آيفز حتى اكتوبر . وكان من دواعي سرورهم أن حظوا بمنظر صيد وفير من سمك البيلشارد . وبعد عودتهم الى لندن انشغلت ڤيرچينيا بالتدريس فى كلية مورلى وهو معهد مسائى معظم طلابه من العمال والعاملات .

وجدت عائلة ستيفن انه من الواجب زيارة اليونان مهد الحضارة الغربية . وفى اوائل القرن العشرين كان من الممكن ان يعثر الرجل الانجليزى الذى نال قسطا من الثقافة الكلاسيكية على اشياء كثيرة مبهجة فى اليونان وعلى الكثير ايضا مما يثير حزنه فى اليونان الحديثة . فقد يذهب لليونان بحثا عن فكرة معينة ويصدمه الواقع المر . وكان توبى من هذا الصنف من الناس، وكانت ڤيرچينيا تراقب فرحه وخيبة امله باهتمام وتعاطف فى آن واحد . وواصلت ڤيرچينيا رحلتها الى القسطنطينية ، وعاد توبي الى لندن مصابا بحمى التيفود وتوفى في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٦ . وبعد وفاته بيومين وافقت فانيسا على الاقتران من كلايف بيل وتم الزواج في فبراير ١٩٠٧ .

الرجل الاول فى حياة ڤيرچينيا ، تغير المناخ الفكرى :

يعتبر **والتر هيدلام** أول « رجل » فى حياة ڤيرچينيا العاطفية وكان يكبرها بأربعة وعشرين عاما . ولم توافق فانيسا على هذه العلاقة لأنها كانت تراه زير نساء يهتم بالفتيات الصغيرات . وحزنت ڤيرچينيا عليه حزنا شديدا عندما توفى عام ١٩٠٨ .

وتأتى لحظة حاسمة فى تطور اخلاقيات جماعة بلومزبيرى بل وربما ، كما يقول المؤلف ، فى اخلاقيات الطبقة الوسطى بوجه عام في انجلترا . وتغير المناخ الفكرى والاجتماعى وترتب على هذا التغير نتائج خطيرة ولكنها لم تكن بالقوة التي تكفي لتغيير اسلوب حياتها واسلوب تفكيرها . ففى هذه الفترة (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) كانت تعد لميلاد «رحلة الى الخارج» وشغلتها هذه القصة فى السنوات الخمس التالية . كما شغلت نفسها بكتابة مسرحية لم يبق لدينا منها سوى فقرات مبعثرة ، بالاضافة الى قصة طويلة وأخرى قصيرة . وكان على ما يبدو له سبع مخطوطات لقصتها « رحلة الى الخارج » حرقتها جميعها . والقت ڤيرچينيا بنفسها في دوامة العمل المتواصل فكانت تكتب المقالات لمجلة كورنهيل والملحق الادبى للتايمز والجارديان ، ولكنها لم تنشر اى قصة حتى بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها .

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير الى اخلاقيات جماعة بلومزبيرى . كان أفراد المجموعة يعتقدون ان الشخص المناسب لڤيرچينيا هو ليتون ستراتشى ولكنه ، كما يؤكد المؤلف ، كان لوطيا . وتعلق اختها على هذا الراى : « **افضل ان يكون ليتون زوجا لاختي بدلا من اى رجل آخر اعرفه ولكن الطريقة الوحيدة التى اراها تحقق ذلك هى ان يقع فى غرام ادريان (اخوها) وحتى لو حدث ذلك فقد يرفضه ادريان** » . وفى هذا الخطاب اشارة واضحة الى شذوذه الجنسي . وسرعان ما يظهر على مسرح الحوادث زوج آخر هو ادوارد هيلتون يونج ، ولكنه لم يعجبها فقد كان كما وصفته اختها « كالفيل فى محل للخزف الصيني » . ويشير المؤلف ـ وهو ابن اختها فانيسا ـ الى التجاذب الذى حدث بين

(١٢) انظر منزل مسز دامزاى فى « الى الفنار » .

ڤيرچينيا وزوج اختها (والد المؤلف) . فبعد زواج اختها وجد كلايف بيل نفسه متيما بحب ڤيرچينيا . ويستطرد المؤلف فيقول :

« لقد لجأت الى كلمة « مغازلة » لانني لو اطلقت على هذه « المودة » كلمة « فضيحة » ، فقد توحي ان كلايف قد نال مأربه . ولكن الامر في الحقيقة لم يكن أقل او اكثر من خيانة زوجية لطيفة بسيطة انتهت في الفراش » . (ص ١٣٣٠ ، الجزء ١) .

ويسأل عما كانت تريد ڤيرچينيا من هذه العلاقة . ويجيب بانه لو كانت ڤيرچينيا قد وقعت في غرام أحد فلن يكون سوى اختها ثانيا ، فالرسائل بينهما لم تنقطع ، وكلها تشبه الرسائل الغرامية . ويحاول تحليل هذا الموقف الغريب وتبريره بأساليب شتى . ونرى ڤيرچينيا تسجل في معرض حديثها عن عائلة بيل : « **سيتطلب الفصل بينهما** (تقصد فانيسا وزوجها) **بعض الوقت** » .

ان كان لهذه العلاقة اي أثر عاطفي في حياة ڤيرچينيا ، فهو نجاح كلايف في ان يجعلها تحس بحاجتها الى « رجل » ، وهذا هو ما فشل فيه والتر هيدلام من قبل . هذا بالاضافة الى انه كان يؤمن بعبقريتها ، وفي هذا المجال ايضا كان له فضل عليها يفوق فضل ليتون ستراتشي . فقد كان الاخير يرحب بمناقشة الموضوعات الادبية والفنية معها لا اعمالها هي ، بل ويعتبر نفسه ندا لها .

وفي ١٧ فبراير ١٩٠٩ يحضر ليتون ستراتشي الى منزلها ويطلب يدها ، وتوافق على الزواج منه . ولكنه اكتشف ان الامر ليس بهذه البساطة فقد راعه ان يكتشف انها من الجنس الآخر (اللطيف) وراعته عذريتها وسذاجتها . وانزعج حين ادرك انها قد تقبله زوجا ، وادرك ان جنة الزواج التي يحلم بها شيء مستحيل . وعاونته ڤيرچينيا على الفرار منها . لقد راودتها فكرة الزواج منه وراقتها ولكنها ، كما اعترفت فيما بعد ، كانت « جبانة جنسيا » ، وان خبرتها الجنسية الوحيدة مع الرجال كانت تجربة مفزعة تثير الاشمئزاز . ومع ذلك كانت ترغب في الزواج ، فقد بلغت السابعة والعشرين من عمرها وتعبت من كونها عانسا ، تعبت من عيشتها مع اخيها ادريان . وكانت في حاجة الى زوج تحترم عقله وتفكيره ، فقد كانت **تقدر الذكاء الخلاق** . كان شذوذ ليتون الجنسي بمثابة مصدر ضمان وطمأنينة لها ، وكزوج لن يكون ملحا ولن يكون من الصعب « ارضاؤه » وكانت تأمل ان يتطور هذا الزواج « **الاخوي** » **في المستقبل الى علاقة** وطيدة بينهما . لقد كانت تجربتها مع ليتون تجربة مريرة محزنة حقا . وافترق الاثنان ، وذهب هو الى برايتون ، وشغلت هي نفسها بالعمل **المتواصل** . **لقد بدأ** عام ١٩٠٩ بداية محزنة وانتهى بتصدع العلاقات بين افراد جماعة بلومزبيري .

ڤيرچينيا ستيفن وامبراطور الحبشة :

يأتي عام ١٩١٠ وبالتحديد في ١٠ فبراير ونرى ڤيرچينيا في القطار المتوجه الى وايموث من محطة بادنجتون وقد ارتدت عمامة شرقية وحول رقبتها سلسلة ذهبية تتدلى حتى خصرها وترتدي قفطانا مطرزا ، وقد صبغت وجهها بصبغة سمراء وعلى وجهها شارب ولحية انيقة . كان الثلاثة الآخرون في صحبتها ـ دنكان جرانت وانتوني باكستون وجاي ريدلي يرتدون نفس اللباس . اما ادريان فكان يرتدي قبعة عالية وملابس رسمية ومعه هوارس كول في زي رسمي لموظف من وزارة الخارجية البريطانية .

كان الغرض من هذه الرحلة خداع البحرية البريطانية واختراق الحراسة المضروبة حول السفينة الحربية دريدنوت Dreadnought والتمتع بجولة على أحدث قطعة بحرية في الاسطول البريطاني .

وقد خططت ڤيرچينيا لهذه العمليةبمساعدة كول الذى خطط لخدعة مماثلة عندما زار جامعة كمبردج على انه سلطان زانزبار ، واستقبله عمه وكان عمدة المدينة وطاف به فى ارجاء كليات الجامعة ثم ودعوه بحفاوة حتى محطة القطار . وابلغ كول جريدة الديلى ميل بالخدعة وغضب عمه منه .

وكانت عملية السفينة الحربية مماثلة . فقد ارسل احد أصدقاء كول لقبطان السفينة برقية مذيلة بامضاء وزارة الخارجية تعلنه فيها بزيارة امبراطور الحبشة للسفينة زيارة رسمية . ونفذت الخطة ، ووصلت الحاشية مع الامبراطور لتجد فى استقبالها ضابط الاتصال على ظهر السفينة . واستعرضوا حرس الشرف وتولى ادريان ترجمة خطاب القبطان للامبراطور (ڤيرچينيا) بلغة هىخليط من اللغة السواحلية واللاتينية واليونانية .

ونقل كولالخبر ونشرتهجريدتا الاكسبريس والميرور في الصفحة الأولى وبعناوين رئيسية ، وزاد اهتمام الصحفيين عندما علموا ان ڤيرچينيا كانت احد افراد الحاشية .

الانطباعية المتاخرة : Post-Impressionism

تعرف كلايف بيل عام ١٩١٠ على الفنان روجر فراى ، واصبح مع فانيسا من انصاره المتحمسين ، فقد أشرف روجر فراى على معرض الفن الانطباعى المتاخر عام ١٩١٠ . ولم تهتم ڤيرچينيا بهذا الفن فى بادىء الامر ، وبعد زيارات روجر فراى لمنزلها وبانضمامه لجماعة بلومزبرى تغير مزاج المجموعة الفنى ، واعتنقوا مذهب سيزان التجديدى ، ولم تعد فلسفة جورج مور تستقطب افكارهم ، واغتصب سيزان عرش جورج مور كما اغتصب روجر فراى منصة ليتون ستراتش .

وتوطدت العلاقة بين ڤيرچينيا وروجر فراى بعد زيارة للقسطنطينية واخذ يكتشف ابعادا جديدة فى شخصية ڤيرچينيا . وتتعقد العلاقات الانسانية والعاطفية مرة اخرى وتتشابك . فتميل فانيسا الى روجر فراى وتعجب به ، وفي النهاية تستسلم الاختان للامر الواقع . ففى عام ١٩٠٨ . كانت اجتماعات جماعة بلومزبرى تتميز بالحوار المكشوف أما في عام ١٩١٠ فكانت تتميز بالعلاقات والتصرفات المكشوفة دون حياء وكتبت فيرجينيا تقول : « ان الطبيعة البشريةتغيرت فى ديسمبر ١٩١٠ « واقترحت فانيسا ان يكونوا جمعية متحررة من كل القيود وخاصة الجنسية . ولم يكن ذلك مستغربا فقد حضرت فيرجينيا وفانيسا الحفل الراقص الذى اقامه الفنانون الانطباعيون فى فساتين عارية الكتفين قصيرة وكانهما فتاتان منلوحات جوجان . ودار همس في هذه الفترة يؤكد أن فى جوردون سكوير مارست فانيسا الجنس مع ماناردكين علنا فى حجرة استقبال ازدحمت بالمدعوين . ولكن المؤلف ينفى هذه الشائعة .

هكذا تعاقب العشاق والمعجبون ــ كلايف بيل ووالتر لام وسيدنى واترلو . ومن الشخصيات التى توافدت على منزلها والتر لام وادوارد مورجان فورستر . وفى عام ١٩١١ دعت فانيسا اختها لقضاء اجازة فى منزل ريفى في جيلفورد . وهناك التقت فيرجينيا بافراد جماعة جديدة اطلقت على نفسها « الوثنيون المحدثون » ، وكانت خلفية هذه

المجموعة تختلف عن خلفية جماعة بلومزبيرى. كان معظم أعضائهـا من أبنـاء الشخصيـات الفيكتـورية الثريـة ، حصلوا علـى تعليـم جـامعى ويدينـون بالاشتراكيـة ويناصرون فلسفة جورج مور . وتأثرت فيرجينيابسلوك افراد هذه المجموعة ونراها تستحم مع روبرت بروك عارية فى ضوء القمر اثناء اجازة قضتها معه من ١٤ الى ١٩ اغسطس عام ١٩١١ . كان استحمامها عارية نوعا من التحرر يليق باختها فانيسا . وتعاودها النوبات العصبية وتكتب لاختها فى يونيو ١٩١١ : « **لم استطع الكتابـة وخرجت كل الشياطين سوداء كثيفة الشعر . ها أنا في التاسعة والعشرين ، دون زواج ، مثال الفشل ، دون اطفال مجنونة ايضا ، لا اجيد الكتابة .** »

ويعود لينارد وولف من سيلان عام ١٩١١ ، وتوجه لمقابلة اصدقاء كمبردج الذين تركهـم عام ١٩٠٤ ، وهم ليتون وساكسون وديزموند ماكارثى وكلايف بيل وفورستر ، وعن طريقهم اتصل بفانيسا وروجر فراى وفيرجينيا .كان لينارد قد تعلم فى هذه الفترة ان يعيش بمفرده كرجل بوليس يرعى مصالح الامبراطوريةوينفذ سلطة الحاكم ويحكم علـى الناس بالاعـدام وينفذ الحكم فيهم . ويبدو أنه عشق هـذا العمل ولكـن جماعة بلومزبيرى استطاعت ان توقظه من هذا الحكم الامبراطورى .وسرعان ما انسجم مع حياته الجديـدة فى كمبردج .

وتوطدت الصداقة وتكـررت الزيارات . وفى ٤ ديسمبر ١٩١٢ انتقل الى حجرتين فى الطابق العلوى في منزلها فى ٣٨ ميدان برنزويك بـاجر قدره ٣٥ شلنا فى الاسبوع .

وطلب يدهـا في ١١ يناير ١٩١٢ ووافقت على الزواج منه فى ٢٩ مايو ١٩١٢ ، وكان هذا القرار هو خير ما فعلته فى حياتها .

* * *

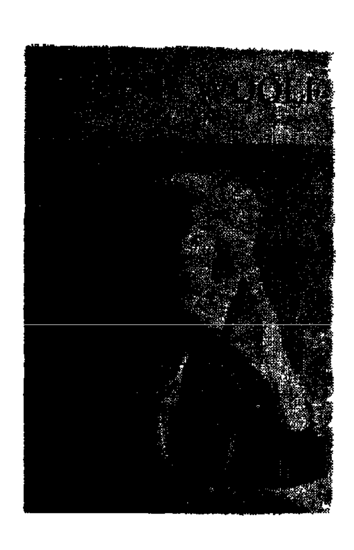
الجزء الثاني : ١٩١٢ ـ ١٩٤١ :

العروس :

ارتاح أصدقاء فيرجينيا لنبأ خطبتها الى لينارد ماعدا كلايف بيل . ويحكى لنا المؤلف عن مقابلة فيرجينا لعائلة وولف . ولم تترك المقابلة اثرا حسنا فى نفسها فقد كانت مسز وولف والدة لينارد « تترأس » عائلة كبيرة .

تم تسجيل عقد الزواج فى مكتب تسجيل سانت بانكراس وربما كان ذلك هو السبب فى عدم حضور مسز وولف. وتم التسجيل بسرعة لم يرتح لها مسجل عقود الزواج ، فقد كان ضعيف البصر وكان اليوم ممطرا تخلله البرق والرعد ، واختلطت عليه الاسماء الغريبة « فيرجينيا وفانيسا » ولم تتركه فانيسا يؤدى عمله ، بل كانت تقاطعه من آن لآخر لتسأله عن الخطوات القانونية التى عليها ان تتبعها لتغير اسم ابنها في السجلات . وانتهت مراسيم « كتب الكتاب » وبدأ شهر العسل ، وفكر العروسان فى قضائه في ايسلنده فى بادىء الامر ثم استقر بهما الرأى اخيرا على اسبانيا. وفى برشلونة كان الطعام رديئا ، وفى مدريد كانت الحرارة لاتطاق ، فهربا الى توليدو ومنها الى ساراجوسا . ومن اسبانيا توجها الى مرسيليا ومنها الى شمال ايطاليا ثم البندقية وعادا فى ٣ اكتوبر ١٩١٢ الى منزلها فى ميدان برنزويك .

اكتشف الاثنان بعد زواجهما أن كلامنهما يكمل الآخر ، وكان الحب الذى بينهما من القوة بحيث استطاعا التغلب على مشاكل الزواج في المستقبل وعلى جنون فيرجينيا . ويجب ان نؤكد ان هذا الحب لم تمتد جذوره الى الحياة الجسدية . كان اصدقاء فيرجينيا يأملون ان ينجح لينارد فى أن يعيد اليها انوثتها



وثقتها بنفسها ويجعلها اكثر استجابة ، ويعاونها في التغلب على الخوف من « الرجل » . وتبدد هذا الامل فقد ارسلت من ساراجوسا لصديقتها كاترين كوس تحدثها عن برودها الجنسى وينتهى خطابها بقولها : « ربما مازلت الآنسة س . »

وبعد عودتهما الى انجلترا استشارا فانيسا فكتبت بدورها تقول : « كان يبدو انهما فى غاية السعادة ولكن من الواضح انهما كانا قلقين بشأن برود فيرجينيا . يبدو اننى ازعجتها ولكننى واسيته بقولى اننى كنت اعتقد انها لم تفهم او تقدر الرغبة الجنسية فى الرجل . ومن الواضح انها مازالت لاتجد لذة اطلاقا فى العملية الجنسية وهذا غريب . كانا يتشوقان لمعرفة المرة الاولى التى احست فيها بهزة الجماع . ولم اتذكر . »

كانت فانيسا ولينارد ومعهما فيرجينيا يميلون الى القاء اللوم على جورج الذى خلف فى حياتها الجنسية هذا الجرح الغائر ، وربما كانت على استعداد نفسى بطبيعتها للتنور من هذا اللقاء الجسدى بين الرجل والمرأة ، وربما

كانت الشهوة الجنسية ضعيفة فيها . وكتبت فيتا ساكفيل ويست فيما بعد : « لقد كانت **تبغض حب التملك وحب السيطرة في الرجال وتكره فيهم صفة الفحولة** » . وبالرغم من ذلك كله كانت تود لو انها انجبت اطفالا . ولكن الاطباء اجمعوا على انه من الخطورة ان تصبح « أما » . وظلت طوال حياتها تحسد اختها فانيسا فقد انجبت ثلاثة أطفال ، مؤلفنا أحدهم .

وانتهت من قصتها « **رحلة الى الخارج** » في مارس ١٩١٣ وفي احدى فقرات القصة وصف لحالتها النفسية ، ونوبات الارق التي كانت تعانيه :

> « تلك الليالي الطويلة التي لا تنتهي عند الساعة الثانية عشرة ولكنها تمتد الى الاعداد المزدوجة الثالثة عشرة ، الرابعة عشرة وهكذا حتى تصل الى العشرينات ، ثم الثلاثينات وبعد ذلك الى الاربعينات . . . وليس هناك ما يمنع هذه الليالي من ان تفعل ذلك اذا ارادت . »

وتسوء حالتها الصحية وتشتد فيها النزعة الانتحارية ، فتتناول مائة حبة من حبوب الفيرونال لتقضي على حياتها وتظل في رعاية الممرضات حتى نهاية العام .

ويلقي المؤلف باللوم على فانيسا وادريان . كان يجب عليهما ان يطلعا لينارد قبل زواجه منها على حالتها بالتفصيل . لقد حرصا على اخفاء جنونها . وحاول زوجها علاجها عن طريق الراحة والاسترخاء وتناول الوجبات في مواعيد منتظمة وتجنب الاثارة الذهنية . كان يقرأ في ذلك الوقت « تفسير الاحلام » لفرويد . ومن العسير علينا ان نجزم بفائدة التحليل النفسي في حالتها وكثيرا ما يحجم المحلل النفسي عن علاج المرضى الذين اصيبوا بالجنون فعلا . وربما عجز فرويد نفسه عن علاجها بعد انهيارها العصبي الأول . ولم يسمع أحد بنظريات فرويد في انجلترا عندما أصابها الانهيار العصبي الثاني في ١٩٠٤ . وحتى في عام ١٩١٣ لم يكن العلاج النفسي الفرويدي معروفا . فقد بدأ ارنيست جونز يمارس العلاج النفسي في لندن عام ١٩١٣ . وتعد مدام مايكوكاميا Mme, M. Kamiya حاليا سيرة باثولوجية لفرجينيا ولف وربما تساعدنا على تفهم مرضها النفسي ، وعلى ما اذا كان للتحليل النفسي امل في شفائها . ويبدو لكاتب السيرة ، كما بدا لزوجها ، ان مرضها هو الجنون الاكتئابي ، وهو مرض لا يستجيب المريض فيه للتحليل النفسي .

فشل العلاج بالعمل ، مطبعة هوجارث :

بدات تتماثل للشفاء في أوائل عام ١٩١٥ وبدات في كتابة يومياتها واحتفلت بعيد ميلادها الثالث والثلاثين في ٢٥ يناير . واستقر رأيها ، ووافقها زوجها ، على شراء آلة للطباعة والاقامة في هوجارث هاوس في ريتشموند . ولم يمض شهر حتى يعاودها الصداع وتدخل احدى المصحات في مارس ، وفي الشهر ذاته تنشر « **رحلة الى الخارج** » (٢٦ مارس ١٩١٥) .

تميز هذا الانهيار عما سبقه في المرحلة الاولى . فتراها تدخل في مرحلة من مراحل جنون الثرثرة والتشوش الفكري والاستمرار في الكلام دون توقف حتى ينتهي بها الامر الى اللغو والبربرة ، ثم تسقط مغشيا عليها وتظل في غيبوبة لفترة طويلة . وفي نهاية عام ١٩١٥ اصبح من الجلي انها لن تعود امرأة عادية ، وكان من المتوقع ان يعاودها الجنون في اية لحظة وتصاب بنكسة اشد وأقوى من التي قبلها .

فبعد عامين من النوبات المتعاقبة كان من الواضح ان عقلها قد أصابه خلل ، وان شخصيتها قد اهتزت بعنف .

الحرب العالمية الأولى :

عزلتها مطبعة هوجارث عن لندن في الفترة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، « **وتلاشت جماعة بلومزبيرى كما يتلاشى ضباب الصباح** » واستقطبت الحرب اصدقاءها ، ففى يناير ١٩١٦ صدر قانون التجنيد الاجبارى والتعبئة العامة ، واستدعى كل او معظم اصدقائها للجيش ، وبالطبع رفضوا التجنيد احتجاجا على هيستيريا الحرب . وواجه معظمهم المحكمة ، التى وان كانت قد اكبرت فيهم روح الاخلاص والصدق ، الا انها حكمت عليهم اما بالعمل اليدوى او بالسجن أو بارغامهم على الالتحاق بصفوف المقاتلين . وفى مواجهة الخطر الداهم تجمع اعضاء بلومزبيرى مرة أخرى .

تتبع فيرجينيا في قصصها لتلك الفترة منهجا واضحا وتسير على نسق معين : ففى الصفحات الاخيرة من « **رحلة الى الخارج** » نراها وقد ازاحت الغطاء لتكشف عما يعتمل فى عقلها الباطن ، ويغفو الرقيب الفرويدى وتزحف احلامها من كهوفها وتخرج وتطل علينا بشياطينها . لقد كانت تلعب بالنار ودفع بها هذا الكتاب **الى حافة الجنون** المطبق ، ولم تكن على استعداد للمجازفة بمخاطرة أخرى ، ولهذا نراها تبدأ فى كتابة شيء « **معقول** » شيء « **هادىء** » ، يخلو من الانفعال العصبى والافكار « **الغريبة** » وظلت تسير على هذا المنوال :

فنرى « **أور لاندو** » تتبع « **الى الفنار** » ، وقصتها « **فلوس** » تأتى بعد « **الامواج** » وتأتى « **ثلاث جنيهات** » بعد « **السنوات** » ـ كتاب من الوزن الثقيل يتبعه آخر من الوزن الخفيف (ما كانت تطلق عليه كلمة « **املوحة** » أو « **مزحة** ») . كانت قصتها « الليل والنهار » ١٩١٩ من النوع الخفيف ، عمل « أستجمامى » هذا بالاضافة الى عملها فى « الملحق الادبى للتايمز . وتتسلم مطبعة جديدة وتضيف مطبعة يدوية أخرى الى دار هوجارث وتشغل نفسها عام ١٩١٨ بجمع الحروف ورصها وتنتهى من كتابة اكثر من مائة ألف كلمة « فى « الليل والنهار » .

وتدق أجراس النصر فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ وفي ١٥ نوفمبر يلتقى الشاعر توماس ستيرنز اليوت بفيرجينيا وولف لأول مرة .

« عوليس » وفيرجينيا واليوت :

ذهبت هاريت ويفر ، صاحبة مطبعة اجويست Egoist ، فى ابريل ١٩١٨ ، ومعها مخطوط « **عوليس** » لجيمس جويس ، وكانت تأمل ان تقوم دار هوجارث بنشرها . كانت « **عوليس** » عملا أدبيا لم تستطع فيرجينيا وولف ان ترفضه او تقبله ، لقد اعجبت بالقصة وكانت عبقرية جويس واضحة فيها كل الوضوح ، لقد اثارت القصة فيها الاعجاب والحسد والخوف في آن واحد . كانت تعتقد أن للقصة جوانبها الجمالية ولكنها لا تخلو من الخشونة والسوقية أحيانا . لقد خيل اليها ان كاتبا آخر قد انتزع قلمها من يدها ليحط فى جراة ماعجزت هى عن التعبير عنه او خجلت من كتابته . لقد هالها ما رأت فى « عوليس » وكانت تضع جويس فى مرتبة واحدة مع ازرا باوند « المعلم الكبير » وتشير اليهما بعبارة « هؤلاء الناس » وكانهم من العالم السفلى . وبثاقب بصرها احست بأهمية هذا العمل ، ولكنه كان يفوق امكانيات مطبعة هوجارث البدائية . كان عليها ان تبحث عن

جامع حروف محترف ، هذا بالاضافة الى ان اصدقاء ليونارد حذروه من مغبة نشر « عوليس » ، فقد تعرض دار هو جارت للمحاكمة والكتاب للمصادرة . (١٣)

ومن اهم الصعاب التى واجهت فيرجينيا فى تلك الفترة مشكلة الخدم والاعمال المنزلية . كانت تقضى حوائجها اما سيرا على الاقدام أو باستعمال دراجة . ولكى تحصل على الضوء كانت تلجأ الى الشموع التى كان شحمها يتساقط على السجاجيد ، او تلجأ الى المصابيح التى تعمل بالكيروسين ودخانها ، وتقليم اشرطتها وتلميع وتنظيف زجاجاتها كل صباح . كانت تحصل على الدفء باستعمال الخشب أو الفحم ، وكان عليها ان تحمل الفحم فى دلو كبير وتنظف المدفاة من الرماد . ولكى تحصل على ماء ساخن للاستحمام كان عليها ان تسخنه فوق الموقد ، اما الماء البارد فكان عليها ان تضخه من مضخة خارج المنزل الى خزان كل يوم . لم يكن هناك حمام في الطابق العلوى ، ولا مرحاض ، وكانت اعمال الطهى والتنظيف اعمال مضنية وقذرة وبطيئة .

حظيت فيرجينيا فى هذه الفترة بصداقة اليوت . كان في نظرها رجلا امريكيا انيقا مهذبا . وذهب اليها اليوت ومعه ثلاث أو أربع قصائد ، وكانت معجبة به لذكائه وشاعريته وان لم تتفق معه فى كل آرائه . فقد كان يؤمن بعبقرية ازرا باوند ، كما كان شديد الاعجاب بجيمس جويس . ورافقت فيرجينيا وليونارد على نشر قصائده واعدت للطباعة في يناير ١٩١٩ .

وتضخم العمل فى المطبعة ، ونشرت لاليوت وكاترين مانسفيلد وميديلتون مورى وفورستر وماكسيم جوركى . وانشغل الاثنان فى جمع الحروف وفى الطباعة وتنظيف الآلات واللصق والتجليد والتغليف وتصدير الطرود والرد على الرسائل . وظل جميع من يعملون في مطبعة هو جارت يحلمون بأن هذا العمل الجهنمى المضنى ربما يؤدى فى النهاية الى الراحة التى ينشدونها في جنة الجماليات .

وفى يونيو ١٩٢٢ يحضر اليوت الى مطبعة هو جارت ليقرأ « **الارض الخراب** » وتكتب فيرجينيا فى مذكراتها :

> « لقد غناها وانشدها ونغمها . وهى تتميز بالجمال وقوة العبارة ، التناسق ، الكثافة . ما الذى يجعلها تتماسك ، لست ادرى ... وعلى كل حال فهى تخلف فى الفرد عاطفة قوية . اسمها « الارض الخراب » وتفسرها مارى هتشنسون ... على انها سيرة توم (اليوت) الذاتية ــ سيرة مقتضبة » .

وكان من الظلم لشاعر موهوب كاليوت أن يكد فى عمله موظفا مغمورا فى أحد البنوك . وافتتحوا له اعتمادا لجمع ٣٠٠ جنيه سنويا ولمدة خمس سنوات ليوفروا له تفرغا لشعره . وكان الحساب باسم اولد نجتون وليدى اوتولاين وفيرجينيا في بنك لويدز ووزعت ليدى اوتولاين منشورا على الاصدقاء تحثهم على التبرع . واجتمعت فيرجينيا باليوت وفورستر فى ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢ ودار الحديث حول « عوليس » واعجبت فيرجينيا بدفاع

(١٣) See Ellmann, R. : James Joyce, London, 1959, O.U.P. Beach, Sylvia : Shakespeare and Company, London, 1959, Faber & Faber, pp. 55 et seq.

اليوت عنها وبتحليله للقصة ، ثم جاء موضوع العون المالى فرفض اليوت قبوله بالرغم من اقبال المتبرعين على العطاء .

وبدات فيرجينيا في الاعداد لقصتها « مسز دالواى » ، وخرجت قصتها « حجرة يعقوب » الى النور فى اكتوبر ١٩٢٢ ، وتعتبر بداية لنضوجها الفنى وشهرتها .

فيرجينيا ومسز رامزاى فى « الى الفنار » :

نراها بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ وكأنها مسز رامزاى . ومن الممكن استخلاص بعض خيوط هذه الفترة من خصلة حياتها على النحو التالى : حسرة دائمة وداء عضال ، عدم قدرتها على انجاب الاطفال ، حسد يأكل قلبها من آن لآخر ، فقد استطاعت فانيسا ان تكون اسرة وبالرغم من مسؤولياتها العائلية استطاعت ان تعيش عيشة اكثر طلاقة وحرية من حياة فيرجينيا . احست فيرجينيا بان حياتها ، وقد جاوزت الاربعين ، قد بدأت تفلت من بين يديها ، وانه من الممكن ، كما تكرر وتؤكد فى « الى الفنار » (١٤) ، ان تمسك بهذه الحياة وبهذه اللحظات ، او على الاقل ، وبطريقة غامضة ، من الممكن ان تجعل نبض هذه الحياة يدق ببطء .

وتاقت الى المدينة ، وعادت الى لندن لتحتك بمجموعة جديدة من الشبان المرموقين أمثال جورج رينولدز ، وانجوس دافيد سون ، ولوكاس ، وريموند مورتيمر ، ولورد ديفيد سيسيل .

« مستر بينيت ومسز براون » أو الصراع بين القديم والجديد :

يعد يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ يوما مشهودا فى حياة فيرجينيا ، فقد دعيت الى القاء محاضرة عن « الشخصية فى فن النثر الحديث » أمام جماعة في كمبردج تطلق على نفسها اسم « الملحدون » أو « المارقون » . واختارت عنوانا للمحاضرة : « مستر بينيت ومسز براون » وصارت المحاضرة فيما بعد بمثابة بيان أدبى عن آمال المحدثين وتبدأ المحاضرة : « نحن نرتجف على على شفا عصر من أعظم عصور الأدب الانجليزى» وكانت تشير بالضمير « نحن » الى «الطليعيون» . وكما يحدث فى مثل هذه البيانات الادبية أو السياسية ، يطالب اصحابها بافساح المجال للجديد ، وبازاحة العوائق التى تقف فى طريق هذا الزحف ، ومنها بعض المعوقات التى تراكمت وتكلست على مر العصور : تلك القصص الانيقة المهذبة المصقولة ، تلك السير الرائعة والتراجم المسلية ، تلك الآراء النقدية المائعة المداهنة ، تلك القصائد والاشعار الموسيقية العذبة التى تتغنى ببراءة الازهار والاغنام والوديان الخضراء والعيون الزرقاء والتى يطلق عليها جمهور الناس « الانتاج الادبى » . وأول عمل جاد امام هذا الفريق المجدد هو ازالة آثار بينيت وجالزورثى وهـ . ج . ويلز ، (١٥) فهم الاعداء الحقيقيون الذين نجحوا فى طمس الغاية الفريدة للادب ، وهى « كشف الحقيقة التى تجسدها مسز براون الغامضة . » فلا يحدثنا بينيت عنها الا فيما

---

(١٤) تتكرر عبارة Life Stand Still here عدة مرات فى القصة . وترمز لوحة ليلى بريسكو الى توقف الزمن وتجميده .

(١٥) انظر «اعلام القصة فى الادب الانجليزى الحديث» طه محمود طه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٦ ـ المقدمة ص ١٠ ـ ٥٠ .

يختص بايجار حجرتها ، ويقول لنا ويلز ما يجب أن يكون عليه إيجار حجرتها ، اما جالزورثى فيخبرنا بأنها لا تستطيع ان تدفع ايجار حجرتها . ولا يستطيع احدهم أن يكشف عن شخصية مسز بروان الحقيقية ويسبر غورها لانهم لا يهتمون « بجوهر » مسز براون. كانت شخصية مسز براون متقلبة تتغير كالحرباء حسب الموقف والمناسبة ، تتغير بتغير الزاوية التى نطل عليها منها . وفى النهاية تصبح مسز براون (أو اى شخصية) مجرد « شىء » أو « موضوع » ، مجموعة من الخواطر ، حزمة من الذكريات ، بعضها واضح حاضر فى ذهنها ، والبعض الآخر عالق وملتصق بافكار وذكريات شخصيات اخرى ، وهذه الذكريات تظهر ثم تختفى لتحل مكانها ذكريات اخرى . وتستطيع مسز براون اليقظة الواعية ان تتذكر اسمها وتعرف جيدا أنها مسز براون ويمكنها أن تتذكر عمرها ولكن من العسير عليها ان تتذكر أول وجبة ولكنها ، مع ذلك ، تستطيع بطريقة غامضة ان « ترى » لعبتها الأولى ذلك الدب الصغير ، وخاصة عيونه السوداء التى تشبه الازرار اذا اشتمت رائحة اثاث معين . هذه هى مسز براون التى لم يعرفها بينيت اطلاقا ولا سمع بها ويلز . وعندما تموت مسز براون ويتحلل جسدها ويختلط باديم هذه الارض ، فربما لا يبقى لدينا منها سوى هذه السحابة من الذكريات ، هذه الحبات التى ينظمها ويربطها خيط رفيع لا نكاد نراه .

وبعد ان تحدثنا عن هذه المجموعة المادية « المضللة بفريقها الذى ينتمى اليه اعلام امثال فورستر ولورنس فهم يتميزون بالشجاعة والاقدام ، ولكنهم ضيعوا جهدهم الاكبر فى السير في طريق شائك ، اما جويس واليوت ، فبالرغم من تجنبهم اخطاء كثيرة، الا ان اتهامهما ممكن الاول لحجم مادته المروع ، والثانى لعدم انضباطه . ولكنها لن تقول لمن الغلبة ؛ ومن سيحرز النصر . الا ان البيان يخطط لبرنامجها فى السنوات العشر التالية ، ويعطى بصورة واضحة فكرة عن حياتها .

وتنتهى من « مسز والواى » في ٩ اكتوبر ١٩٢٤ ويقول لنا المؤلف انها لم تتحدث عن مؤلفاتها كثيرا فى رسائلها ولكنها فعلت ذلك فى رسالة للرسام جاك رافيرا الذى كتب لها يشرح وجهة نظره فى الفرق بين الكتابة والرسم . فمن الامور العسيرة فى الكتابة مسار الكلمات في « خط » وكذلك الافكار ، الفكرة تلو الفكرة. فلا يستطيع القارىء او الكاتب ان يقرأ أو يكتب الا كلمة بعد كلمة . وعندما يكتب الاديب كلمة واحدة فهو كمن يلقى بحصاة في بحيرة فيطير ترشاشها اولا فى الهواء في كل اتجاه قبل ان تغوص الى الاعماق مخلفة على السطح مويجات دائرية تتسع وتتسع حتى تختفى فى اركان البحيرة الغامضة . وهذه الحركة لا يمكن لها ان تتم الا اذا لجأ الكاتب الى الفنون التصويرية المنقوشة ، كأن يضع هذه الكلمة الموحية فى وسط الصفحة ثم يحيطها بزخرفات من المعانى المتداعية (١٦) . وهكذا يقترب الكاتب من الرسام فى تحقيق ما يمكن ان نطلق عليه التزامن او التواكب او التواقت أو الآنية فى الزمان والمكان . ومن العسير على العقل أن يدرك بطريقة الجيشتالت هذا التواكب ، فالفكر يسيل فى « تتابع » والقارىء لا يدرك وهو يقرأ في صفحة ٢٧٥ مثلا ما يحدث في صفحة ٣١ . وارسلت له فيرجينيا تقول ان

---

(١٦) لجأ جيمس جويس الى هذه الحيلة فى فينيجانزويك .

الرسام يتمتع بموهبة التعبير وكان عليها ان تتجنب ، على حد قولها ، (الشكل التقليدى **المحملة التى تشبه خط السكة الحديدية) .**

ونرى فى « مسز دالــواى » طريقة السرد الاشعاعية « التى تصور لنا فكرتين او اكثـر فى آن واحد ، او كما يقول جويس (١٧) Two Thinks at a time وكان من الضرورى ان تضــع فى قصتهــا التالية « الى الفنــار » الرسامة ليلى بريسكو وتنتهى القصة بانتهاء لوحة ليلى الزيتية : « ورسمت خطا هناك ، فى الوسط . » وفى الفترة من يونيو ١٩٢٥ الى ديسمبر ١٩٢٨ اتمت « الى الفنار » ووضعت الخطوط الاولى لفكرة قصتها « الامواج » ونقرأ فى مذكراتها :

« استيقظت ، ربما الساعة ٣ . آه انها تبدأ ، انها آتية —
الرعب — فهى تشبه الموجــة المؤلمة التى تتضخم حول القلب —
تطوحنى في الهواء . انا تعســة ، تعسة مكتئبة منقبضة —
يا الهى ، انى اتمنى الموت . ولكن لماذا هذا الاحســاس ؟
لارقبن الموجة وهى تعلو . انى ارصدها فانيسا . اطفال . اخفاق . نعم . انى ادرك ذلك . اخفاق . اخفاق . ونعلو الموجة . »

وتشير يومياتها في تلك الفترة الى صــورة مفزعة « لزعنفة » تتهددها بالخطر ، تراها تشق الامواج . وربما ترمز الى خطر داهم يلاحقها او الى حيوان يريد افتراسها . وترمز الزعنفة الى وحش شرير لــه انياب حــادة يكمن فى الاعماق احيانا وتارة يظهر على سطح الماء .

وتدخل فى دوامة الامواج حتى تصاب بانهيار مفاجىء فى ١٩ اغســطس ١٩٢٥ وتظل معتلة لمدة شهرين .

الرجل والمراة : اولارندو :

تتوطد « الصداقة » بين فيرجينيــا وفيتا ساكفيل ويست (مسز هارولد نيكلســــون) ويحرص المؤلف على ابراز هذه العلاقة بمثل حرصه على ابراز العلاقة بينها وبين كاترين مانسفيلد فيقول :

« لقد وقعت فيتا فى غرام فيرجينيا . ولما كانت غيورة متوقدة الحس احبتها كما لوكان رجل قد احبها . بتلهف رجالى لنوع من الاشباع الجسدى — حتى عندما كــانت فيرجينيا فى ذلــك الــوقت فى الاربعينات من عمرها ... وكانت قد فقدت سحر جمالها وبالرغم من رهبة فيتا منها . »

ومما لدى المؤلف من ادلة يتضح ان العلاقة كانت من جانب واحد . ولا تكتب فيرجينيا عن علاقتها بكاترين بمثل الحماس الذى تكتب به عن علاقتهــا بفيتا . ونجــد جــذور قصتها « اولارندو » في هذه العلاقة . فبطل القصة شاب وسيم يقع في غرام ملكة سرغان ماتهجره . ويعتكف في منزله الريفى لتبــدأ اعمال سير توماس براون ، وتمر حوادث القصة سريعة فنراه يقضى ليلة مع الراقصة روزنيا ثــم يصاب بغيبوبة لمدة اسبوع يظل فيها فاقــد الوعى ويصحو ليجد نفسه قــد تحول الى

(١٧) James Joyce : Fennegans Wake, p. 583.

امرأة وتعيش ليدى اورلاندو عبر القرون وتقابل العظماء والادباء وتتزوج من بحار وتنجب طفلا ونصل بها الى عام ١٩٢٨ لتستقر فى منزل ساكفيل العائلى !

هذا التحول فى شخصية القصة من رجل الى امرأة يوحى بأغرب التفسيرات والتأويلات كما يؤكد ، الى حد ما ، مايزعمه المؤلف من ان العلاقة لم تكن مجرد علاقة افلاطونية بين امرأة واخرى بل تعدتها الى العناق والمضاجعة . ويصرح بأنه مهما كانت نوعية العلاقة بينهما فهناك من الدلائل ما يوحى بأنها ، اى فيتا ، لم تثر ڤيرچينيا كما ان ڤيرچينيا لم تشبع ڤيتا » .

وتعتبر « أورلاندو » شبه ترجمة ذاتية لفيرجينيا لانها تخلد هذا الحب الذى تكنه لفيتا ، ومن القصة نلم باطراف حياتها اليومية فى هذه السنوات .

فورستر واليوت وفيرجينيا :

يدخل فورستر حياتها مرة ثانية بعد ان انتهت حياته الادبية وبدأت هى حياتها الفنية . لم تشده تجاربها التجديدية فى كتابة القصة ، وكان يعتقد أنها بعدت بقصصها عن التقاليد المرعية وبالتالى عن الحياة . كان يخشى كل منهما الآخر ، وكان فورستر سعيدا مع بنى جنسة من الرجال (١٨) ويجد فى « أنوثتها » شيئا مزعجا .

كان يرتاح الى زوجها لينارد وهو الذى شجعه على الانتهاء من « رحلة الى الهند » وكان يتعاطف مع لينارد ، ويحس بانه يستحق منها ومن اصدقائها احتراما اكثر عن كونه مجرد « زوجها »

ومع اليوت تلتحم في مناقشة دينية ، فقد أصبح اليوت من أتباع الكنيسة الانجلو كاثوليكية . وتغيرت نظرته الى العالم واصبحت حياته مجرد فترة اعداد للآخرة . لقد استطاع أن « يخلص » نفسه بينما ظلت فيرجينيا ولينارد من المارقين المحكوم عليهم بالهلاك الابدى . ولكن المؤلف يقول لنا انه لواستعملنا كلمة « الدين » بمعناها الواسع العريض لوجدنا في قصصها شيئا من الدين ، فقد كانت تصف نفسها بأنها « متصوفة » ، ولكنها لم تؤمن بالآخرة ولا بوجود الخالق وظلت طوال حياتها من اللا أدريين .

الأمواج :

انتهت من « الامواج » فى ٢٩ مايو ١٩٣٠ ونقرأ فى يومياتها . « سواء كانت جيدة أم رديئة ، لقد تمت . لقد احسست بكل تأكيد عند النهاية انها لم تنته فقط بل تمت ـ اكملت . لقد تمت صياغة الشىء فى عجلة ، مقطع الاوصال ، اعرف ذلك . ولكننى قد أوقعت فى شباكى تلك الزعنفة التى ظهرت على سطح الماء والتى رايتها فى المستنقعات من نافذتى » .

لقد وصلت الى القمة عند نشر « الامواج » في فبراير ١٩٣١ . وفى ٢٥ يناير ١٩٣٢ بلغت الخمسين من عمرها وبدأت تشعر بالاجهاد جسميا وعقليا . وحزنت حزنا شديدا على وفاة صديقها ليتون ستراتشى ، ثم تأتى وفاة روجر فراى عام ١٩٣٤ لتضيف الى احزانها .

---

(١٨) انظر قصته « موريس » التى نشرت بعد وفاته فقد بداها عام ١٩١٣ وانتهى منها عام ١٩١٤ ونشرت عام ١٩٧١ وفيها يناقش فروستر مذهب اللواطة . Homosexuality.

كان ليتون يمثل ماضيها وروجر فراى حاضرها. وزاد من حزنها ان صداقتها مع فيتا انتهت هى الاخرى ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعرضت قصصها وفنها في هذه الفترة لنقد شديد . وصفها الامير ميرسكي بانها عقلانية متعالية ووصفها سوينيرتون بانها « **بائعة متجولة تروج لمخدرات وافيون الراسمالية** » . لقد أساء اليها الاخير ولكن الطعنة التى عاجلها بها ويند هام ليويس . لقد كانت فى اعتقاده « **شيئا تافها** » ، « **فى غاية الضآلة** » « **ما عاد احد ياخذها ماخذ الجد في يومنا هذا** » .

واحست بأفول نجمها . كان من الممكن ان تجد انصارا لها عام ١٩٢٤ فى فورستر ولورنس واليوت وجويس . وبعد عشر سنوات تبدل الحال ، وتغيرت الحرب الادبية لخلو الميدان من انصارها . كان ويلز هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من الجيل القديم ، أما لورنس فتوفى عام ١٩٣٠ وكذلك ليتون وتوقف فورستر عن الكتابة ، اما جويس فكان مشغولا بكتابة « فينيجانز ويك » . اما الذين ظلوا احياء من معاصريها فكانوا الدوس هكسلى وبريستلى ووالبول وديفيد جارنيت ورز ماكولى ، ولم يتحقق لاحد منهم ان يواصل الكفاح والثورة على التقاليد الادبية التى كانت تنادى بها عام ١٩٢٤ . ونراها تقف وحدها وقد تغير المناخ الفكرى والادبى والسياسى ، وقد فقدت انصارها واعداءها على حد سواء .

بتغيير المناخ الادبى اخذ جمهور الادباء ينادى بالبعد عن الفن للفن والاتجاه بالادب الى « الالتزام » والى « الاصلاح الاجتماعى الفعال » . كان هتلر يمسك بزمام الامور ، واجتاحت اليابان منشوريا ، وفى عام ١٩٣٥ غزا الايطاليون الحبشة . وفي عام ١٩٣٦ بدات الحرب الاهلية الاسبانية . حرب بعد حرب بعد حرب ، وكانت فيرجينيا تكره العنف ، فهو مظهر من مظاهر الفحولة يذكرها بالرجل. وتداعى سوق الاوراق المالية فى امريكا وظهرت البطالة والثورة والثورة المضادة ، وبالتالى الشيوعية والفاشية ثم الحرب العالميةالثانية .

« السنوات » :

وواصلت الكتابة في « السنوات » ، وترى ان القصة طويلة ويجب تقليمها فقد كانت تختلف عن سابق قصصها . كانت تسير بها فى طريق مختلف قد يؤدى الى طريق مسدود. وعاودتها الاحلام المزعجة والاضطرابات الذهنية . وتعود اليها ثقتها بنفسها بعد ان قرا زوجها المخطوط ويستقبل النقاد القصة بالترحيب والثناء .

ثم تصدم مرة اخرى ، ويقتل ابن اختها فانيسا (جوليان) فى اسبانيا واهتز جسمها وعقلها . كان فوت جوليان كموث توبى قبله بثلاثين عاما يشكل تحديا لها وكانت ندا لهذا التحدى .

ونشرت عام ١٩٣٨ « ثلاث جنيهات » وفيها تدافع عن الظلم وعن حقوق المراة ، ولكن حوادث تلك الفترة كانت تدور لا حول حقوق المراة بل حول حقوق الدول .

وتموت ليدى أوتولاين موريل فى ابريل ١٩٣٩ وكاثرين كوكس فى مايو وأم زوجها فى يوليو ١٩٣٩ . وامتلأت شوارع لندن باللاجئين وكان منهم فرويد ، وزارته فيرجينيا واهداها زهرة نرجس !

كانت تقضى معظم وقتها في التجول فى شوارع لندن ، وكانها تقول لها « وداعا » واعلنت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ . وفى مارس كانت قد رفضت الدكتوراه الفخرية من جامعة ليفربول .

قضت معظم وقتها بين عـام ١٩٣٩ وعـام ١٩٤٠ فى منزل ريفى بجوار نهر اوز ، وطافت بذهنها فكرة الانتحار هى وزوجها واعدا لذلك العدة ــ اما عن طريق غاز السـيارة المحترق او باستعمال المورفين . وفى مذكراتها ويومياتها تشير الى زمان ومكان الانتحار من آن لآخر .

وعدلت من وضع منضـدتها ، فقد بدات تعشق مناظر الطبيعة ، حتى تشرف على ربوع انجلترا الخضراء . وسقطت قنبلة بالقرب من المنزل وفجرت شاطىء النهر واندفعت مياه نهر اوز لتغمر الوديان وتسـيل لتصـل الى مشارف حديقة منزلها . وامام المنزل تشكلت وتكونت بحيرة امتلأت بالطيور المائية . وكان هذا مصدرا لسعادتها .

ونسأل متى بدأ الظلام يكتنف حياتها ونجد انه من الصعب أن نحدد لذلك وقتا معينا . ونصل فى يوميات لينارد الى يـوم ١٨ مارس ويسجل أن صـحتها معتلة . وعرضـها على اوكتافيا ، طبيبة من اصدقائه . واخذها الى برايتون وفحصتها اوكتافيا ثم عادا الى رود ميل وارسلت اوكتافيا الى ڤيرچينيا رسـالة تطمئنها ، وفى اليوم التالى اتصلت بهما تلفونيا للاستفسار عن صحتها ولكن الوقت كان قد فات .

فى صباح الجمعة ٢٨ مارس ١٩٤١ خرجت ڤيرچينيا كعادتها الى حجرتها في حديقة المنزل وهناك سطرت رسـالتين واحـدة لزوجهـا والاخرى لاختها فانيسا . وفى الرسالتين تؤكد انها عادت تسمع هذه الاصوات المزعجة ، وانها على ثقة من استحالة شـفائها . وعادت الى المنزل لتكتب رسالة اخرى لزوجها ، ثم انسلت خارج المنزل ومعها عصاها وشقت طريقها عبر الوادى الى شاطىء النهر . كان لينارد يعرف انها حاولت الانتحار غـرقا قبـل ذلك ولهذا نراها قد اعدت العدة هذه المرة لكى لا تفشل محاولتها . وتركت عصاها على شاطىء النهر وحشرت حجرا في جيب معطفها وسعت الى حتفها ، « الى تلك التجربة » وهذا ما قالته لصديقتها فيتا ، « التى لن أصفها » .



من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

(1) Baker, John R., **Race,** Oxford University Press, London, 1974.

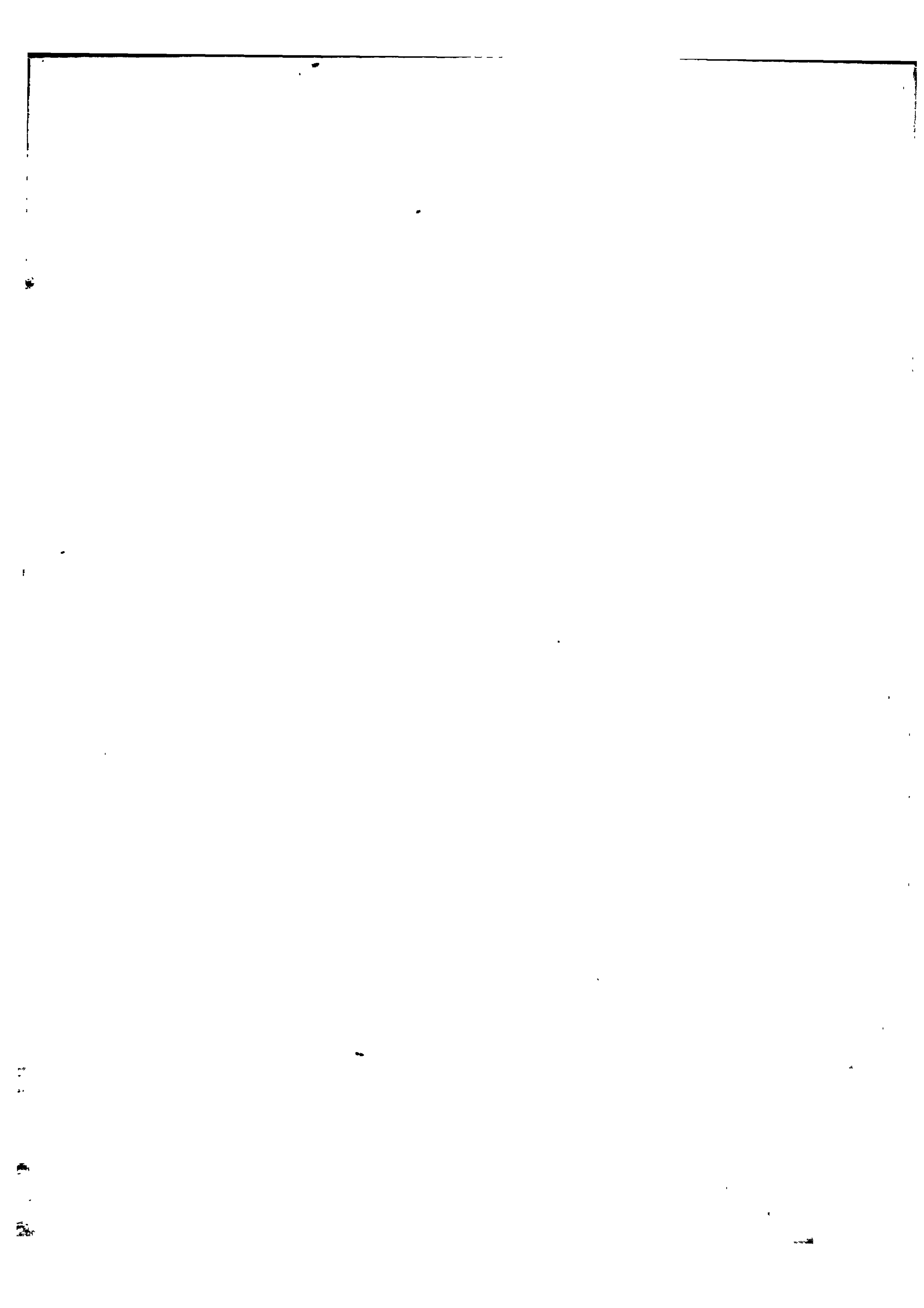
(2) Cavaliero, Glen, **John Cowper Powys : Novelist,** Clarendon Press, Oxford, 1973.

(3) Forge, Anthony, **Primitive Art & Society,** Edit., Oxford University Press, London. 1973.

(4) Iyer, Raghavan N., **The Moral and Political Thought of Mahatma Gandhi,** New York, Oxford University Press, 1973.

(5) Macfarquhar, Roderick, **The Origins of the Cultural Revolution, Contradictions Among the People** 1956 — 1957, Oxford University Press, 1974.

★ ★ ★



العدد التالى من المجلة

العدد الاول المجلد السادس

ابريل مايو يونيه ١٩٧٥
قسم خاص عن الموسيقى
بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليما
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليما
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسا	المغرب	٥	دراهم

مطبعة حكومة الكويت